رواية

أحمد جمعة

# الغانية والبحر

اسم الكتاب : الغانيـــــــــــــة والبحــــــــــــــــر
تــــــــأليف : أحمــــــــــــد جمعـــــــــــــة
إخـــراج فنـــي : هيــــــــــــام فهـــــــــــيم
رقـــم الإيـــداع :
الترقيم الدولي :
الناشـــــــــــر : اســـــكرايب للنشــــــر والتوزيـــــع

002 01005079256 | 002 01140714600
Scribe20199@gmail.com
اسكرايب للنشر والتوزيع
اسكرايب للنشر والتوزيع
جمهورية مصر العربية

موقع المؤلف الإلكتروني:
https://loutespublishing.com

حقـــــوق الطبـــــع والنشـــــر محفوظـــــة ©
لـــــدار اســـــكرايب للنشـــــر والتوزيـــــع

- لا يحــق لأي جهــة طبــع أو نســخ أو بيــع هــذه المــادة بــأي شــكل مــن الأشــكال ومــن يفعــل ذلــك يعــرض نفســه للمســاءلة القانونيــة -

## من "خريف الكرز"* إلى الغانية والبحر...
## إهداء لمدينتي الرمادية المحرق...

* خريف الكرز رواية للمؤلف إحدى أبطالها جوري الصوري.

# "في حياةٍ أخرى لروايةِ
# جوري الصوري الأصلية"

## عن خريف الكرز

كلّ خطيئة فيها بذْرَةٌ من طهارة

أحمد جمعة

# سليمان سفاح البحر

السنة الميلادية 1940-افصل الخريف-البحرين المياه الإقليمية-الوقت ليلٌ حالك-الحالة: طقس سيء...

سَغَبَتْ سفينةُ غوص خشبية للريح... فاحَتْ بأرجائِها رائحةُ دهان زيت حُوت غضيضَة، موجٌ عاتيٌ شقّ صفحةُ الليل الحالِكة في غمرةِ ظلمّة دامِسة، شجَّ ضوءٌ مشعٌ عتمّة الليل فجأة، حين أوْقدَ صالح الزري فتيلَة مصباح الزيت بصَدارةِ المركب الذي شَطرَ البحر إلى نصفينِ بوجهِ ريحٍ مبرِحة، دمغتْ المياه بنتوءاتٍ هائلة، جعلت من البحر سلسلة جبلية، ومن المركب الثملّ بزوبعةٍ شيطانية وكأنهُ غيمة تائِهةٌ طفّت فوق رؤوس جبال الموج. صرخَ صالح الزري في صاحبهِ إدريس ومعهُ عددٌ من بحارةٍ كانوا منتصبين بمقدمةِ السفينة: انتبهوا لسارية الشراع قبل أن تحوّلوا دفتَها ناحيةِ الشمال.

صرخ فيهم بنبرةٍ لم تكن آمرّة، بل فزِعة، ثم أرْدف بصوتٍ أقل حدّة من سابقهِ...

- أخشى أن تنكسر السارية من شدّةِ الرياح المعتوهة.

ضغطُ الأمواج العاتية التي احتدمَتْ فجأة راحت تقذفُ بالمركب من أسفلٍ إلى أعلى، ترقص بهِ، تتلاعب فيه، أشبه ما تكون بجنيةٍ متوَحِشة هدرتْ بدنها وهي ترقصُ بجنونٍ عفريتٍ في غمارة حلبَة خياليةٍ، تلك صورةٌ من قصصٍ أسطورية يجْدرُ أن تُروى في المقاهي على الْسِنَة قصاصين شعبيين مقابل فناجين قهوة مجانية.

زعقَ صالح بصوتٍ مُجلجل، وهو ينزفُ المياه من فوق سطح المركب وقد طغتْ الريح على نبرتهِ، وأخْفتها عن بلوغ مؤخرة المركب.

- خميس الغبي، اكسر الشراع قبل أن يكسرك... إن الريح المعتوهة لا تمزح بالليل، إن كنت لا تعرف أن تكون بحارًا لا تركبَ البحر...

تاهتْ صيْحتهُ في خِضمِ لُجَّة اليَمّ، تنامتْ ريحُ حزيمَة مع عباب البحر وقد جُنَّت عفاريت الليل واليَمّ والغيوم.. قذفتْ بالمركب في متاهةِ المجهول... لا وُجْهةٌ معلومةٌ، لا جهة مُحدَّدة، لا سقفٌ ولا سطح، ضاعَ المركب في محيطٍ ملتبس. أخذت الريحُ تُفْرغ شحنتها من سخطٍ واحتقان بكلّ ما في جوْفِها من غضبٍ مع إطلالةِ فصل الخريف. تأخرتْ رحلة العودّة من الغوص عن موعدها المحدّد بأربعةِ أشهر، بزيادةِ عدّةِ إيامٍ في البحر... رغبة محمومة من ربانها المدعو سليمان الهمام، لمزيدٍ من الفوز بكمية إضافية من اللؤلؤ، وتوقٌ لبشارةٍ خلابة، داناتٍ ساحرات تجلبُ الحظَ لبقيةِ الغواصين والبحارة على ظهر سفينة، جازفت، فجردت كلّ ما حولها من الأهوال وهرعَت تُمشطُ البحر من كلِّ السُفن، بتباينِ أحجامها وأطيافها، فرغَ البحر من المبحرين،

صيادين وغواصين وقناصي الرقيق. كانت نهايةُ هذا الصيف أشبهُ بمقبرةٍ للسفنِ، غير أن ثمة مركبًا ساحَ في الأرجاءِ بغيرِ مبالاةٍ ولا اكتراث بشيءٍ سوى اقتناص الفرص وسلْب اللؤلؤ من أعماقِ المياه، وبيعها بسوقٍ يقدّر جواهر البحر، بأثمانٍ مضاعفة، ليس في الأمرِ جشعٌ بحسبِ خوالج ربان السفينة سليمان الهمام، رجل الأهوال والمُجازفات كمّا شاعَ عنهُ في محيطِ الأوساط البحرية. بقدرِ ما هي مجازفة عمدّت إلى ركوب الموج وتحدي الريح، بأوقاتٍ عصيبة يتجنبُ الجميع حينها خوض غمار هذه العواصف التي تفاجؤك بين فينة وأخرى، وتقلب البحر رأسًا على عقب...

- الرُبان يقول أسرعوا بعكسِ الشراع حتى يتمكن هو من التحكم بالدفَة... إنه غاضبٌ وسيعاقب الكُلّ بحرمانِهم غدًا من الإفطار والغداء.

زعقَ البحار خميس، كان يحتضنُ الصاري الضخم بيدٍ وبيدهِ الأخرى حزمةٍ من الحبالِ قد قبض عليها، ثم استطردَ وقد صفعتهُ على وجههِ موجةٌ خاطفة كادت تطيح به.

- إن كُتِبّ لنا النَّجاة...

خاضَ الرُبان سليمان مرات عدّة مثل هذه المُجازَفة المسعورة كأنه يتحدى غضب الطبيعة، لا يعبأ بالسخطِ الإلهي الذي يرّوعُ البحارة، لا يُصلي ولكن يَجْبرُ الجميع على الصلاة، نُعِتَ بين أهالي حيّهُ بالمُخْتل المُغامر، وقد لُقِبّ بسليمان السفاك، لشدّة إراقتهِ حياة الأحياء البحرية بكلّ ألوانها وأطيافها.

له وجهُ مستطيلٌ، استعارهُ من والدهِ الذي ينتمي لإحدى قرى البلاد النائية، تميّزت ملامحهُ بندبةٍ ناتئةٍ بالقربِ من أنفهِ المعقوف للأسفلِ كمنقارِ طائرٍ مُجوّف، تعلوهُ عينان سوداوان، غائرتان للداخل، تشعان بوميضٍ خائر، كأنهما وهنتا من شدّة التحديق بالأنواءِ الشاسِعة، وهذا ما دئبتا عليه خلال التحليق في آفاق البحر والفضاء، وجههُ الكحلي البشرة، انبرى عن نتوء صغير عند اللحْية، أعانّهُ على التركيز بحثًا عن خرائط البحر وهو يجوله، برَزَ شعرهُ الكثيف نافرًا يتدلى حتى منتصف جبهتهِ، وبدا لونهُ البُنّي وكأنما صَبَغّهُ بدهانٍ أحمر ثم محاهُ مطرٌ أرْعَن. وانْبَثقتْ قامتهُ سامقةٌ نحيفة يقفزُ من خلالِها قفّصهُ الصدري من خلال ثيابهِ وتبرز وجنتاهُ محمومتان كأنهما شعلتي ثقاب منطفئ. كان سليمان الهمام، أو السفاك، وهذه سجيةٌ لاسمهِ وهو يتباهى بهِا أينّما حلّ بين القوم، يبسطُ طلْعتهُ باعتبارهِ سفاك البحار! يا للهول، وكان فوق ذلك يتحدى البحر، ويعتبرهُ نداً له، يقفزُ إليه كعدوٌ ينازلهُ كما في هذه الليلة المظلمة وقد حفتها ريحٌ شديدةٌ الوطيس، وغمرها مطرٌ وبرد زمهرير، شق دربهُ بنهمِ البحار المتمرس، يعرف طريقهُ هو وبحارته الإثني عشر، بين موجٍ باطشٍ، ورياح عاتية، رغبةٌ في إثباتِ سيطرتهُ على البحر بمثلِ هذا الطقس الطائش، يتملكهُ طمعٌ في احتكارِ رقعة سوق اللؤلؤ بهذا الوقت العصيب من نهايةِ الصيف ومطلع الخريف، حيث يجْبنُ كثيرٌ من الغواصين على الاستمرارِ برحلةِ الغوص، خشية الأهوال التي يُخلفها البحر.

# صالح الزري

1940-الفصل الخريف-المكان-سفينة الغوص ريحانة-الحالة-هدوء نسبي

وُلِد طفلٌ انْزلّق من مشيمّة خديجة الفرض وقد تنَبأتْ لهُ نساءُ الحي بموّلُدٍ يجمعُ في قسماتهِ، بين بشاعةِ أبٍ غير مرئي... طغتْ شهرتهُ الحي، لم يرهُ أحدٌ! وبين وسامة أم تَغنَى بها الجيران والسكان لفتنتِها التي لا تُقاوَم، جعلّها بؤرة اهتمام رجالٍ شبقين، ومحطَ حديث نساءٍ اشتعلنّ حَسَدًا منها، بعضهنّ توَجَّسنَ على أزواجِهن لغيابِ الرجال عنهن ما أوْقَد في صدورِهنَ غَيْرة ضارية... خرج للدنيا من بيتٍ صغير حقير في زاويةٍ معزُولة من طرفِ الحي، بمُحاذاةِ مقبرةٍ، تقابلها محرقةٌ للنفايات ولجُثث القططِ والكلاب نافقة... دأبتْ عربات البلدية على التخلص منها بالحرقِ، لتفوح منها روائحُ عفِنة مختلطة بدخانٍ رمادي يشكلّ سحابة ملوَنة بالكآبةِ تغطى سماء المدينة كلها.

لم يكن مع خديجة الفرض وهي تعاني المَخاض من يسندها أو يتَكفَّل بتحضيرِ وضعها للولادة، وحين فاجأها الطلق لم تجد سوى عقلًها الفَطن الذي اعتادَ سماع الأخبار والأنباء حوْل حالات الولادة، ليسْعفُها في توضيبِ نفسها عند اِنزلاقِ الكائن الصغير... وحيدةٌ دون رعاية أحد، ظلّت عيناها معطلتين عن النظر لأسفلِ حوْضها وهي تُكابد الطلق، مسجية على سجادةٍ تركية قديمة أسْفلها سجاد كبير من سَّعف النخيل اليابس بعرضِ فِناء الغرفة الوحيدة بالدار... سالّ من حوْضِها ماء ساخن لزج، أدركتْ على أثرهِ أن ثمة قطعةَ لحم طرية توشكُ أن تنزلق منها.

جمدّتْ نظرتها على كتْلة اللحم ولم تشعر بألمٍ من شدّة الألم ذاتهُ، فحدّة الألم تنسيك الألم نفسه، ومن دهشتِها وهي ترْمق مخلوقًا يتزحلق بتؤدةٍ ويظلّ معلقًا بحبلّ السرّة... فرَطَ لسانها يهذي...

- يا إله السماء أرشدني ماذا أفعل؟

❁❁❁

# المكان-السفينة ريحانة-الوقت-فجرًا

انبَلجَ صوتٌ ناعسٌ أطلق أذان الفجر مع أول خيط شحيح لشمسِ الخريف الفاتِرة... خيوطٌ ذهبية رقيقة تنبعثُ خجِلة من طبقةِ الفضاء تشهد على مخاض الشمس... اعْتَلى المؤذن شرفة علوية بحافةِ السفينة عند المقدمة، راحَ يتممّ أذان الفجر... حينها انتفضَ بعضُ الغاصة منتصبين، مُتَثائبين، ينفضون عنهم وهنّ الليل الراسخ بأجسادِهم النحيلة كأعواد خشبٍ يابسةٍ ذوّت من شدَةِ تجرعهم ملح البحر المَسجور... يشقون بَطْنَ النار ويسبحون وسط حمّم لجة، بينهم صالح الزري وقد قطنّ قعرّ اللجّة، يتغذى طيلة الوقت على الماء والتمر والهواء... وفي الليل البهيم يتسلّلُ بهدوءٍ وسرية حين يغطُ الجميع في سباتٍ، يلقي بصنارتهِ إلى البحرِ، يستهويهِ صيد الأسماك، بعد أن يلوذ البحارة أسفل بطانياتهم وقد أهلكهم غوصٌ متلاحق، وعمل دائبٌ طيلة النهار...

# صالح الزري-زوج جوري

يواظبَ على مماطلّةِ الوقت، يسرِق النوم من عينيه ليسْتجمعَ شَتاتُ ذهنه بعيداً عن اليابسة... يطرحُ صنارته في البحر حين يغفو الجميع، يكتّم أنفاسهُ في الظلام محدثاً زفراتٍ مصحوبة بصوتِ ضوْضاء الموج، ذهنهُ المُتقد يسرح نحو تُخوم منزلهِ الصغير، إلى فتاتهِ جوري المعجونة والمسحورة بالفِتنة، يتخيّل حالها طوال فترة غيابهِ مع والدتهُ رقية الكفيفة العابرة هامش رنين الزمن، تسير حافيةً على بلاط السنين تحمل جبل الدنيا على ظهرها المقوّس، يمشق في حلمهِ بالدانة تُزيّن صدر زوجتهِ جوري... يصعدُ سلّم السماء لينتزع نفسه من هاوية الفَقْر... يستيقظُ على وقعِ صوت أذان الفجر، يصحو من حلمهِ ويؤجل التفكير في حسنائهِ حتى المساء التالي، ليبدأ رحلةِ في أعماق البحر، ينزلق بالغَوْص والانحدار إلى قاع اللُجة المُدَلْهم وكأنه يتزحلق إلى وادٍ سحيق من أشجارٍ وحقول وغابات وأنهار في قعرِ البحر. كان عاشقًا متيمًا بالثلج، فمنذُ أن سَمَعَ عن وجود ما يُسمى "برف" وهي كلمة يتداولها السكان ويُقْصَد بها الثلج الذي عُرِفَ لأول مرّة بالمدينة، حتى راح يُطاردُ تلك الكلمة إلى أن تذوّقَ كأس الماء البارد بمُستهلِ حياتهِ ولم يغبْ عن

بالهِ بعد ذلك الثلج... تحوّلتْ حياته إلى حلم بالزواج وأن يكون أحد الأشياء التي يقدمها لزوجتهِ كهدية هو البرف (الثلج).

يختفي وجههُ تحت الماء أغلب ساعات النهار، وجهٌ بنفسجي في النهار ورماديٌ بالليل، يعلوهُ شحوبٌ صغير يخفي سِنَهُ البالغ عشرون عاماً أو أقل، شعرهُ الناعم محلوق، عيناهُ جاحظتان عند المغيب، وروحه خفيفة أشبه بحفيفِ احْتِكاك الشجر، يرنو بنغمٍ تحت الماء لأكبر حفنة من المحار، يلهو مع الحظّ والمخاطر، عرفَ كيف يدنو من شقّ البحر باحثًا عن لؤلؤةٍ سرية يخفيها عن سيد البحر سليمان السفاح، لتكون من نصيبهِ، يعودُ بها لتُزيّنَ صدرها الناصع البياض كحليب الماعز... أهمَلها بالدار مع عمياء منذ أربعة شهور.

"يا عشقي البعيد، أرنو اليكِ يا ملكتي، بداخلي ولهٌ وعطشٌ، لا يطفئهُ سوى حديثي وثرثرتي وترهاتي الأزلية مع صديقي الأوحد الصدوق إدريس، وحدهُ من يحتمل قصصي وحكاياتي المشوّقة عنكِ، أرويها له بكلّ التفاصيل المملّة! واعذريني يا معشوقتي إن فضحتُ أسرارنا... فعزلتي مع البحر بأبعادهِ اللامحدودة والسماء اللامتناهية فوقي، يعزيني ذلك كلهُ عن فراقك"

خاطب نفسه وهو يسْتعد لبدءِ وجبتهِ الصباحية مع الغوص.

ظلّ يميل لِلتَغني في سريرتهِ عن مشاعرهِ المحبوسة، ليُهَدِأ من فيضِ وَلَهِهُ لامرأته، يتغنى بموالٍ شجي في أعماقه يطفئ جمرة الفراق، ينسى وطأة

حرمان الجسد، سيطول الانتظار لكنه عائد "والعَوْد أحمد" كما يقول البحارة...

**"العَوْد جوري"...**

"تركتُ امرأتي بالديار، وجئتُ وفي ذهني أن أحظى بلؤلؤةِ الرُبان واخفائها حتى موعد العودَة، لقد وعدتُ جوري بألا أعود إلا ومعي تلك الجوْهرة الثمينة لتعلِقها على صدرها الذي طالمّا احتضنني بدفئهِ ونبضهِ والذي يخفق بالوّله والشغف وقد أحسّستهُ من خلال زفراتها وتنهداتها الشبقة وهي تمتصّ رحيقي بكلّ عنفوانها... جوري التي غبْتُ عنها طوال الشهور المنصرمة، هي والبحر وأفكاري، وتفاصيل حياتي كلها، أرويها إلى رفيق البحر ومساعدي على السطح "السيب" إدريس الملا الذي مصيري بين يديهِ طالما أنا بالأعماق، فهو الذي يصعدُ بيّ الى سطحِ البحر وهو الذي ينتظر مني هزَّ الحَبل لينتشلني من قعرِ اليَمّ، وهو بالأول والأخير... حياتي بين يديه الخشنتين الشديدتي الصلابة، إدريس الملا يأتي بعد امرأتي جوري بالحبِّ والوفاء والصداقة"

جلس يتأمَّل في الدجى نجمة مشعة بحجمٍ هائل برزتْ في كبدِ السماء تهدهد مشاعره للديار، تذكرهُ بوعدهِ الذي لم يتمّ بعد في اصطياد دانة البحر واخفائها... تأمل النجمة وبحثّ في دهاليز عقله عن طريقة يخفي بها محارهُ الذي يلتقطهُ ويفلقه بعيدًا عن عيون بقية البحارة، تأمَّل مزيدًا من طيفِ النجمة الناري لتحتدم في داخله الشهوة المعلقة في صارية شغفه لجوري

التي طال انتظاره لها طوال الموسم، لا يطفئهُ سوى خيالٌ سحيق يعبر معهُ بسريةٍ داخل قعّرَ السفينة يتخيّل جسّدها وتضاريسه وذكرياته معها، يداعب نفّسه في قاع الليل عندما يغيب الجميع في سباتٍ عميق، يعبّر الزمن المُمْتدّ من بدايةِ الصيف حتى بداية الخريف في رحلةِ الجحيم (كأنهم أعجاز نخلٍ منقعرٍ)... اشْتَق التعبير من أحد البحارة والذي دّيْدن على قراءة السور القرآنية قبل الغطس.

# جوري

السنة 1940-جوري زوجة صالح الزري-المكان-مدينة المحرق-منزل صغير على التلة.

جوري اسمٌ مُفْرَّد، وُلِدّت وتربّت وعاشت من فراغٍ، لا تذكّر أبًا أو أمًا أو أسرةً، انْزلقّت من رحم الدنيا، تتمايل كنسمةِ هواء تَتنفَّس مع خيوط الضوء الصفراء المشبَعَة بهواءٍ ساخن محمّلٌ بغبارٍ وكائناتٍ صغيرة في الهواء، كريشة وحيدّة متيمّة تهيمّ على وجهها التعب، تماثل طير سمّان تائه ينعى متاهته، هامّ على وجههِ وضلّ عن سربهِ عند المغيب، حطّ على إحدى مراكب العالم الوافدة من شرق المتوسط لجهة الخليج. رقَصتْ تلك الريشة الضالّة بخفةٍ على خيوط ضياء المساء الغامق تقاوم الهبوط على الأرض، ظلّتْ تسابق ريح الشمال، بلحظةٍ ساكنة بالصمتِ. انْسلّت جوري تساجل خطواتها على منحدرٍ رملي تكتنفهُ الحجارة، ويعمهُ غبارٌ رمادي كلون السماء .

طَفَقتْ جوري بقدميها الصغيرتين تدبَّ وقعها على الأرض، صبية يافعة تضاهي السادِسة عشرَ عمرًا، بشرتُها اللبنية اللون تبرز طراوة جسدها، قوامها المتناسق الطول ينحى إلى النحافة، مكْتنِزة الردفين والفخذين، ذات ساقين

سامقتين، ونهدين صغيرين نافرين وعينين واسعتين رماديتين تذْكو بنكهةِ البحر، تسير على إيقاع ضوء مساء... مشعةٌ ببقايا شمس استسلمتْ للأُفولِ، ريشة منفلتة في فضاءٍ يداعبها تيار ساخن، قادمٌ من ساحل البحر جنوب المحرق... تُحلِي معِصَمَها طوال الوقت بخيطٍ بني اللون من فتلِ الحِبال، لم تَجبْ على كلِّ من سَألها عنهُ، كانت متفائلة، دون سبَّب.

جوري، بلا كِنْية ولا أُسرّة إلا من أم زوج عمياء، تلاحقها بالشكّ، تقطع عليها التفكير في كلِّ شيءٍ لأجلّ التركيز على عودّة زوجها صالح الزري الغائب منذ شهور عدّة في رحلة غوص سنوية، يغدقُ عليهما زمن الفقر والمجاعة حسرةٌ ونحسٌ يلاحقهما بلا أدنى مكسب من رحلةٍ طويلة شاقة بالغوص، سوى فراقٌ وضياعٌ، وعوزٌ يلاحقهما قبل رحلة الغوص واثنائها وبعدها... زوجٌ غائب وأمٌ للزوج لا تبارحُ مطرحها، إلا وقت التَنكُّر والتنصّت على الفتاة التي تشكّ بولائها لابنها صالح.

اعتادّت قطع طريق الدار تسابق ظلّها وتطير عاليًا في دوائرٍ حلزونية تذوبّ ذرات في هواءٍ ساخنٍ، تسبحُ معها ضفائرُها البنِية اللون، بدتْ وهي تطير يعتريها جزءٌ انْعكسَ على خطواتِها، لا أثر لبشرٍ، لا إنس، لا جن إلا من بضعةِ عصافيرَ صغيرة كالحة اللون تسبحُ في الفضاء، يقتحمها طائر خطاف رشيق، يُحلق في خيلاء عن بقية العصافير، كانت تطير مع هذه الطيور، غير عابئة، بصفيرِ الريح وهي تختلطُ بصرير بابٍ خشبي عتيق دلفَتْ منهُ لتواجه

امرأة صدِئة اسْتقبلتها بفظاظةٍ وهي تغلق الباب خلفها، تبعتها الفتاة وقد نزَعتْ جناحيها وحطَّت على الأرض...

"بداخلي كائنٌ جِنْي مَسَخني في جسدِ جنية أخرى انْدلق منه شعوري بأني امرأة ناقصة، كلّ شيء بداخلي يتوقُ للمضاجعةِ الشرجية، وُلِدتُ في الجسد الخاطئ، أظُنّ ذلك... زوجي صالح، تاج رأسي البعيد... كلّ العروش الدنيوية زائلة إلا عرش الحبّ لو وُجد، يكفي ما سمعتُ، انْتَهيت... واعذرني على خطيئة ليست بيدي ولا ملكي ولا مفرٌ... لك أمٌ هي في ذمتي، لابد أن تأكل وتشرب وتتداوى، ولكن من يعلم بالأسرار؟!

❁❁❁

# إدريس الملا

## 1940-المكان-مدينة المحرق-صديق الطفولة والبحر لصالح الزري

انْحَدرَ من أسرّةٍ بحريّة أبًا عن جدّ... وُلِدّ من قاع مدينة رمادية، المُحّرق، بالتزامن مع موّلد جاره صالح الزري... انزلقا من حيٍّ واحد ضيق، تفوحُ منهُ رائحة الأسماك والبحر وزيوت السُفن الخشبية، اسْتمدَّ بشرتهِ من لون شمس الصيف اللاهبة، وملح البحر الذائب، لا يختلف عن صاحبه ورفيق طفولتهِ وصباه صالح من حيث لون البشرة ونّبْرة الصوت وهدوء البال، إلا في شيءٍ واحد يتباينان فيهِ وهو النزْعة للمغامرة. ذو بنية جسدية هزيلة دون أن يترك ذلك تأثيرًا على أدائهِ القوي، مُعتدل القامة، رحب العينين، له رأسٌ مُدوّر وجبهة عريضة، وأنف منحني للأسفل قليلًا، لا يقلِّل من بريقِ ملامحه المريحة... كان إدريس تواقًا للحذر، يحتاطُ للمخاطر، نقيض صاحبه صالح المتلهف للمجازفةِ والتجاسر، ولعلّ ذلك ما دفعهُ لركوبِ البحر والعمل على سطحِ المركب كمساعدٍ للغواص يجرهُ من البحر، حين يذرأ الآخر بالغوص في أعماقِ البحر، تسوقهُ أحلامهُ العريضةُ بالحصولِ على اللؤلؤة الدانة، ولم تكن هذه الجوْهرةُ بأي حالٍ على بال إدريس، إلا حين رآها تلمعُ بيدِ الأول!

تربى إدريس بمنزلِ خالهُ بعد أن تركتهُ والدتهُ ورحلتْ بسنواتهِ الأولى، وقبلها رحلّ والدهُ مصابًا بوباءٍ غامض حصدَ ثلث البحارة والغاصة مطلع القرن العشرين، حين انتشر ذلك الوباء بين كلّ من ركّب البحر، شهدتْ تلك السنين مجاعةٌ وموتٌ، وتعدّدت المقابر، ما جعل الطفل الذي تربى في ظلّ هذه الأجواء يبتلعهُ الخوف والجزع من موتٍ مؤكد، بعكسِ صالح الذي لم يبالِ بكلّ ما كان يسمع ويشاهد في تلك الحقبة الرمادية التي تغيّرت فيها مشاعر السكان بين خوفٍ ولامبالاة، وبين كرم وبخل، حبٌ وكراهية. انخرط في أتون تلك الفوضى من مشاعر متباينة، ورغم ما تَلّبَسهُ من تلك المشاعر المتفاوتة التي اجتاحت الجميع، لكنهُ ظلّ على عهدهِ ووفائهِ لصديقهِ صالح... تعلقَ به ورافقه وأمضى أيامه، ليلهُ ونهارهُ برفقتهِ، صيفًا وخريفًا، شتاء وربيعًا، في البحر وعلى اليابِسة، كانا برفقة بعضهما في السوق وعلى المقاهي وعند السواحل، لصيد الأسماك، والتجوّل بالأحياء... وأخيرًا برحلّة الغوص الثانية التي رافقهُ خلالها على مركب سليمان الهمام.

لفَّهُ الحديث مع صالح الزري بكلّ شيء يهجس ببالهما، لكنهُ بقي هو في الغالبِ المُنْصت الدائم لروايات صاحبه، عن البحر والمشاعر والأحلام، تَطَرَّق صالح معه بأدقِ التفاصيل عن حياتهِ وأسراره حتى بلغَ به المدى حدًا أن رَوَى لهُ مشاعرهُ تجاه زوجتهِ جوري وما يكنهُ لها من شغفٍ وحبّ بلغ الجنون... كان إدريس يُصْغي خاصة لكلّ التفاصيل الدقيقة المتعلقة بجوري، لم يكن متزوجًا ولم يرتبط بامرأةٍ، فكان يشعر بما يُشْبهُ الغيّرة من

صاحبه الشَغِف بزوجتهِ، وزاد تعلقهُ بامرأة صديقه حتى كادَ أن يحفظ كلّ شيء يتعلق بها...

يتذكّر إدريس وجهَ جوري فطالمّا كان يُشاهدها حين يطرقُ الباب وينتظر خروج صالح، كانت في الغالبِ تقبعُ في فناءِ الدار ويُحدق بها حين الولوج، كما كان يرى والدة صالح رقية العمياء، وما زال يَذكّر ذلك النهار الغائم من شتاءِ العام المنصرم حين حملّ معهُ سلَة فاكهة من البحر مُحملّة بالأسماك المختلفة، كما يذكّر حديث صاحبهِ عنها يوم رَوَى له ليلة عودتهِ من الغوص وقد تَزَيّنتْ له بعقدٍ من وردٍ محمدي، وقال له منذ يومها...

- عهد عليّ إدريس أن أعود لها من رحلةِ الغوص التالية بلؤلؤة دانة تعلقها مع عقد الورد على صدرها اللؤلؤي الذي يسَتحقُ تلك الدانة...

قال ذلك وبعدها بشهور عندما أزفَ الصيف... أبحرا معًا على ظهرِ السفينة ريحانة برفقةِ الربان سليمان الهمام، سفاح البحر... وبينهما رهانٌ على صيد لؤلؤة جوري...

۞۞۞

# رقية العمياء

1940-المكان-مدينة المحرق-منزل التلة-والدة صالح بالتبني

وُلدِتْ عمياء بجزيرةٍ صغيرة، من جُزرِ المحرق، ظلَّتْ معزولةً، حالَها حال الرُّقعة الجغرافية المحبوسَة تُشبه معها أَخَدُود شكَّلتهُ مياه البحر، فتحوَّل لمنطقةٍ تدعى الحالة... تَرَّعرعتْ هناك بكَنَفِ أم ترعى الماعز، وأب أعمى ورَثتْ منه العمى، لم يَعوقَه فقدانه للبصر من خروجهِ للبحرِ وجمع الأسماك من الأقفاص والشِباك... شَبَّت الطفلة الكفيفة في منزلٍ كلمّا فاضَ البحر، غَمرتْ المياه فيه الدار، فألِفتْ هذه الحياة وظلَّ شغلها الشغال رعاية المنزل بعد أن فقدت الأمَّل في مجيئِ الزوج. لم تكن ذات طَّلْعة تُغري الرجل، فقد ابْتلتْ في طفولتها بمرضِ الجدّري وخَلفَ آثارهُ عليها، وكانت بشرتها سمراء، وقد أصابتها شمس الصيف ككلٍّ عام فألهَبتها وجعلتها داكنة، لم تعد تأمَّل بالزواجِ وفقدتْ طعم الحياة عندها فاكْتفتْ برعايةِ الأم والأب حتى توفيا ولم تعد بحاجةٍ للدارِ التي تَغمرُها مياه البحر كلّ شهر، فارْتحلَتْ إلى ساحلِ المدينة الجنوبي وعاشتْ في كنَفِ شقيقة لها حتى الْتقتْ خلالها بمن تُعتَبر والدة صالح الزري الذي كان بحُضنِ امرأة توَفَّت بعد أقل من سنة لولادتِها به فاحْتضَنتهُ رقية وتربى في كنفها حتى شبَّ ولم يعرف أمًا غيرها.

انتَهى بها المطافُ لتعيش الحياة في ظلْمةٍ وفَقرٍ وعَوَز، وما ظلَّ إلا هذا المنزل الصغير، ورثَتهُ بعد وفاة شقيقتها وكانت آخرُ خيط يربطها بالعائلة، ظلَّتْ طريحة الفراشِ لفترةٍ طويلة، تشعرت ببرودة الأرض تقرصها رغم الدثار أسفلها، يرنو إلى سمعِها صوت الرياح الخفيفة في الخارج تنبئ عن تغييرٍ في الطقس، عُرِفتْ في الحي والأحياء المجاورة برقية العمياء المُسِنَّة، التي لا تكفُ ساعة عن إزالة براز طيور الحمام والذي تسبّبَ في تقَوسِ ظهرها.

"أعطيني سبباً يبدّدُ دهشتي من إهدارِ رأسك على الأرض كلّ يوم لأجل حمامات عاهِرة لا يَنْفَكن يَتبرَّزن على الأرض.

كانت تلك حجَّة جوري زوجة ابنها صالح وهي تسْتنكِر عليها القيام بهذه المهمة... تنبَهتْ رقية، ذات الستين عاماً أو أكثر لخطواتِ جوري الدائمة وهي تتحرك في فِناء وداخلِ الدار، قبل أن تسمعها، فهي معتادة على مناكفتِها طوال الوقت، عاشتْ معها مُتَحمِّلَة صوتها، ووجهها البني المُلبّد بخيوطِ الزمن كاشفاً عن تجاعيد تفضْح امتداد العمر بها، ودلالات التعب والإنْهاك الذي واجهتهُ في حياتِها المدِّيدة، وقفتْ الفتاة عند قدمي رقية التي انْثَنى ظهرها على الأرض وكأنها سَتسْقط عليها واسْتكْملتْ جوري عبارتها التي قطعتها للتو فيمّا اكْتفتْ الأخرى بصمتٍ مُتأرجح.

"تعبتُ وأنا الحَ على ولدكِ الغائب حين يعود أن يَسّمَم هذه الطيور الحقيرة لكنه تذرع بأن الله خلق الحمام ليَتَبرزْن على رؤوسنا وله في ذلك حكمة.

بينمّا همَّتْ المرأة المسِنّة على النهوض وهي مشدّودة بصعوبةٍ للأسفل، بادَرتْ جوري تمسك بيدها لترفعها عن الأرض.

" لا تشغلي عقلك بالحمام وتهيئي لعوْدَّة زوجُك الذي كِدْتُ أخاف أن تُمْحى صورتهُ من رأسي بالشهور الفائِتة ثَنيَّتْ من شعراتي البيضاء وفَطَرتْ قلبي، كم شهر قضى وها هو الحَرُّ والشمس والغُبار والرطوبة تلتهمُ جسدي، وما زال ابني غائباً.

# صالح وجوري وإدريس ورقية...

أربعةُ وجوهٌ... أربعةُ أنْفُس حيّة تستَنشَق ذات الهوى... ذات الهواء... جَمعتهُم اليابِسَة، وغَربَّهُم البحر، لمْلَمتهُم عاطفةٌ جياشَة مسْكونَة بفراقٍ وغربةٍ وعزلَة، بحرٌ وأرضٌ وسماء...

صالح الزري يحلم بلؤلؤةٍ، يطمحُ منها للتغيير والخروج من هاويةِ الفقْر... يسعى بنهمٍ وقد أخذ منهُ الغِياب العُمر، وعالمه... يسبح في محيطين لا ثالث لهما، بحرٌ وسماء...

جوري تشْقَى وحيدةٌ، تنقبُ بكدٍ عن لقمةِ عيشٍ تسدُ بها رمَّقُ الجوع لها ولعجوزٍ عمياء تقوم برعايتِها، تلعبُ من وراءِ الستار، تغوصُ في الهاوية، تخْتفي في الضبابِ حتى ينقشعُ فتنْجلي الصورة كاملة...

إدريس الملا ينْصتُ للصديقِ الوفي صالح، يحتضنُّ أسرارهُ يطوّق آلامهُ ويمْتصَّ عذاب الغُرْبة من محيطِ البحر، يُصْغي لرواياتهِ المثيرّة ويحفظُ له السرائر الدفينَة في الأعماقِ، يشتاق لتفاصيل علاقته بجوري...

رقية العمياء، صَلْصال بَشَريّ، إكليل يُطوّق سماءها، عذراء من رَّحمِ الولادة إلى قبرِ فِناء الدار، جاءتْ ومضتْ ولم تترك أثرًا سوى ملَكوتِ الربَّ الذي لم يُعْرفْ لماذا خلَقَها ولأجلِ أيِ امتحان أرادها؟ كانت أيْقونَةُ البحر

والحي والمكان والزمان، فمنذ أن جاءتْ إلى الحياةِ حتى غادرتْ... ظلَّتْ ذات الأيقونة بأكاليلِ موتٍ مُدْهِش، لا معنى له...

بدأت رواية الوجوه الأربعة للتوِ...

# 1

1941-المكان مدينة المحرق-جسر الشيخ حمد-الوقت-ليل-الحالة-عناقيدُ الخلاص

ليلٌ شتائيٌ بارد، تراصَتْ خلالهُ في طوْقٍ مراكبٍ وقوارب عديدة على طولِ مرسَى السُفن بجنوبيِ ساحلِ المحرق، قربَ بوابة جسر الشيخ حمد الفاصل بين مدينتي المحرق والمنامة، وهو الجسر الحديث الذي اِفْتُتِحَ قبل شهر، ولكن كان يَعْملُ منذ شهور عدّة، كانت هناك رقْعَةٌ اسْمَنتِية مُرتفِعة عند مدخل الجسر، تُضيئُها مصابيحُ حادَّة ربمّا مُسْتمَدَّة من كهرباءٍ أو زيت، ينْحِدرُ الجسر بعد رصيف تُضيئهُ هو الآخر مصابيح تُرْشد السُفن بعد أن يُفتَح الجَسر لمدَّةِ ساعة لعبورِ السفن ثم يُغلَق لعبورِ السيارات التي تَدفَع ضريبة عبور بين المدينتين من خلالِ مبنىً صغير يتولى ويُديرَ حركة الجسر... وعلى طرفٍ مُنحَدِر بعيدٌ عن العيون أسفل مرسَى السُفن، كان ضوءُ منارةٌ بحرية يُضيء المُحيط ويُضفي روْنقًا على مياهِ الموجِ عندما يرْتطِم بسياجٍ حَجري على امتدادِ حدود الجسر من الأسفل بمحاذاةِ المياه.

"كنتُ آتي إلى هنا، قبل سنوات للقياكَ تقي، كلمّا ضاقَتْ بيّ الدنيا وطوَّقني الحزن، تُحيطُني بعبِاراتُك الرقيقة التي رغم معرفتي بها مُجرد

مواساةٌ تُجبِر بها خاطِري لكني أتنفسُ من خلالِها نفْحةَ شعورٍ بالرضا من نفسي وعليها رغم ضيق العالم حولي، كنتَ تمْتَص شجني وتداوي جُرحي، تقي، كلمّا نَزفَ وأعرفُ أنه مقابلَ ذلك تَستغلني ولكنك كنتَ محبَّبًا إلى قلبي، لم اسْتغِلُكَ، رغم ثراء عائلتُك الفاحش، ولم انْتهِزكَ رغم تودُّدكَ لي، كنتُ أكتفي ببضعِ روبيات تدفِنُها في جيبي ثم تمضي باقتناصِ حصتُك من جسدي، ظلَّلتُ معك شهورًا منذ اِفتتحَ هذا الجسر، فكنتَ تعبرهُ وتتحدى الليل والمطر والشمس، لتأخذَ نصيبُك مني، ثم رَحلتَ للأبد بدواعي الدراسة في الخارج... تقي المُرجاني، تذَكَّرتُكَ اليوم بالذاتِ حين ضاقَ بيّ الكوْنُ وطفَقتْ روحي تبحثُ عن نسمةِ هواء نقية عابِرَة، أو بلْسمٍ يمْسحُ الجرح... جُرحي عميقٌ تقي، وحزني على زوجي ومتاهتي مع زوجٌ آخر طرأَ في الوقت الضائع الذي لا أعرفُ فيه ما أريد... قلبي مُغلق مثل باب خزانة من حديد، لا أعرفُ السبَّب! لا أفهم الشعور، الزوجُ الأول أكْرمني ولكن لم ينقذني من الجوع وما أزالُ أتذوْقُ طعم الذُلَّ في فمي... لم أشعر بذلك معك تقي؟ هل لأنني احببتُك رغم استغلالك لي؟ هناك خطأ ما في خَلْقِيّ، حين كونني الله على شاكِلَةُ البشر، نزعَ مني شيئًا لا أعرف ما هو وقذفَ بيّ بينهم، بدون دَفَّة توَجهني، وهكذا سارتْ بيّ الحياة... ماذا أفعلُ هنا بهذا الوقت من الليل، الذي خَيَّم فيه الظلام؟ ماذا سأقول لإدريس؟ أين كنت؟ هل أعودُ إليه بعدما غَدرَ بزوجي الأول لينالني هو؟ هل أُلْقِي بنفسِي من فوق هذا الجسر وأبصرُ حياة أخرى من وراء هذا العالم؟"

تقَدمتْ خطواتٌ من حافَة المصطبَة المُؤدِية لحدودِ سياج الجسر المُطلَّة على قعرِ دوامَةٌ عاتية من المياهِ العميقة، تَعبرُ من خلالِها السُفن الكبيرة، كان الموج ثائرًا وقد انْعكستْ عليه أضواء المصابيح، وعلى مسافةٍ في البحر، تراءتْ أضواء منارةٍ بحرية تُوْمضُ بين فترة وأخرى... انْتصبتْ جوري وهي ترتدي عباءتها على كتفِها، وراحتْ نسمات هواءُ باردة تداعبُ ضفائِرها المُسَرحَة على كتفيها، كان الهواء نشِطاً، وقد توَرَّد وجهها واحْمَرَّتْ بَشْرتُها وبدا أنفها يسِيلُ دون أن تشعر بلَسْعةِ الطقس الذي بلغ حدًا ضروسًا، كان هذا الوقت من هذه السنةُ بالذاتِ قد شهد طقسًا مجنونًا بحدِ وصف البحارة وأصحابُ السُفن الذين توقفوا عن الصيد، وظلّوا يتدبرونَ أسماكًا مُملَّحة ومُجفَّفة، اسْتبقوها منذ موسم الصيف والخريف تحسبًا لمثلِ هذه الأجواء المُبْرِّحَة.

"رنينُ أجراسٍ وقرعُ طبول في أذنيّ، لا أشعرُ بالبردِ ولا بالخوفِ، أشعر بالضياع، لقد تهْتُ منذ زمنٍ طويلٍ، ليتني أعرفُ ما أبتَغي، لو كنت فحَسبْ أشعرُ بالرضا من إدريس، لو كنتُ أحسَّستُ بالقناعةِ من صالح، لكنهُ رحلَ وتركني بجُرحٍ وذنبٍ، لو علمتُ بأنه سَيرحَل لأسْعدتهُ، من يعلم بالغيب؟ أنا مخلوقةٌ دخيلة، كئيبة، لا أفهمُ ذاتي ولا أدرك ما الذي أوصلني لهذا الحدِّ من الضياع، مثل ريشةٌ في الهواءِ في كلِّ ومضة بمكانٍ، حتى تسْتقر أخيرًا في بحرٍ أو حفرةٍ، أو تُسحق تحت أقدامٍ مجهولة، ما زلتُ أطير وأظنّ أنني أقفُ الآن عند مُنعطف القرار، لو ألْقيْتُ بنفسي من فوقِ هذا الجسر، لن

يشعر أحدٌ بيّ، ربما دمعة عابِرَة من أحدِ البؤساء مثلي... رنينٌ يصُمّ أذنيّ وضباب يغشاني، لا أرى اللحظة سوى البحر والضوء وصوت الموج، وثمَة أشباحُ معدودة تتحركُ من مسافةٍ، خروجي من البيت الذي لا أمْلكهُ، مثلَ خروجي من الدنيا برُمتِها، كيف خلق الله أمثالنا؟ لماذا أرْهقَ ذاته بأمثالِنا؟"

انطلقتْ فجأة صافرة إغلاق الجسر أمام السُفن، وإعلان فتحهُ لمرورِ السيارات، انْتفضَتْ متفاجِئة، يكادُ ألا توجَد سيارات، وهي محدودة العدد، ولا تكاد تزيد عن أصابعِ اليد الواحدة بهذا الوقت من المساء. زادَ البرد مع هبوب رياحٍ شمالية، وتَدفق الموج أكثر حدّة أسفل الجسر، وراحَ يرتَطم بالسياج... تنهَدتْ جوري وأمْسكتْ بيدها طرف عباءتَها التي حركها الهواء، وظلَّت جامِدة في مكانِها... بدأ قلبها يخْفقُ وهي تتأمَّل سطحَ البحر الهائج، ثم تحوَّلَ نظرها للبعيد لترى بعض أشباح بشريه تسيرُ بقربِ مرفأ السُفن، تسَاءلتْ في داخلِها ما إذا لمحَها بعضهم، أقْسمتْ في سريرتها لو تجرأ ودنا منها أيٌ من هؤلاء ستَرمي بنفسِها في البحر، لا تحتاج إلا لخطوةٍ وتفعلها، لقد جاءتْ إلى المكان لتتَذكَّر لقائها بتقي قبل زواجها من صالح، وبعدها ظلَّتْ تأتي مع صالح لتغسل روحها من شوائبِ الزمن، وتذَكّر الماضي وهي بحجَّة مرافقته، أما هذه اللحظة فأنها تُحدقُ للموج وهو يُدغْدغُ مشاعرها ويثير فيها زوبعةً من الأفكار.

"ليتكِ جوري لم تُولدي ولم تشْهَدي الحياة وتعيشي هذا اليوم... ليتكِ سَقطتِ يومِها من رَحمِ تلك التي لم أعرفُها ولم أرِّ وجهها يومًا، ماذا أفعل بحقِ هذه الليلة المشْؤومة التي تراودني فيها الأفكار الضبابية؟ هل أفعلها وأَخْلَص من ذُلي؟ لو فعليتها ستذهبين لجهنم جوري... ههههه... من تلك التي ستذهب إلى جهنم؟"

كان صوتها الداخلي يهْجسُ بالأفكار، ومشاعرها تحْتدمُ، خَطرَ للحظةٍ ببالِها إدريس، فأيْقنتْ أنه الآن يتساءل عن مكانها، دون علمهُ بما عرفتهُ عنهُ.

"ترى ماذا يدور الساعة برأسهِ؟ هل هو غاضبٌ مني ويزْمعُ معاقبتي لو رجَعتُ للدار؟ هل يشكُّ بيّ اللحظة أنني بحُضنِ رجل غيره؟ ترى من سيَرعى رقية لو اخْتفَيتُ أنا من الوجود؟ هناك ربٌّ يرعاها... ما بالُكِ جوري فَقدتِ ذاكرتُك؟ رقية تَوَفَّتْ ودفَنتِها في صحنِ الدار، هل نسَيتِ؟ لم يعد هناك مَفَرٌّ، هذا العالم ضاقَ بيّ... هل تدْفعُني أيها الصوت الدخيل للقَفزِ إلى عمقِ البحر الذي تسْتفزُني أمواجهُ...؟ لماذا جئتِ إلى هنا لو لم يكن في بالكِ الارتماء ومعانقة البحر؟ "

تقَدمتْ خطوة من الحافَةِ، رَفرَفَ الهواء في أطرافِ عباءتِها، بدأت تشعرُ بتعرقٍ تحت إبطيها، سَبغَتها ومضةُ صمت سحيق في أعماقِها، سَكَتَ كلّ شيء في رأسِها، تلاشتْ الأفكار، وحَلَّتْ مكانها صور، أباريقَ معدنية،

قناديل، مكنسة من السَّعَف، حَصيرَة من خَوَّص النخيل، دِلالْ شاي وقهوة، ما الذي استدعى هذه الأشياء الصغيرة إلى ذاكِرتها؟ هل هو الرَمَّقُ الأخير للحياة؟ قلبها يَخفقُ ليس خوفًا من الموتِ، بل من مواجهة إدريس، من العيش معهُ ودونهُ، من تذَكُر صالح وشعورهُ بالذنبِ تجاههُ، ومن حزنِها عليه.

"أذْكُرُ وجههُ الودود وهو يغادرني بآخرِ يوم وعليه سماتُ الحزن من اِسقاطِي الحَمْل، كان رؤوفًا رغم غضبهُ الداخلي، وشجَنهُ على الجنينِ الذي اعْترفْتُ له بإسقاطي إياه، كم كنتُ دنيئة معهُ ولكن ماذا سيكون مصيرُ طفلٍ سيبكي بين يدي ولا يجد ما يقْتاتَهُ؟

كان يرتدي ثوبًا أبيض شفاف حتى أنني ابتسمتُ بداخلي وانا ألمحُ سروالهُ الداخلي يظهر من خلفِ قماش الثوب، حمل صندوقهُ الذي يحوِي ملابسه وأغراضه ورحلَ دون أن يَمْسكَ يدي ويودعني لأنه كان مستعجلًا وثمة من ينتظرهُ خارج الدار... كان إدريس مرافقه الأزلي، وكان يرْمقُني الآخر بنظرةٍ خجِلة وهو يُحييني، ها هو اليوم يحتلُ مكانهُ، لذْتُ بعد مغادرته بالصَمتْ واحْترتُ ماذا أفعل بالدار وحدي وهناك خلفي عجوز تهذي بالشتائمِ بصوتٍ، تظنُّ أنني لا أسمعُها... تركَ صالح المنزل وهو غاضبٌ ولم يبدِ ذلك لي، تركَ المنزل ولم يضَع بيدي سوى بضْعُ روبيات لا تكفي لأسبوعٍ واحد... غادر المنزل عند ضُحى يومٌ شديدُ الحرارة خرجتْ فيهِ الزواحفُ من جحورِها لشدّةِ لهيب الشمس... خرجَ ذاك الضُحى وفي قلبهِ حسْرَة على الدنيا ولم يُعَبرُ لي عن شعورهِ ذاكَ، رأيتُ في عينيه الخجل من فقْرهِ، فما كان إلا أن

وعدني بأمّلِ الفوزُ بدانةٍ من لؤلؤِ البحر، لعلَّهُ كان يداري فقْرهُ بوعودهِ لي التي لم تتَحقَّق... تركني وتركَ الدار ولم يعد للأبد ورزقني الله! بإدريس وكانت قصةٌ لا تُصَدقْ، لو كان الله يري ويعرفُ ماذا فعل إدريس؟ هل كان سيعتقني من رجلٍ آخر أتَى بيّ إلى هذه الحافَة الآن؟"

حين لامَستْ قدماها آخر خطوة من حافَةِ السطح المُطلّ على خورٍ عميق غائر، انْتبَهتْ إلى النهاية المحْتُومة لو خَطتْ خطوَةً أخرى، رَفعتْ رأسها للسماء، عَجبَتْ من رؤيتِها آلاف النجوم مغْروسَةٌ في كبدِ السماء بهذا الوقت من المساء... هل هو الليل ولم أُدرك ذلك؟!

سألت نفْسها ومَضَتْ تتأمَّل النجوم وتُحْصيها وتُميّزُ بين أحجامَها... شعَرتْ بها تتزايدُ الأعداد كلمّا تأمّلتْها لفترةٍ أطول وأعمق... ليلٌ ونجومٌ وسُفن وأمواجٌ وجسرٌ، مكانٌ يُخيّم عليه الصمتُ، أضواءٌ شاحبةٌ تنفُذُها مصابيحُ متراميةٌ، ثمة ضوء شاحبٌ على مسافةٍ لمنارةٍ بوَسَطِ البحر... حدَقتْ فيه وفكّرتْ لو تذهب إليه!

"هل أترك المدينة التي لم يُسعفُني العيش فيها؟ المحرق ليست مدينتي، ولا مكاني، لا يوجدُ بها موْضعٌ لي، حتى أنني لن أجد قبرًا فيها، مدينة بخَلتْ عليّ بكلِ شيء. وَجْدتُ الحبَّ، ههههه... لا حبَّ مع الفَقْر، لا حبَّ مع الذُلَّ، لا حبَّ مع الضياع... عودي جوري لداركِ واعتَني بعجوزكِ الوحيدة، عجوزي ماتَتْ ودفَنتُها بفناءِ الدار... وزوجي الأول في قاعِ البحر... زوجُكِ الآخر ينتظر عوْدتُكِ... كانت رقية تُحِبُكِ، لا تعلمين مقدار ما تكنهُ لك من

عاطفةٍ... ههه... رقية؟ تلك المسكينة التي لا تَعرف بحياتِها سوى كرْهُها لي... لا توجد كراهية جوري، إنَها الغَيْرَة وهي دلالةُ الحُبَّ، عودي لبيتِكِ جوري واعتني بنفسكِ، لن تجدي السكينة في قاعِ البحر، يكفي أنهُ أخذَ صالح منكِ... مني؟ لم يكن صالح لي ولم أكنْ له... كنا في مكانينِ مخْتلفينِ رغم تواجدنا تحت سقفٌ واحد... انْزعي من رأسكِ فِكرَة الموت... أنه يأتي بميعاد ولم يحنْ موْعدهُ معكِ بعد... لماذا لا أقرّر انا نفسي الموعد؟ لقد اسْتنْفذْتُ كلّ شيءٍ حولي، لقد نَزفْتُ حتى الرَمَّقُ الأخير بهذهِ المدينة المَحْرَقَة... أي عوْدّة لها؟ عودَّة الذُلِّ والفقْر والتِيه... غَيّري دفَّة السير... أي تغيير إذا كان لوْحُ قدري قد خُطَّ منذ موْلِدي؟ عودي جوري وابدئي بزرعِ شجرةٍ في الدار، اسْقي النخلَة وارعي العجوز، وانظري ما تُسْفرُ عنهُ حياتكِ مع إدريس... أنا أبحرُ في المجهول... أفْضَلُ لكِ من أن تبْحري مع الموج للقاع... "

- هل أعود للدار؟ وماذا أقول لإدريس؟ كيف أنظرُ في عينيه، وبيننا صالح؟

سَألت نفسَها وقد بدأت تَبرِدُ من لسعاتِ البرد، تراجَعتْ للخلفِ خطوة، هدأتْ دقات قلبها، رفعتْ رأسُها للسماءِ ففُوجئتْ باختِفاءِ كوْمَة النجوم التي كانت قبل لحظاتٍ مُكَّدسَة بكَبدِ السماء.

- قولي له ما كنتِ تقولينهُ لصالح من قبل؟

- كان الأمرُ مع صالح مُخْتلفٌ.

أجاب صوتُها الآخر...

- عودي واتْرُكي الجوابَ يخرجُ في وقتهِ

عندما التَفتَّتْ وراءها لتخطُو للعودّة، فوجِئت بوجهِ صبيٍّ يُحدقُ بها، لم يَخطر ببالِها أن رأتهُ من قبل، تساءلتْ في داخلِها ماذا يفعلُ هنا بهذه اللحظة؟ حارَتْ فيمّا إذا خاطَبتهُ أو تجاهلَتهُ وعادتْ أدراجها، حدَقتْ فيه، حاولتْ التفَرُس في ملامحِهِ، فإذا به يخْتفي من أمامِها.

- هذه أشباحُ مدينة المحرق... وتقولَ لي يا الله عيشي فيها...

عادَتْ للَخلف والتَفتَّتْ ووقَفتْ على آخرِ طرف الحافَة ونظَرتْ لموجِ البحر، بقلْبٍ لا يخَفقْ هذه المرّة، ثم تأمَّلتْ نفسُها أمام البحر، كان الموجُ هائجًا بفعلِ الرياح الشمالية، طَفقَت فقاقيع تصعدُ من أسفلِ الماءِ إلى السطح، ظلَّتْ تزدادُ وتغطي السطح ثم بدأتْ تتلاشى... رأتْ صورتُها منْعكِستةٌ في مرآةِ البحر...

بقي ضوءٌ طفيفٌ يسْنُو في أعلى المَنارَة البحرية...

# 2

## 1940-المكان-السفينة ريحانة-الوقت مساء-الحالة-عناقيد الذكريات

اسْلَمتْ شمسُ حزيران خيوطها لمغيبٍ مهيبٍ، استعد بحارةُ وغاصة السفينة ريحانة، لوجبةِ العشاء، اغْتَسل بعضهم بمياهِ البحر، واكتفى بعضهم بترطيبِ أجزاءٌ من جسدهِ، وبجهةٍ أخرى من سطح السفينة الراسية بهدوء، حلّق من فوقها سربٌ من طيور هائمة في البحر، بدتْ قادمةٌ من مسافاتٍ بعيدة، لا تجد يابسة أو مرفأ تتنفس عليه.

- في الضوْضاءِ تسمع كلّ شيء تعال... هنا في صدر المكان وإشْتمَّ رائحة السّمك وهو يشوى بنكهةِ الكُركم، لا يناسبك التفكير وقت العشاء.

قال إدريس عبارته بلكنةٍ مراوغة أقرب لمن يشعر بملّلٍ يحاصرهُ واسْتنجَد بصالح ليشركه معه بالحديث. بدا صالح غائبًا في تأمّلٍ حين رفع رأسه ونظر للآخر ثم خفضه وقال دون أن ينظر إليه...

- ألم تملَّ من كلامي المُكرَّر، أشعر أني استنفذتُ كلّ ما في جعبتي من تفاصيلٍ منْعِسَة حتى أني بدأتُ باخْتلاقِ بعضها.

لم يقنَع الرد إدريس الذي اقترَبَ منهُ وجلسَ القُرفصاء، حدَّقَ في وجههِ المُتْعب بعد جوّلة الغوص النهارية حتى كاد يصطدم به وقال محرفًا وجهة الحديث...

- سمعتُ عرضيا همسٌ بين اثنين من مساعدي الرُبان، بأنَ بداية الأسبوع القادم سوفَ نُشْرعُ في العودّةِ للديار و...

- أخيرًا سنعودُّ...

قاطعهُ قافزًا وهو يصرخ بالعبارة، ما حدا بخليلهِ إدريس أن يشدهُ من ذراعهِ ويجلسه عنوة على السطح مؤنبًا إياه.

- اخفض صوتك، قلتُ لكَ سمعت همسًا فتصرخ، لم يصدر بعد الربان أمرهُ ولو علم بانفضاحِ الخبر فسيؤجل العودّة نكاية بتسربه.

سرحَ الاثنان في الأفق الذي احتوَى السماء والبحر، تصاعدتْ رائحةُ الشواء وانبعثت نكهة التوابل مع تصاعد الدخان من جهة المقدمة حيث انشغل عددٌ من البحارة بطبخِ الرُزِّ وشواء السّمك يشرف عليهم خميس الطباخ، استلقى قسمٌ منهم بجهاتٍ في أرجاء السفينة التي زاد طولها عن 33 ذراعًا... فيما رفعَ مبارك أذان المغرب، وهو بحارٌ أسمر داكن اللون، وجههُ مستدير، يرتدي إزارًا مزركشًا وهو يعمل بحارًا ومؤذنًا. انْشْغل البعض الآخر، بترتيب فراشه المُكوّن من الخِيّش المغطى بملاءةٍ من القماش وقد أخذ منهم التعب إثر يوم طويل من العمل.

- أتذكّر إدريس يومنا الأول حين سألتك وكنت أنا كئيبٌ لفراق اليابِسة، كم يومًا بقي لنا في البحر، فأجبتني بسخريةٍ لاذعة، وكأنك تنتقم مني حينها: أربع سنوات، احتسبت عمدًا كلّ شهرٍ بسنة وكنت وقتها تسخر مني وكأنك تبتزني لأحدثك عن مشاعري بغيابي عن جوري...

قال صالح ذلك وانتظر ردّة فعل صاحبه الذي ظلّ يتأمَّله ثم استلقى على قفاهِ، وردَ عليه بعد صمت وجيز...

- أذكُّر أن الدموع سالت من عينيك حين أشتدّ حوارنا بالليل، عندما غفى أغلب البحارة وظلّلنا حتى منتصف الليل نتحدث بصوتٍ هامسٍ عن مشاعرك تجاه فراق زوجتك التي لم يكن مضى على زواجُك منها بضعة أشهر.

- تذكر دموعي؟

سأل صالح وكأنه يستعيد بتلك الليلة بداية رحلة الغوص...

❁❁❁

# اليوم الأول: 5 حزيران 1940

- لن تنام الليلة ما دمّتَ منذ اليوم تأمَل في اليابِسة، عقلك سرقتهُ امرأتك، سَبَّق وتحملتْ شهور الموسم السالف بِتجلّدٍ لم يعرّفهُ أحدُ غيرك، ما الذي لحّس عقلك وشَرَّد بهِ؟ لم تكن يا صاحبي بهذا التراخي... هل هي المرأة أم أصابك وهنّ؟ أخبرني ولا تخترع حجّجًا! ما أعرفهُ صالح أنها ليست المرَّة الأولى التي تُبحر فيها للغوص...

أراق إدريس عباراته لصالح هامسًا حتى لا يوقظ بقية البحارة، وقد أسْندَ رأسه على حافةِ جنب المركب وراح يُصغي لصوتِ الموج يرتطم بجوانب السفينة. كان الأول جالسًا القرفصاء، وثمة رجلان يشخران بجانبهما بينما غَطّ البقية في نومٍ عميقٍ سبّبهُ لهم الإرهاق والتعب.

- لكنها المرَّة الأولى التي أترك فيها زوجتي بعد شهورٍ من زواج دافئ وأرتاد البحر وفي نفسي ولّهٌ... لم أشبع بعدُ من النظر لعينيها، وتقبيل وجنتيها، لو رأيت إدريس ما رأيتهُ فيها لما فكّرتَ حتى بركوب قارب للصيد.

أجابه صالح وعادَ ينْصتُ هذه المرّة لصوتِ خربشة بعض الأسماك وهي تقفز وربما بحسبِ تفكير صالح تتهامس ولعلّها تتحاور وحتى تغني مواويل! بجوانبِ السفينة. كان الصمتُ والهدوء يشقهُ شخير بحّاريّن نائمين، ولولاهُ

لألِّفَت الأسماك والأمواج معًا موالٌ صوتي يغور فيه الرجل المُتَيّم بامرأته... على اليابِسة.

- حتى السّمك في البحر يتوق لخلانهِ.

- هسْ اخفض صوتك...

ردَ إدريس على عبارة صاحبه التي انطلقت بحماسٍ وصوت عالٍ منبهًا إياه خشية أن يعلم الربان بسهرهما حتى هذا الوقت بيومهما الأول.

- شعوري هذه المرّة، إدريس، أقوى من المرات السابقة بأني أوشك على موتٍ دون رؤية جوري!

قالها بنبرةٍ ظنّ الآخر أنها مزحة يستدرجهُ فيها لتوْسيع حلقة الحوار بينهما، كان الأول يرغب بالإفاضَة في الكلام بينمّا الآخر منهك، بالوقت ذاته، يخشى انفضاح أمرهما.

- تسمح تؤجل موتك، وتخرس وتنام لأنام أنا الآخر.

انْقلَب إدريس على جنبهِ الآخر معطيًا ظهره لصاحبه الذي ابتلعَ أنفاسه وراح ينصتُ للأصواتِ المنفلِتة من صدى الصمت الذي خيَّم على المحيط ولكن ظلّ الهدوء يصارع همس الموج المُرتطم بخشبِ المركب.

- هل تعرف إدريس أن الزواج من امرأةٍ جميلة عذاب؟

لم يجبهُ الآخر، فأردف وكأنه يبتزهُ لكسرِ صمتهِ والعودّة للحديث معهُ.

- هل ضاجعتَ امرأة بحياتك إدريس؟ لو فعلت لشعرتَ بما أشعر به الآن... أنت لا تملك إحساسًا لأنك لم تجرب مهبلاً بحياتك كلها...

بغتة، قعدَ إدريس وراحَ يفركُ عينيه ويتلفت حوله، نهضَ وسار خطوات نحو طرفٍ من السفينة، وقف على الحافَة وراحَ يتبول، صوت البول هشمّ سحابة الهدوء المخيمة على السطح. عادَ يسير بتؤدةٍ، تلفتَ حولهُ بحثًا عن رقعة يستلقي فيها لكنه عادَ واقتربَ من أحد البحّارين الذيّن ظلّا يشخران، ركلهُ وعاد أدراجهُ بسرعةٍ واستلقى جنب صديقه صالح...

- ما قصتك صالح؟ لماذا لا تدعني أنام؟ بعد قليل سيؤذن مبارك أو خميس الفجر، وأنت نفسك ينتظرك نهارٌ طويل وشاق بالغوص...

بدا من نبرتهِ قانطًا من صاحبهِ الذي لاحَ عليه السُهاد والضجر وأراد مشاركته الأرق الذي يعانيه، استسلم له واستلقى وجهاً لوجه معهُ وقال بنغمةِ من رضخَ في النهاية رغم ما تبديه حركته من حذرٍ خشية اكتشاف أمرهما مستيقظين حتى الآن...

- بقي لنا مئة وعشرون ليلة، هل ستبقى كلّ ليلةٍ منها تسهر وتسهرني معك لأجل عيون زوجتك التي تشبه لون البحر؟!

أثار إدريس سؤالاً قاصدًا بهِ أن يصيبه قنوطٍ ويخرسه...

- لم أكد أدخل جنتها حتى حان موعد التحاقي بجحيم الغوص، كانت عند المساء بعد أن تفرغ من تحضير العشاء، تستحمّ وتتعطر وترتدي فستانها الأبيض وأحيانًا الأخضر، وحينًا آخر الأسود، تنتظرني مائدةٌ دسِمة عليها سمكٌ مشوي ورزٌّ أبيض، مع ليمون ومعجون فلفلٌ بالثوم أو أصابع فلفلٌ أخضر... وعندما انْتَهي من وجبتنا، نثْمِلُ بشربِ الشاي الأحمر مع السكر، نصعد

بعدها لسطحِ الدار، نتطلع للنجوم ونتسامر بالذكريات التي جمعتنا قبل الزواج.

ظهر الاهتمام على الآخر وبادرهُ هذه المرّة بالسؤال دون تململ أو ضجر.

- والدتك العجوز أين هي من كلّ هذا؟ لم تذكر شيئًا عنها؟ هل تراقبكما؟ هل تتنصتْ أو تتجسس عليكما؟ أنا أعرف الأمهات وغيّرتهن من الزوجات... ولهذا السبَّب والدتي تعرقل فكرتي في الزواج. أنت تعتقد صالح أني لا أشتهي النساء؟ لكن الأم وغيّرتها، إذا كانت قبل الزواج هذا حالها ماذا تعتقد حالتها لو اقترنت بفتاة وانشغلت معها مثلك؟

علّلَ سبَّب تأخرهُ بالزواج لكن الآخر بادرهُ مقاطعًا...

- لا أخفيك الوالدة عندي مثل المنشار مع زوجتي.

ردّ عليه إدريس بسؤالٍ معاكس.

- أليستْ كفيفة؟

ردَ صالح...

- بلى...

عادَ يسأل إدريس...

- من أين تأتي بهذا البأس؟

بعد وهلةٍ من صمتٍ بدا كما لو يزن ما سيقوله، تنهد وقال بنبرةٍ مترجرجة بعد تفكير عميق.

- لا أفهم لماذا تناور والدتي بشتى السبل لتدخل في رأسي أن جوري تلعب من ورائي، عندما عدتُ السنة الفائِتة من موسم الغوص، هل تذكر موسمنا المنصرم وكم كان رديئًا علينا، لم نكسب منهُ غير الشقاء والدين... رقية العمياء حاولتْ جهدها أن تحشر في رأسي أن ثمّة من يتسلّل للدار بأوقاتٍ متفاوتة ومتأخرة من الليل والنهار...

قفز إدريس في مكانهِ واجتذبت انتباهه هذه النقطة، حَدّق في صاحبهِ، بدا له الأمر مشوقًا لمعرفة ما يشبعُ فضوله.

-هل صارحتك مباشرة في وجهك عن شكوكها؟ هل أعطتك علامات؟ دلالات؟ أم مجرد إيحاءات؟

خلط إدريس أسئلته كلّها وصاغها في هذا الاتجاه ما لفت انتباه صالح الذي كان قبل لحظات يُجرّر الآخر للكلام دون جدوى.

- لماذا استنتجت الشكوك بهذه السرعة؟ قلت لك كانت تحاول أن تحشر هذه الشكوك في رأسي ولم أقلّ إن هناك شكوك... أنت لم تعرف عن جوري شيئًا سوى القاء التحية عليها، هذه الفتاة ملاكٌ طاهر، منذ صادفتها وهي لا تنظر سوى في عيني ولا تسمع سوى صوتي...

- هل هي من نفسِ الحي؟

سأل إدريس مع أنهُ سبق لهُ وشاهدها مرات عدّة قبل أن يقترن بها صالح، وظنّ أنها دخيلّة على الحي فهو لم يسمع شيئًا عن أسرتها، عن والدها؟ عن

والدتها؟ أو إن كان لها أخوة أو أخوات؟ وهذا ما دفعه لتكمِلة سؤاله الذي حمل مغزى واضحًا...

- هل عندها شقيقات؟

ضحك صالح وأجاب بنبرةٍ لم تخلُ من حسرةٍ على صاحبه الراغب بالزواج ولا يعرف كيف ومنْ يختار؟

- هي مقطوعة من شجرة... والشجرة هي الأخرى وحيدة في غابة الأشجار، لا يوجد لها جذور!

قال صالح ذلك فرَدَّ عليه الآخر بسؤالٍ فضولي...

- كيف عرفتها صالح؟ وأين؟

- من سوق السّمك...

- نعم...؟

- قال إدريس ذلك وتبعه مردفًا...

- تمزح معي؟ سأنام أفضل لي من أن يصيبني أرق بسبَّب ترهاتك بالليل.

❁❁❁

أفاقَ صالح بغتة من تأمّلهِ لذكرياتهِ على سؤال إدريس الذي لم يكن سوى خاطرة عابِرة في الذاكرة، إذ ما أن التفتَ حوله حتى رأى الآخر يغطُ في نومٍ سحيق وقد بدا وجهه كالذي يضحك له... ابتسم ورفع رأسهُ للأعلى ليتفاجأ بالسماء تمتلئ بنجومٍ جمَّة وكأنها حباتُ رملٍ متطايرة في أرجاءِ الفضاء... اجتاحهُ شعورٌ بالبهجةِ وخُيّل إليهِ أن تلك النجوم المنثورة بترتيبٍ

إلهي كما اعتقد وعلى مدى حيز رحب لا حدود له، إنمّا هي دلالة على قربِ فوزه باللؤلؤة الموعودة...

"سأروي لك قصة لقائنا بليلة أخرى.

خاطبهُ وهو يدرك أنه استغرق في النوم.

"شدّة الوله يا صالح تفقدك الشعور به... "

قال لنفسهِ، معزيًا ذاته الشارِدة بسعةِ الفضاء ثم أردف يندبُ غيابه في البحر...

" مثلّ شدّة الفراق تنسيك الوقت... مهما تأخر الفوز فذلك دليل وجوده، هذه اللؤلؤة يا صالح من نصيبك حتى لو اعترضتْ حشود الإِنْسُ والجِنّ، أعرف أنها موجودة هناك في أسفلِ الغابة، بمكانٍ ما من قاعِ البحر... ربما عبَرْنا عليها وتجاوزناها... لعلّ الله أراد أن يُخفيها ليأتي صالح الزري ويلقطها... "

استمر يناجي ذاته حتى بدأ صوتهُ يشحبْ ونبرتهُ تختفي وراء الكلمات...

"ربمّا كانت هناك حكمة إلهية مُدَبَّرة ليتأخر موسم العودّة لليابِسة حتى أُصادفَ تلك المحارة بجوف البحر... حان وقت الشِدّة بعد هذه الشهور المُسهبة لأَخْطف دانة جوري من قعرِ غابَة المحار"

ظلّ يهذي ويُهلوسُ بالكلام حتى غفَى وأفلّ عن الوعي.

# 3

## 1940-على ظهر السفينة ريحانة-الوقت نهار

فَجَّر يوم آخر... ونهار تالٍ انْقضَى منذ شهر حزيران وها هو شهر أيلول ينْبلج بغُبارهِ ورياحهِ الشمالية... سيحلّ الليل ويليهِ النهار، سيعدو الشتاء ويحذوهُ الصيف، وطمعُ الرُبان سليمان الهمام يأبَى ألا يرجَع مع بقية مراكب الغوص التي بدأتْ تدْبُر عازِفَة عن الاستمرار مع تلويح بفصلٍ خريفٍ ملئ بمفاجآتٍ وشيكة وصادِمة بالطقسِ وتغيراته. لم يعبَأ صالح من بين كافة الغواصين والبحارة بالعودّة للديار، بل راحَ يبتَهلُ لله ألا يهدي الربان سليمان للرَّجَعة حتى ينتهي من إدراكِ غابة المحار التي قضى الشهور المنصرمة ينقبُ في قاعِها، لقد فازَ غيره من الغاصةِ بداناتٍ عِدّة ذهبتْ في جيبِ الربان، ومن سوءِ حظهِ وبعد محاولات عدّة بذلها في الخفاءِ وهو يَفْلقُ بعض المحار سرًا، بعد أن يُخفيه في سرواله، وبعلمِ رفيقه إدريس الذي هيْمنَ عليه فزعٌ من انكشافِ أمرهِ، لم يحالفهُ الحظّ في الفوز بواحدةٍ من تلك الجواهر المطْمورَة في الرملِ وفي قلبِ المحار.

كم نهارًا في نهار، وكم غطسةً خلال اليوم الواحد، وكم مرّةً حفرتْ يديه الأغوار المائية بحثًا عن محارةٍ مميزة حتى أنه قرَّر مع بدء تنامي خبر العودّة أن يتحمل عبء الماء ويدخل في سباقٍ مع الوقت، ليقطع أنفاسه من أجل شَجَّ المحارة وهو في القاع. لقد دَسَّ معهُ سكينة صغيرة ظلّ يُخفيها في ثنايا سرواله، واختلقَ مبررًا له عند اكتشافها بالقول إنها لحمايتهِ من قرشٍ هائج في البحر... لقد تعرَّضَ كثيرون من الغاصة لهجماتِ أسماك القرش، وقد سُمِح لبعضهم بحملِ السكاكين معهم لحماية أنفسهم من منها، لكنه أخفاها معه لغرضٍ آخر كي يفلْق المحار تحت سطح الماء! كان تدبيرًا شيطانيًا لم يبحْ به حتى لإدريس واكتفى ببدءِ تنفيذه... بسريةٍ تامة.

بدأت الشمس بالتألقِ حين ولجَّ البحر يغوص فيه مسافراً في أجواء المياه الخضراء عند قاع الأرض، في القعّر... اسْتَدرجتهُ الأنواء فأخذ يبتعدُ بالتدريجِ حتى بلغ نهاية الحَبل المعلق فيه وحبسّ أنفاسه لفترةٍ ظنّ أنها دهرٌ مرَّ عليه، خُيِّلَ إليه جوري وقد مرّ ظلّها من أمامه، فكادت تغصّ رِئتاه بالهواء الذي حبسهُ، فيعزي لخيالّه المدلهم بظلمةِ البحر أن تأخذه للمرأة الساحرة، لشغفهِ وشهوتهِ وعشقهِ الذي يشبهُ موجةً وحشية هائلة تفطر قلبه، عمَدّ في كلّ مرّة هَبَط فيها قعّر البحر أن يأخذ طيف جوري معه ليبقيهِ مدّة أطول في الغطس، كانت معه في الأعماق حتى ظنّ بأنها لن تفارقه، وحين صعد سطح السفينة مستجدياً المحار أن يظفرَ بهبةٍ من ساحرة البحر التي يتلو عليها دعاءه بقطعةٍ نادرة من دانةِ البحر تغمرهُ بالبهجة، كان يخبأ المحارات

الكبرى ذات اللون البنفسجي في جيبِ سرواله الذي خاطهُ لهذا السبَّب وما أن يلتقيه بحاره ورفيقه إدريس حتى يفرّ بعينيهِ خشية أن يُفْضحَ أمره، لقد قبل التستر عليه ولكن لن يُسْهم في لعبة إخفاء المحار.

- لقد ابْتعَدتَ كثيرًا فشعرتُ بفزعٍ عليك وأنت تغامر باللجوء لمغاراتٍ بعيدة حتى لم يبقّ من الحَبلِ سوى عقدة أخيرة.

قال إدريس عبارتهِ بصوتٍ عالٍ لشدّة الضوْضاء على السطح... غاصة يهبطون وآخرون يخرجون، بحارة يجرّون وغيرهم عكفوا يفلقون المحار الذي أتي طريًا وحيًا من البحر.

- عدني المرَّة القادمة إلا تخيفني بتهَوركَ وإلا أبلغت الرُبان سليمان.

قال الجملة بنغمةِ تهديدٍ ودية وقد جلس يدلك ظهرهُ فيمّا الآخر تتصاعد أنفاسه وقد أزْرقَّ وجهه وكأنه صُبغ بلونِ البحر! استلقى على قطعةٍ من الخيش وراح يتنفس ويديه فوق فخذيه ثم انتفضَ وابتعد... وقفَ على حافَةِ المركب وكأنه يتطلَّعُ للأفقِ ثم اختفى في مؤخرة المركب... كان موج مَطْلَع حزيران باردًا نسبيًا وهواء الصباح الباكر يُفضي لرعشةٍ في البدن، شعر بتعبٍ مباغت خشي على إثرهِ إن استسلم للوهن أن يُعْثَر على المحارات في جيب سرواله. كان من الدهاء بأن سلم حفنة من المحار أمام المراقب ثم عمدَّ إلى الوقوف والتبول... ظلّ يناور حتى أخذ زاوية من السفينة وأخفى فيها محارهُ بجراب ملابسه.

"البرد شديد فوق السطح، لم أشعر به وأنا في القاع"...

قال لنفسهِ وهو يخْتلي في ركنٍ أسفل السفينة، حيث لمحهُ إدريس وهو يهبط العتبة وقد أدرك سرّ انعزاله.

- أحذر عيون الربان فهي في كلِّ مكان.

همسَ له صاحبه بمجرد أن عادَ للسطح، حيث جلس وراحَ يحتسي فنجان الشاي.

- لا تُحدق بيّ كلما تحركتُ، هذه النظرات الخارقة منك هي التي ستلْفتُ الأنظار إليّ...

لفظَ العِبارة لإدريس الذي ظلّ بعده يجول بنظره حوله ما دفع صالح للكزهِ والقول بنبرةٍ ساخرة.

- انظر لحالك! عيناك تحومان كأنهما ذبابه تائهة لا تستقر، كن هادئًا أنا من يخبَأ المحار وليس أنت!

نصحهُ هذه المرَّة مع نبرة تأنيب على جزعهِ المستمر.

- هل يستحق الأمر كلّ هذه المجازفة صالح؟

نطقَ إدريس عبارتهِ ونهض تاركًا إياه وحده، راحَ صالح يفركُ عينيه ثم نهض هو الآخر وراح يتمشى على السطح ويتطارَح الأحاديث مع البحارة الذين انْغمسَ بعضهم في سحبِ الغاصة من البحر، وبعضهم انصرفَ يَفْلقُ المحار... كانت الحركة على سطح المركب في أوَجِّها. ثمة صبيٌ بعمرِ الثانية عشرة راحَ يتقيأ وحوله أحد البحارة أخذ يفركُ ظهره ليساعدهُ على الاسترخاء...

- ماذا أصابه؟

سَأل صالح الرجل وهو يرصد الصبي الذي استلقى على ظهرهِ وقد بدا منهارًا، كان وجههُ محتقنٌ ولونهُ ازْرقَ وبدا بغايةِ الوهن.

- يبدو أنه يعانى من حمى شديدة...

- أجاب الرجل... دنا على إثرها إدريس من المكان وغَمزَ بطرفِ عينيه لصالح أن يتبعه، ابتسم الآخر وكان ما زال ممسكًا بيده فنجان الشاي.

- هل حالفك الحظُّ بشيءٍ؟

سأل إدريس صالح...

- لم أفْلق المحار بعد، انظر حولك الجميع محمومين هذا النهار وكأنهم أسماكٌ مهووسة تجَرعتْ السمُّ... ماذا حدث في هذا اليوم؟ الجميع بحالةِ توتر؟

كان الرجال، غاصة وبحارة يعانون من نفحةِ ريحٍ باردة، ما دفع إدريس لتأويل الأمر بطريقتهِ المتوَجِسة المعهودة.

- إلا ترى أننا حُشِرنا ببوادر الشتاء؟

قهقه صالح وقال بنبرةٍ ساخرة بعد أن انتهى من رشفِ آخر قطرة بفنجان الشاي.

- أنا عن نفسي أودُ البقاء حتى منتصف الشتاء رغم أننا لسنا سوى في مطلع الخريف وربما لم يحل بعد، هذا أول عنقود بالخريف حلّ برياحٍ شمالية فبدا كأنه الشتاء، الربان سليمان معه حق بتأجيل العودّة لأننا مازلنا في فصل

الصيف... لا داعي للعجلة، ما تشعر به فوق السطح يختلف عما أشعر به أنا في قاع البحر، الغواص مثلي وحدهُ يعرف موعد الردّة... من خلال طقس قاع البحر. هل تصدق إدريس وأنت بحار محنك، أن قعرّ البحر هو معيار معرفة تغيّر الفصول أكثر من اليابسة؟ السر في الأعماق...

رد إدريس بجفاءٍ قائلًا...

- أنت تُلطفْ وتُنمق الحال لمصلحتك، تريد أن تقتلنا لأجلِ لؤلؤة تزين صدر زوجتك، هذه أنانية، صالح.

- هذه إثارية منبعها الحبَّ... أنت لو أحبَّبت ساعة واحدة فقط لآثَرتَ البقاء حتى نهاية الشتاء!

قال ذلك وابتسم له، ثم أستطرد وهو يبتعد عنه مستنكرًا عليه إلحاحه بالعودّة، توقف وهلة وقال...

- لنا حديثٌ، الليلة بعد العشاء...

# السفينة ريحانة-الوقت ليل

بعد أن فرغَ جميع البحارة من وجبةِ العشاء، وكانوا قد توزعوا مجموعات عدّة تقاسموا عددًا من الأواني، انتشروا في أرجاءِ السطح، على هيئة دوائر، كانت أصغرها دائرة الربان سليمان الهمام التي ضمَّتْ إضافة إليه اثنين فقط. أخذ بعضهم يغسل الأواني بعد رمي ما تبقى من عظام السّمك في البحر، استلقى البعض، وشَخرَ البعض بعد تناولهم الطعام للتو... بدت عيونهم مفتوحة ولكن التعب أناخهُم... فيمّا الرُبان الذي انزوى على كنبةٍ عليا في مؤخرة المركب راحَ يُدخن النارجيلَة... تَوسَّد كلٌّ من إدريس وصالح حافَة طرف المركبِ وراحا يُصغيان لصوتِ الموج تحت ضوء القمر...

- أخبرني صالح... ألم تفكر بالإنجابِ من جوري؟ لم أسمع منكَ شيئًا عن أولاد أو بنات لديك؟

قال إدريس ذلك والْحَقهُ بسؤالٍ آخر...

- منذ متى وأنت متزوج؟

ردَّ عليه صالح بنبرةِ جفاء

- سبقَّ وأخبرتُك منذ بضعة أشهر، لكن يبدو إن كلّ ما أسْردهُ لك لا مكان له عندك، فأنت تكتفي بالسمع ولكن لا تتفاعل مع معاناتي كما أفعل أنا؟

وقبل أن يرد إدريس عليه سابقه مستطردًا

- تذكَّر بالسنة المنصرمة وطوال أربعة شهور في البحر لا هَمَّ لي ولا شجن سواك؟ عندما ظلّلتَ تحدثني ليل نهار، عن وحدتك وتيتمك وأنا أصغي إليك... بل وأبكي أحيانًا، وأنت الآن نسيت حتى متى تزوجت أنا من جوري، وقد رَوّيت طوال فترة الشهور المنصرمة كلّ شيء عنها حتى لم يبقَ سرٌّ بيني وبينها لم أفضحهُ معك، والآن تسألني متى تزوجت؟ هل أُذكّرك متي تحدثنا عن ذلك إدريس؟ أم فقط تتذكّر ما ترغب بتذكره وتنسى ما لا تريد تذكره... أنت تُذَكّرني...

صمت وهلة ثم استأنف وقد حَمّي لسانه...

- أنت تُذَكّرني بإمامٍ في الحي أصمّ وأعمى وأعرج، يسمعُ وقت يُريد أن يسمع، ولا يسمع وقت لا يريد.

- ما المغزى من كلامك؟ هل تعني أنني أناني ومنافق، أنا أسمعك منذ كنا أطفالاً نلعب بالحي وحتى بلغنا وسنظلّ حتى نشيب وأنا أصغي إليك...

قال إدريس ذلك ووضعَ رأسهُ على وسادة من الخيش وأغمض عينيه.

- هذا إذا كُتِب لنا النجاة...

❁❁❁

# 4

## 15حزيران 1940-السفينة ريحانة-الوقت ليل-اليوم العاشر من الرحلة-الحالة-عناقيد الحبَّ

- الحبُّ إدريس مثلَّ النار والماء، حارٌ وبارد، جرب وضع يدك في النار ثم ادفنها في الماء، ستتذوق نار الحبّ وبرد العشق.

أجاب صالح على سؤال لإدريس سألهُ بالنهار وأجلَّ أجابتهِ حتى الليل عندما يخلدان لنعاس ما قبل النوم حيث دأبا على الهمس وحدهما عندما يلوذ بقية البحارة، أو أغلبهم للنوم. كان صالح مولعًا بسردِ عواطفه وخوالجه لصاحبه إدريس الملا الذي كان ينصتُ باهتمامٍ بالغ لكلّ ما يرويه الآخر، وكان يتوقف ويضاعف انصاته، كلما دنا صالح من سَرْد ذكريات حبهُ لزوجتهِ جوري التي غادرها وقلبه وعقله ظلّا معها.

- الحياة صعبة متى ما عاندتها وما أسهلها متى ما سايرتها. لا تبتئس صاحبي، ستمضي الأيام مثل الغيوم وتأتي غيرها، سيحلَّ الخريف يليهِ الشتاء وستعود لحبك جوري، وبدلاً من شحن روحك بالشجن ضع همتك في القاع واصطد المحارة التي ستحمل في قلبها لؤلؤة جوري، لكن أُحذرك لا تشركني معك ولا تلمني لو كشفوا أمرك... احذر يا صديقي.

تنفسَ إدريس بعد أن نبههُ فيمّا تنهد الآخر وقال وكأنما فتح جروحهُ ثانية رغم أنهُ كان يحفّزهُ على تجشمّ وجع الفراق.

- لم تجرب فراق المحبوب...

قال صالح.

- دلني على طريقه!

قهقه صالح وقال بخيلاء من شعر أنه على قمة عرش الحبَّ:

- لا أنصحك إن كان قلبك ضعيفًا.

رد إدريس... متباهيًا.

- عرفت الحبّ في أحلامي ولم يجتذبني، كما عرفتُ الحبّ من المرأة التي ربتني، وظنّنتُ أنها أمي فإذا بها تحاول اغتصابي قبل أن أبلغ الثانية عشرة...

قفز صالح من على السطح وجلس القُرفَصاء كما لو أصابهُ سهمٌ حاد في قلبهِ.

- دعك من ذكرياتي السوداوية الكئيبة والتي لا أفضل الرجوع لها وحدثني عن حبك لجوري، من يدري قد يحفزني ذلك على الزواج من أي امرأة أصادفها بعد الردّة من الغوص...

غرق صالح في موجةٍ من الضحك، فيما سارع إدريس بوضع راحة يدهُ على فمِ الآخر حتى لا يُوقظّ الآخرين السابحين في أحلامهم الغامضة!

- الحبُّ يا مغفل لا تصادفهُ مع امرأة تتزوجها بل مع أول امرأة تلتقيها ويخفق قلبُكَ لها.

- كيف؟

سأل إدريس...

- اسمع قصتي مع زوجتي وحبي قبل أن تصبح زوجتي وافهم مغزى الحبّ...

"آهٍ جوري"

لَفظ اسمها وحدهُ مثل السهم ينفذ للقلب فيشطره لنصفين، هل رأيت من قبل رسومات على الحيطانٍ أو في الورق أو نقوش على اليدٍ، وفيه صورة قلب منفطر من فرطِ الوله.

- الحبُّ كزلالِ البحر يقضي عليك ويفتكُ بكَ مثل سمك القرش، أو يفتنك... يروي عطشك أو يغتالك... عندما عدت بالموسم الماضي، وأول ما التقيتُ بها في الطريقِ وكانت قادمة من الخباز بيدها حزمة من الخبز تَجمّدتْ مكانها ونظرتْ في عيني وقالت: صبحك بالنور صالح...

"آهٍ جوري"

- لا... لن أنسى تلك النظرة ولا ذلك الصباح ولا رائحة الخبز الساخن بيدها الرقيقة الناعمة، ولا نغمة صوتها الذي تدفق خجلًا ورقةً وشهوة...

- شهوة؟

صرخ فيه صالح...

- لا تقاطعني إن كنت تريد معرفة طريقة عمل الحبِّ. نعم شهوة... هل تريد معرفة مغزى الشهوة حتى لا تلوم المرأة التي ربتك وأرادت اغتصابك؟ لقد رأتك يافعًا طوال الوقت معها، فأصابتها لوثة الشهوة وهذا ما دفعها لمحاولة اغتصابك، لكنك بدلًا من تعويضها في تربيتك وتلبي رغبتها فزعت وهربت منها، أليس كذلك؟

ختمّ سؤاله وهو محتدٌ وقد صعق كلامه الآخر الذي بادره مستنكرًا:

- وهل تريدني أن استسلم لرغبةٍ شيطانية ممن ربتني؟

- وماذا في ذلك؟

سأل صالح ببرود وابتسامة مراوغة وكأنه يستفز صاحبه لتحفيزه على إطلاق مشاعره التي يحس بأنه يحبسها لا إراديًا.

- إنها بمثابة أمي، أو هكذا كانت وشعرت بها...

قالها صارخًا وبخشية من يقع في المحظور، لفتَ صوته المرتفع بعض من كان ناعسًا بالجوار.

- خذني أنا وأرجوك لا ترفع صوتك بالصراخ وتثير فضول الآخرين، أنا عندك مثال المجازف حتى وقعتُ بالحبَ... هل تعلم أن زوجتي جوري ليس لديها أب ولا أم ولا أعرف من أين جاءت وماذا كانت تعمل؟ بمجرد أن التقت عيني بعينيها حتى وقعتُ في شباكها. ومن يومها وأنا في حبسٍ انفرادي معها...

حكَّ جبهته ونظر للسماء واستأنف:

- لم أسأل من هي؟ وإلى أين ذاهبة؟ ومع من تعيش؟ وهل لها ماضٍ أو حاضر...؟ كلّ ما همني الاقتران بها وهذا ما حدث...

- ألا تخشى أن تخونك؟ فأنت لا تعرف عن حياتها شيئًا وغبْتَ عنها شهورًا وربما كان لوالدتك رقية العمياء حجّة في شكوكها كما ذكرت لي آنفًا...

قال إدريس العبارة بشيءٍ من حذرٍ وبصوت هامس ورغبة في جرهِ بفضولٍ مفرط لمزيد من رغبةٍ بالكلام عن جوري التي بدا فضوله نحوها يتضاعف تدريجيًا كلما أوْغلَ صاحبهُ في الاستفاضة بالحديث عنها.

- إدريس...

- نعم صالح

- لو عرفت جوري، لو شمّمتَ عطرها الجسدي الفطري... لو لوّحَتْ لك وأنت تغادر الدار بآخر يوم لك معها... لو تذكّرتَ الليالي التي جمعتك معها... لو فتحت عينيك بالصباح ورأيت نظرتها... لو أغمضت عينيك بالمساء وتخيّلت كحلّ عينيها... ماذا تريد أكثر من ذلك؟ بلى هناك أكثر وأكثر...

- حدثني أكثر لقد شوقتني لمعرفة طبع النساء؟

سأل إدريس فردّ الآخر بإيقاعٍ مختلف ونغمة أخرى...

- متى تُفك قيودنا من سطوة البحر وأعود لرائحة النرْجس والفُل في شعرها، ورائحة التوابل من يديها وهي تُحضر وجبة العشاء؟

❁❁❁

انقضتْ شهورٌ أربعة بدتْ بعدها المدّة المتبقية على الرَدّة أشبه بالدهر الْمُتَجمد، منتظراً النار والبرد على حدٍ سواء، كانت العودّة تنبئ بخوفٍ مما جرى على اليابسة، لم تصل أخبار تعبر البحر... الأحداث تتوالى في البحر ولا تصل اليابسة، والوقائع تتواصل على اليابِسة ولا تعبر أخبارها إلى البحر... أمواتٌ وأحياءٌ على اليابِسة وفي البحر، لا تعبر أخبارها إلى البحر، ظلّ صالح في ظنه هو دون سائر البحارة لا يرغب بالعودّة الموعودّة رغم اشتياقه قبل الفوز بلؤلؤة البحر الساحرة التي يراها كلّ ليلة في أحلامهِ... وفي أعماقه توقعات ومخاوف... أمَّل لا حدود لأفقه، فما دام حبه لوليفتهِ كالشمعة المنيرة فهو الأمَّل بالعودّة... كان يتفاءل بالشموع التي احضر منها معه عدَّة، دأب على اشعال واحدة بين ليلة وأخرى، كلمّا شعر بولهٍ للمرأة التي تنتظره... يفعل ذلك كلمّا غاص في الأعماق ولم يعثر على المحارة التي في خياله. أو حين يلعب الوهم والشكّ بعقلهِ حول الأم الكفيفة التي هدتها السنون بمرارتها، وزوجة جامحة تنفجر الدماء في عروقها كلمّا لامست يدهُ جزءاً من جسدها، لَمحَ طائراً هائماً على وجهه في فضاء البحر قد شَتَّ عن سربه، طار معه قلبه، ظلّ يتتبّعهُ بنظراته التأملية، بحثاً عن أخبار اليابسة. كانت الطيور إذا ما شَتَّت وبلغت بمحاذاتهم في البحر باتتْ دلالة

على ورود أخبار مغمومة، ظلّ يترصد السماء بعينيهِ لعلّ ريشة طائر عالقة بمكانٍ ما على السفينة. أما إذا ما هَوى طائر وسقط على سطح المركب فذلك إعلانٌ إلهي بموتِ أحدهم على اليابسة.

مع فاتحة شهر حزيران استحوذَ نسيج شمس الخريف عند الفجر على انتباه البحارة. تحرّكتْ الغيوم بكسلٍ إيذانًا ببرودة البحر، راح الخريف يجْهر باتساعِ حجم الموج مع هبوب رياح شمالية دافئة تزيد من رعشةِ الأجساد عند الطلوع من الماء، ينتفخ الشراع أكبر ويهتز المركب أكثر... عندئذٍ تعلو الفرحة وجوه الغاصة مدركين قرب العودّة...

- إذا اهتز البحر، اعْلَم أن الدنيا سيَّرتها الرياح...

قالها لهم رُبان السفينة سليمان الهمام وهو يعلنُ التحضير للردّة خلال أسبوع واحد... دفعَ الإعلان المباغت صالح لنوبةِ جنونٍ إلى قاع البحر، لتحصيل الجوْهرة الموعودة وإلا لن يعودَ إلى جوري خالي الوفاض. صرح بهذا الشعور لإدريس الذي حذرهُ من التهور...

- أخسر لؤلؤة ولكن لا تخسر الدنيا...

۞۞۞

# 5

## 1940- مدينة المحرق - المكان - منزل منبوذ فوق التلة - الحالة - جوري الصوري - رقية العمياء

## الحالة - عناقيد الجوع

منزلٌ حقير بُنِيّ من حجارةٍ وطين وأخشاب صلبة... قَبعَ على تلةٍ ترابية تُفْضي إلى ضفةٍ من البحرِ جنوبي مدينة المحرق... منزلٌ صغير، انزَوَى في عزلةٍ متقَوْقعًا عن بقية بيوتِ الحي، بدا بلونهِ الرمادي، وكأنه قطعةٌ من غيومٍ اجتزأت وحلّقتْ بعيدًا عن طّبقة الغيوم الأخرى. ظلّتْ جوري الصوري، وهو الاسم الذي لا تَعرفْ هي ذاتها كيف التصقَ بها ومن أين جاء؟ ومتى؟ باستثناء أن الجميع كانوا يطلقونه عليها منذ الولادة... من هي؟ لا تعرف؟ ريشةٌ في الهواء ما زالتْ تُحلقُ في الأثير... كذراتٍ لبشر، بلا عنوان، بلا مكان، بلا زمان، فقط جاءت من فراغٍ! ولم تستقر حتى اللحظة .

فصل الخريف مهّد لعودّة الغواصين من البحرِ إثر شهور بعد إيذان الريح والغيم بذلك. رحلةٌ مُضْنية حركتْ الأشياء الجامِدة وداعبتْ مشاعرها، إيماءة منتظرة في الأفق لاحتْ بميعاد لقيا الغائب برحلة العذاب والفراق... ساقها

الانتظار لاستعادة ذكريات زمن طفولة ورعونة وتيه... في مساراتٍ مُتَشعِبة متضادّة، درأتها بعيداً حتى لحظة وفاة من ربتها وكانت بمثابة والدتها... وحيدتها، إذ لم ترَ الأب، ولا تدرك ما يَعْنِيه، لأنها لم تسمع به، نبَتتْ كعشبةٍ بريةٍ بتلقائية، في خضمِ عنفوانٍ نزق باستثنائها، بَدَّلتْ بفطرةٍ غريزية معالم الأنوثة...

كانت تعشق جسدها حدَّ الهوس... مجنونة بتأمّلِ نفسها في المرآة وكأنها تحاول فكّ لغز خالق هذا الجسد... تقف عند المرآة عارية وتُحدق بقطراتِ الماء عالقة بجسدها، بيضاء كحليب الماعز، شغوفة بمداعبة نهديها متناهي الصغر، نقيض أردافها المكتنزة وفخذيها المُزْدَهرين عند خصرها الضيق، جسدها تطغى عليهِ رشاقة ناتئة، جزؤها السفلي انْتابَتهُ لطخ سوداء، جوري الأيقونة المُحدِّقة بجسدِها كلمّا انتصبتْ عارية، أحبَّتْ جسدها وكرهتهُ بالوقتِ ذاته... تغمضْ عينيها السوداوين الواسعتين وتسيح بعيدًا بانتظار الغائب وراء البحر...

فتحتْ عيناها عند الضُحى وطلعتْ لفناءِ الدار... السماء غائمة فوق رأسها، والمرأة العمياء المُسِنَّة والدة زوجها الغائب، عكّفتْ على الأرض تكنسُ بمشطٍ خشبي آثار براز الحمام اليومي الذي كان سبَّبًا في تقوّسْ ظهرها لكثرةِ انْحِناءاتها طوال الوقت، كانت تتحسّس بيديها البراز ثم تكنسهُ... تتجسسْ وتتنصّتْ على الفتاة، تبحّث عن أدنى حجةٍ لتّتشّبت من

شكّها فيها، أما هي جوري فقد حبستْ مشاعرها طوال أربعة شهور هي فترة غياب زوجها صالح بالغوص...

وقفتْ المرأة العمياء، بعمرِها المديد، تنصتُ إلى تحركات جوري المتلاحقة حوْلها دون أن تفهم ماذا تفعل الفتاة؟، قعّدتْ على الأرض، أسقطتْ جسمها عمداً، ثم نهضت بتؤدّةٍ دون مبررٍ لحركتها الخاطِفة، برز وجهها البني المُكفَهرّ بخيوطِ الزمن، انتَصبتْ جوري عند قدمي رقية التي انْثَنى ظهرها على الأرض وكأنها ستسقط عليها...

- سيأتي صالح غدًا أو بعده فلا داعي لقتل نفسك...

قالت جوري جملتها وهي تُحدقُ للمرأة الكبيرة العمياء التي تهز رأسها وكأنها تنفضُ منه الأفكار التي تدور فيه.

- لن يأتي... قلبي ينبئني، لقد طالّ الوقت ودخل الشتاء.

قالت العجوز ذلك وراحتْ تعبث بأصابعِها في ترابِ الفناء.

- ما أدراكِ؟

استكملتْ جوري عبارتها التي قطعتها للتو، فيما اكْتفتْ الأخرى بصمتٍ متذبذب مثل أفكارها التي انعكستْ في صورة أصابعها الملطخة بالتراب.

- حين يسود البرد ماء البحر، توْهِن أجسام الغاصة، وساعتها يتهاوى الجسد، وربما لا يخرج من القاع... أو يلتهمهُ القرش الذي يجوع في الشتاء...

تحدثتْ رقية العمياء بنبرةِ من يقرأ الغيْب وكأنها تلوم الفتاة على أمرٍ لا علاقة لها فيه بتأخرِ عودّة الغائب، كانت توحي من كلامِها بإيماءةٍ تلكز بها جوري على فعلٍ ما لا تفصح به ولكن تكتفي بالإيحاء.

فجأة التقطتْ جوري قطعة حجارة صغيرة من ركنٍ بالفِناء وقذفتْ بها حمامة كانت تقف شامخة، على حافَة الجدّار، تنوحُ بصوتٍ مزعج فأصابتها في رأسها وسقطت...

- أعطيني سبباً يُبدِّد دهشتي من إهدار رأسك على الأرض، حمامة عاهرة...

قالت جوري عبارتها بغضبٍ وتنفستْ بعدما رأتْ الحمامة تتلوى على الأرض...

- هل ذبحتيها؟

سألت العجوز...

- نعم وربمّا أُطْعمكِ منها اليوم...

أجابت الفتاة...

"عاهرة مثلها" قالت العجوز جملتها في سرِّها واستدركت...

- هذه ثالث أو خامس حمامة تغتالينها.

تظلّ الزوجة الصغيرة جوري بدأبٍ تشتغل بشيءٍ ما في الدار وقت النهار، تقبعُ في المنزل الضحى، تطبخ وتغسل وتُطعم العجوز، ثم تلوذ

بجحرِها الصغير، بعيدة عن مناكفة العجوز، ثم تختفي في المساء وهذا ما يُثير ريبة العمياء التي تَكبَّتْ بداخلها شكّوكًا حول خيانة الفتاة لولدها الغائب في البحر... كانت جوري خلال فترة تواجد صالح على اليابِسة، تقوم بذات الأعمال في المنزل ومعهُ إضافة أخرى متضمنة، مضاجعة الزوج العاطل الذي لا يُجيد من عملٍ سوى ارتياد المقاهي الساحلية، ونادراً ما يخرج للبحر لصيدِ الأسماك رغم تحريضها الدائم له على ذلك، لكنه يكتَفي بهزٍّ رأسه بإشارة فارقة لتذكيرها بأنهُ اكْتفى من البحرِ لأربعة شهورٍ حزيمة بعيداً عن اليابسة، لم يرَّ خلالها سوى سماءٌ لامعةٌ بالزُرْقَة كالبحر، وبطيورٍ مهاجرةِ محلقة من بعيد يسقط بعضها في البحر لشدّةِ الإنْهاك، وبعضها يَعْلَق على صواري السفن، فتسمعُ عند فترة ما قبل النوم نحيبها...

- اخرجيني جوري للسوق للتبضع، لا شيء لدينا للأكل غير سمكٍ مملح وجريشٍ عتيق، قلبي يدقُ من الجوع... أنتِ تخرجين وتأكلين وتشمين الهواء وأنا محبوسةٌ هنا منذ شهور بين الغرفة، والفناء، وسريري الذي تَعفَّنَ لشدّةِ مكوثي فيه... ألا تخافين الله فيّ...؟

لم تكن جوري بقربها، فلم تسمع شكواها، كانت جالسة على عتبة الدار الداخلية المطلّة على الفناء، وقد بدأ الليل يرْخِي سدُوله على المنزل. كانت تعرف وقت، الليل من النهار بفطرتِها، وتشعر حتى بإشعال فتيل مصباح الزيت أو الشمعة، لكنها تجاهلّت ذلك كلهُ وساقتْ عبارتها وهي مُدركة أن الأخرى لا تسمعها. لقد اعتادتْ على أن تفضفض بالكلام وتخرج ما في

جعبتها حتى بغيابِ كَنّتها للتعبير عن استيائها، أو للتخفيف من احتقانِها... حين خرجتْ جوري ترمي كيس القمامة، وسمعت العجوز دبيب خطواتها، كرّرَتْ عبارتها السالفة مع بعض التغيير في مفرداتها.

- جوري... بنتي أخرجيني من الدار لأشمّ الهواء...

- الوقت ليل عمة والهواء بالخارج يشوبهُ غُبارٌ عاتٍ وأخشى عليك من ضيق التنفس.

ردّت عليها جوري قافلة للداخل.

- سمْ يسمكِ يا الخائنة...

قالت ذلك بصوتٍ هامس ثم راحتْ تهْزجُ بموالٍ بحري قديم...

"كفّ الهرج بس ما عاد شغلي معاك إنصاف، الوصل بعد الجفاء كالغيث ليمن صاف، أما المودّة تجي بين الإثنين إنصاف، وإلا الملامة على قلّ المودّة خطا"

- جوري بنتي...

ظلّت تزْعق حتى خرجتْ الفتاة قادمة وقد غيّرت ملابسها، ارتدتْ فستانًا أزرق فاتح اللون، وسَرَّحتْ شعرها الطويل وجَدّلتْ أطرافه، طَلَتْ شفتيها بصبغةٍ فاتحة من اليود، وفاحتْ منها رائحة عطر شبيهة برائحة ماء الورد، بدت وكأنها تستعد للخروج وقد طوّت تحت إبطها ملاءة سوداء. جمدتْ وهي تُحدق بتأمّلٍ في العجوز التي كانت صامتة بعد نداءاتها المكرَّرة...

- قوديني للسرير، أشعر بغثيان ولا رغبة لي بالطعام.

قالت رقية العمياء ذلك وهي تمد يدها للفتاة.

- اعذريني عمة على خلو البيت من الطعام، سأخرج ساعة زمن أتدبر ما نأكله وسأعود أطعمك...

ردتْ جوري بنبرةٍ ودية...

- لا رغبة لدي للأكل أود اللحاق بسريري...

قالت العجوز...

- لم يحن وقت النوم رقية، انتظريني ساعة زمن وسأرجع ومعي الطعام والدواء لصدرك المريض.

- أشعر بحمى في جسدي وألم في ظهري، قوديني بنتي لفراشي أرجوك...

قالت العجوز بنبرةِ رجاء.

- أنتِ لم تأكلي شيئًا طوال اليوم وأنا مثلكِ، المنزل خالٍ من كلّ شيء حتى من التمر، سأتدبر لنا ما يَسِدَّ رمقنا وسأعود قبل أذان العشاء... لا تنامي قبل أن أعود.

قالت جوري عبارتها وهي تتحرك بتؤدةٍ نحو الباب...

- لو ذَهَبتِ الآن سوف أموت...

ردَّت العجوز بنغمةِ استجداء لا تخلو من مراوغةٍ.

- ولو بَقيْتُ أنا في البيت سوف تموتين من الجوع وأنا معك...

أجابتها جوري...

- إلى أين تذهبين بالليل؟

- لم يحنّ الليل بعدُ، نحن بساعةِ المغرب، سأخرجُ إلى حيث أتدبر طعامنا!

دنتْ منها رقية وهي تزْحف على ركبتيها وأمسكتْ بطرفِ فستانها وقالت وهي تشدُها نحوها.

- من أين تأتين بالمال في هذا الوقت العسير؟ لا أحد بهذا الزمن الرديء يمنحُ المال دون ثمن وأنت لا تملكين ما تقدمينه سوى...

قاطعتها جوري غاضبة وقد انْتزَعتْ نفسها منها وهي تسحب ذيل فستانها مبتعدة.

- سأجلس أنا بالمنزل واذهبي أنت تدبري لنا الطعام، هذا ما تريدينه؟ أنا مستعدة أن أُلازم البيت فاذهبي أنتِ إن شئتِ...

ردتْ العجوز وقد اسْتلقتْ على الأرض وغطَّتْ وجهها بالتراب وقالت متسائلة.

- ولماذا تتزينين عند الخروج؟

التفتتْ نحوها الفتاة ورَمقتها بنظرةٍ ساخطة وبدا عليها فقدان رجاؤها بالحديث معها، قالت وهي تهم بالخروج ناقِمة.

- حتى أكسب المال! هذا ما تودين سماعه مني؟ لقد ذهب وَلدُك للغوص منذ أربعة شهور وهجرنا، ولم يترك لنا قرشًا واحدًا نقتاتُ منهُ. أنت تريدين الطعام والدواء لصدرك المهترئ ثم هناك دفع الدَّيْن الذي خلَّفهُ ابنك قبل أن يُبْحر... من يتدبَّر كلّ هذا؟ رَبك الذي تعبدينه طوال اليوم لم يقدم لنا شيئًا؟ أم صلواتكِ التي تسكبين فيها دعاءك عَليّ بالسخط؟ أنا خارجة وانتظريني إذا كنتِ جائعة...

❁❁❁

عاشت جوري منذ طفولتها بجوارِ البحر، كرهتهُ ومقّتتْ روائحهُ في فصول الصيف الحارة بالذات، كانت تَشمُّ نكهتهُ فتلازمها وكأنها مرتبطة معها بالفقر، كانت مُنْغَمِسةً وقتذاك عبر صباها وألعابها النزقة بالبحر، بدت كنَفْحَة منهُ... الساحل والمجازفات الطفولية، كانت تَتعَرّى من ملابسها وتسقط فوق سطحهُ مع بقية الأطفال، ثم تخرج منه إلى حافَةِ رصيفه، لتَلج إلى عين المياه المجاورة لتسْتحمَّ، شأنها شأن الأولاد، لم تكن تفطن أَنَها في أحد الأيام ستخلدُ وحدها في الدنيا، كريشةٍ في الهواء، صمَّمتْ لها الحياة مسلكًا لم تخترهُ ولم تفتضحْ معالِمهُ بعد.

"ليس لي في الدنيا إلا أنتَ، ماذا فعَلتَ بيّ؟ تركتني تنهشُ فيّ ذئاب ساغِبَة، لو تعلم؟ لو يعلم الله! هل يعلم؟ لماذا خلقني وأزاحني من عنايتِهِ؟ عجوز عمياء لا حوْل لها ولا قوة في ذمتي... منزلٌ حقيرٌ بلا راعٍ بأطرافِ الحي، منبوذٌ بين البيوت، كيف أصون نفسي وأنا جسدٌ بلا روح؟ بلا حيلة

أواجه مصيري وحدي... تركتني ورَكبتَ البحر وجعلتني في وجهِ العاصفة... ألومك أم ألوم الخالق أم الكون الذي لا يَرحَم؟"

ظلّتْ تخاطب نفسها بصوتٍ مسموع، وكلمّا صادفتْ مارّة على الطريق، خفضتْ صوتها ثم عادتْ تواصل الكلام بلسانِها وعقلها يفكر بالبحر وعودّة سُفن الغوص واستعادة الرجال الغائبين لتعود دوْرَة الحياة إلى عهدها الرتيب... فقد بدا يلوحُ الشتاء وبرزَ التغيير بالطقسِ... تبدّتْ بوادر رجعة دوّران الحياة التلقائية مع رجوع البحارة والغاصة، فيمّا تأخرَ عن القافلة مركب الرُبان سليمان الهمام الذي عليه زوجها صالح الزري...

انقطعتْ عن مخاطبةِ نفسها، وانقطعَ تفكيرها حين بلغتْ منعطف الطريق، وَلّجتْ منزلاً كبيرًا بمحاذاةِ ساحل البحر جنوب مدينة المحرق الرمادية، دارٌ قديمة ذات طابقين معروفةٌ في الحي باسمِ دار دلال القوادة!

# 6

السفينة ريحانة-الزمن قبل أسبوع من الردّة-الوقت نهارًا-الحالة-عناقيد الشكّ

"مثل أي نهار بحري، بَزَغتْ شمس يوم آخر في الغوص، هواءٌ بارد يُداعب جسدي، في هذا الوقت الخريفي يخدعك الموج، يبدأ بالقاع دافئًا وحالمّا ينتصف النهار وتخبو أشعة الشمس، ومع رابع أو خامس غطْسَه، يَمْكُر بكَ الهواء فيرتعشُ جسدك، الفصل من هذه السنة يسرّع بالعبور، لم أيأس ولم يخبُ أمَّلي في العثور على الدانة، بل آمَّل بنهايةِ كلّ نهارٍ، أن أحصدها، كان هذا شعوري في هذا اليوم، اليومُ الخميس وألحّ الرُبان سليمان على تكثيفِ عدد الطلعات إلى القاع قبل العودّة إلى البَرّ... اختلف شعوري هذا النهار عن بقية النهارات... قفزتُ إلى البحر، آملاً الفوز بالدانةِ الزرقاء، غصتُ مرات... تبادلتُ مع رفيقي ومساعدي إدريس العِبارات، بدا مشفقًا عليّ ولكن أجلّ كلامه لليل حين نخلد للنوم قال لي ونحن بنهاية العصر:

- ألم تفقد الأمَّل بعد؟ هل تظنَ أن ما لم يُسْديك إياهُ البحر خلال شهور أربعة مُنصرِمة سيمنحك إياه في يومٍ أو يومين أو حتى أسبوع... خذ بالك من نفسك صاحبي ولا تتهوّر وعد لمنزلك ولزوجتك، معشوقتُكَ، الجميلة سالمًا غانمًا...

قال إدريس عبارته بنغمةٍ حزينة مشوبة بنبرةٍ ناصحة.

- نضيع سنيناً في الانتظار، وحين نصلَ نُدرك أن انتظارنا كان عبثاً...

- ربما هذا ما ترمي به عبارتك، احتفظ بها لأني سأصل للدانة أو لن أعود إلى البرّ...

لم يعد البحر هادئاً كما كان قبل أيام، هَبَت رياح شمالية أَلّبَتْ الموج فتصاعد اهتزاز المركب مع هياج البحر، راحت الأمواج ترْتطمُ بجوانبِ السفينة مُحدثة ضوْضاء بالتزامنِ مع الريح، كان أغلب البحارة والغاصة يؤدون صلاة المغرب صفًا هادئًا وبذات النسق المُكرر طوال الشهور... فيما كان صالح مختبئًا في ركن السفينة يفلق محارات مخبأة في صرَّة ثيابه.

كان البحارة والغاصة يؤدون صلاة المغرب فيمّا كان صالح مختبئًا في ركنٍ من السفينة يَفْلِق بضع محارات مخبئة في صّرّة ثيابه... وفيما كان هو يَفْلِق المحار، اِصْطَفَّ غالبية البحارة صفاً هادئًا، وراحوا يؤدون الصلاة بذات النَسقْ المُكّرر طوال الشهور التي أمضوها في البحر...

بعد أن تناولوا طعام العشاء وأدوا مرَّة ثانية صلاة العشاء، لاذوا منْهكين إلى خياشهم التي تمثل أسِرتهم! ولاذّ بالطرف الآخر صالح الزري وصديقه ومساعده إدريس الملا.

❁❁❁

- هل سَمَعتَ الإعلان الأخير للرُبان سليمان؟

سَأل إدريس صاحبه الذي انشغل بخياطةِ سرواله الذي المهترئ.

- كلّ يوم له إعلان.

ردّ صالح باقتضاب

- هذه المرّة اختلف الأمر فقد عَجلَ بالعودّة، وستكون بعد يومين لذلك أراد تكثيف الغوص اليوم الجمعة وسنشرع بالعودّة يوم الأحد، غدا قد يكون يوم راحة قبل العودّة، لهذا السبَّب غصْتُم اليوم بكثافة...

قفز صالح في مكانه وقد صُدِم، ترك خياطة سرواله من يده وجلس القرفصاء وقال متسائلاً بنبرةٍ مُحتدّة وقد أصيبَ بخيبة...

- متى جرى الإعلان؟

سَأل صالح وما زال مصدومًا.

- عندما كنت مختبئًا تفلق محارُكَ، وقف سليمان بعد الصلاة وأعلن ذلك، ألم ترَّ الجميع منشرحي الصدر، تناولوا وجبتهم وناموا سريعًا؟ وأنا سأنام الليلة مبكرًا ولن أنْصتُ لترهاتك

قالها بلكنة من يسْتفزّ فيه الحديث

- اسمع إدريس غدًا سأغوص لآخر مرّة، سَأتوّسل الربان سليمان حتى لو تطلب الأمرّ أن أُقبّل قدميه. أشعر بالمحارة تنتظرني هناك وتناديني... صالح عد إليّ...

- هل سمعتُها بأذنيك؟

ردَّ إدريس ساخرًا...

- أنت تسخر مني ولكن غدًا ستراها بيدي...

اعْتدَل في قعدتهِ واستدرك...

- سأغوص لها ولو تطلب الأمر الموت...

- أعوذ بالله...

ردّ إدريس ثم أضاف.

- همك بكسب اللؤلؤة قد يُكلفك حياتك صالح، أنصحك بالتعقل، لقد تغيّر الطقس والرياح شديدّة وباردة وخاصة في القاع فاحذر التهور.

قال ذلك بنبرةٍ جادة اختلفت عن نغمة المزاح السابقة.

- لا تيأس إذا مزقتْ الرياح شراعك فربما دفعتك هذه الرياح لغايتك...

أجابه صالح وقد انتفضَ وابتعد عن صديقه مسافة، سار يتهادى على ظاهر المركب مبتعدًا ثم عادّ بعد مدّة وبيده نارجيلة استلفها من أحد البحارة المدخنين... جلس بقربِ صاحبة وسط دهشة الآخر، وراحَ يَشفطُ النارجيلَة وينفث الدخان في وجه الآخر، ويتنهد بسخونةٍ ليطلق ما في قلبهِ من مشاعر.

تاهَ عقله ولم يعد يسمع صوت إدريس وهو يخاطبه، انخرط في استعادة ذكريات مكبوتة لم يُصرح بها حتى لرفيقه خلال الفترة المنصرمة. كانت هناك مشاعر بينه وبين زوجته دفنها في عقلهِ الباطن وأهالَ عليها الحنين لها، لا يريد أن ينبش تلك الوقائع التي ارتبطت بذكرياتٍ حزينة، طمرها يوم غادر اليابِسة وأزاحها من قلبه وعقله، وحطَّ موضعها شغفه بها، وبينما كان الآخر يُحدق به، كان هو يستذكر ما وقع بينه وبين جوري من نوباتٍ خلافية، كادت تهشمّ زواجهُما، فقد أقرّتْ له بأنها أَجْهضتْ حَمْلَها بنفسها بعد سبعة أسابيع من زواجها منهُ قالت ذلك قبل مغادرتهِ للغوص بأيامٍ معدودّة، وحين سألها عن حجم الجنين روّتْ له بتفصيلٍ دون أن يبدو عليها التأثر، بأنهُ نمّا في بطنها دون أن تشعر به، وحين أسقطتهُ عمدًا كان بحجمِ حبة اللوز البحريني، كانت تلك الجملة الجامدة كالحجر، بمثابةِ غيمة داكنة حلقَّت فوق رأسه، كانت تَصْدق مرات، ومرات تكذب، وزاد من حيرته، أنهُ لا يعرف أين يَكْمن كذبها وأين يتوارى صدقها؟ لكن ظلّت روايتها تلك راسخة في ذهنه مدفونة مع مشاعره المكبوتة طوال فترة الغوص...

- أين أخذتك النارجيلة؟

أفاق على سؤال إدريس الذي لكزهُ بقدمه وأضاف...

- لم تعتد التدخين ماذا أجبرك عليها؟ كلّ ذلك لأننا سنبحر إلى البر... هذا خبرٌ جيد.

- لم تسرقني النارجيلة بل جوري وذكرياتها الحزينة...

أجاب، وعاد يشفط الدخان.

- أنت لم تحدثني عن ذكريات مغمومة، كلّ ما روّيتهُ لي كان عن سهم الحبَّ الذي أصابك في قلبك الرهيف.

قال ذلك وهو يضحك.

- لأني حبَستُ الوقائع المُرَّة في صدري ونبشتُ الوله والشغف لأغطي على ذكرياتي المُوجِعة... آه لو تعلم إدريس بودي لو أُفضي لك بكلّ ما في قلبي من حرقةٍ ومرارة قبل أن أطلع البحر غدًا... أستشعر إحساسًا غريبًا وغامضًا يداهمني منذ علمت بعودتنا للبر بعد غدٍ وكأني بالدنيا قد خانتني والله تخلى عني...

- الله لا يتخلى عن عباده.

أجابه إدريس.

- بلى... سيتخلى عني إذا لم يوفقني غدًا لمحارة العمر...

ردَّ عليه.

- لقد سحرتك جوري وقَلَبَتْ كيانك يا رجلاً... كم رجل تعتقد في الكون مثلك سلّم أمرهُ لامرأة تغوص به للقاع وتخرجه للسطح، تعصرهُ وتشويه وتحطمه... أعرفك صالح أنت من أقوى الرجال، فأنت واحدٌ من غاصة لم تنجب البحرين مثلهم رغم سنك المبكر ولكن امرأة هزمتك مع أنك هزَّمْتَ البحر.

عاد يَكرُّ على النارجيلة وينفث الدخان ويزفر بحدّة...

- ألم تنتهِ من النارجيلة صالح؟

فاجأه بحار مُسِن، بدا هزيل البنية طويل القامة، داكن البشرة وقد انتصب أمامه وهو يشير إلى النارجيلة بسؤاله.

- لقد أحبطتني النارجيلة أكثر... خذها مني لأنها نبشَتْ أفكاري السوداء أكثر...

كرَّ عليها بحدّة ولمدّةٍ طويلة ثم سلمها للرجل المنتصب الذي أخذها منهُ وقال مبتسمًا.

- أنت ممن يفكر في امرأته...

مسحَ بيده طرف قصب النارجيلة وشفطها ثم أردف قائلاً...

- كان الله في عونِكَ وعون امرأتك...

بعدها غادر البحار وسط دهشة كلّ من صالح وإدريس.

- هذا الرجل الكهل يعرف أسرارنا.

قال صالح ذلك مستغربًا.

- لا تستغرب... هذا خميس المؤذن ويعتمدهُ الربان في قراءة الغيب وفهم الأسرار ويفكّ الطلاسم ويقرأ البخت وهو الذي أشار لسليمان الهمام بتأجيل العودّة للبر...

- هذا ما يعجبني فيه.

عقب صالح.

- لكن لم تُفْصح لي ما الذي أصابك الليلة وقَلَبَ كيانك وجعلك تدخن النارجيلة وتنفث ما بداخلك من دخان؟

سأل إدريس.

تنهد صالح واعتْدل في جلستهِ وهز رأسه وقال بنبرةٍ ساخنة...

- هل لديك وقت لتسمعني؟

- لقد أنْصتُّ لك أربعة شهور وبضعة أيام فما يُضرني أن اسمعك ليلة أخرى؟

أجابه إدريس.

- ما سأقوله لك الآن يختلف عن كلّ ما سمعتهُ من قبل، ولن تسمعهُ مني بعدها، هذا سري الدفين سأبوح لك به ولمَرّة أخيرة إنساه بعد ذلك...

قال صالح ذلك بنبرةٍ حاسمة واستطرد...

- لا تُفشِ السرّ ولو اجتمعتْ الملائكة والشياطين...

❁❁❁

لم يعد البحر هادئاً كما كان بالنهار، هَبَتْ رياح شمالية نَشَّطتْ الموج فتصاعدَ ارْتجاج السفينة الراسية بخنوعٍ، مسْتسلِمة للسكون الذي عكَرتهُ حركة ارتداد الموج، انتصبَ أحد الغاصة، قصير القامة كان بعمرِ الثلاثين يؤدي صلاة مُتأخِرة بمحاذاة صالح وإدريس. فيمّا برزَ اثنان من البحارةِ يعدان فراشهُما للنوم، أما بقية البحارة فقد غطوا في نومٍ عميق. لم تكن الليلة مُقْمِرة بالكامل... كان ثمة ضوءُ شاحب يسمحُ برؤية الأفق لمسافةٍ محدودة،

وبدتْ النجوم في السماء كعادتها متناثرة بكثافةٍ وكأنها تتزاحم على وليمة...

- لقد كذبتَ عَليّ ولا أعلم إن كانت هذه المرّة الأولى أم هناك سلسلة أكاذيب، من أصدق هي أم والدتي رقية؟ الشكّ يأكلُ في عقلي إدريس...

ذكّر له ذلك بصوتٍ مغموم

- هل هي كذبة صغيرة يمكن تمريرها، ربما إذا كانت كذلك فهي عادّة كلّ النساء، رغم عدم خبرتي بالنساء.

قال إدريس له ذلك من بابِ التخفيف من حدّة شجنه.

- ألا تشعر بالبرد قليلاً؟

سأل صالح وأجاب بنفسهِ...

- لقد تغيّر الطقس...

- وأنت لا تريد العودّة للبر.

قال إدريس.

- لقد أسقَطتْ جنينها دون علمي واعترفتْ لي قبل ركوبي الغوص.

نطقَ صالح العبارة ورأسه للأسفل دون أن ينظر في وجهِ صاحبه.

- على الأقل اعْترفتْ بذلك وهذا يغفر لها...

ردَّ إدريس مخففًا عليه.

- هل تظْنّ ذلك؟

سأله صالح وأردف...

- لقد أزلْتَ بعض الشكّ من رأسي...

- أنت تحبها صالح فتَقَبل هفواتها.

أطرق صالح متفكرًا ثم قال:

- لقد خَذَلتني إدريس بإسقاطِ الجنين الذي كنت أحلم به، وما شَتّت ذهني في كذبتِها أنها في بداية زواجي منها قالت إنها تشكّ بأنها عاقر وأنها لا تحمل ويبدو أنها نستْ ما قالتهُ بالأول حين اِدعتْ اسقاط الجنين، أيهما أصدق؟

قال ذلك وأطرق يفكر سارحًا بعمقٍ وكأنه يستعيد مع نفسه بعض الوقائع معها.

- أخبرني صالح ماذا ترى فيها؟ ما الذي يشدُّكَ لها بكلّ هذا الشغف والجنون.

- أنت لا تعرف الحبَّ إدريس.

أجابه صالح وهو يبتسم باقتضاب

- أسألك لأفهم لغز علاقتك معها، فلعلّ هوّسَكَ بها هو ما صوّر لك هذا الشغف ودفعك للجنون، إنها كأي امرأة عليك أن تنظر لها كوّعاء للشَهوَة ولا يجب أن تُفرّط في مشاعرك وإلا قادك ذلك للجنون...

صمتَ لوهلةٍ ثم استأنف ضاحكًا كما لو يواسيه.

- ألم تسمع عن مجانين مدينة المحرق الهائمين على وجوههم في الطرقات يُحَدِثون أنفسهم، إن غالبيتهم وراء جنونهم نساء؟ خذ مثلاً رستم

العجمي... لا شك أنكَ تعرفهُ فهو أشهر من نارٍ على علم في المدينة لقد جنَّنَتهُ امرأة أحبها وهجَرتهُ... خذ مثالاً آخرًا بو حسن الذي يجلس على الساحل ويشْتُمّ البحر حينًا ويغازله حينًا آخر، لقد فقد عقله بسبَّب امرأة... فهل تريد نفس المصير؟

- ألا تناموا، وراءكم غدًا يوم حافل استعدادًا للردّة؟

جاء الصوت من مسافة قريبة لأحدِ البحارة ويُدعى غانم وقد أثار ذلك انتباه صالح الذي همسَ في أذن صاحبه قائلاً...

- يبدو أنه سَمعَ كلّ حديثي.

ردّ إدريس...

- غانم هذا فضولي وحشري، دعكَ منه، وتعال نغيّر مكاننا، سنذهب وراء مخزن المؤن...

بدا على إدريس الرغبة الشديدة في معرفة المزيد عن علاقةِ جوري بصالح، واتضح ذلك من سؤاله له...

- كم عمرها صالح، لأن للسِنَّ علاقة بالسلوك ويمكنك تفهّم تصرفها من خلال عمرها، لكن دعنا أولاً نبتعد عن الفضولي الذي إذْناهُ الكبيرتين في كلّ الارجاء!

- ما هو الوقت الآن...؟ أريد غدًا النزول للبحر للمرّة الأخيرة مهما كلفني الأمر، سأبكي عند قدميّ الرُبان ليسمح لي بذلك.

قال صالح

- لا تفعل ذلك لأنكَ ستثير شكوكهُ حول أسبابك وقد يرتاب بأمرك.

ردَّ إدريس وأضاف...

- الوقت يقترب من ربع الليل الأول...

تنهدَ صالح وهو يحمل مرْقده يتبعهُ صاحبه إدريس الذي قال بصوتٍ هامس:

- معنا الليل بطوله أريد معرفة سِرّ تعلقك المجنون بها لأنقذك من شَرِّ حبِّك لها.

❁❁❁

# 7

المكان-السفينة ريحانة-الوقت-منتصف الليل-الحالة-عناقيد الشغف

توارى بالتدريج ضوء القمر بعد أن تآكل... هدأ الموج بعد أن تغيّرتْ وجهة الرياح من شماليةٍ دافئِة وجافَة إلى جنوبية رطبة وسمجة... انْعكسَتْ الرطوبة اللاذِعة على السطح وتَسلّلتْ لأجسادِ الرجال النائمين... وحدهُما صالح وإدريس ولعلّ هناك غيرهم تواروا هم الآخرون وراء الصمت بزاويةٍ هنا أو ركنٍ هناك، هدوءٌ وسكون يقطعهُ صوت شخير بعض الرجال.

- كم أنا محظوظ بحلُولِ هذا الطقس الصيفي الذي يبعثُ بدلالةٍ ذات مغزى للغوصِ مع فجر نهار الغد.

قال صالح بصوتٍ هامس... فقد كانا يتحدثان بنغمةٍ خافِتة حتى لا يكاد يَسْمَع أحدهُما الآخر خشية افتضاح أمرهما.

- الحَرُّ الليلة شديدٌ وكأن الصيف في بدايتهِ.

قال إدريس...

- هذا لأن الله يبلغني برسالتهِ لأغوص غدًا

ردَّ صالح

- أو ربما رسالة تقول لا تنزل البحر في هذا اليوم الشديد الغرابة، لعلّ فحوى الرسالة ألا تقفز في البحر... كم من الرسائل الإلهية لا نُحْسنَ تأويلها فتدفَعُ بنا للهاوية...

استفز هذا القول صالح الذي ردّ محتدًا بصوتٍ مرتفع... ما أوعز للآخر أن يرْكلهُ في قدمه منبهًا إياه لخَفضِ صوته.

- أنت لا تريد ليّ الخير!

- بلى صالح لولا ذلك ما طلبتُ منك الاكتفاء من الغوص.

صمتٌ

- حدثتني هذا النهار عن جوهر زوجتُكَ، لقد وعدتني بتَكملةِ حديثك عن سرِّ جنونك بها...

فكَّر صالح وهلَةٍ، زفَرَ وقال...

- وأنت إدريس ما سرَّ فضولك بمعرفةِ علاقتنا الزوجية؟

قهقه إدريس وردّ ببرود

- أنت من أقحمني في العلاقة وأنت من يخرجني منها، إذا أردت بالتوقف عن الشكوى لي عنها...

- هذا صحيح صاحبي

صَمّتَ وتأمَّلَ ثم تنفس وقال.

- أسمع...

قال صالح وتوقف.

- ماذا؟

سأل إدريس...

- لا تسمع الليلة اِعْتلاج الموج ولا هزيز الريح ولكن سَتَنصتُ لصوتي الداخلي... هناك الكثير لم أسردهُ لك بسبَّب رغبتي بعدمِ افشاء أسراري وبنفس الوقت يعذبني ألا أفضفضَ ما في داخلي من بركان الكلام... أريد أن أُنفسّ عن حجم البركان وأخبر الدنيا لماذا أعشق جوري بجنونٍ...

- لماذا تعشق جوري بجنون صالح؟

سأل إدريس...

صمتٌ طويل...

- ماذا؟

سأل إدريس ثانية...

- سأروي لك قصتي مع جوري بتفاصيلها لو سَرَقتَ الآن لفَة سيجارة من أحدهم!

قهقه الآخر، سرحَ لوهلَةٍ وقال.

- هل تعني ذلك حقًا؟ أنت كنت لا تُدخن النارجيلة واليوم هي المرَّة الأولى، لقد اسْتغربتُ منك تدخينها.

- من يُفكر بمِثلِ جوري توَقَّع منهُ كلّ الجنون... خذ مثلاً... طَلَبَتْ مني يومًا أن أرمي أمي في البحر أو ستهجرني، ماذا تتَوَقَّع أجبتها!؟

نهضَ إدريس وجلسَ القُرفصاء وفتَحَ فاه وحَدقَ بصالح بعينين متوردتين وقد صُعق... تَلفَتَ حوله ودون انتظار ردّ من صالح، نهضَ وغابَ لفترةٍ وجيزة... راح يمشِي على أصابعِ قدميه يتَطلَّع حولهُ بحذرٍ وخوف، ظلّ يتلفَتْ يمينًا وشمالاً وهو يتفحصُ البحارة النائمين، فجأة جَمدَّ في مكانهِ حين سمع نوْبةِ سعال صادرة من أحدِ البحارة... أدركَ أن الرجل من المدخنين، كان صوتُ صدره وهو يتنفس دليلاً على أنه من المدمنين على لفّ السجائر، أنتظر لبُرهةٍ حتى أدرك أن الرجل يغطُ في نومٍ عميق رغم موجة السعال التي صدرت عنه.

- هل يستحق الأمر كلّ هذا؟ يبدو أن جوري تدفع الجميع للجنون! إنه يدفعني مثلهم للجنون... ما الذي أفعلهُ بحقِ الشيطان؟

خاطبَ نفسه وقد رَكَعَ على قدميهِ بقربِ الرجل الذي كان يتنفس بصعوبة، تلفتَ حوله، كان الهدوء يسودُّ المكان... توَزَّعَ الرجال الاثني عشر على كاملِ سطح المركب، كان يخشى أن يكون ثمة من هو صاحٍ مثلهُ ويراقبه في هذه اللحظة.

- هل تستحق جوري هذه المُجازَفة؟

سأل نفسه، ثم بَركَ على جثةِ الرجل النائم وبدأ يعبثُ في صرةِ ملابسهِ...

- أنتَ لِفَّ السيجارة، أنا لا أعرف كيف يفعلونها؟ هل تعرف أنتَ؟

سأل إدريس صالح وهو يدفع لهُ حفنة من التبغ وحزْمة صغيرة من ورقٍ شفاف أبيض اللون بعد أن عاد متسلِّلاً كلصٍ، بل هو لص!

بعد أن قضيا فترة في تحضير السيجارة... فجأة نظرَ صالح بدهشةٍ إلى صاحبهِ وقد بدا مصدومًا.

- بماذا أشْعلُها؟

تبادلا النظرات المُحيّرة وملامح الخيبة على وجهيهما، تناوبا تلك النظرات برتابةٍ لفترةٍ ثم أدرك إدريس مغزى نظرة صالح فسارع القول بنبرةٍ حاسمة...

- أقسم بالسماء والأرض، لن أُجازف مرَّة أخرى حتى لو...

قاطعه صالح...

- لا تقسم أرجوك... سوف أروي لك قصتنا بكلِّ أسرارها التي لا تتَخيَّلها.

توقفَ إدريس ونظر إلى صالح ثم تساءل سرًا في داخله" هل يستحق الأمر ذلك؟"

أمسكَ صالح إدريس من يدهِ وأضافَ بحماسٍ شديد...

- لو أشْعلتُ السيجارة ودخنتُها الليلة أُقْسم لك بأنك ستسمع مني فقط ما يعلمه الله وحده... فيمّا بيني وبين جوري.

- هل تروي لي كلّ شيء بالتفصيل؟

سأل إدريس بنغمةِ شغف وفضول.

- كلَّ ما يعلم به الله؟

ردَّ صالح وما زال يقبض بالسيجارة بين أصابعه...

- كلّ ما يعلم به الله... حتى ما يجري في الفراش بينكُما؟

سألَّ إدريس بنغمةٍ مراوغة

- وماذا يَهمُك في ذلك المكان الخفي؟!

تنهدَ إدريس وقال بنبرةٍ موارِبة:

- فضولٌ من لم يعاشر امرأة في حياتهِ أبدًا، أودَّ معرفة كيف يجري الأمر بين الأزواج في الخفاء ربما أتعرض للتجربة ذات يوم.

فكر صالح وقال...

- بشرط لو أحْضَرتَ لي عود الثقاب...

ضحك إدريس... هَمسَ في أذنِ صديقهُ.

- ستعرضني لمحكمة الرُبان

نهضَ وراح يخاطب نفسه بصوتٍ منخفض.

- في سبيلِ جوري سأُجازف...

حين بلغَ منتصف السفينة لَمحَ عينٌ تومض في الظلام وأسنان بيضاء ناصعة تلمعُ، لم يُميّز الوجه ولم يرَّ جثة موجودة، فقط عينان وأسنان. تَجمّد في مكانهِ وبدا حائرًا بين الاستمرار في طريقهِ أم العودّة أدراجه. كان واثقاً من أنهُ لا وجود لجثةٍ بالمكان، لأنهُ بطريقهِ المرَّة الأولى وهذه المرّة لَمَحَ

جميع الأجساد النائمة، إلا هذه، خفقَ قلبه وارتجفَتْ قدماه، فجأة امْتدَتْ يد وبها علبة ثقاب وقدمته له...

- أعوذ بالله...

قال في سرهِ وما برِحَ من مكانهِ فزعًا ومترددًا، تساءل في رأسه، هل رأتهُ الجثة في المرَّة الأولى وتجاهلتهُ، ترى لمن يؤوب هذا الجسد؟

- خذ لا تخفْ أنت محتاج لشعلة...!

مدَّ الكائن الخفي له علبة الثقاب، دون أن يرى إدريس اليد التي أعطتهُ، انتزعهُ بتؤدةٍ وعادَ أدراجهُ وقلبهُ يكادّ يقفز من مكانه...

- هذا المركب مسحورٌ صالح!!

❁❁❁

# 8

السفينة ريحانة-الوقت منتصف الليل-الحالة-عناقيد الأحلام

البحرُ ينْحسر... ضبابٌ كثيف غطى منزلاً صغيرًا فوق التَلَّة، ثمة كلبٌ صغير تائه يحوم حول محيط المنزل، كان ضوءٌ شحيح يتسلّل من نافذةٍ خشبيةٍ مفتوحة على مصراعيها بأسفلِ حائط الدار القديمة المتهاوية... تيارُ هواء معتدل يُحرك أطراف سعفَ النخلَة المطلّة على الطريق من داخل المنزل.

تسلّلَ وجهُ فتاة بشرتهُ بنية اللون... خَرجتْ من النافذة ووقفتْ على الجدّار، انْبرتْ متألقة بطراوةِ جسدها، وقوامها المتساوق الطول يميل إلى نحافةٍ مُثيرة، مكتنزة عند الردفين والفخذين، ذات عينين واسعتين رماديتين تذكو بنكهةِ البحر، تسير على إيقاع ضوء الجدّار الذي بدا وكأنه سلمٌ تعبرُ عليه بقدمين حافيتين ناصعتين. فجأة تحوّلَ لونُها إلى بياضٍ ناصع أشبه ببياض الحليب. كانت حزينة ويائِسة وقد ارْتدتْ قميص نوم أبيض شفاف فضحَ تضاريس جسدها الهيوف عند الخصر والبطن.

- أنتَ إدريس الملا... صح؟

- أنا هو.

جلَستْ على حائط المنزل الواطئ، تدلتْ ساقيها البيضاء الملساء كالثلج، ساحتْ ضفائرها وجُدِلتْ عند الأطراف، ابتسم إدريس وانعقد لسانه، كان ينتظر منها أن تبادرهُ بالحديث لكنها اكتفتْ بالصمت، فيمّا اكتفى هو بالنظر إليها. كان الوقت مبهمًا لم يوحِ بليلٍ أو نهار، بمساءٍ أو صباح، ثمة عتمة وضوء، يتوزعان الأرجاء، كان الطريق خاليًا من المارَة، الأفق بدا ضبابيًا والحرارةُ مرتفعة وفي الأسفلِ على الأرضِ برَزتْ طبقةٌ من الأعشاب اليابسة والمهترئة، كان الهواء مُشبعًا برائحةِ البحر... السكون سادَ الرقعة المنعزلة التي قبعَ فوق تلتها الترابية المنزل... وقف إدريس وهو يرتدي ثوبهُ الأبيض، حاسر الرأس، وقد شَبكَ يديه، جَمدَ في مكانهِ وراح ينظرُ للفتاةِ التي جلستْ على الجدّار بقرب النافذة العتيقة التي انْثلَمتْ ألواحها.

- ما أخبار البحر؟ لقد تأخرتم في العودّة، الجميع عادوا ماعدا أنتم، لقد بدأ موسم الشتاء والسماء تنذرُ بعواصفٍ وأمطار وأنا منذ أيام أنتظرُ خبرًا أو دلالة، علامة تنبئ عن موعد عودتكم... ولا شيء في الأفق يلوح.

وقف حائرًا فهذه المرّة الأولى التي يواجه فيها امرأة بحياتهِ، فلم يسبق أن تحدث مع فتاة، لا تعرف طريقة الكلام مع النساء ولا خبرة لديه حتى بالنظر في عيونهن، لم يسبقَ لهُ أن تواجه مع امرأة... ظلّ يطوف بنظراته الشاردة بين الفتاة ومحيط البيت الذي سادتهُ العتمة... فجأة هبطتْ الفتاة عن الجدّار واستوّتْ على الأرض، تقدمتْ خطوة منهُ... ارتجف وخفض رأسه

إلى الأرض، ابتعد عنها خطوة فلحقت به وأشارتْ عليهِ أن يتبعها، سارت نحو الباب ووْلجَتْ للداخل، تبعها، راح يجول بنظراتهِ الخائفة انحاء الدار، سار خطواتٍ نحو عتبة الغرفة وهي تنظر فينة للأمام وأخرى للخلف للتأكد من أنه يتبعها، وقعتْ عيناه على النخلَة، مرّتْ على فضاء لم تتضح له ملامحها في الظلام، وقَفتْ عند الباب وغابتْ برهة ثم عادت ومعها شمعة، أشارتْ إليه أن يتبعها، سارتْ وهي تقودهُ نحو غرفة تتوسط المكان تقابلها حجرة صغيرة...

وَلَجَتْ الحجرة، تبعها... وجدها غرفةٌ ضيقة، اهتزتْ بيدها الشمعة، أضاءت المطرح... وقف واجمًا، شَرعَ يتأمَّلها، فيما التزمتْ هي بالصمت.

"كم تحمل معك من مال؟

بدأ ضوء الشمعة يَبهتْ... اسْتَلقَت على ظهرها وهمتْ بسحبِ قميصها الشفاف للأعلى... ارتجفَ جسدهُ النحيل دون أن يتحرك فيه شيءٌ كما ظنّ من قبل وهو يتخيّل نفسه منفردًا بامرأة تغويه... نَزعتْ عنها سروالها الرحب ورمّتْ به على الأرض، لم يلمح تضاريس جسدها في الضوء الباهتْ الأقرب للعتمة، لمحَ ظاهر بطنها كاشفاً عن نحافة رهيدة، بَرزَ خصرها رشيقًا، بدا أشبه بغصنٍ شجرةٍ منيفة، ولم تلمح عينيه في الظلام أكثر من ذلك... اكتفتْ بصمتٍ وهي تقوم بمدّ يدها ووضعها أسفلها، تنهدتْ قائلة بهمسٍ.

"أين اللؤلؤة الدانة التي وعدتني بها؟"

استيقظ صالح على صيحة إدريس فزعًا...

- إدريس؟ هل كنت تحلم؟

سألَ صالح صاحبه الذي قعدَ على السطح وقد تصبَّبهُ العرق وسال خيطٌ من لعاب رفيع بطرفِ شفتيه، مسحهُ بيده وراح يُحدق بوجه صالح الذي ابتسم وهو ينظر إليه بمبالاة وكأنهُ يحفزهُ على سَرْد حلمه...

- ماذا كان حلمك؟

في هذه الأثناء رفعَ خميس أذان الفجر. كان الظلام مخيمًا وكأن الليل في منتصفهِ، تردَّد صوت المؤذن الذي وقف بمنتصفِ السفينة وارتدي قميصًا داخليًا وإزار متعدد الألوان والرسومات، لفَّهُ عند محيط نصفه الأسفل، كما ارتداهُ جميع البحارة على المركب وخاصة بالليل عند النوم. ظلّ يؤدي الأذان دون أن يحرك ذلك أيٍ من البحارة الذين غطوا في سباتٍ عميق.

- هل فات الوقت على رواية الحلم إدريس؟ بيّ فضولٌ حزيم أن أعرف يا رجل ما الذي أفزعك هكذا؟ أنت لا تغوص مثلي حتى أقول إن قرشًا هاجمك، ولا أنت بعاشق شَبّهي أيضًا حتى أحزر بأنك كنت تحلم بمضاجعة زوجتُكَ... ما هو هذا الحلم المُريبْ الذي روّعك إلى هذا الحَد؟

لم ينم صالح الليلة بطولها... كان مستيقظًا وعيناه مفتوحة على آخر نجمة كانت وحدها بالسماء... أفكارهُ مُشتّتة بين البرّ وقاع البحر، لابد له غدًا، بل اليوم، فقد بدأ يومٌ جديد وبعد غد سوف تُرْفع المرساة وتُبْحر ريحانة إلى اليابسة... ولن يعود خالي الوفاض، جوري تنتظر عودته وتأمّل معها

وعده بالدانة الزرقاء التي وعدها، وإن خذلّهُ الله اليوم ولم يفلح بصيد تلك اللؤلؤة فعليهِ أن يستعد لحسابٍ آخر ليس مع جوري بل مع نفسه طوال السنين القادمة.

- لم أنم طوال الليلة وأنت غبت عني في رقادٍ عميق جعلك تحلم بالوحوش...

قال ذلك وهو يَتلفّت حولهُ مرتابًا بعد أن انتهى صوت أذان الفجر وما زال الجميع مستغرقين في النوم، بانتظار الأذان الثاني لينهضوا... فبعد أن علموا بإعلان الربان بأن يوم بعد الغد موعد العودّة للبر أرادوا استكمال نومهم بالليلة الأخيرة وهذا ما يبدو أَخَّرَ نهوضهم.

- حدثني عن حلمك قبل أن يصحى الجميع؟ أم هو حلم تخجل منه؟ أم أنهُ يُخيفُك حتى لا تذكره؟

كان صالح مصرًا على معرفة ما أفزع إدريس وجعلهُ يقفز من نومهِ مرتاعًا ينزف بالعرق وقد حبس أنفاسهُ وجَحَّظَت عيناه.

- حلمتُ بامرأة!

قالها وقد بدا مُريب المظهر، غير واثقٌ من نفسهِ رغم عدم معرفة الآخر به، ساورهُ الشكّ حتى بمجرد أن نظر إلى وجهِ صاحبه خشية أن يفتضح أمر حلمه الذي رأى فيه جوري أو خُيّل إليهِ أنها كانت جوري... عَجَبَ من الحلم ومن المرأة وكيف تسلّلتْ إلى عقله؟

- لا أصدق إدريس... صفّ لي إياها!

سألهُ باشتياقٍ مشوبٍ بالفضول، فلأولِ مرّة يسْمعُ منهُ شيئًا عن امرأة حتى لو كانت في حلمٍ.

- نَسَيتُ شكلها! أجاب باقتضابٍ.

- هل يُعقل إدريس تحلم بامرأة وتصحو فزعًا؟

سأل صالح ولكزه على كتفهِ مستجديًا أن يتكلم...

- كانت تجلسُ على حائطِ الدار، ثم سحبتني لداخل المنزل، وتَعَرَّت...

دنا منهُ صالح وبدأ يستدرجهُ...

- بعد ذلك؟

- سألهُ صالح.

- التَمسُكَ صالح أعفني من الكلام، أحسُ بصداعٍ حاد وشعور بالغثيان.

قال إدريس عِبارَةُ الرجاء ليهرب من الخوض في الحديث عن حلمهِ، اعتدل في جلسته ووجه دفّة الكلام بقولهِ...

- لم تنم بعد... كيف ستغوص اليوم وأنت بهذا الحال؟ أنصحك بصرفِ النظر عن ذلك، وحَضّرْ نفسك للإبحار بعد غدًا، فكر في جوري وهي تنتظرك وتستقبلك بفستانٍ أبيض شفاف... هل ترغب بأجملِ وأرق من ذلك؟

- كيف عَرّفتَ أنها سترتدي فستانًا أبيضٌ شفاف؟

خبطه برفقٍ وهو يقهقه وأردف بنبرةٍ دهِشة...

- هل حَلِمتَ بزوجتي جوري إدريس؟!

# 9

السفينة ريحانة-الوقت نهار-الحالة-عناقيد الطفولة

"بداخلنا ذاكرةٌ قصيرة المدى وذاكرة طويلة المدى، عندما اعْتزَمتُ ركوب البحر وأنا بسِنِّ السابعة مع جدي الذي تربيتُ في كنفهِ ولاقَيتُ منه كلّ المهانة والقسوة، كنت أظن أنه يكرهني ويمْقتُ وجودي معه بسبَّبِ كرهه لوالدتي التي لم تعرف كيف تقنعه بوجود أب لهذا الطفل الذي حَمَلتهُ معها بعد ولادتهُ المشبوهة واعْتبَرتهُ ابنها من دون دليل. لم يكن الجدّ والد خديجة الفرض التي عانتْ المخاض وحيدة، منبوذة، يرعاها قبل وبعد الولادة، لم يسْندها أو يتَكفَّل بتحضير وضع الولادة، وحين فاجأها الطلق لم تجد سوى نفسها تتَدبرَ مع جارة كبيرة بالسِنِّ ساعدتْ برعايتها إثر الولادة المباشرة حين لم تعرف الوالدة التصرف مع حالة الدماء والسُرَّة وما تلي ذلك من معاناةٍ شديدة الوطأة كابدتْ منها عديدٌ من نساءِ مدينة المحرق اللواتي أغلبهُنَ كُنّ قد وقعنّ في حبائلِ جنود الاحتلال البريطاني ضحية فقرهن وحاجتهن للمال والرعاية، وسرعان ما حَبِلنّ ولم يدركن غالِبيتِهن حتى كيفية التخلص من الجنين... ليست أمي واحدة منهن ولا أشتبه فيها ولكن تصرف جدي فيما

بعد معي، حفزني على الشكّ... كنت كيتيم الأب والأم، لم أرّ أيٍ منهما بمجرد أن وعيتُ، وحين انتزعني الجدّ من طفولتي وغرسني معه في عالم البحر، بداية بالصيد ومن ثم بالغوص كصبيٍ يخدم البحارة إلى أن عَوّلتُ على نفسي لأضحى غواصًا، يُعْتدَّ به كما لَمَستُ ذلك من الرُبان وبقية البحارة معي... هذه هي سفرتي الثانية كغواص وأَتَتْ عقب زواجي من جوري التي تشبهُ قصتها قصتي، بعدة أشهر، لم أرْتوِ بعد من تذوقِ طعم الشَهدَ منها، حتى أبحَرتُ وها أنا الآن أتأهب لآخرِ غوصة باليوم الأخير من هذه الرحلة الموسمية الطويلة التي امتدتْ أربعة أشهر وبضعة أيام"

حَدَّثَ نفسه منذ أن بدأ يستعد للغوص مع بضعة غاصة سمحَ لهم الرُبان سليمان الهمام بالغوص بعد مناشدتهم له، وكان من شدّةِ اعجابه بهم وبرغبتهم المُلِحة بالغوصِ أن أبلغهم بأن معهم نصف نهار للغوص وسوف يتقاسمون حصيلة المحار معه...

"آهٍ... لو تعلمينَ يا جوْهرتي الساحرة جوري، بمدى تفاؤلي اليوم بحصادٍ جزيلٍ قد يقلبُ حياتي رأسًا على عقب وآتي لك بجوْهرة تُشْبِهكِ وأعلقها في صدركِ بعقدٍ من أحلام لمْلَمتُها في نهاري وليلي، وأنا أتطلع لنظرةِ عينيكِ حين أقتحم فِناء الدار بعد غياب مرير، وبيدي دانة بيضاء كالشمسِ ولكن لونها أزرقٌ كجوهرة الله التي زرعها في قاع اليَمّ وطلبَ من الملائكةِ والشياطين الحصول عليها... أنا واحد من هؤلاء الذين خلقهم الله وغرسَهُم في أرضهِ وبحره وجعلهم يهيمون بالبحث عن جوهرتهِ، وهئنذا اليوم بصدَد

عبور كهف البحر السري حيث عَلِمتُ من حلمي البارحة بمكانِ تلك الدانة، إنها علامة من الربَّ لي بأن عَلىّ البدء باجتيازِ الحدود وعبور السديم حتى أرى بوضوحٍ مَكْمَن تلك اللؤلؤة الربانية".

- هل تناولتَ شيئًا قبل أن تغوص؟

سأله إدريس الذي جلسَ على حافَةِ المركب وبيده فنجان الشاي، فيمّا ارتدى صالح قميصهُ الأبيض وتحته من المنتصف إزار.

- لن أثقل معدتي بالطعام، سأتناول شيئا يسيرًا بعد طلعتين أو ثلاث. أنت تدرك إدريس أن الأكل يُثقل الكاهل...

تأمَّلهُ إدريس وقال بنبرةٍ مناكِفة.

- دائمًا تجد حجَّة ترد بها عليّ ولا مرّة أقنعتُكَ برأيي.

ابتسم صالح ابتسامة بدتْ مُنشَرِحة كمّا لم تكن مثلّها من قبل وقال هو يخلعُ إزاره ويكتفي بسرواله الداخلي.

- يا لك من وغدٍ إدريس، حتى بيومي الأخير ما تنفك تشاكسني؟

قال صالح:

- لا تنس أن تذكّر محاسني معك منذ الطفولة، تَذكَّر شقاوتنا ونحن نسْرقُ الدجاج من حظيرة العجوز حصة الطويلة، وتذكّر، تَسَتُّري عليك حين شبَّ الحريق في دكان سالم بو خلف. طول عمري وأنا أُغَطيك، وها أنا هنا أتَكَتمّ على سرقتك المحار، فكر في كلِّ ذلك وأنت في قاعِ العتمة تبحث عن

جوهرتك... ولا تبعد كثيرًا وراء المغارات العميقة وتجعلني أفزع عليك، ففي الطلعة الماضية انتهى الحَبل كلهُ تقريبًا.

أجاب إدريس.

- أنا مدينٌ لك بكلِّ شيءٍ صاحبي إلا بزواجي من جوري فهو من تدبيري أنا وحدي، وقد رايتُها في الحلم قبل أن الْتقيها ثم صادفَ ورأيتُها وهي قادمة من الخباز، أظنُّ أني سبق وأخبرتك بالقصة... وبعدها كان الفضلُ لك في إقراضي المال كي أُكْمل مهرها، لا أنسى ذلك، ولكنك تستغل الأمر كلهُ وتَتحوّل إلى وغدٍ بعض الأوقات، مثل هذه اللحظة.

أفاضَ صالح، ثم بدأ في تحضيرِ نفسه للغوص فيمّا أنشغلَ أغلب البحارة في توضيبِ صناديقهم الخشبية المُختلِفة الأحجام وأغلبها باللونين الأسود والخشبي، وهي صناديق مسْبوكة من بقايا الخشب عند مرفأ صناعة السُفن بجنوبِ مدينة المحرق... كانوا يخزنون فيها أغراضهم طوال الشهور الماضية، من ملابسهم وأدواتهم البسيطة كالأمواس وعلب التبغ وأوراق لفّ السجائر، وغيرها من أغراض. لم يكن صالح وثلاثة أو أربعة غاصة آخرين من ضمن هؤلاء المستعدون للرحيل، لقد قرّروا اليوم النزول إلى القاعِ والقيام بالغوص لحسابهم ولكن بنسبة النصف مع الربان...

- هل تذْكُّر صالح ليلة زواجُك عليها حين لم تجد فرقة تُحيّ حفل عرسك، كيف جَمَعتُ لك زُمرّة من أعتى شياطين شباب وفتوة الحي وشكّلنا فرقة عشوائية مجانية ظلّت تقرع الطبول والدفوف وخاصة ذلك المغنى الأعرج

الذي أغمى عليه في نهاية الليلة من كثرة ما تناول من الحلوى والخبز... تَذْكّر صالح؟

قال إدريس ذلك... نهض وغابَ لفترةٍ انشغل خلالها صالح بالتأمّلِ في لُجَّةِ الموج وهو يتدفق ويرْتطمُ بجوانب المركب.

- تذكَّر ما جرى الليلة المنصرمة حين سَرقَتَ لي التبغ؟ وابتززتني قبلها بالتحدث عن علاقتي مع جوري؟

سأل صالح إدريس بمجرد عودته السريعة، تتدلى بيده تعويذة معقودة بخيطٍ أسود...

- ما الداعي لهذا التذكير الذي لا مكان لهُ الآن.

ردَ إدريس... توقفَ برهة عن الكلام ثم أضافَ متسائلاً بعد أن مرّ من أمامهما أحد البحارة وهو يرقصُ ويهزج بعبارة من موالٍ بحري.

- رأيتُ يدًا غريبة بالليل أمدتني بعلبة الثقاب ولم يكن هناك جسد لهذه اليد، كانت مجرد يد، وإذا لم تخني الذاكرة، كانت يدًا طويلة مُشْعِرة ليست لبشر!

قهقه صالح وأجابه ساخرًا...

- لأنك كنت طوال الوقت معي تتحدث وأنت نائم ولهذا استغليتك وطلبتُ منك سرقة التبغ وفعلتَ أنت ذلك، حتى أنك نَهَضتَ ومشيتَ وجَلبتَ التبغ واللفافة وعلبة الثقاب وأنت نائم... استغرب الآن كيف تذكَّرتَ ذلك...

- يا لكَ من وغدٍ...

ردَ إدريس واستدرك

- منذ ارتبطتَ بزوجتُكَ جوري تغيّرت كليًا. ماذا فَعلَتْ بك هذه المرأة؟ لقد سحرتك وجعلتك شريرًا!

- بل جعلتني مجنونًا وشكّاكًا وغيورًا...

أجاب صالح.

- متى ستنزل البحر؟

سأل إدريس

- أنتظر إشارة سليمان الرُبان بالتحرك لمغاصٍ وفير كما فهمتُ من مساعده الحجي ياسين الذي أخبرنا بأننا سَنُبحر لآخر مغاص بعدها نَشدُّ الرحيل...

ردّ صالح.

- لقد سطعتْ شمس الخريف ولاحتْ بوادر رياح شمالية خفيفة، وإن لم نتحرك الآن فلن تكون لديك فرصة للغوص صالح...

- كلامك صحيح إدريس سأنتظر فترة وسأذهب أخاطب الربان...

أجابَ صالح

- خلال هذه السانحة حدثني عن جوري وكيف ستستقبلها أول ما تطأ قدماك البر؟

سأل إدريس وأضاف وهو يبتعد قليلًا.

- هل تريد فنجان شاي؟

لم ينتظر جوابًا فقد مضى دون أن يسمع الرد، انشغل صالح في العبثِ بصرَّة قماشية مهترِئة وراحَ يُفتشُ فيها عن شيء حتى أخرج خصلَة شعر صغيرة وراحَ يَشمُّها ويتنهد.

- ماذا بيدك؟

سألهُ إدريس وقد وضع أمامهُ فنجان شاي وأمسك بآخر وظلّ منتصبًا يُحدقُ بالآخر الذي أعاد الخصلَة إلى الصُرَّة التي بيده وراح ينتظر...!

- هذا شعر من رأسِ جوري جلبتهُ معي يذكرني كلمّا دَنَت مدّة العودّة، أنت إدريس لا تدرك هذا الإحساس ولم تَختَبر هذا الحنين، ما يربط الغواص الذي يغيب الشهور الطويلة عن اليابِسة ليس تراب الديار ولا المقهى ولا ساحل مدينتي المحرق... مثلي لا يربطهُ سوى خيطٌ رفيع هو الزوجة التي إذا شمَّمتَ عند المساء مع غروب الشمس رائحة الثوم والبصل فيها وهي تَعدُّ لك وجبة العشاء، تفوح رائحة السّمك المشوي ونكهة الرُزّ بالزعفران، تبْسطُ السجادة فوق سقفِ الدار وتتأمَّل عينيها البحريتين، لم تجرب إدريس هذا الحنين...

عندما انتهى من بثٍّ لوعة أشواقه وحنينه رفع فنجان الشاي وارتشف منهُ ثم ارجعه وقال بلهجةً ناصحة.

- تزوج من امرأة تحبُها وليس الشرط أن تحبك هي، بل تتقبلك وهذا يكفي، ثم أركع لها في النهار وأجث عند قدميها في الليل، وادرك السعادة التي تنتظرك منها، ستعبر بك بوابة الجنة حتى لو كنت جاحدًا مع الله...

- ويلي...

قال إدريس بنبرةٍ متحَّمِسة... تنهد ثم اعتدلَ في جلستهِ وقال بنغمةِ رجاء.

- أول ما نرجع البرَّ أوصي جوري أن تفتش لي عن فتاة مثلها!

قهقه صالح وردّ بلهجةِ تحدٍ وخيلاء...

- لم يخلق الله سوى جوري واحدة... لا مثيل لها.

# 10

## 1940-الوقت نهار-المكان البحر-الحالة-عناقيد الذهب

"لم اسْترح ساعة بعد كلّ الطلعات في قاع البحر. إنهُ عالمي الأوحد بغموضهِ وأسراره... أعيشهُ وأتنفس فيه أكثر من اليابسةِ، في أعماقِ البحر وتحت مئات الأذرع مسافات أسفل السطح، تتنفس رئتاي... ينبضُ قلبي بالحياة، أشعرُ أني حيٌ يروي عطشه باصْطيادِ نجوم البحر وهي مختلفةٌ عن نجوم السماء... عندما تأخذني لُجَّةُ اليّم استشعر الضوْضاء في القاعِ كموسيقى إلهية، ترانيم الأحياء المائية مع رؤية الأعشاب والمغارات... كائناتٌ مختلفة عن البشر، أكثر جمالًا من أغلب البشر. نَسَجتُ تحت الماء المالح عالمًا مختلفًا عن عالم اليابِسة، هواء مختلف عن هواء البرّ... هواء أتنفسهِ نقيضَ ما يظنُّ البشر، أغوص في سديم لا لونٌ لهُ ولا طعم ولا رائحة، عالمٌ مجرد من الزينات، خالٍ من الهواجس، أتَجرَّد فيه من مشاعر الخوف الذي يلفني وأنا على اليابِسة"

خاطب نفسه وهو جالسٌ على حافَة طرف السفينة، نهض وسار نحو الصاري الكبير الشاهق والتصق به وتطَلَّع باتجاهِ أشعة الشمس وقد بَرزتْ بحدّةٍ أضلع صدره النحيف وعضلات كتفيه الصلبة...

"بعد قليل... وقتٌ قصير يفصلني عن الغوص. سأنزلُ إلى الماء، سأبحثُ في الأرجاء، لو توّفَر لي الوقت لن أتردّد بفلقِ المحار وأنا بالأسفل، يا لي من وغدٍ، صدق صاحبي إدريس حينما نعتني بالوغد، فلم يسبق لغواصٍ أن تمتع بهذه المَلَكة... فأنا أملك نفسًا لا يملكه غيري وهي نعمة الخالق ولعلّهُ منحني هذه الفطرة لكي أسعد جوري بيومٍ يحالفني فيه الحظ وأحْصد الدانة، سأغوص وأبحثُ في خبايا الأعماق عن تلك المحارة التي رأيتُها في أحلامي وتكاد لا تفارق منامي ليلة واحدة... سأقتحم الدار على جوري بعد طولِ غياب وأعانقها إلى صدري ثم أبتعدُ خطوة، أفتح راحة يدي وأضع أمام عينيها الشهوانيتين هذه اللؤلؤة وأضاجعها بشهوةٍ حقيرة تروي عطشي لها بعد شهور القحط... حينها عندما تفتر شهوتي قليلًا سأتنفس الصعداء وأهمس في أذنها:

"وعدتك يا معشوقتي بالعودّة إليك،،والعود أحمد،، أَوَدّ الغوص في بحرِ عينيكِ، مثلمّا أغطس في أعماق العُبَاب. منذ أن غادرتُ البرّ وأنا في غربةٍ. حنيني لطبخكِ، لرائحة الثوم في شعركِ، لطراوةِ الماء يَسيلُ من جسدكِ بعد الاستحمام. استذكر خطواتك في الفناء تنهبين المكان بدبيبِ أصابعك في التراب وأنتِ تكنسين براز الحمام وغَيْرةُ أمي تتبعكِ بنظراتها ثم تقلدك وتلحق بك، تأخذ من يدك السعفة وتكنس البقايا... أسألك بالله جوري أخبريني كم حمامةٌ قتلتِ بالحجارة منذ غادرتُ أنا الدار؟ كم شجارًا جرى بينك وبين رقية العمياء؟ هل ما زالتْ تتحرش بك كلّ مساء، كمّا تفعلين

وأنت تتزينين لي وتثيرين غيّرتها برائحة العطر الذي تتعطرين؟ اشتقتُ لك يا معشوقتي الصغيرة. أنسى ما جرى بيننا من خصامٍ قبل رحيلي بسبَّب الجنين، أعذرك، وسامحيني، وهذه لؤلؤة البحر التي غرسها الله في بحرهِ، واللهُ لآتي أنا بدوري وأحْصدُها لك يا فاتنتي التي سلبتْ عقلي وجعلتني أهذي بالليل والبحارة غارقون في النوم... أناجي الليل فيمّا أنت تعيشين وحدتك مع عجوز أجزم أنها أرهقتك، ولكن تحمّلي سأعود وأُزيل عنك جبل الهموم... أدرك جوري معاناتك مع حرّ الصيف ورطوبة الليل فوق السطح... كم اشتقتُ لهذا الطقس وحنيني إليك وأنت تعرقين وتتملصين من يدي بحِجّة العرق... اذكّرك وأنت تركضين بالليل فوق السطح وصوت رقية يطاردك وهي تهمس بالشتائم وحالمّا تسمع صوتي بقربك حتى تفْتَعل قراءة سورة من القرآن... حتى الآية التي تختارها مُصوّبةٌ بعنايةٍ في مغزاها... كم اشتقتُ جوري إلى ليالينا... "

- لا رغبة فيّ الليلة لمضاجَعتُك، تعِبه من شغلِ الدار وحمْحَمة أمك على رأسي...

"كم أزعجني هذا الصدُ منكِ، صوتُكِ ينتزعني من شهوةِ الجسد الذي لا أكلُّ من تأملهِ، ولا عن التنقيب في أسرارهِ... شهوة مطمورة تشبه البركان، تنفذ في تضاريس جسدك من فوّهتهِ المستعرة، حتى وهو يبث رائحة آسِنة أوان الدورة الشهرية السجينة والتي لم أرَ مرّة خلال زواجنا، شلالها من الدم! كنتِ تهابين الحمل ولم أكترث بمرور الوقت تقديرًا مني نحوكِ، لم تبوحي لي

بِلغزَ جسدكِ المُبهم المسجى داخل قشرة أنثوية... طاردتكُ بزوايا البيت الضيقة، تحايلتُ على نداءات أمي، تذكّرين تجاهلي لنداءاتها المُكرّرة، سعيًا وراء قبلة خاطفة منك... ظلّلتِ تتهربين بِحجّة الحرّ الشديد، أو بحجّة وجود رقية تتنصتْ علينا، محظوظٌ إن حظيتُ منكِ بساعةِ خلوةٍ أفترسكُ مثل سمك القرش"

ابتعدَ مسافة عن بقية البحارة، انزوى في ركنٍ، كان إدريس خلالها يغسلُ ملابسه بمياه البحر، بعد أن نشَبتْ معركة بين البحارة بسبَّب نقص مياه الشرب. كانت الأيام الأخيرة فترة حَرِجة، تقلصّ فيها التمر والرُزّ والسُكر، بدأوا بالتقتير في كلِّ شيء، حتى راحوا يحتسون الشاي مرّةً واحدة باليوم وبدن سُكر، إلا وجبة الرُزَّ المحمر، ظلوا يُحضرونها من عصارةِ التمر.

جلس صالح عند مقدمة المركب وشَرَّعَ صدره للريح، كانت الأمواج تلطم الخشب، والشمس قد انعكس ضوءها على السطح، أمسك بيده سكينة وراحَ يحفرُ في قطعةِ خشب صغيرة بيديه.

"سأذهب بعد قليل وأناشد الربان على الإبحار لمصائد اللؤلؤ، أنا والبحر واللؤلؤ وجوري، اليوم هو نهاية مغامرتي مع غابة المحار بقاع البحر، سأقتحم المغارات النائية، سألجأ إلى أدغال القرش، من أجلكِ يا موالي الحزين يا جوري... اسمك وحدهُ على لساني لأربعةِ شهور... إدريس صاحبي لم يترك سانحة إلا وهزئ مني وصيرني أضحوكة له... كلهُ بسبَّبك. هل تعلمين زوجتي المُحبة أن أول شيء سأفعلهُ عندما أفتح الباب وأعبر

الفناء والتقيكِ؟ سأركعُ على الأرض وأقبل قدميكِ الرشيقتين وآمّل أن تكوني قد قلمتِ أظافرك التي كثيرًا ما غرستيها في ساقيّ! بعد ذلك سأخرجُ إلى السوق وأشتري السّمك وأمُرّ بدكان سالم الدعن الله يذكره بالخير إن كان حيًا يرزق أو الله يرحمهُ إن توفى، فقد كان مريضًا وشاحبًا عند مغادرتي البرّ حين مرّرتُ عليه قبل يومين من الإبحار لأستلفَ منهُ التبغ وورق اللف. سأبتاع منهُ علبتي فلفل حار، وسَمنْ عداني كالذي يأتينا من مدينة دارين بالسعودية، ثم سأتوّجه للبقال جاسم الديري وأسرقُ منهُ صرتي خضار، لتطهي لكلينا وجبة عشاء أشخر بعدها حتى مطلع الصباح الباكر، لأخرج بعدها إلى المقهى وأفطرُ مع بقية رفاق الرحلة الذين تواعدت معهم على اللقاء هناك بصبيحةِ اليوم التالي: ماذا عني صالح؟ ألن تضاجعني بأولِ ليلةٍ لك بعد العودّة؟ آمل بل أطمعُ أن تسأليني هذا السؤال الذي أنتظرهُ منكِ، ساعتها لن أنام الليل بطوله، سأتناول وجبة السّمك المشوي مع الرُزّ، وقد أزرع فيك جنينًا آخر تعاهديني جوري إلا تسقطيه، لا تنس بطريقك وقبل أن تزرع فيّ جنينًا أن تتذكر أن رقية العمياء لن تتركني أنْفردَ بك، فمنذ أن غادرتَ وهي تنوح كحمامةٍ من تلك الحمامات العاهرات اللواتي لا يتوّقفنّ عن الضوضاء وهنّ يبحثن عن ذكورهن وكأنهن نساءٌ شهوانيات، لم أرَ بحياتي طيور حمام شبقة مثل هذه الطيور.. ليتكِ جوري مثل تلك الحمامات لأشبعتِ جوعي"

- هل تريد لفة تبغ صالح؟

فاجأهُ أحد البحارة، كان منتصبًا أمامهُ بطولهِ الفارع كصاري سفينة، وجهه هو الآخر طويلٌ وهزيل مع أنفٍ ضخم ومنخارين واسعين يُفْشي عن رجلٍ غامض. وقف وقد مد لهُ يده السامقة وبها سيجارة، تنهد صالح وبدا متفاجئًا من لفتةِ الرجل الذي كان يُعْرف عنهُ شدّة البخل وكان بمثابة حارس شخصي للربان سليمان الهمام، ولا يظهر إلا في مناسباتٍ محصورة... هل آخذُ السيجارة منهُ؟ سأل صالح نفسه وبقي جامدًا بمكانهِ إلى أن لمحَ إدريس يبتسم له من بعيدٍ باقتضابٍ وكأنهُ لمح دهشته من هذا الرجل وبروزه المباغت مع عرضه الفجائي!

شعر بغثيانٍ وشعور مبهم لكنه فجأة خطف السيجارة من يد الرجل العملاق وهروّلَ إلى جانب صندوق المؤن والتجأ مختبئًا بمحاذاته وأشْعلَ لفافة التبغ بعود ثقاب كان معه منذ ليلة السرقة...

"لم أكن من المدخنين جوري، ربمّا مرّة أو مرتين فعلتُ ذلك ولكني انقطعتُ ويبدو أنك تدفعيني للجنون والتدخين... سأخبرك عن كلّ القصص والحكايات الغريبة التي مرّرتُ بها خلال فترة الغوص، وهي من وحي تفكيري الذي لم ينقطع بك ما جعل كلّ يوم من أيام الحياة على البحر قصة تروى بسبَّبكِ جوري... أصحى وأنام، أغوص وأطلع السطح أسهر الليل، يَشردُ مني النوم، أغفو لكن لا أنام، أنتِ السبَّب... اعتدتُ وأنا على اليابِسةِ عندما أفكّر بكِ أشْردُ والجأ إلى سواحل البحر وإلى مراكب الصيد وعلى المرافئ وإلى المقاهي. ترى أين أهربُ منكِ وأنا على بعد مسافاتٍ بعرضِ

البحر... وحدهُ قاع البحر المكان الآمن الذي أهربُ منكِ إليه... تسأليني جوري لماذا أهربُ منكِ؟ أنا مثلك جوري أتألم وأحزن وأشعر بوحدةٍ قاتمة... أنتِ تهربين مني لكني لا أستطيع الهرب منكِ بل ألتجئ لأمكنةٍ تلهيني عن الوحدة، فالبحر والريح وشوارع المدينة التي تفوح منها روائح عرق الأجساد ونكهات التوابل، تتسلّل من فتحات نوافذ البيوت العتيقة، وأبوابها التي تساقطتْ مساميرها الصدئة وقد ذابتْ وتهاوتْ على الأرض... نَعبر دربًا آخر نحو منطقة الدفنة التي تمتلئ أرضُها ببقايا عظام الأسماك التي خلفتها القطط والكلاب الضالَّة بعد أن تنبش النفايات وتنثرها... كما تنتشرُ فيها الأغنام...

وفوق هذه الأرض من الغرب للحي التالي يقبعُ بيت دلال القوادة، مغروسٌ وحدهُ بطابقيه، معزولٌ عن البيوت، تبرز منه نوافذ بِجِهاتهِ الثلاث، نوافذ خشبية منقوشةٌ بحرفيةٍ باهرة وكأنها تحفٌ فنية، طُليّت بعضها باللون البني والرمادي وأخرى باللون الأبيض من الجهةِ المغايرة للبيت الذي لا يقترب منه سوى جنود الاحتلال البريطاني وبعضٌ من رجالات الأحياء المجاورة... لا أعرفُ جوري لماذا كنا نعبر ذلك المكان بصمتٍ ودون أنفاس منا... هل تُفسرين ذلك؟ كنتِ تنظرين في عيّنيّ وتقولين: هذه رئة المحرق، ماذا كنت تقصدين بذلك جوري...؟ المحرق التي أعرفها هي المراكبُ والسُفن والأسماك والروائح الحادة... هي الشريط الذي نسكنه كلنا ويرتبط بطريقٍ طويل مُتعرّج يتقاطع مع طرق فرعية ضيقة تفوحُ منها روائح الأجساد،

وروائح طهي الأسماك المجففة في الشتاء... هذه أنتِ جوري ومدينة المحرق وجهان لا ينطمسان من ذاكرتي أرى فيكما حياتي كلها... لا يعني جوري أن هذه كلّها المحرق... هناك أحياء غنية في الشمال والغرب لا نعرفُها ولا نعبرها وإذا اتفق ومرَّرتُ فيها صادفتني روائحُ مختلفة وبيوتٌ حديثة بنوافذ وأبواب زاهية، مطلية بألوان لا نعرف حتى أسماءها، لكنني أكتفي جوري بالحي الذي وُلدتُ به وتعرفتُ بكِ فيه... هو الحي الذي استندُ فيهِ إلى صاري حطام مركب مهجور على الساحل، أو إلى عمود مرفأ أو حتى عندما أنام على سطحِ سفينةٍ قديمة خارج الخدمة من تلك السُفن المرمية بحافةِ مرسى السفن الخربة بجنوبي حالة أبي ماهر بمحاذاةِ القلعة الأثرية... هناك استرخي جوري وأخرجُ ما بداخلي من انفعالاتٍ ومشاعر مكبوتة ثم أنكص للدار ثانية أُمَنيّ النفس الحزينة أن ألقاك عارية بالفراش تنتظرين عودتي لتسقيني رحيق الحياة فأمسحُ الحزن من نفسي... "

ظلّ يناجيها غير عابئ بما يجري على سطحِ المركب من ضوْضاءٍ وحركة... شَفطَ من لفافة التبغ التي أسداها له العملاق البشري الغامض، زَفرَ وعاد يحفر في كنز ذكرياته.

"منذ طفولتي جوري وأنا أحلم بامرأةٍ لكن حين رأيتكِ لأولِ مرّة تغيّرتْ فكرتي عن النساء كلهن، فقد وجدتُ فيكِ المرأة الوحيدة التي أحلم بها... لم يخطر ببالي وأنا وحيدٌ في الدنيا، وهمومي كلّها تَصبُّ في مصروفٍ يومي للشاي والقهوة، ووجبتي غداء وعشاء أسدُّ بها رمق والدتي، ويوم آخر أصحو

فيه وأنا حي يرزق... لم تولد معي طموحات بأكثر من الأكل والنوم وبضع روبيات للمقهى، لكن ظهورك في دنياي قَلَبَ حياتي رأسًا على عقب جعلني أحلم باللؤلؤ، والدانات، والمال، وعناقيد الذَّهب أعلقها على جيدكِ الرشيق... ها أنا اليوم ما قبل الأخير يا جوري عائدٌ إلى مدينةِ المحرق الرمادية، راجعٌ إلى أحيائِها السّمكية، روائح الأغنام الضّالة التي تجوب الطرقات وتَصلَ حتى السواحل ثم تعود أدراجها لمنازل أصحابها، دون أن تتعرض للأذى باستثناء حكايةٍ واحدةٍ اشْتهرتْ بالحي الذي يسمى بحي أم حمار... حيث فُقِدتْ ماعز ولم تعد لديارها! ثم اكْتُشِفَ أن أحد رفاقي وهو ماجد اختطفها، لقد ذبحها، وسلّخها، وطبخها، وغذى منها نصف سكان الحي. كنتُ أَتْبَعُكِ جوري ونعبر تلك الطرق الضيقة ببيوتها المتهاوية ونوافذها الخشبية المُتشقّقة وقد طُمِستْ ألوانها بفعلِ مياهِ الامطار في الشتاء ولهيب الشمس في الصيف. كان منزلك، أو كوخ الطين الذي تربيتي فيه جوري، مطلٌ على مسجد الحي القديم وهو مسجد يكاد سقفه ينهار على المصلين ولم ينفعُ معهم كلّ التنبيه بالتوقف عن ارتياده حتى سقط سقفهُ بليلةٍ ماطرة عند صلاة العشاء التي أصرَّ فيها بعض السكان على الذهاب للصلاة رغم رداءة الطقس بتلك الأمسية. هناك التقيتُ بكِ للمرّةِ الثانية ووسط الصخب والضوْضاء التي عَمَّتْ محيط المسجد مع هطول المطر وحشدٌ من الناس لم يمنعني ذلك كلهُ من الاقتراب منكِ والتوَدّدُ إليكِ متجاهلاً ما يجري حولي... هل تذكرين جوري عبارتي لك حينها عندما قلتُ

لك: تعالي معي، اِبتَعدتِ خطوات عني وأنتِ تتلفتين خشية أن يرانا أحد فيما حشد الناس كان لاهيًا يشاهد بفضولٍ فاضح الفاجعة، دنوّتُ بخفيةٍ وكأني استفسر، وأعدتُ الكرّة عليك بطلبِ الاختلاء بكِ فابتسمت وقلتِ: ليس بالوقت المناسب، ثم انسحبتِ وتبعتُكِ خارج محيط الحادثة وقد تبلّلنا كلينا بمياهِ المطر... سرنا أنتِ أمامي بخطواتٍ في دهليز الحي، ولَجنا درب أم حمار الضيق الذي فاحتْ منه بتلك الأمسية روائح المستنقعات والبهارات الخارجة من فتحات البيوت. بلغنا بيت الزياني القديم المهجور واقتحمناه، وهناك بين الأخشاب المتساقطة من سقفهِ والحجارة وحطام الكنبات والدواليب، قَبّلتُكِ، لأولِ مرّة بحياتي أقبل فيها امرأة... ما أروّع مدينة المحرق وحي الحالة فيها بتلك الفترة التي أتاحتْ لنا مثل هذه الخَلْوة... أذكّر كلّ صغيرة وكبيرة جوري"

فجأة وبعد مدّة من استغرقهِ في الحديث مع نفسهِ، شَعرَ بتحرك السفينة، فانتابهُ شعور خليط بالبهجة والكآبة، كان يفكّر لو لم تتح له طلعات اليوم الأخير إلى قاع البحر بالصيد الذي يأملهُ كيف سيعود إلى زوجتهِ خالي الوفاض، دون الوعد الذي قطعه على نفسه؟ فكّر بِسرقةٍ ما، أو مجازفة يسْتَحوذَ من خلالها على لؤلؤة ولو بغير الحجم واللون والثمن الذي تخيلّهُ على الأقل، يعود وبيده شيءٌ يستطيع أن يفي عَبْرهُ بوعدهِ لها وإلا لن يَنالَ ودها ولا قلبها ولا جسدها الناري.

"سأنال من البحر حتى لو دفعتُ حياتي ثمن اللؤلؤة، لأجل جَيْدُكِ الرشيق جوري"

قال ذلك وتحرك باتجاه البحارة الذين شُغِلوا برفعِ المرساة بعد أن تم سحبها لوّهلةٍ، وهناك من شُغِلَ برفعِ الشراع وتوضيب المعدات للإبحار... انتشر الجميع وعَمّتْ الضوْضاء وجرى الجدّل بين بعض البحارة حول أمور اعتيادية ألفوا تداولها فيما بينهم كلمّا تحركوا مسافة في البحر.

- يقال إن الرُبان سليمان لن يتوقف في أي مغاص بل سنيمّم طريقنا نحو الديار...

قال حمد شهاب وهو الطباخ والبحار والمُكَلف بتحضير نارجيلة الدخان للربان.

قفز صالح من فوق صرّة الحِبال وكاد يسقطُ على السطح حين علقت قدميه في ربطة الحَبل...

- هل أنت جاد؟

سأل صالح بفزع من خُذل.

- سَمعتُ ذلك من أحد البحارة، وليس من الرُبان، لا تُقَولني ذلك، أنا مجردُ ناقلٍ عن ناقلٍ آخر!

ردّ حمد شهاب وهو يَحُكّ وجههُ ويَزمّ شعر لحيتة البيضاء رغم أنه لا يبدو عليه هرم السِنّ. كان يرتدي نصف ثوب من الأعلى وأُزار مزركش من الأسفل

ويَمطّ شفتيه بين فينة وأخرى. كان يقف وينظر لصالح الذي بدا جامدًا من صدمتهِ بالخبر.

- حتى أنت يا سليمان الهمام... سأمضي إليه دون توجس وأطالبهُ بالوفاء لوعدهِ، يبدو أنهُ، لا أحد في هذا الزمان يوفي بالوعد! حتى الربابنة...

# 11

## 1940-الوقت صباحًا-المكان-البحر-الحالة-عناقيد الدخان

- لماذا أنت مصرٌ على الغوص وكأنهُ يومكَ الأخير بهذه الدنيا؟ ماذا وراءك من هذا الإلحاح؟

سأل الرُبان سليمان الهمام وقد أمسكَ بيدهِ مُجَلّدًا قديمًا التصقت صفحاته ببعضها البعض، لقد لوّثَتها مياه البحر كما يبدو... وَضَعَ الكتاب بحضنهِ وأمَرَ البحارة بالاستعدادِ للإبحار دون أن يمنحهم حق معرفة الجهة المقصودة... كان يجلسُ فوق كنبةٌ مغطاة بسجادةٍ مُزخرفة في مؤخرةِ السفينة، وأمْسكَ مساعدهُ بدفَة المركب... كان يرتدي ثوبًا أبيض وقد لفَّ خصره بإزار تزيّنهُ مربعات ومستطيلات ذات ألوان عدّة، وحولهُ ظهرتْ النارجيلَة وقد تصاعد منها دخان طفيف...

- لم أكْتفِ من الغوص سيدي سليمان...

قال صالح ذلك بارتباكٍ واقتضاب وعيناهُ إلى الأسفل.

- ليس هذا بجوابٍ مُقْنع يا صالح، هل من أجل ذلك نؤخر إبحارنا؟ أعطني سببٌ أعظم شأن من ذلك.

قال الربان، وأشار بيدهِ لأحد البحارة وقد كان هذا الآخر ينتظر منُه إشارة كما بدا.

صمتٌ مطبق لوّهلةٍ

- لقد وَعدتَ سيدي بمنحنا نصف نهار باليوم الأخير لمن يَوّدَ الغوص ولم تفِ بوعدك سيدي سليمان...

هذه المرّة نظر في وجهِ الرُبان وقال عبارته وكأنهُ يبحث عن تأثير ذلك عليه...

- كيف عَلِمْتَ بأمر إلغاء المغاص؟

سأل سليمان الربان

لم يجبهُ، اكتفى بالصمت... سرحَ الربان لوهلةٍ ثم طلب ممن حوله تَرْكهُ وحده مع صالح وأمرهم بالابتعاد.

- أخبرني قصتك دون مراوغة صالح وأعدُك بالغوص لنصفِ نهار...

لم يُصدق صالح هذه المُبادرة من الربان والتي رأى فيها أملاً بتحقيقِ رغبتهُ، لم يَترَدّد ولم يَتخوّف من استغلالِ هذه اللّفتة من سليمان الهمام الذي حدق فيه بعينين متقدتين بالحزم ولكن لا تخلوان من تفهمٍ للرجل الذي أمامه...

- سيدي الربان...

- أفْصِحْ عمّا بداخل بقلبك... احذرك، دون تدليس، وخذ مني وَعدًا بالغوص.

تنهد الآخر، واعتدل في جلستهِ أمام الربان، شهق لومضةٍ وبلع ريقه ثم التفت حوله ليرى إن كان هناك ثمة أحدٌ من البحارة.

الوقت-صباحًا-المكان-الفضاء العائم-الحالة عناقيد القلق...

- صباح من كلِ يومٍ من أيام الشهور المنصرمة تبزغُ شمس البحر ساكنةً حينًا، وغاضبة حينًا آخر، نسيمٌ منعش بيومٍ يُضاحكُ فيه موج البحر أجسادنا، ويتحرش بسفينتنا ريحانة، يرجُّها، ثم سرعان ما يخدعنا الهواء فينتعشُ الموج، ظلّلتُ سيدي الربان بكلِّ طلعةٌ للبحرِ متفائلاً، بالعودّةِ لزوجتي وشعوري مثل كلّ صباح جديد، أن ننتهي بفوزٍ عظيم لنا كلنا... دانات تعود علينا بالخير حتى إذا رجعنا لزوجاتنا، عوضناهنَّ الحرمان... كنتُ آملَّ أن أجمع المال وأشتري لؤلؤة أعلقها في جيدِ امرأتي وأُعَوضها عن ضَنَك الدنيا، هكذا أبدأ يومي كلّ صباح حتى انتهى الموسم دون رؤية الحلم...

- أين تسكن صالح؟

قاطعهُ الربان وقد أشار خلالها لأحدِ البحارة بأن يوْظبْ لهُ نارجيلته التي رفعها بيده. ثم أردف بسؤالٍ آخر قبل أن يجيب على سؤاله الأول.

- متى تزوجت وكم طفلاً لديك؟

تنهد صالح وعيناهُ ترتعشان، راح يَحكّ ذقنه... تنفّس وقال وما زال بوضعهِ على السطح أمام الربان.

- هذه السنة سيدي ولم تمضِ شهور حتى غادرتُ للغوص معكم، لا أطفال لدي وأعيش مع والدتي العمياء رقية، وقد وَرِثَتْ الدار عن جدها وما زلنا نقيمُ فيه بمدينة المحرق.

- أين صالح؟ المحرق مدينةٌ واسعةٌ وبها مدنٌ، وقرى، وأحياء.

سأل الربان.

- حالة بو ماهر سيدي سليمان... بقربِ مرسى بناء السفن على الساحل، وكثيرًا ما خرجتُ لتلك الرقعة بأيام الخريف والصيف وأنا بسنِ التاسعة والعاشرة إلى تلك الرقعة وحدقتُ بالبحرِ والأفق، أنتظرُ أن أبلغ العمر الذي يؤهلني لارتيادِ الغوص... كنتُ أذهب مع خالي إلى الصيد وأقضي وقتي معهُ بصيدِ السّمك وقد تعلمتُ الكثير عن البحر وأسراره منذ تلك الفترة ولطالمّا أمَلتُ بلوغ السِنّ الذي يؤهلني للسفر معكم سيدي، فقد سمعتُ عن شهرتكم وانتابني حلم بركوب سفينتكم وقد تحقق حلمي الأول بالغوص وانتظرُ الآتي سيدي وما تحملهُ لي الأيام من مجهول.

أفاض صالح في الإجابةِ والتعبير عن مشاعره كما لم يتوقع هو ذاته أن ينطلق لسانه بهذه الفصاحة...

صَمّتَ الربان ثم تجشأ لمرتين أو ثلاث وأردف بسؤالٍ آخر:

- ماذا تفعل بعد أن ينتهي موسم الغوص؟

- كما تعلم أنا مهنتي البحر أبًا عن جدّ، وليس في المحرق مدينة البحر والغوص والسّمك سوى هذه المهنة لأمثالنا، ولكن بأوقاتٍ ما بين فصول

السنة، أجدُ سيدي فرصًا هنا وهناك لتوصيل طلبات بعضُ الربابنة وبعض التجار والأغنياء الذين يكلفون أمثالنا بخدماتٍ طارئة وبالطبع ليست ثابتة، نكسبُ خلالها بعض الروبيات التي تسدُّ رمقنا... وكثيرًا ما نسي هؤلاء بعد قيامنا بخدمتهم أن يكافئوننا ولكن الله كريم سيدي.

عاد الربان يسأل...

- إذن أنت تعرف أحياء وقرى المحرق بمّا أنك تقوم على توصيل الخدمات؟

صَمّتَ لوّهلةٍ ثم انطلق لسانه فجأة.

- بعض الأحياء المجاورة والتي أعرفها منذ الطفولة حيث كنا نجول فيها، وهي أحياء كلّها متشابهة سيدي كالحي الذي أُقيم فيه... وقد عُرِفَت هذه الأحياء، بصيد السّمك ونجارة السُفن وخياطة الأشرعة وبناء المنازل وغيرها...

- لماذا لا تعمل في واحدة من هذه المهن بعد انتهاء موسم الغوص؟

واصل الربان يسأل...

- لم أتعلم سيدي أي من هذه المهن سوى البحر.

- المحرق صالح مدينةٌ كبيرة وفيها كلّ الفرص لأمثالك من الفتيان الأشداء، بها مهن كثيرة مثل الخياطة والزراعة والبناء والعمل في المقاهي والمتاجر الكثيرة المنتشرة في أرجائها، كما أن هناك من بدأ الآن ينخرط في العمل بشركة الزيت التي بدأت تضمّ العمال الذين هجر كثير منهم البحر ولجأ

إليها، لماذا لم تُفكّر بمثل هذه المهن؟ أم أنكَ اكتفيت بالجلوس في المقاهي واحتساء الشاي وتدخين التبغ؟

- لا أدخن التبغ...

ردَ صالح باقتضاب وأستدرك...

- لا أعرفُ مهنة غير الغوص سيدي سليمان.

- هل هذه المرّة الأولى التي تركب فيها إلى الغوص؟

سأل سليمان الهمام. تفاجأ صالح بالسؤال...

"ألا يعلم أو يتذكر حتى أنني كنت معهُ بالسنة الفائتة؟".

قال في نفسه متسائلاً وقد أثر ذلك في ملامح وجهه وبدا عليه الضيق.

- كنت معكم سيدي بالسنة الماضية ألا تذكّرون؟

أجاب بحنقٍ دون أن يظهر ذلك على وجهه، ولكن الربان أدْركَ من نبرةِ صوتهِ الساخطة مغزى نغمة ردّة فعلهِ المتشنجة والمفعمة بالانفعال فأجاب مبتسمًا:

- لو علمنا صالح ما ينتظرنا في الغد لما ندمنا على ما فاتنا.

شعر الربان سليمان بأن ردهُ لم يكن موفقًا ولم يستوعب الرجل الجالس أمامه مغزى الرد، فأردف متسائلاً بصوتٍ ودي أدركهُ صالح لأول مرّة منذ دار الحديث بينهما.

- ماذا ستقول لزوجتك عند العودّة لها صالح؟

- لن أقول شيئًا سيدي... سيعجزُ لساني عن التعبير.

- لابد أن تقول شيئًا لها بعد طول غياب؟

- سأفكّر بالأمر سيدي قبل أن ألج باب الدار.

قهقه الربان سليمان وعاد يسأل بذات النغمة الودية...

- هل هي جميلة؟

سأل الربان...

وقبل أن يُجيب تقدم البحار الذي كلفه الربان بتحضير نارجيلَة الدخان، جلس على قدميه ووضع النارجيلة وراح ينفخُ فيها فبدأ دخانها يعلو في الهواء، ثم نهض الرجل إثر إشارة من الربان... تناول سليمان النارجيلة بكلتا يديه وراح يفحص الدخان ويتذوق التبغ... يرمقُ صالح بنظرةٍ ويعود ثانية للنارجيلة التي كان دخانها يتصاعد منها... شفَطَ منها نفسًا طويلاً وعاد يسأل صالح...

- هل أنت مُدخن؟

- سبق وأخبرتك، ربما مرّة في السنة سيدي.

ردَّ صالح

- هل تحب زوجتك؟

شفط الربان الدخان واعتدل في جلسته وسأل من جديد:

- ليس لديّ في الحياة شيء سوى هذا الحبَّ... أريد منك سيدي نصف يوم فقط أغوص فيه، شعوري غريبٌ هذه المرّة، أشعر أن الحظَّ ينتظرني هناك في قعرِ البحر، هذا الإحساس هو الذي صحوتُ عليه اليوم، وهو

يلازمني فلا تخذلني سيدي... لم يحالفني هذا الحظّ قط منذ وُلِدتُ ورأتْ عيني الكون، لعلّ هذه المرّة يصدق...

- ماذا لو خاب ظنّك صالح؟!

سأله الرجل وهو يبتسم كما لو كان يختبر ردّة فعل مشاعره نحو السؤال.

- عندها يكون الله قد تخلى عني سيدي.

ردَّ الغواص بنغمةٍ رتيبة.

قهقه الربان وانتفض منتصبًا... لحقَ به صالح الذي نهض بدورهِ وعيناه معلقةٌ على الرجل الذي أصدر فرمانهُ لمساعده...

- إلى الغوص...

ثم التفتْ إلى صالح وربَّتَ على كتفهِ... لم يُصدق كلّ من على السفينة ريحانة أن بداخل الربان سليمان الهمام ذرّةٌ من العطف، لم يذكّر أحدُ من سكان مدينة المحرق أن الربان هذا بالذات قد عُرِفَ عنهُ التعطف أو التنازل عن قرار أتخذهُ... حتى الشيطان ينْكُر عليه ذلك، كان جبارًا متغطرسًا، عنيدًا وقاسي القلب ولم يسبق أن ابتسم أو تَقبَّلَ من أحدٍ رأي... ذَهِلَ الجميع من حولهِ لدى سماعهم أمرهُ بالنكوصِ إلى الغوص باليوم الأخير قبل الردّة إلى البرّ... وقبل أن ينسحب صالح من أمامهِ أستوقفهُ وقال عبارته الأخيرة له:

- لا تيأس إذا مَزَّقَت الرياح العاتية شراعك، فربما دفعتك هذه الرياح لغايتك.

تَوّزعَ البحارة والغاصة على السطح، جرى الاستعداد للإبحار إلى المغاص المعهود، رفعوا الشراع وبدت الحركة بالسفينة، انتشر كلّ من على ظهرِ المركب يؤدي عمله، والتحقَ صالح بمقدمةِ السفينة حيث كان ينتظرهُ إدريس الذي استقبلهُ بدهشةٍ وتعلو وجهه بشاشة غير مألوفة.

- لقد سَحَرْتَ الربان الذي لا تعرف الرحمة طريقًا إلى قلبه... أدفع نصف عمري لك لو أطلعتني على ما فعلتهُ وقلتهُ هناك في خلوتك معه.

سأله إدريس.

- لقد أفْلَتَ الله لساني وأنْتظرُ منهُ أن يُحرّر حظّي العاثر.

أجاب صالح وانغمسَ في تحضير نفسه للغوص، لكنه أنْزوَى لوهلةٍ وحده عند ظهر المرساة، اسند ظهره عليها وسرح في الأفق... كان الطقسُ معتدلاً والرياح شمالية خفيفة، والموج بدا صافيًا وأزرقُ كلونِ السماء، غاب ذهنه عن ضوْضاء البحارة وصخب الحركة على السفينة... سافر إلى اليابِسة...

"اللهم أَرْجعني حياً عاشقاً إلى صدر جوري ودعني أسْفكُ حبي عند قدميها... يا سيد الكون بيدك أرجع حياً، جوري بانتظاري... لا تخذلني يا الله الذي يَعلمُ سريّ ومطّلعٌ على غايتي، لا تخيب رجائي... لقد آمنتُ بكَ وتيقنتُ من مؤازرتك للفقراء مثلي، والمحرومين والضائعين... لا تردني خالي اليدين"

قام وصلى للمرّةِ الأولى منذ أبحر، شعر بأن تخليه عن الصلاة وتهربهُ منها رغم إلحاح البعض عليه، هو سبَّب فقره وحرمانه لنكوصهِ عن

الصلاة... حين رآه إدريس اقترب منه وانتظر أن يفرغ من صلاتهِ حتى أنهُ قهقه وقال والدهشة تعلو وجهه.

- لم يحن بعد وقت الصلاة، منذ متى وأنت تصلي؟ إن كنت ترشي الله بالصلاة لأجل اللؤلؤة فانس الأمر

حدقَ به صالح وهو شارد الذهن.

- أخيرًا عَرفَتَ الله!

قال إدريس ذلك وما زالت بقايا قهقه يردّدها

- الصلاة بصوتٍ عالٍ ليست برهان الإيمان...

ردّ صالح

- هل صلَيّتَ شكرًا لله لأن الربان استجاب لك؟ أم استجداءً للؤلؤة؟

كان واضحًا أنه يداعبه ويشاكسه من نبرتهِ المُتهكمة لكن الآخر كان بمزاجٍ قاتم، بدا من دلالاتِ الشحوب التي انتابتْ ملامح وجهه المُمتقع... كان هادئًا على غير عادتهِ، منعزلًا عن بقية الرجال... تسودهُ كآبةٌ عميقة لم ينتبه لها صاحبه إلا حين اقترب منه ورأى في عينيهِ بريق غامض.

- ما بك صاحبي؟

سأل إدريس

- أشعرُ بإحساسٍ ملتبسٌ بداخل نفسي وروحي منْقبِضَة رغم موافقة الربان على الغوص اليوم... كنت أتطلَّع لهذا اليوم بتلهفٍ وسرعان ما زال

هذا الشعور وحلَّ مكانهُ انقباضٌ قاتم يخنقني... أرجوك لا تتركني وحدي حتى أغوص في القاع فهو المكان الذي أتنفسُ فيه الصعداء.

- عجبًا لك صديقي! البشر يتنفسون الهواء في البرّ وعلى اليابِسة وأنت تختنق على السطح وتتنفس في هاوية الماء؟ علمًا بأنهُ لا يوجد هواءٌ تحت سطح البحر... كم أنت غريب يا صاحبي؟

قال إدريس ذلك ودنا منهُ، رَبَّتَ على كتفيهِ، وهمسَ له بعاطفةٍ فياضة...

- لا تَقلْ لي صالح شيئًا ولا تبالي، فحَبْل النجاة بيدي سأكون متيقظًا معك وسأحرسك وأجلبك عند أول هَزّة من الحَبل، غصْ وأنت مُطمئِنَّ بأنكَ بيدٍ أمينة بعد يد الله الحافظ!

قطع الحوار بينهما صوتٌ منادي يُعْلنُ بلوغ موضع الغوص...

- على بركةِ الله صاحبي...

# 12

## 1940-المكان-مدينة المحرق-الوقت-مساء-الحالة-عناقيد الشهوة!

خطتْ تفتشْ في طرقاتِ الحي، بتؤدّةٍ مع مغيب شمس مساء المحرق المسْكونَة بآهاتِ النساء، وبرأسها كوْمَةٌ من أفكارٍ رمادية، اختلطتْ بكلّ صور احْتمالات الموت والحياة، تنتظرُ سكان حالة بو ماهر، وبقية أحياء المحرق وهم يتطلّعون بتوَجسٍ مشوبٍ بقلقٍ وغموض تجاه أولئك البحارة والغاصة الذين تأخر بلوغهم البرّ بعد أن انْطوّتْ أوقات الردّة وبعدتْ المسافات مع الغائبين وراء البحر... مشتْ جوري بخطواتٍ رتيبة وقدمين حافيتين تطوف الطرقات والدهاليز الضيقة... تَعْبرُ الخلاء، تلفحُ وجهها الشاحب ريحُ الشمال، يلتصقُ ببشرتها الغُبار، تنْغرِس أقدامها في التراب الطيني... جوعٌ وموتٌ وخوفٌ يسْكُنُ الأرجاء... تعْبرُ دروبًا ضيقةً مقْفَرةً مكْتظَّة بالنفايات والقطط السارحة، أرضٌ مُشَرّعة... تطلّ على باحةٍ موحِشة... خطواتُها تتباعد حينًا وتَحتكّ حينًا آخر... تتلقى صرخات وعويل نساء ثكالى، تُدْرك بحاسةٍ من أَلِّفَ اللجوء إلى قلبهِ لتأويلِ مضمون هذا النحيب الحاد الصادر عن قلوبٍ مفجوعة... صرخةٌ تتلو صرخة... صيحةٌ

على أثر أخرى مدوِية... حناجر نساء ثكالى تصعد السماء ويتردَّد صداها بالكون، تُسْرِع الخطى في شتى المداخل، لا تنوي التوقف... تخرجُ من الطرقِ وتهْرعُ للساحل، تترك الساحل وتلجأ للهضبة الترابية، تتوالى الصرخات ويتصاعد عويل النساء... فَتَفقدُ عقلها وتتوقف تسأل من حولِها: من الميتْ؟ فلا تلقى سوى الصدى يُردّد لوعة ومرارة الألم النابع من فؤادٍ مشروخ. طاردها رجلٌ مصاب بالشبق في خَضَمِ الصخب... صفعتهُ على وجههِ ومضتْ، كانت تَبحثُ عن مكانٍ تسأل فيه عن الخبر "لم يرجع حمد، مات عبدالله، اخْتفَى نَجمٌ" تتلقى الأسماء وتخشى وفزعٌ يلتهمها أن تسمع اسم صالح... ضمنهم.

- من عادَ؟
- وصل الجميع؟
- من بقي في البحر؟
- لماذا تأخروا؟

ظلّت تَطْوّي الدروب والأزِقَّة، تطرقُ الأبواب... تسأل، وتسأل وتمضِي...

جَرتْ في الأنحاء... توقفتْ ثم ركضتْ وهروَلتْ، وعلى بعد منزلين بعيدين عن منزلِها عادّت لتصادف عند منحى ترابي حشدٌ من نساءٍ متباينات بالسْنِّ والمظهر والصوت، يحاولنّ شدّ امرأة من فوق الأرض راحتْ تَتمَرّغ في التراب، كانت تغْرف التراب وتسكبهُ فوق رأسها الأجعد المُتغَضّن... برزَ

وجهُها الأَرْمدّ الداكن وقد غمرهُ الوحل والعرق. كانت ترتدي ثوبًا طويلاً رقيقًا تَهتّكَت خيوطه وكشف عن تضاريس جسدها الهزيل المُدْقِع بالذبُولِ كما لو كانت آتيةً من ركامِ مجاعة، رنين صوتها الباهتْ المضْنى ذابَ في صدى الكون... أفُول قرص الشمس برتقالي اللون وقد اِنْسَكبَ على منازلِ مدينة المحرق قد صَبغَ الأفق بلونِ الدم...

-رجلها لم يرجع، يقال إنهم أطْعَمُوه للبحر!

ظلّت تَهيِّم على وجهها حافية القدمين، تتطلَّع للعيون... تنتظر إجاباتٍ من لمحِ البصر، يجتاحها جزعٌ، وهي تبحث في الوجوه عن أمَّل...

أبطأتْ الخطى وقد دَنتْ من منزِلها يائِسة من جهةٍ شعور بأنه مات، وأمَّلها من جهةٍ أخرى بعودتهِ طالمّا لم تتلقَ خبرًا عنهُ بعد.

- لم يعد بعد، هو بخير وسيأتي ومعهُ لؤلؤتي الدانة... لقد وعدني.

ردّتْ على مخاوفها بصوتٍ داخلي...

وقبل أن تَدْلِف الباب لملاقاة مصيرها مع عجوز تنتظر هي بدورها جوابًا عن ابنِها، دنا منها رجلٌ متوسط العمر، أبيض البشرة، طويل القامة بدا في هيئةٍ مرتبة... ارْتدى ثوبًا بنيًا، كان حاسر الرأس. يترصد عودتها للدار، اقتَربِ وكادَ يلامسُها، التَفَتتْ نحوه وصَوّبتْ سهام عينيها تجاهَهُ، وقبل أن يَشرَعَ بالكلام، عَجّلتْ نحو الباب لتوصده في وجههِ، وضع يده على الخشبة وقال بنبرةٍ متعالية.

- معي خمسُ روبيات تحلمين بها!

ضغطتْ بيدها لتصده عنها وتغلق الباب...

- لا تفضحني العمياء صاحية.

ظلَّ يدفع الباب وظلّتْ هي تصده...

- جوري دعيني أدخل ولك كلّ ما في جيبي...

ردّتْ بعبارةٍ حاسمة مع علامة رفض من يدها... ظلّ الرجل بوجهه الأبيض الذي تغمرهُ بثور صغيرة حمراء، يدفعها حتى تمكن من ولوج الباب...

- العمياء صاحية ستفضحني.

هَمَستْ لهُ وقد خفَّ غضبها وبدتْ أقل حدّة.

- أنتِ بعوزٍ للمال وأنا بحاجةٍ للعسل...

حينما سمعتها العجوز تَحرّكتْ واقْتربتْ من جهةٍ مقابلة للطرف الذي اخْتلتْ فيه مع الرجل. وقفتْ عند حافة الجدّار مُسندة يدها عليه حتى لا يلتصق بها.

- لم توقّدي المصباح؟

سألتْ العجوز العمياء.

ثم أرْدفتْ بسؤالٍ آخر:

- من توفى اليوم؟ غواص آخر؟

صَمّتتْ خشية أن تسمعهُما العجوز، تَقبّلَتْ مُرْغَمة التصاق الرجل بها واسْتَسْلمتْ لقبضتهِ حوْلها وكَتمَتْ أنفاسها. حين ابتعدتْ رقية العمياء مسافة وهي تحاول أن تشمّ حولها وكأنها أدْركَتْ أن ثمة رائحة رجالية في المكان.

- أعطني المال وتعالَ في الليل حين تنام العجوز.

قالت بصوتٍ هامس.

- تخلصي منها الآن أنا بشوقٍ لك جوري، لا يمكنني الصَبْر.

ردّ وهو يضغط عليها بجسمهِ.

- أنا منْهكَةٌ ووسخة وحالتي لن تعجبك الآن.

قالت ذلك وهي تحاول صدّهُ بِكلتا يديها.

- هل أنتِ هنا جوري؟ هل هناك أحدٌ معكِ...

جاء صوت رقية التي انْتصبتْ وسط الفناء تنصتُ بهدوء.

صمتْ وترقب...

- دعيها تنتظر، سوف تيأس وتنصرف.

قال الرجل بصوتٍ خافت.

انْتظرتْ ابْتعاد العجوز التي بدا كما لو أنها اسْتْسْلمتْ يائِسة من أيِ ردٍ.

- حرام عليك أنا تعبه ومريضة وحزينة على زوجي الذي لم يعد من البحر بعد وأخشى أن يكون قد حَدثَ لهُ مكروه... امنحني كم روبية وانْصرفْ، وتعال لاحقًا... أرجوك ليس لدينا أنا والعجوز شيئًا نأكله...

- أنا مهوسٌ بكِ، منذ ساعة ألاحقك بالطرقاتِ وما صدقتْ أن أخْتلي بك، دعينا نفعلها بسرعةٍ وأُعطيكِ ما بجيبي كله.

قال ذلك وهو يرفع ثوبها للأعلى ويُزحْلقَ يده إلى سروالِها الداخلي فيمّا أسرعتْ بوضعِ يدها عليه لتمْنعهُ من التمادي...

- لن تخْسري شيئًا... لحظة سريعة وننتهي وتأخذين الروبيات التي معي...

- أليس في قلبك رحمة... ألا ترى مظهري وحزني؟

قالت ذلك بنبرةٍ مكسورة تستجدي أن يتركها.

ظلّ مصرًا على تسلّل يده لسروالها فمّا كان منها إلا انْسحبَتْ نحو جدار مقابل للنخلَة بالركنِ الآخر وراء الحائط المحاذي لعتبة الدار وأسْندتْ رأسها بإنهاك على الجدّار.

- خلصني بسرعةٍ وأعطني المال... أنا جائعة ومريضة...

قالت ذلك مستسلمة.

- لم تفقدي بريقك رغم كلّ ما اشْتَكيتِ منهُ.

قال عبارته وانْصرفتْ يدهُ تَنزّع سروالها الذي فوجئ به مُهترئًا كاد أن يتمزق بين أصابعه وهو يخلعهُ عنها بشدّة وتلهف.

- لماذا داخلك جافّ؟ ألا رغبة لديكِ فيّ؟

سأل وهو يحاول جاهدًا إيلاج عضْوهُ فيها...

اكتفتْ بالصمت وقد أغمضتْ عينيها واسْتسْلمتْ بفتورٍ تام. وقد تصاعدتْ أنفاسه وهو يعصرها بين ذراعيه بكلّ قوته ثم توقف فجأة...

- أليس لديكِ مكانٌ داخل الدار؟

سأل وما فتئ يُطوّقها وقد شلَّحَ ثوبها للأعلى بعد أن حَذفَ سروالها على الأرض. لم تردّ عليه... حين أتمّ القذفْ فيها اِرْتدى سِروالهُ وتأهّبَ للخروج، لَحَقتْ به دون أن ترْتدي سِروالها وأمسكتْ بياقة ثوبهِ.

- أين المال؟

قالتْ بسخطٍ.

رماها على الأرض وقال وهو مُغادِر.

- لا تستحقين روبية على فتوركِ... عاهرة!

كان الطقسُ في الفناءِ باردًا يضيئهُ القمر بوشاحٍ من ضوءٍ برتقالي أضفى على المكان سحابةٌ وردية، جلستْ القرفصاء على عتبةٍ خشبية بناحيةِ النخلَة، تَنفستْ نسمات المساء... زقزقة طائرٍ صغير بدا فاقداً سربهِ مع حلول الظلام... لم يسعفهُ ضوء القمر على الاقتفاء بالسرب... كانت هناك دموع تَساكّبتْ من عينيها، تزامنتْ مع بواكير الشتاء، لاحتْ بلونِ أوراق الشجر مع وشاح سحابة الغُبار، شَعرتْ برعشةِ بردٍ سَرّت في أوْصالِها. أَحَسَّتْ وكأنها تسير على سطحِ البحر، انْخَرطَتْ في بكاءٍ حار... وَثبَ أمامها شبح زوجها صالح، لاذتْ بالفرارِ من التفكير فيهِ... كلّ شيء بدأ ينقلبُ ضدها، الجوع الفقر والحسْرَة...

الشعور بالموت للبشر يُحَلق حولها، زوجٌ غائب، عجوزٌ عمياء، جيران فضوليون، هاجس الجوع وفقدان الأحبة، رجالٌ قذرون شبقون يحيقون بها. تَلبَّسَها خوفٌ من كلِّ شيءٍ، تُلفق لنفسِها الضحك والصراخ لتَطْمرُ المرارة، مَسحتْ الدموع وتطلّعتْ لطقسِ المساء الكئيب البارد بضوء القمر، رغبةٌ هوجاء خفية اسْتيقَظت بغتةٍ بجسدها إزاء فتاة تعرفها تُدعى نرجس... وحشيةُ الجسد، تُقيمُ بدار دلال القوادة. ظلّتْ نرجس تتعقبها بنظراتٍ شهوانيةٍ أنْمَتها بجرأتِها على التلامس معها ثم العناق... أَضْرَمَ بها ذلك حريقٌ فجائيٌ، أيْقَظّ أسرار جسدها التواقُ لتلك المرأة المتوَحِشة، نرجس...

مَسَحتْ تلك الخاطرة العابِرة الدموع من عينيها، لمحتْ فجأة نجمًا خاطفًا عَبرَ في السماء، حَدَسَتْ ثمة احْتِمال لخبرٍ مريع يطرق بابها!

- رحماك يا ربّ.

قالت ذلك في داخلها وأردفتْ بذات الصوت الداخلي المكبوت.

- الموت أرحم من هذه الحياة...

نهضتْ تُزيل التراب عن ثوبِها، التقطتْ سروالها المُمزق بنظرةِ اشمئزاز...

- لماذا تخلقنا ثم تعاقبنا؟

حين دلفتْ للداخل كان الظلام قد سَدَّ كلّ شيءٍ ولم يصلها سوى صوتُ رقية العجوز تناديها بِمجرد أن سَمعتْ دبيبَ خطواتها.

- الجوع يقتلني بنتي ألا يوجد لديكِ ولو كِسْرةُ خبزٍ.

أشْفَقتْ على العجوز وقد لاحَ من صوتها الضاوِي حدّة الجوع الذي تعانيه.

ارْتدتْ فجأة سروالها الذي كان بيدها وهَمتْ بالخروج ثانية...

- ستخرجين وتتركيني وحدي.

جاءها صوتُ رقية.

- سأتدبَر لنا ما نأكله...

ردّتْ عليها بنبرةٍ ودية، ثم خاطبتْ نفسها وهي تعبرُ الباب هاربة...

- هل أنتَ! موجودٌ حقًا في السماء؟ هل ترانا؟!

# 13

الوقت-نهارًا المكان-السفينة ريحانة-الحالة-عناقيد الغُربة

بَزَغَ بحرُ هذا اليوم بالذات من غيرِ سائر الأيام المُنصرِمة بنفسجيِ اللون... جلسَ صالح على حافة المركب مرتديًا ملابس الغوص وراح يَتَطلَّع للبحر فيمّا وقف إلى جانبهِ كلٌّ من إدريس، وخميس المؤذن واثنان من الغاصة كانا بدورهما ينويان الغوص معه. بدا قرص الشمس الشحيح مُغْبرٌ يُشّعَ مع تيار هواء بارد يداعب جسد إدريس الذي كان يَسْتمعُ لتعليقات الرجال فوق رأسه دون أن يشاركهم الحدث... كان يتطلّع للشمس كما لو كان ينتظرُ منها ولادة إشارة أو دلالة ما، تُقرّر مصيرهُ قبل أن يغطس في الماء.

- ماذا تنتظر صالح؟ لقد ظلّلتْ تَلحّ على الغوص والآن بدا عليك التردد؟ ماذا يدور برأسك؟

قال أحد البحارة مخاطبًا إياه.

- لون البحر يبدو غامضًا، والهواء باردٌ والغُبارُ يملأ الجو وكأني بالسماء تقول لي لا تَغصْ اليوم، ولكن كلّ هذه ترهات، سَأنْزل الآن إلى مكاني الوحيد الذي أتنفس فيه الحياة!

ابتعد الرجال ما عدا إدريس الذي كان مشغولاً بتحضيرِ عدة الغوص له، وقَفَ صالح وأرتدى طوق الفطام لمنع التنفس تحت الماء والتفتَ لصاحبه...

- سأغيب عنك اليوم وقتًا أكثر فانْتبه لي عندما أبلغ حدي الأقصى في الماء.

- لا تبتعد أكثر من مسافة الحَيّزُ الذي أنتَ فيه.

ردّ إدريس منبهًا وقد لَفَتَ انتباههُ فجأة اثنان من الغاصة قفزا إلى البحر، اِلْتفتَ نحو صالح وقال مستفزاً.

- سَبّقاكَ إلى القاع.

- لستُ مُستعجلاً على مصيري...

ضحك واستأنف قوله بنبرةٍ ساخرة.

- لن يسبقاني للجوْهرة فلأول مرّة أشعرُ بها تناديني، بل وأعرفُ مكانها وكأنها تغريني بتحديها أن أجازف بالوصول إليها.

- إن كنت تعرف مكانها فماذا تنتظر؟

سَرحَ لوهلةٍ في الأفق، تطلّع لضوءِ الشمس، حَركَ جسده في الهواء كما لو يَنفُض عنه الكسل والوهن، فقد اعتاد جسده النحيف لشهورٍ عدّة أن يتحدى قاع البحر، يَشُقّ بَطْنَ جحيمه... يغور في متاهتهِ الساحرة، سكَنَ قعّر الُلجَّة، اِقْتاتَ طوال اليوم على التمر والماء والهواء، كبقيةِ الغاصة. ظلّ يناجي البحر وكأنهُ يتحدث لإلهٍ يستجديه ألا يُخيّب ظنه...

سرحَ صالح واستعذب مُماطلّة الوقت، طفق يُلملم شتات أفكاره... سافر ذهنيًا لليابسة، كان يحدق في البحر وعقله في البرّ، تَوزّعتْ خواطرهُ بين هنا وهناك، ونسى أن قاع البحر الذي كان يتلهف إليهِ غابَ عن ذهنهِ، راح يقذفُ نواة التمر في البحر محدثًا تموجات مصحوبة بوشوشة في لجة الموج، اسْتَتبَّ ذهنه عند حدود منزلهِ الصغير... تجمد عند فتاته، وهي تمشي حافيةً القدمين... تذكّر أمه رقية العمياء تحمل جبلاً من الصبر على ظهرها المقوّس... عاد ثانية للمركب، تأمَّل البحر، تذكّر حلمهُ بالدانة تزين صدر جوري، نزعهُ الحلم من الفقر، استيقظ على وقع صوت إدريس...

- هل تريدني أنزل البحر بدلاً عنك؟ لكن إن حدث ذلك فإن الدانة تضحى من نصيبي.

قال إدريس متهكمًا.

- ثمة إحساس غريب ينتابني.

قال صالح.

- هذا سبّبهُ برودة الطقس... أنتَ من أصرَّ على الغوص بهذا المناخ البارد. توّكل على الله ومن أجل حبّ جوري أنزل إلى عرشك في قاع البحر، فأنت ملك الغوص، وأعتمد على أخيك الذي ينتظر عودتك مكلّلاً بتاج النصر!

ردّ إدريس.

- هل خرج مبارك وسعود من البحر؟

سأل صالح عن الغواصين اللذيّن سبقاه في الغوص.

- خرجا وهما ينتفضان من البرد... لو كنت مترددًا صديقي وتشعر بأن نزولك للماء فيهِ نحسٌ فاكتفِ بذلك وارتد ثيابك.

- يستحيل ذلك إدريس.

- إذن لا تضيع وقتك قد يسمع الربان عن تردُّدك فيلغي المهمة ويأمر بالإبحار.

- صدقت يا صاحبي...

رَبّتَ إدريس على كتفهِ ومدّ لهُ إناءٍ معدنيًا من الماء وقال باستهزاء.

- اشرب من ماء الربان فقد سرقتهُ لك في غفلة...

ارتشف صالح الماء، أعاد الإناء وبدأ يعد نفسه للهبوط إلى البحر، استوقفه إدريس وقال مقترحًا.

- ما رأيك أن تُصلي ركعتين ثم تنزل؟

قهقه صالح وقال...

- لم يحن وقت الصلاة بعد...

- ألم تسمع صلاة الغوص؟

سأل إدريس.

- سمعتُ عن الصلوات الخَمس، ثم صلاة الدخلّة ليلة العرس، وصلاة الجمعة. ولكن لم أسمع لا عن صلاة الخميس ولا صلاة الغوص... هذه بدعة وكلّ بدعةٍ ضلالة وكلُّ ضلالةٍ في النار!

- يبدو لي أنك بدأت تهدأ وتروق. هل فكّرت بجوري حتى انتابك هذا الشعور؟

جاء أحد البحارة وكان بسِنّ مبكرة، بدا صبيًا صغيرًا وقف مترددًا وقال مخاطبًا صالح بنبرةٍ مستحية...

- أريد أن أصبح غواصًا هل تدربني؟

ضحك صالح وبدا كما لو نسي همومه وردّ عليه بصوتٍ ودي بعد أن تنهد وقال:

- ما لك وللبحر يا صاحبي. خلك على السطح إذا لم تكن تحلم... وإذا قدر لك أن تعشق وتحبَّ فتعال عندئذٍ وسأعلمك الغوص.

ابتسم الصبي ووقفَ بعدها حائرًا لا يعرف ماذا يفعل حتى بادرهُ إدريس بقولهِ آمرًا...

- اذهب وفكر بالزواج من امرأة جميلة ثم تعال، وسوف نختبرك للغوص...

نظر صالح لإدريس نظرة توبيخ على تهكمهُ وقال للصبي.

- لا تسمع كلامه سأعلمك بالموسم القادم الغوص... أما الآن فأذهب وادع لي بالفوز.

غادر الصبي وهو في حيرةٍ مما سمع من الاثنين.

- أنت غريب هذا النهار!

قال إدريس فردّ عليه صالح بسرعة.

- وأنت أغرب.

بعدها توجه صالح إلى رصيف المركب وتناول عدة الغوص، توقف وقال بنبرة شجن.

- أوكلك إدريس إذا لم أعد من البحر أو حدث لي مكروه، أوصيك بجوري التي لا تملك من الدنيا سواي...

تنهد إدريس وقال بنبرةِ اعتراض وتوبيخ...

- ماذا دهاك صالح هذا النهار؟ هل أنت مريض؟ أم تتملص من الغوص؟ لم أعهدك بهذا الإفراط في المشاعر... كنتَ طوال السنوات التي عرفتُكَ فيها مجردًا من العواطف والخوف والتردُّد... لقد كنتُ أحسدكَ على جرأتك وأغِير منك على تهورك... بل كنتُ أغضبْ من نفسي حين أراها ضعيفة وأراكَ مقارنة بيّ بشكيمةٍ لا تقارن... تبدو لي هذا النهار إنسانًا آخر غير الذي أعرفه. هل أنت متأكد من أنك صالح الزري؟

ضحك صالح وقال وقد تغيّرت سحنته كلية وعادّ لطبيعتهِ الساخرة المتهورة.

- لقد خدعتُك طوال الوقت...

ظلّ يقهقه ثم أردف وما زال ينظر لإدريس بتهكمٍ وقال وقد زالَ عنهُ كلّ ذلك الشعور الرتيب الذي كان عليه منذ فترة...

- كنت أريد أن أُطيل الوقت فقط من أجل التسخين والتفكير والتأمُّل واختيار الوقت الذي أشعر به أن محارتي المختارة تستدعيني لهذا الوقت.

- يا لكَ من لئيم صالح.

قال إدريس ذلك وهمَّ بدفعهِ في الماء ولكن الآخر أوقفه وقال بنبرةِ اعتذار...

- سامحني إدريس على تمثيلي الدنيء...

تَوقفَ ونظر إليه ثم لكزهُ في كتفهِ وقال بنبرةٍ توّسل.

- هذه المرّة صدقني أمنحني فقط لحظاتٍ خاصة بيّ أناجي فيها جوري ثم أباشر بعدها النزول للبحر.

- والله إن تأخرتْ عن ذلك لأدفعك بنفسي إلى البحر...

صمْتْ

- ماذا ستقول لجوري أكثر مما قلتهُ طوال الشهور الفائتة؟

سأل إدريس صاحبه باستهزاء.

۞۞۞

"جوري أبْصرُكِ بالخريفِ بعيونٍ حزينةٍ نقيض ما أراكِ بالشتاء، بالصيف أنتِ بعيدةٌ عني وبالشتاء أنت أيضًا بعيدة... أنتِ رَمْز الاشتعال... بالخريفِ مع اصفرار الأوراق تبدين مختلفة في لونك الجميل... فأنتِ اليابِسة وأنا البحر، أتخيّلّكِ نَضِرةٌ، تشعين رونقًا، كبساطٍ باللون الأخضر! الخريف يزرعُ فيكِ جمالاً متناهٍ وأنا بعيدٌ يا زهرة حبي... بالشتاء بعد أن يذبل الخريف ومن معطفهِ تزهر حياة ثانيةً بلونِ الثلج الأبيض. أحدقُ بكِ كما أحدق للأشجار وهي بلا أوراق... بلا لون، أتأمَّل هذه الأوراق اليابسة إيذاناً لبوادر أوراق

جديدة وأشجار خضراء ووجه جميل! ينمو من ساق الخريف، نقيض الربيع الذي يحزنني! لأنه يذكِّرني أن الأزهار اليانعة وهذه الأوراق والألوان الزاهية وقوس قزح الشتاء الذي يلمع من شعاع عينيك هو بقايا رذاذ المطر، هو الأفول... أسْتنْبط الحياة من الموت وليس النقيض، كأنني اختبئ تحت قشرة الموت! تُذكِّرني هذه اللحظة أن الموت هو الحياة إذ تتَدفق الأرواح الملونة بالزهر، حيَّة تنبض بالتناسل وكأنها تنسخ الأشياء من داخلها... سأغوص الآن وقد فاتَ الخريف ومن يعلم قد ألقاكِ بالشتاءِ حين تذبل الأوراق وتسقط... "

ظلّ يناجيها وهو ما بَرِحَ على حافة المركب ينظرُ للبحر وموجه الأزرق بانتظار أن يَقفِزَ إليه ويغوص في عمقهِ ويغور إلى سحيق قاعه .

"أتمنى إذ عدتُ لك أن تغويني مثلمّا يغويني هذا البحر... استجدي منكِ قبْلة أو معانقة إلى الصدر الذي أثقلهُ الغياب...

تنهد واستدرك...

"عندما أعود إليك جوري، اعذريني إذا أخْفقتُ في وعدي"...

صَمَتَ ثم خاطب نفسه بنبرةٍ معاتبة...

"لا تلوميني جوري إن هربتُ منكِ ولم أعد، حينها أكون قد خذلتك ولم أحصل على ما وعدتك فربما دفعني الخذلان للهربِ بعيدًا في غابةِ البحر...

ولكن إن فزتُ باللؤلؤة التي في البال فسأفيئ إليكِ حتى لو اجتمع الإنس والجنّ فأنتِ سجني وأمي وأبي وإلهي من غيرك إلا الفَناء"

وقف على الحافَة وبدا كما لو يقرأ تعويذة أو آية أو مناجاة...

"موعِدُنا جوري عند ساحل المدينة... مرسى المحرق، المدينة الحافية كمّا أنتِ حافية دائمًا... اعشقُ قدميك عندما تتلوث في الوحل... أجمل وهما متسختان بالتراب، أنتِ والمحرق توأمتان منكما استمد وجودي، فقد فتحتُ عينيّ بداية على المدينة الرمادية، الحافية ثم فتحتُ عينيّ ثانية وأنا فتى يافع عليك يا مدينتي الثانية الحافية أيضًا ولا أعرفُ سركما في الخفاء؟"

توقف، ابتسم للبحر واستطرد:

"ترى ماذا تفعلين الآن؟ أتخيّلكِ بهذا الوقت من النهار تستلقين بظهيرة المدينة ومن خلفكِ صوت العجوز ترفدك بالترهات... هل تعلمين أن من نعمِ الله عَليّ أنني أتخيّل كلّ ما يتعلق بك ويعنيك أراه أمامي... أراكِ كما لو كنتِ معي... حين تستلقين وعيناكِ على سقف الغرفة الضيقة المكتظّة بملابسنا التي لا مكان لها، أتصورك تكنسين براز الحمام أو ترمينها بالحجارة فتسقطُ ميتة... لا أصدق جوري جوهر عدائك لطيور الحمام المُسالِمة، هل يكون لأصواتِها المزعجة مع هدير نواحها بالصباح الباكر سبّبٌ

كافيٌ لموتِها على يديكِ؟ كم شكّكتُ بوجبات الطعام التي تعدينها لنا بدعوى أنها دجاجات على أنها حمام من تلك التي تصرعينها!"

تنفّس وحَكَّ رأسه وسدّ أذنيه عن كلّ ما يدور على السطح في رغبةٍ داخلية بتجاهل الأصوات حتى يظلّ لا يسمع إلا صوته وحده.

"عندما رأيتُكِ المرّة الأولى جوري رأيتُ فيك مدينةُ المحرق التي عشقتها رغم ظلمها لي... أتَذكّر موسم الرياح الخبيثة، لا نتوقّع متى تستفحل؟ تذكّرتُ حرقة القلب، حين اقْتربَ موسم الغوص وأدْرَكتُ أنني سأتركك بعد شهور فقط من زواجنا... كلّ قلوب سكان المدينة مثقوبةٌ بِوّلهٍ لبعضها البعض، ولكن قلبي يفوقهم جميعًا جوري... نغادر، مع بدايات الحرّ والرطوبة، ونعود مع البرد والغُبار واشتداد الجوع بالناس وقد اِسْتُنزِفَ ما فينا حتى أضْنَت أجسادنا وانْخَرقَت أَسْمالنا، كان موسمًا نَشَرَتْ فيه أخبار الحرب الذعر فينا، والمحظوظ منهم الغني الذي فَلَتَ من سياج المدينة ومن قَطفَ شيئاً من فتات جيش الاحتلال، كان الإنجليز مرات كرماء يلقون ببقايا مخلفاتهم ثم ينقلبون بغتةَ إلى بُخلاء... الفقر يا جوري هو الذي جعلني هذه اللحظة أقفُ على طرف المركب ولا شيء في عقلي سوى الغوص حتى أبعد مغارة في البحر لآتي لك بالجائزة العظمى... دانةٌ لم يَرَها بشر"

- ألا تنوي الغوص صالح؟

سأل إدريس.

- بلي... متى ما انتهيتُ من قراءة الآية...

أجابه صالح ثم عادَ وسافر للبرّ

- لو كنت تقرأ القرآن كله لخلص!

قال إدريس ذلك وابتعد عنه...

"ألقاكِ جوري على ساحلِ المحرق العتيقة، آملَّ أن أراكِ تستقبليني هناك كما تفعل كافَةَ النساء من زوجاتٍ وأمهاتٍ وشقيقات... أتمنى جوري أن أراكِ من على بعدٍ، قبل أن تطابق السفينة المرسى حيث ستكون عيناي منذ اللحظة التي ترى اليابِسة مُصوّبةٌ على البرّ لأراكِ من بعيد... هل تدركين جوري ماذا يعني إليّ رؤيتك بعد هذا الفراق من بعيد وأنتِ واقفة تنتظريني حافية القدمين؟ أراك وأموت بعدها!"

# 14

## 1940الفصل-خريف-المكان-مدينة المحرق-الحالة-عناقيد النساء

صالح الزري... تعرفهُ سواحل وطرقات وأزِقَة مدينة المحرق الهَرِّمة، كأنه نُسج من أنفاسها ومن ترابِها وأشعة شمسها، كأنهُ ظلّ المدينة التي لا يَكفّ عن الطواف فيها منذُ الطفولة، يأكلُ وينام ويخرج ويعود، يسهر وفي النهاية يغْطسُ في دهليز المدينة من حيٍ لآخر ومن مقهىٍ لساحل ومن مركب لمركب وهكذا دوليك طوال الوقت، فهو أغلب السنة بِلا عمل وإن اِنْشغَل شهرًا أو آخر في الصيدِ أو توصيل حاجيات بعض الجيران ورواد البحر من الربابنة والبحارة، لكنه سرعان ما ينتهي به المطاف للتجوال والتسكع في أحياءِ المدينة... يَسْكن حي القلاليف بحالةِ بو ماهر قرب الساحل البحري جنوب المدينة، الحي الذي يكْتظّ بالسكان الذين يكون أغلبهم بحارة وعاطلين ومتسكعين. لا يوجد بالحي منزلٌ واحد يتفوق على بقية المنازل من حيث الإعمار والمكانة، فكلّ البيوت صغيرة وقديمة، أغلبها متَهالك بُنيتْ من الحجارة والطين، تتداخل مع بعضها البعض ويكاد يَسْمع سكان كلَ بيت تنهدات وزفَرات وآهات سكان البيت المجاور، ولهذا لم تعد هناك أسرارٌ في

البيوت... كان أغلب سكان هذه المنازل فقراء ومعوزين ويعتمدون على الصيد وخدمة الأحياء الأخرى الأعلى مكانة وأكثر ثراء! رغم أنهُ لا يوجد ثراءً حتى مع الميسورين من سكان المدينة باستثناء قِلّةٌ لا تعد على أصابع اليد الواحدة.

كان صالح الزري شابًا يافعًا عاديًا في ربيع العمر، لا يتميز عن غالبية فتيان المدينة، لم ينتعل الحذاء بحياتهِ ولم يتذوَق طعم الآيس كريم الذي كان في بداية انتشاره عن طريق مصنعٌ للثلج بطرفِ سوق المحرق يديره رجلٌ عراقي، يهودي الأصل يُدعى بو سلمان ويُدار بإشراف جيش الاحتلال البريطاني الذي يعتمد على هذا المصنع لتزويده بالثلج الذي لم يكن معروفًا حتى فترة طويلة عندما بدأ بعض ربابنة سُفن الصيد يعتمدونه لحفظ الأسماك... كانت كلمة الثلج تلك الفترة كلمة سحرية مقرونةٌ بعملٍ شيطاني لدى البعض. دأبَ صالح الزري بعد أن بلغ سِنّ السابعة عشرة على التسكع بأطرافِ ساحل المدينة بمحاذاةِ سوق المدينة الذي يشمل بسطاتٍ لبيعِ الأسماك والخُضار ومسلخ للأغنام وبالقرب منهُ عددٌ من المقاهي التي تُقدم النارجيلَة والشاي واللبن والزبادي مع وجبات البيض والخبز وثمة مطعمٌ صغير بالزاوية هناك يديرهُ رجل يمني يُدعى غنام وكنيتهُ عبود، وقد شَكلَتْ تلك المقاهي والمحلات همًا دائمًا لصالح الذي كان يتسكعُ حوْلها ويَشْتمّ ما يخرج منها من روائحٍ زكية للطعام يعجزُ على ارتيادها، أقْسَمَ إذا ما اِلْتحقَ بالغوص أن يرتاد هذه الأماكن ويُشبعُ نهمه من طعامِها...

كان هوسهُ الثلج... فعندما عَلِمَ بافتتاحِ فرعٍ صغيرٍ على الساحل لمصنع للثلج وسَمعَ أن الناس الميسورين يتدفقون عليه، لم يفهم في البدايةِ معنى الكلمة التي يتداولها غالبية السكان "برف" وماذا تعنيه وحين احتسَى لأولِ مرّةٍ بحياتهِ الماء المُثَّلج بمنزلِ أحد الأعيان بحيٍ مجاور عندما كان يوصّل سلّة السّمك ورأتهُ ربَة الدار يقطر عرقًا أوقفتهُ وجَلبتْ له كأسًا زجاجيًا ينْضحُ من خارجهِ برذاذٍ الماء على هيئةِ بخار، لم يرَّ من قبل كأسًا من زجاجٍ ولا ماء بارد، وحين اِحْتساهُ لم يُصدقْ أن هناك سكانًا في الأحياءِ المجاورة للحي الذي يُقيمُ فيهِ يعيشون حياة الخيال، وأقْسمَ كما هي عادتهُ كلمّا أرادَ تحقيق شيء لم ينَلهُ أن يجعل والدتهُ رقية تشرب ماء الثلج... وحين تزوج كان يأخذ جوري معه إلى السوق يركنها في زاويةٍ بجانبِ المقهى الذي يرتادهُ ليَجْلبَ لها كأس الماء بالثلج ولم يسعْ لمعرفةِ أين يُباع ذلك السحر إلا قبل أن يُبْحر إلى الغوص بأيامٍ حين سعى جاهدًا لشراءِ قطعةُ ثلج... كان الثلج يُباع بالوزن وقد تمكن من شراء رطلين من الثلج دفع فيهما نصفَ روبية ممّا اِدخرَ من مالٍ على أن يحفظ هذه الكمية من الثلج لإيامٍ تالية وحين عاودها هو وزوجته باليوم التالي لم يجدا بالإناء سوى ماءٍ ساخن... نظر كلٌّ منهما للآخر ولم يصدقا... اعتقدا أن هذا الثلج ليس إلا الشيطان بعينه.

قبل أن يلتقي بجوري كان همهُ الأساسي البحث عن عملٍ ثابت وكان يسمعُ عن اكتشاف النفط وصناعة الثلج وغيرها من أعمال كان يظنُها ضربًا من العبث، قضى وقته عاطلاً يتسكع حافيًا يرتدي الملابس القطنية

والصوفية في الشتاء والصيف ولم يفرق بين الفصول إلا حين يشْتدُ الحَرُّ ويمرض فيخلع ملابسهُ ويظلّ بسروالهِ الداخلي طريح الفراش، حينها يهجر الملابس الثقيلة ويكتفي بثوبٍ أو ثوبين... لم تتغيّر حياته إلا عندما التحق بمركبٍ لبحارٍ يُدعي علي بن يعقوب لصيد السّمك وهنا بدأ يجني بعض المال سرعان ما بدّدهُ في المقهى وظلَّ مفلسًا حتى حانَّ موعد رحلة الصيد التالية.

لم يُفكّرَ في امرأةٍ رغم هوسه عند رؤيتهِ لبعضِ النساء اللاتي يزرنَّ عين المياه القريبة من البحر والتي أقامتها بلدية المحرق... كان يرى النساء والفتيات يرْتَدنَّ تلك العين ويتأمَّل سيقانهن وصدورهن النافِرة فيعود للبيت ويضع في رأسِهِ صورة واحدة منهن يستمني عليها... ظلّ على هذا الحال إلى أن صادف تلك المرأة، جوري عائدة من خباز الحي وبيدها صرّة الخبز. كانت ابتسامتها له ظفرٌ يوازي فتح مكة أو هجرة النبي، هكذا كان يرى الأمر... بعدها واظَبَ على ارْتيادْ ذات الطريق وراح يتحين الفرص للقائها، حتى تَمَّكنَ من رؤيتها مراتٌ عدّة وفي مناسباتٍ مختلفة بعضها بهيجةٌ كأعراسٍ في الحي وبعضها كئيبةٌ مثلَ حريقٍ دَمرَ رقعة واسعة من الحي كانت المنازل في غالبيتها مَبنيةٌ من سَّعفِ النخيل والأخشاب. أو عند عودّة سفن الغوص وقد فَقَدَتْ بعض الأسر أفرادًا منها خلال فترة الغوص... من يومها أقْسَمَ هذه المرّة ألا يُضيّعُ الفرصة منه في البحثِ عن عملٍ دائم ليدرّ عليه مبلغاً من المال يكون مَهر زواجه من جوري التي لا يعرف عنها شيئًا ولا عن

عائلتها أو سكنها أو حتى مجرد اسم لها... اكتفى بمشاعره نحوها وظلّ يطارِدُها في الحي فترات حتى أقنعها بأنه راغبٌ في الزواج منها. وحين فاتح والدتهُ رقية طَلبَتْ منه أن يأخذها لأهلها لتتعرف عليهم وتطلبها منهم... صُدِمَ عندما فاجأته جوري بأنها بلا عائلة وأنها تُقيم مع عائلة بحي مجاور مقابل أن تخدمهم وحين أَطْلعَ رقية على ذلك صرختْ فيه محذرة قائلة بنبرةٍ ساخطة "لا توجد امرأة طاهرة لا أهل لها... هذه عاهرة"

من يومِها حقدَ على والدته وظنّ أنها الغيّرة من وجود امرأة بحياتهِ. قرَّر ألا يفتح سيرة الفتاة لها، تجاهل كلّ ما قالته ولم يفكر لحظة بما أتهمتها به، بل أنه لم يَسَع حتى للإلمامِ بما تعنيه كلمة عاهرة رغم سماعه للكلمة مرّة أو مرتين بحياته. ظلّ يطارد الفتاة وظلّتْ هي بدورها تلاطفهُ وتسايره ولكنها لم تسمح له بمعرفة أين تسكن أو مع من؟ وهو بدوره لم يهتم بأكثر من الحلم بامتلاك هذه الفاتنة التي سحرته ولا يهمهُ منها أي تفصيلٍ يُذكّر... كان يكتفي منها بأنها تُقيم بمدينة المحرق وأنها بطعم المدينة وبحرها وسمائها وبيوتها القديمة وروائح ناسها وعبق أحيائها... فكان دائم البحث عنها في هذه الأشياء. كان يراها مالحةٌ بطعمِ مياه البحر حين يَلْثمُ بلمحةٍ خاطفة فمها، ومرّة رآها بلونِ الثلج الذي جنَّ جنونه عليه منذ تذوقه للمرّة الأولى. أخذ يقارنها بسفينة فاتنة من سُفن صيد السّمك ثم يراها في صورة منزل جميل من منازل الحي المجاور بنوافذهِ الخشبية المُزخْرفة بالنقوش... حتى أنه أجبرها ببعض الأوقات عند الظهيرة حين يخلدُ الناس للقيْلولَة بفصلِ الشتاء، وتخلو

الطرقات والأزِقَّة من المارة ما عدا الماعز والكلاب والقطط، إلى الخروج سرًا معهُ والمشي أمامها وهي وراءه بخطواتٍ حتى لا يَلْفتا الأنظار لو صادفهما أحدُ المارّة... كانا يقطعان الأزِقَّة ثم يلوذان إلى الساحل رغم البرد وأحيانًا الأمطار... وعندما يختليان يظلّ يحدثُها عن طموحاتِه وأحلامهِ في الالتحاق بمركبٍ للغوص ليتمكن من الاقتران بها... كان يستغل تلك النزهات الخاطِفة ليحدثُها عن السُفن والثلج واللآلئ، ودأبَ على تكرارِ وعدهُ لها بأن يأتيها في رحلة من رحلات الغوص بدانةٍ زرقاء! كانت تضحك وتكتفي بلكزة على كتفه وتقول بنبرةٍ رقيقة" تزوجني أولًا ثم أحلم بالدانة"، فيرد عليها ويقسم كعهده دائما "لن أرجع من الغوص إلا ومعي الجوْهرة" تبتسم وتنظر في عينيهِ وحينها يسحر بتلك النظرة الأخاذة التي تُشبه في إبهارِها ضوء نجمة من نجوم البحر التي يتأمَّلها عندما يكون وحدهُ على سطح المركب ويتطلَّع للسماء فيرى نجمة من بين النجوم تختلف في حجمِها وبريقها فيظلّ محدقًا فيها.

راحَ يستغل الأوقات التي يخلو فيها الحي من المارة وتسودُّ الوحدة، يخرج في المساء حينما يضرب البرد القارس ويداهم السكون والعتمة، يتدثّر بملابس ثقيلة مجعدة، يَلفّ رأسه بغترةٍ ويتوجه للساحل بعد أن يضرب موعدًا معها ويظلّ ينتظرها هناك محدقًا في البحر، منصتًا لصوتِ أمواجهِ ترْتطمُ بسياج الحجارة قرب مرفأ الصيادين. تتصاعد دقات قلبه وهو ينتظر فتاته تُلَوّح له من بعد... كانت تأتي أحيانًا مُتبرِجة تشع ببريقٍ خاطف لم يعهدهُ

فيها من قبل... تفوح منها رائحة عطر غريبة، حتى أنه اشْتمَّ فيها ذات مرّة رائحة التبغ وحين سألها عن مصدرهُ برَّرته بأنها كانت تجلس بقرب صديقة لها من أصل أعجمي كانت تدخنُ النارجيلة!

صادفَ مراتٍ وعدته بالمجيء ولم تأتِ وليلتها لم ينم طوال الليل يتحرق مجيء النهار ليخرج ويترصدها ويشبع نظره منها... لم يغضبْ منها قط، ولم يسخطْ عليها، ولم يشعر بأي غيظ نحوها إذا ما تَأخرتْ أو أَخَلَّتْ بالموعد ولم تأتِ وقد فعلتها مرات عدّة كان يكتفي بسهرِ الليل والتفكير فيها، والحلم بيوم يقترن بها... فيغوص في التأمَّل ويضع الخطط للالتحاق بالغوص خلال الموسم التالي ليعود ومعه المال... وقد حقَّقَ ذلك منذ أول مرّة أبْحَرَ فيها إلى الغوص وبمجرد أن عادَ تزوجها رغم اعتراض رقية وحربها الطاحنة معه بألا يقترن بها طالمّا لا أصْل ولا فصل لها.

- لو تزوجتها لا مكان لك في البيت.

قالت له ذلك في الأسبوعِ الأول لعودتِه من الغوص حين سألته عن المال الذي وفره فأخبرها بأنه للعرس من جوري.

- أنتِ لا تعرفين هذه الفتاة ولم تلتقين بها.

قال لها ذلك وحاول اقناعها ورؤيتها قبل أن تحكم عليها... ردّتْ عليهِ حينها قائلة:

- وأين ألتقي فيها طالمّا ليس لها بيت ولا أهل ولا أصل. خذني لمن أطلبها منهُ وساعتها لن أعترض على زواجُك منها.

ردّ عليها وقتها بقوله: انتظري وسوف آخذك لمكان إقامتها.

قهقهتْ رقية بل زاد ضحكها بتهكمٍ وقالت: إقامتها؟ أين يا حسرة!

عندما التَقتْ لأول وهلَة بها عملت العجوز العمياء على إقحام يديها بوجه جوري وقامت بجولةٍ ميدانية بدأت من الشعر إلى العينين مرورًا بالأذنين والأنف ثم واصلت تجري مسْحَها على الجسدِ كله وسط صمتْ وجمود الفتاة التي قابلتها بعد أن أحضرها صالح إلى المنزل وكان قد أصَرَّ رغم عناد والدته على الإقتران بها، فما كان من العجوز إلا أن اسْتسْلمتْ لرغبتهِ لكنها من يومِها وهي تناكف الفتاة وترصدها وتتنصتْ عليها ولا تترك لها فرصة للتنفس كلمّا أتيح لها ذلك. بعد أيام اقترن صالح بجوري وسط حفل صغير جرى بعريشةٍ قرب مرفأ صناعة السفن استعارهُ صالح بمؤازرَة من اليعقوبي، حضرتهُ فتاة تُدعى نرجس صديقة لجوري وأحْضَرتْ معها بدورها بعض الفتيات رحْنَ يغنين بضع أغانٍ شعبية وعراقية، كما وحضر اثنان من رفاق صالح كانا قد شاركاهُ حضور عقد قرانه كشاهدينِ على الزواج بأحد مساجد الحي، أحدهما إدريس والآخر بحار يُدعى محمد اليعقوبي شقيق لليعقوبي الذي كان صالح أحد بحارتهِ في مركب صيد السّمك... بضعة أشهر من الزواج غادر صالح بعدها برحلتهِ الثانية في حياتهِ، والأولى بعد زواجه من جوري تاركًا امرأتهُ وراءه ولكنها لم تغبْ عن ذهنهِ وعقله.

❁❁❁

# 15

## 1940-مدينة المحرق-المكان منزل على تَلّة-الحالة-عناقيد الخبز

"هل أنا بعتمةٍ أم نقطة ضوء فحسب؟ وُلِدتُ وأَتَيْتُ للدنيا، أكلتُ وشربتُ ونمت وعبثتُ وتزوجتُ... وما زلتُ أشعر أنني بدنيا عشوائية لم أتنبأ بمسارِ حياتي المُتأرجحة... لم أرسم نَمَّطَ عيشي ولا سلوك طريقي، لم أسْتَقر يومًا بمكانٍ ولا أعرف منزلاً أنتمي إليه كباقي السكان؛ أنا ورقة اِنْتُزِعتْ من شجرةٍ حتى لا تَعرفُ من أطلق عليها اسمها... لا أمْلكُ من الدنيا سوى اسمٌ واحد... جوري. أسمع كلمات تتداول من حولي عن الشرف والكرامة ولكن أقسم بأني لا أعرفُ معنى هذه الكلمات سوى أنها مثل بقية الكلمات الأخرى كعاهرةٍ ومومس وبنت حرام وزانية... ما الفرقُ بين الكلمات بعضها عن بعض سوى أن من يقولها التقط هذه الكلمات وحَرَّفَها أو صَنفَها ولكنها تظلّ على لسانِ البعض ذات مدلولات... لقد اكْتفَيتُ من الحياة بزوجٍ وكأس ماء مُثَّلج هدية زواجي وبضع روبيات حتى أني أضعتها وربمّا سُرِقتْ مني، لا أعرف... ولا أُريد أن أعرف... أي شيءٍ... ولا أهتم سوى بعجوزٍ عمياء

اقتَحمتْ حياتي عندما اِقْترنتُ بابنِها فصارَ عَليّ أن أرعاها وأطعمُها وأسْقيها وأعالِجُها رغم احتقارها وكرهها لي منذ أن سَرَقتُ ولدها منها كما تعتقد... "

خاطبتْ جوري الفراغ من حولها كما لو كان ثمة مُحاوِر إلى جانبِها يستمع إليها، فقد اعتادتْ أن تخاطب نفسها كلمّا وَجَدتْ الفراغ من حولِها يُذكّرها بأنها وحيدةٌ منذ خُلِقتْ... حتى أنها اعتقدتْ أن الله خلق كلّ البشر ووضعَ لهم جذور وأصول وفروع إلا هي والتي لم تعرف بحياتها سوى منازل عدّة، مَرَّتْ بها وعاشتْ فيها منذ طفولتها حتى ريعانها، تغسلُ وتكنس وتتعرض للتحرش حتى وهي طفلة، ولم تعرف كيف تدافعُ عن نفسها لأنها بحاجةٍ للقمة العيش والاعتراض أو الصراخ والاحتجاج سوف يرمي بها في الطرقات، لذا عليها تحمل كلّ شيء بما فيه الاعتداء عليها من قبل من يرعاها أو يستخدمها كخادمةٍ مقابلَ وجبة طعامها.

بعد أن انتقلتْ إلى أولِ غرفةٌ حقيقية صغيرة تخصها بمنزلِ امرأة التقطتها تُدعى دلال... أدرَكتْ أنها أخيرًا اسْتقلتْ بحياتها أو على الأقل تحَّررتْ من امتلاك الآخرين لها واعتبارها خادمة لهم... عاشتْ في دار دلال؛ بيتٌ كبير بجنوبي مدينة المحرق... يحتوي فِناءً ترابيًا يتوزع على جانبيه عددٌ من الغرف بالوسط، صالة واسعة مفروشة بسجادٍ أعجمي قديم وتشمل كنبة محشُوَة بالقطن مُدَعمة بأطراف ذات نقوش اسلامية مُطَرَزة بصورٍ لطائر الطاووس، تهرأتْ حوافها بشدّة لمضي سنين مديدة ولغزارة استخدامها. وعلى جهةٍ مقابلة برزَ ساتر خشبي يؤدي إلى صالة وسطى تفصل بقية

الحجرات، طُليتْ أغلب الحواجز باللون البني وظهرتْ قطعة قماش وردية اللون تحْجبُ الرؤية بحاجزٍ لولبي لا يسمح برؤية الداخل والخارج من الغرف لدى إسدال القماش.

عاشتْ جوري منذ بَلغتْ الرابعة عشرة بتلك الدار ورَمتْ وراءها كلّ العالم الذي لم تعرف منه سوى اسمها... وخضعتْ كلية لرعاية المرأة الأربعينية البيضاء المدعُوّة دلال التي انقذتها من العمل بالمنازل والتعرض للتحرش وقدمت لها الطعام والشراب واللباس والمنام والحرية! ولكن أخذت منها فقط الجسد... وهذا ليس بالكثير مقابل ما نالتهُ من حياةٍ هانئة، فماذا يعني الجسد وهي التي لا تَذكّر حتى متى وكيف وُلِدتْ...؟

موسمُ الخريف يشبهُ مَوسِم الثلج الذي أضحكها وجعلها تكتمُّ السرّ عن زوجها صالح عندما قدّمَ لها الثلج أول مرّة باعتبارهِ اكتشافهُ السحري... عَرفتْ الثلج قبلهُ بسنواتٍ في بيت دلال، وعرفتْ معهُ مواسِم الصمتْ في بيوتٍ لا يتَخلّلها الهواء وتَعبقُ بدخان السجائر وعدم البوح بكلٍّ ما يجري فيها، فشعارها الصمت والعمى، فمن شروط من يحيا ببيتِ دلال ألا يتكلم ولا يرى... شَمِلَ جوري الصمت مثل غيرها من فتيات الدار. اخْتَفتْ كمّا الغيم حين يسبح، غابتْ عن البيوت والخدمة والتسكع... لم يترك غيابها أثرًا في أحدٍ فهي وحيدة، كانت في حياة أخرى زوجة وفي حياة أخرى أيضًا زوجة...! فمن رواية إلى أخرى تَبَدّلتْ حياة جوري! وهذا غير مفهوم للقارئ! أصبح غياب جوري مُسَوْغاً لعالمٍ آخر يُدِلّ على تناسخ الروايات... رأى فيها

البعض ذريعة للفرار من الواقع المُرّ وهو ما لم يفسرُ سرّ اختفائها! لغز جوري سيبقى شاهدًا على عصرٍ بحاجةٍ لقراءة أخرى مختلفة!!

عندما التقتْ عيناها لأولِ مرّة بعيني صالح وهي بطريقها إلى بيتِ دلال التي كلفتها بشراء الخبز... وهو يوم صادف قيامها بذلك إذ تناوبتْ فتيات الدار على تكليف المرأة الكبيرة لهنّ بقضاءِ حاجات الدار من المحلات والمخابز وصادفَ ذلك اليوم الذي خَرجَتْ فيه جوري إلى الخباز ولدى عودتها التقتْ بصالح ورأتْ في عينيه بريق خاطف، لم تكن مهتمة به ولم يخطر ببالها حتى مجرد أن تُبادلهُ نظرة أو كلمة ولكنها فجأة وأمام نظرتهُ الخجِلة التي خلتْ من أي شبق اعتادت رؤيته ينبثقُ كالبركان في ملامح الرجال الذين التقتهم، لم يبدُ عليه أنهُ من ذلك النوع الذي يُشْبع غريزته الأولى بالنظرات الحادة التي تشعُ بالفحولة ولم ترَ فيه ذلك المُخادع أو الفضولي وغيرها من صفاتِ كلّ الذين التقتهُم وكانوا ثعابين سامة... ارْتاحتْ لنظرتهِ السطحية المستحيّة ما جعلها تبتسم في وجهه فظَنَ أنها تغازلهُ لأنها لم تملك في تلك اللحظة سوى أن تهمس عن غير قصدٍ بتحيةٍ ومن يومِها شَعرتْ بأنه يلاحقُها لا لمجرد أن ينالها بسهولةٍ وينتهي الأمر، بل في عينيه وسلوكه معها من يريد أن يُفشي بعواطفهِ... فقد رأتْ بحدسِها القوي المعتاد أنه ليس من ذلك النوع المغتصب أو الجموح الذي يطاردها حتى ينالها فعَمَدتْ إلى تسهيل مهمته وقبِلتْ مطاردته لها ومع تكرارها بدأت تشعر برغبةٍ أن تعيش في وهم المغازلة التي لم تتعود عليها بحياتها قط... جعلها هذا الشعور تسْتسلم

لمطارداتهِ العفوية والعشوائية وتتخيّل الحبَّ الذي حُرِمتْ منهُ.. عاشتْ الدور منذ ذلك الحين حتى زواجها منه. وقضتْ الشهور التالية تعاني من الوحدة والضجر، فلم تَعتّد على الحبس المنزلي وعندما صارحتهُ برغبتِها الخروج ورؤية المدينة والاختلاط بالناس سايرها برغبتها فراح يخرج معها كلّ مساء للتجوال في الأحياءِ وشراء بعض الحاجيات الرخيصة والضرورية للحياة مثل التمر والخبز والبقوليات وبعض أنواع الخضروات المحلية، إلى أن حدث وبدأ المال الذي معه ينضب والذي كان مصدرهُ الوحيد الغوص.

واجهتْ معهُ معاناة الفَقر الذي كانت طوال حياتها تحاول الهرب منهُ وهي ترى نفسها عاجزةٌ لمساندتهِ، كانت مستعدةٌ للاكتفاء حتى بمجرد تناول وجبتين في اليوم... رأتهُ مكتئبًا ووحيدًا وحائرًا وهو يتأمَّل وضعهم هم الثلاثة في الدار. وزاد من حدّة اكتئابها رؤية نفسها وجهًا لوجه مع عجوز عمياء لا تكفَّ عن مناكفتها بكلّ شيءٍ بدءًا بتنظيفِ فِناء المنزل من مخلفات طيور الحمام وغسل الملابس إلى ملاحقتها بالأسئلة عن أسْرِتها وأصلها؟ وأين وُلِدتْ؟ وأين عاشتْ؟ ما دفعها لمناكفة العجوز لتجعل من المواجهة مصدر حيْرَة للزوج من جهةٍ والابن من جهةٍ أخرى.

"عندما تُولد بلا اسم ولا بيت ولا أسْرَة... حين تَجدْ نفسك وحيدًا في الدنيا بلا أمَّل ولا عنوان أو مكان... حين تُجَرّدُكَ شدّة الألم من الشعور بهِ عندها تَقْبل بكلّ ما يُعرض عليك... لا تهمك سمعة ولا كرامة ولا أقوال الناس فيك... هذا ما واجهتهُ منذ وَعَيتُ الحياة. اسْتَسْلمتُ لمصيري وجَريتُ

وراء رزقي للعيش فقط وليس لأي شيء آخر. لم أفكّرَ بنوع الملابس وقيمتها ولا بمذاقِ الطعام بل بما يَسدّ الرمق... لا يعنيني أن بدَوّتُ جميلة أو قبيحة ولا يهمني إن تزوجت أو تشردت... المهم ألا أنام ليلة بجوعي... كنتُ وحيدة في مدينةٍ ضبابية لا ترحم. تهتُ بين أزقة وأحياء وطرقات، طاردني كلَّ أنواع الرجال وكأن ملامح وجهي تنبئ بأني سَهْلة المنال رغم أنني ظلّلتُ لسنواتٍ محافظة على عفتي حتى بلغتُ الرابعة عشرة، فقدتُ حينها إيماني بأن الله قد ينتشلني من مستنقع فيه كلّ الفطريات التي خلّفتها مدينة المحرق... "

اعتادتْ جوري منذ تَفَتحَ ذهنها على معاناتها التفكير بصوتٍ داخلي. دأبتْ على مخاطبة نفسها كلمّا ضاقَ بها الشعور بالألم والوحدة... كانت تَتخيّل أن هناك من يسمعها فاطمأنتُ لهذا الصوت وظَلّتْ حتى اللحظة تُحَدث نفسها كلما اكتأبتْ أو تملّكها الحزن.

"عَرَفتُ كلّ أنواع الذُلّ ليس فقط بمدعاة فقري وانقطاعي من شجرة تلمّني في أوراقها... بل بؤسي كان مصدرهُ مظهري الذي لاح فيه كما أظنّ سِحْنة جمال وإثارة، هذا ما اكْتشفتهُ من تَمَعّني في وجهي وجسدي أمام المرآة واسْتَشعرتُ به من خلال ملاحقة الرجال لي بكلّ مناسبة قد توحي لهم عن أي بادرة أو سلوك عفوي... لعلّ هيئتي تَلْمحُ بفتاة سَهْلة المنال أو لعل نظراتي التي كثيرًا ما تَغَزّلَ فيها الرجال هي مصيبتي عندما توحي لهم بمظهرِ فتاة عابثة... ليس بيدي ألا اتحكم في صورتي التي خلقني الله عليها، ولا

أشعرُ بغبطةٍ على قسامةٍ منحني إياها الخالق ولكن بذات الوقت حرمني من كرامةٍ، وحشرني في مستنقعٍ من الذُلّ... حتى صالح الذي تزوجني وكان الرجل الوحيد بحياتي وأحبني ولم يستغلني، كانت رؤيته لي بالمرّة الأولى أني فتاة سَهْلة ولو بالمغازلة... لكنني رغم كلّ شيء أَحْمدُ الله الذي وضع في طريقي هذا الرجل العفوي المُحْب الذي لولاهُ لما شعرتُ بإنسانيتي ولكن يظلّ الجوع يحاصرنا جميعنا ولا مفر من السقوط في منعطفٍ ما أو منحنى وسط هذه الحياة القاسية ولو لسَدِّ رَمَق الجوع".

كلّ هذا البَوْح من الكلام لا يَصدرُ منها ولا تَفْشِي به لأيٍ كان... لا تشتكيْ، ولا تتأفّفْ... لا تَتَبَّرم إلا مع نفسها، فلم يسبق أن سَمعَ منها أي إنسان بأي وقتٍ وفي أي ظرف، شكوى أو ضجر من الحياة... استمر صوتها الداخلي هو كلّ ما تَمْلكْ وشعورها تُفجرهُ بداخلها ثم تشعر بارتياحٍ وتمضي مع الحياة مثل قاربٍ مثقوب الشراع!

"تأمرني العجوز العمياء وهي تحاكمني كلّ ساعة وكأنها الإله الذي خلقني ليحاسبني. "صلي، عليك بالصلاة ليوفقك الله" إن أسمى من الصلاة ذاتها هو نيتها وفي نيتي أن أُصَليّ كلّ الوقت... أُصَلي عندما يعمرُ قلبي الحبَّ للناس، أُصَلي حين امسحُ دمع فقير مثلي بكلمةٍ تبهجهُ لا أملك سواها... أُصَلي كلمّا رأيتُ قلبي يخلو من الكراهية، لكن لا أَحْتَملَ صوت نواح طّيْرِ الحمام التي توقظني منذ الفجر وهي تنوح وكأنها صوت القيامة... أُصَليّ ولكن ليس كما يُصَلي الذين ظلموني وظلموا مثلي من الناس... ومع

ذلك لم تنفعني كلّ صلواتي تلك وليس مهمٌ لأني لا أفكر بالجنة فالفقراء أمثالنا ليس لهم مكانٌ في الجنة"...

عندما بَلغَ بها اليأس بعد شهور الزواج ورحيل صالح للغوص، لم تَحْتملَ ملاحقة العجوز لها حين زحفتْ نحوها تدرأ هيكلَها الهزيل وتسبقها يدها في الهواء تلوح بها، كانت حافية القدمين، قطعتْ المسافة وسط سكون المساء حتى أوشكتْ أن تبلغ عند قدمي جوري وهي ترغي بكلماتٍ مُبْهَمة اسْتخلصتْ منها الفتاة أن العجوز تشْتمُها كعادتِها حين تولولُ بكلامٍ غير واضح...

"لِمَّ الموت ينشر ظلّه على الجميع وينسى هذه الكوْمَة؟ "

تساءلتْ جوري في سرها... ومَضتْ تحلم بالهدوء وراحة البال، ثم ما لَبثَت واسْتَغفرتْ رَبَّها وهي تبتسم على فكرة الموت للعجوز، كانت تَحسّ باليأس من زواجها الذي لم ينتشلها من الفقر، بل زاد عليها أعباء إضافية، فبدلاً من السعي لِسدٍّ رمقها وحدها قبل الزواج أضحتْ الآن معنيةٌ ببطنٍ آخر تخرسه... ها هي العجوز يَلجُ لسانها بالشكوى من الجوعِ وهي مُعْسّرة لا تملك فلسًا بعدما هَجرَتْ منزل دلال... كان هذا حالها بالأيام الأولى التي غادر فيها صالح للغوص وتركها وحدها بلا أمَّل في العثور على لقمةِ العيش... لم تحقد عليه بل ظلّتْ تكنُ لهُ الودّ والشفقة، وتأمَّل في عودتهِ حياً ليعتني بالعجوز ولكن حتى ذلك الوقت ماذا تفعل مع رقية...؟ فالدارُ

خاويةٌ حتى من زيت المصباح... هل تعود للوراء؟ هل تنْغمسُ في المستنقع؟ أم تموت هي والعجوز جوعًا؟

"قبل الزواج لم يؤنبكِ الضمير جوري"

قالت مخاطبة نفسها.

"كُنتِ مُخَيّرةٌ بين جوع ومستنقع، بالأمسِ كنتُ أخوض الوَحْل دون شعورٌ بالخيانة، لم أخَنْ سوى نفسي ولا لَوّمَ عَليّ سوى نفسي... لكن الآن تباين الحال وصعب الخيار، يَشُقُّ عَليّ العودّة للوراء ويتعسر عَليّ انتظار الموت جوعًا... لا أحدٌ في هذا الوقت يَمْنَح بلا مقابل... الناس في حربٍ شعواء على كسرةِ الخبز. والذي لا يملك ما يَسِدَّ بهِ رمقه، مكانهُ المقبرة، وأنا في رقبتي عجوزٌ لا تَكُفّ عن السؤال على الطعام... لو كنتُ وحدي لسهل الأمر، يَصْعبُ في هذا الزمن اطعام مَعِدة واحدة فما بال معدتين؟ العودّة للخلف خيانةٌ والبقاء في المنزلِ موتٌ... أي خيار هذا الذي أنتِ فيه جوري؟ إن الذي ترين فيه انْتهاكاً لجسدكِ الذي يتوق للتحرر من الماضي، أرى فيه خروجًا من النفق المظلم، لا أستطيع البوح لأحدٍ غيركِ يا جوري"

قالت مقهقه مع نفسها ولكن هذه المرّة بصوتٍ مسموع...

بين الزُّهْد في الجسدِ وبيعهِ بالمال تَأرجَحتْ بَوْصَلتها التائهة، هذا وضعُها الآن ورقية العمياء تُحدقُ فيها وهي تَسحبْ نفسها... تزْحفْ على الأرض تمثلُ دور من سيموت... يتناهى صوتها، تُطوّقها الأفكار، تتسع الظلمة الحالكة من حولها، ينقلب المنزل لمقبرةٍ، لم تبقَ أسرار بينها وبين

الله... الباب بينهما مفتوحٌ على مصراعيه... تلاحقها الأسئلة والشكوك وإيحاءات التدليس، تستوعب أنها تَظلم العجوز ولكنها مُرْغمّةٌ، تستشعرُ الشفقة نحوها، ومن صوبٍ أُخر ترغبُ لو تخنقها حين تَحشر نفسها في شئونِها وتلاحقها بالشتائمِ في سرِها.

"لو تَعلمُ هذه الكوْمَة البشرية من أين أطعمُها وأكسوها طوال الوقت لَغفَرتْ لي، لكنها لا تعلم، أنا أعلم، الله يعلم"

قالت ذلك بعد أن يَئِسَت من رحمةِ الله كما لَمستْ... ارْتَدتْ زينتَها وخرَجتْ... منذ تلك اللحظة وفي نفسِها صرخةٌ مدوية لا تعرفُ في وجهِ من تُطلِقُها...

حين عادتْ بعد ساعاتٍ وبيدها سلّةُ طعام، فوجئتْ بالعجوز تنتظرها عند مدخل عتبة الباب لِتُبادرها بصوتٍ آمر...

"توضئي وصَلي وتوجهي بالدعاء لعودّة زوجك حيًا.

# 16

المكان-قاع البحر-الوقت-نهارًا-الحالة-عناقيد الجِنّ

تَراءى قاع البحر في الأعماقِ أشبهُ بغابةٍ... سطَّرَ طريقهُ في وميضِ الضوء المُتلألئ بالرملِ الأبيض يُشِعُ بوهجٍ كبريقِ الأفق ساعة الغروب... لونٌ طاغٍ يحتوِي أجزاء من القاع... حجارة وأعْشاب ومحارٌ وطحالب تَتشابَك في نسيجٍ من أحراشِ البحر التي بدتْ كمدينةٍ سحرية تحت الماء... كان جسدهُ يتراقص مع تموجات الماء وكأنه عَثرَ على عشيقةٍ، يعوم في بستانٍ زاخر بالمرجان والأسماك... يرى الأشياء من حولهِ نقيض ما يراها غيرهُ من الغاصة... عيناهُ تَتجوّلان بين المحار والحجارة والرمْل الفضي... روحهُ محلقةٌ في فضاء الْيَمّ... ينتزعُ المحار من جذور الأرض بعجلةٍ كأنه يخشى أن يسرقها منه أحد رغم وحدته هو والقاع... لا أحد ينافسهُ... خواطرهُ تموج بالأفكار وكأنه بالضفةِ الأخرى من العالم... البحر معه في هذه اللحظة مثل اليابِسة... لا يشعر باختناق لانعدام الهواء ولا بصعوبة التنفس... يسبحُ مع بقية الكائنات ويغني لها في أعماقهِ ثم سرعان ما تدنو منهُ الخواطر فتخرج مع فقّاعات أنفاسه...

كان جسدهُ الذي اكتسب بنية نحيفة يتحرك برشاقةٍ، وقوة عضلاته تبدو مسترخية وهي تنتقل مع يديه بين الحجارة والطحالب وهي تُنقّب في جوف البحر، كَيَدَي حائك يَغزِل النسيج، أو فنان يَرسُم لوحة.

"أين أنتِ يا لؤلؤة الحلم؟ أشعر بكِ هنا معي تختبئين بين أحشاء البحر وأحجارهُ، وفي مغارتهِ السحيقة... ساعديني... امنحيني عزيمة لا تليّن لتحقيق حلمي، تَعقبتُكِ شهورًا مديدة... "

لمحَ من على بعدٍ سمكة قرش صغيرة تطاردُ سمكة صغيرة... تعقَّبَ السّمكة الأولى وأهابها عن السّمكة الصغيرة ثم ابتسم وعاد يُنقّب في الغابة البحرية...

"أيها البحرُ الرقيق هل رَأيْتَ مثل جوري فاتنةٌ بالكون؟ عندما رَأتْها عيناي أول مرّة سَبَّحتُ الله على عظمةِ خلقه، فمن أبْدعَ هذا المخلوق لا شكّ أنهُ أرْسلَ آية لنَعبدهُ... فهذا الرسم البشري دلالةٌ على جلالةِ الرّبّ... حين أرى الآن جوري طيفكِ في صورة جنية تسبح معي في أعماق البحر... سَكبَ فيكِ الخالق آيَته ومنحكِ إياي فهذه نعمة أحمده وأشكرهُ عليها... وليكمل فَضْلّهُ عَليّ ويَهَبَني مفتاح كنز البحر حيث تَكْمن اللؤلؤة المُخبَئةُ في أحشاءِ الغابة... من أجلكِ جوري وإكرامًا للأيام القليلة التي أمضيتُها معكِ وكنتِ بمثابةِ الجنة وَلَجتُها أيام ثم رَحَلتُ إلى البحر وهاويتهِ السحيقة... أنت معي اللحظة... أراكِ في الماء صورة تتلألئين... أراكِ نجمةٌ في الْيّم... أراكِ في لونِ قاع البحر وفي أحجارهِ الفضية، أنتِ جوري سرٌ خفيٌ من أسرارِ

البحر، كمّا أنتِ سرٌ أيضًا من أسرارِ اليابسة... لأجلك أجول الآن أنحاء غابات البحر... أسْبحُ وأجول وأُنقّبَ... أفتش عن هديتكِ لعلّ الرّبّ لا يَخذلني".

تَنَفّسَ تحت الماء وخَلّفَ وراءهُ فقّاعات الهواء الخارجة من جَوْفِ رئتيهِ... كانت عيناهُ تبحثان وتجولان وتفتشان عن كهفٍ ما، تَختَبئُ فيه تلك المحارة ذات اللون الأزرق والتي بداخل أحشائها تتوارى الدانة.

"اعذريني جوري أن تَرَكتُكِ بلا زاد ولا مال ولا مُعين... سامحيني جوري إن رَحلتُ ولم أضع بيدكِ مالاً يُغيثُكِ على تجاوز شقاء العيش... أُدْرك أن التغلب على ضنك العيش صعبٌ وقاس ولكن الدنيا خذلتني كمّا خَذلَتكِ والله الذي آمنتُ به وتأملتُ العوّن منهُ أرى الآن وأنا في هاوية القيامة! أنها فرصتهُ الأخيرة، ليثبت لي أنه مع الفقراء... هنا تحت المسافات القصوى في الماء... مع الكائنات الربانية، أرى عظمة خلقه في كلّ شيء رسمهُ ولونه وشَكلَهُ من مخلوقاتٍ كونية خرافية... ثمّة جنيةٌ بحرية تلاحقني أينمّا تَحركتُ وجلتُ وكأنها تُذكّرني فيكِ... أرْجو ألا تكون مجرد صورة وهمية أو شبحٍ تائه، فأنا اللحظة أتنبأ بتفاؤل الصورة التي على هيئة ملاكٌ بحريٌ يحرسني وأخشى ألا أُخدَع وتكون شيطانًا في صورةِ ملاك"

قال عبارته ومضى يُفتّشُ بين المغارات، يلتقطُ المحار الذي لا يبدو مُقْتنعٌ بما يحويهِ من لآلئ... من فطرتهِ وخبرتهِ القصيرة أن مظهر المحارة وحجمها وملْمسها ولونها ينبئ عن محتواها... مضى يطوف أرجاء البحر

وعندما توقف ونظر حوله، رأى فجأة الوانٌ براقةٍ كقوسِ قزح بحري، لَمَعتْ عيناه وانبهر ثم أطلق لأنفاسهِ العنان...

"ليتكِ معي جوري هذه اللحظة لترين ما أراه، سَأصفُ لكِ جنّة البحر ولا تضحكي أو تسخري مني... أعرفُ أنكِ على بعد مسافاتٍ طويلة، تَفصلُ بيننا بحارٌ وسماواتٌ ويابسات... تعالي جوري أصف لكِ ما أبصرهُ من سحرِ الطبيعة تحت الماء، أراكِ أميرةٌ يتدلى من جيدها عقدٌ لؤلؤي... تتفوقين على نساء الأرض جمالاً وفتنة. أراكِ جنيةً بحرية أعجزُ عن وصفكِ تتلهين في اللعب بشواطئ القاع، تطوفين الغابات، ها أنتِ تدنين مني فيخفق قلبي وتتسارع خفقاته وأكادُ أفقدُ سيطرتي على التنفس...

- منذ الآن وإلى الأزل لن أنساكَ صالح ستضيع مني ولكن سرعان ما سألقاك... لن تبتعد عني طالمّا أنتَ في قاع البحر، سَأسرقكَ من عالم الأنس وأهربُ بكَ إلى حيث الفردوس، لا فَقْدٌ ولا ألم ولا ذلّ... سينتهي بك المطاف صالح إلى مدينة لؤلؤية أبوابها من ذهبٍ وطرقها من لؤلؤٍ وأشجارها من ياقوت... لا تشعر فيها بالألم ولا تنام فيها للأبد وحولك حوريات بالمئات سَأُنسيكَ وجه مدينة المحرق الدبِقَة السمِجَة الملعونة التي نبذتك وستنتقمُ من كلّ الذين سحقوك و...

كان الوقت الذي قضاهُ كلهُ في القاع لا يتعدى اللحظات ولكن الصور والتداعيات، بدتْ كأنها ساعات... جَمدَ بمكانه في ركنٍ من غابة البحر،

شَعرَ بقوةٍ وهميةٍ تَدَخلتْ وسيطرت عليه، أفاق وقال مخاطبًا الشبح الذي يطاردهُ في هيئة حورية بحرية تمَثَّلتْ في صورةِ جوري...

"لا تخدعيني أيتها الجنية البحرية، لا أنت جوري ولا هيئتكِ توحي بها، لا تعبثي معي ولا تشغليني عن مهمتي... جوري هناك في البرّ تُقيم بمنزلِ التلَة على الساحل، وهيئتك المسحورة تسرقني عن وجهتي... دعيني أيتها الجنية البحرية... إن الله معي في هذه الساعة...

- هههههه

كان ردّها عليه، قهقهة وظلّت تلاحقهُ حتى بدأ يفقدُ أنفاسه.

- أنتِ لستِ جوري...

قال ذلك بصوتٍ تَخلّلتهُ فقّاعات الماء تطايَرتْ في رذاذِ الماء من حولهِ...

- أنا حارستُك أحذرك من خيانةٍ بالطريق... طعنةٌ في ظهرك خذ حذرك...

كان الشبح يَتعقبهُ وكاد أن يفقد تركيزهُ وهو يجني المحار، حاول الاقتراب منها فذابتْ وتحوّلتْ لرذاذٍ ثم سرعان ما عادتْ لهيئتُها بمجرد أن تناءت عنهُ مسافة.

- أنتِ كاذبة...

قال...

- لا تَبْرزْ حَصادك أمام غيرك... أطعني صالح!

رَدتْ عليه وهي تحُوم حوله... كانت عيناها أشبه بعيني طائر البومَة، تلمعُ في لجَّةِ الماء وبدا شعرها مموجًا مع موجات البحر السفلى تخلفها حركته في الماء... لاذَّ عنها في رقعةٍ بعيدة وبدأ يقتربُ من مغارةٍ عميقة كأنها واجهة كهف مُعْتم تُحيط به سياح من الطحالب والعشوائيات.

- حذرتُك إيها الغواص المُجازف... ولكنكَ لا تُنْصتُ لجوري التي تنتظرك وليس لها في الدنيا سواك.

قالت بنبرةٍ متيقنة وهي تودعهُ وتنْسلُّ من أمامهِ بتؤدةٍ مخلفة وراءها فقّاعات...

- من أنت؟ لست جوري، أنت جنية تشاغبني... أذهبي أعوذ بالله منك...

قال ذلك وانخرط ينبشُ وسط أحراش المغارة التي بدت كهاويةٍ سحيقة

- أنتَ مسئولٌ عن زوجةٍ وأم وعن ذاتك... أعرفك، كم أنت طيب القلب، وصافي النية لا تطعن في الظهر ولا تعرف الخيانة طريقها إليك فاحذر ممن حولك...

قالت هي...

- كيفَ أُصدقُكِ؟

ردّ عليها.

- لا تُفْشِ سرك لأحدٍ... وداعًا... سلامٌ من جوري...

"مثلّ كلّ نهارٍ تضوي شَمْسهُ وراء ضبابٌ مُعتّمٌ، أُفُولُ الخريفْ يدفعها لشحوبٍ ساكن، هواءٌ باردٌ يُدَغْدغُ موجُ القاع فيرتعش جسدي، حاصرني رَذاذُ الكائنات وهي تُعْكر سكون الماء، لا هواء في الأسفلِ... يَنْتَعشُ الموج من تلقاءِ ذاتهِ، يَتهافَت ويتوّرَم، أتَوّغلُ في الأعماق، أرى ضوءً يَلْمع ويستدرجني نحوه. شعوري بالفوز بدانةٍ يقتربُ ويدنو خطوة مني، أَملتُ أن أعلقها في عنقكِ وأُعَوضكِ عن ضائقة الدنيا، بدأتُ هذا النهار المنحوس، بجنيةٍ تلاحقني، نسمات خريفٍ باردة تُدَغْدغُ جسدي كأنها أناملكِ، أخبريني أنكِ لستِ تلك الجنيةُ التي غازلتني في القاع".

❁❁❁

# 17

المكان-السفينة-الوقت-نهارًا-الحالة-عناقيد الخيال...

نَفذَ صبره وبدأ يتعرَق واشتدَّ قلقهُ وهو يحاول جاهدًا انتظار إشارة الحَبْل ليسحبهُ من قاع البحر...

- ما زال يَغطِس...؟

سأل أحدُ البحارة فيمّا انْتصبَ على مسافة منهُ اثنان آخران. كان إدريس ينظر لسطح البحر، وكانت الأمواج قد تَبَجَّست هادئة كأن نسيم الهواء يُداعبُها، بدا الطقس معتدلاً وأسْلمتْ الشمسُ خيوطها ودبَّ النشاط في عددٍ من البحارة. كان بعضهم يرش الماء على السطح وينظفه وبعضهم كان يُشْعلُ النار في وعاءٍ معدني مستدير أكتظَّ بالفحم الخشبي... وعلى طرف من السفينة راح أحدهم يفْتلُ الحبال وإلى جانبه صبيٌ صغير أسمر البشرة يساعدهُ في جَدْل الحَبْل الذي امتدَّ على مسافةٍ مُسهبة من المكان.

- أُخمن أنه يتنفس كالسّمك...

قال البحار بجانب إدريس.

أذْكّر الله يا رجل.

ردّ إدريس.

رفع أحد البحارة بركنٍ قريب من إدريس سمكة من البحر وهي تَتَمعَّج بعد أن رفع الرُبان سليمان الحَظْر على صيد السّمك بالنهار في نهاية موسم الغوص الذي يشهد اليوم ختامه... ومن ناحيةٍ أخرى ظهر بحارٌ آخر يقوم بِشطفْ السّمك وتنظيفه وهو يردد موالاً بحريًا بصوت نشاز.

- هذا الغواص أسطورة البحر.

قال إدريس.

- إنه أيقونة الغوص، لم أرّ بحياتي من يحبس أنفاسهُ ويَلثِم تربة الماء وكأنها خد فتاة نضِرَة.

- رأيتهُ مرّة وأنا بقربهِ في القاع يَفعلُ ذلك: قال أحد الذين تحلقوا حول إدريس يستطلعون بفضولٍ جارف، لقد غصتُ معهُ لإيامٍ... كان في لحظة بقربي ثم فجأة يختفي وكأن البحر ابتلعه.

علّق الغواص الذي كان مشدودًا بالحديث عن صالح...

سرح إدريس لومضةٍ في سحابةٍ من الماضي، عادّ لأحياء المحرق وأزِقَّتها العتيقة، منذ أن عرف صالح وهما بسِنِّ الطفولة في الحي، لم يفترقا منذ ذلك الحين، فعندما افْتُتِحتْ مدرسة بالمدينة وجرى تداول أخبارها بين الأهالي فزع صالح من فكرة الالتحاق بالمدرسة واعتبرها عقابًا لكلِّ طفل وتبعهُ إدريس بالتفكير ذاته، وعندما اِنْخرطَ صالح بالبحر والصيد في البدءِ عانى إدريس من وضعه المُزرى مع الفقر والضياع وفقدان الجذور العائلية

واساه صالح من ذات الزاوية التي كابدها هو الآخر، تذكَّرَ حين اِرتادَ أول سفينة لصيد السّمك وهو بسِنِّ الثالثة عشرة، مع مَن اعتبرهُ جدّه دون أن يَذكر أن له أبًا، شجع ذلك صالح على التفكير بركوب سُفن الصيد. عرف إدريس صالحًا من خلال بيتين مهترئين في حيٍ واحد... خاضا البحر وهما طفلان واصطادا السرطانات وقاما بشوائِها على الساحل، كانا يوقدان النار بإشعال ورق أكياس الإسمنت المرمية على الساحل مع بعض سَّعف النخيل الجاف الذي تم التخلص منهُ ليتم تشذيب النخيل وتلقيحها في بدايةِ فصل الربيع، وذلك بأن يَتم تأبير النخيل مع خروج العَذْق من كمهِ ووضع اللقاح الذي يؤخذ من فَحْلِ النخل لِغرسهِ في انثى النخل... اِرتادا الملاهي والسواحل... تَذكَّر يوم سرقا دكان عبدالله بو خلف الذي كان يعاني من خرفٍ وقد بلغ التسعين من عمرهِ وكان يعيشُ في ذاتِ الدكان، يأكلُ وينام ويبيع منه، كان قد أُصيبَ بمرضٍ غامض في جسدهِ، وكان غالبية سكان الحي يتجنبون الشراء منهُ، كان فقيرًا مدقعًا يَعتمدُ على بيعِ الحلويات وقناني شراب النامليت المُحَلي، لم تعوقهُما حالته الصحية وسُبّهُ من سرقته وهو نائم...

في تلك الفترة وفي غمرةِ الفقر والجوع والضياع، كان صالح هو المُسيطر على العلاقة في البداية، فقد كان يقود إدريس في المغامرات الصبيانية وبعد فترةٍ وجيزة حينما تخاصما ذات مرّة بسبَّب غَيْرةَ من أحدهما ضد الآخر فيما يتعلق بعلاقةٍ انْدَلَعَت بين صالح وصبي آخر في الحي ذاته يُدْعى رشدان، وسيمُ الطّلعَة ورشيقُ البنية مُعْتدلُ القامة وكان مَحلَ ملاحقة

بعض المتنمرين له في الحي... أقام صالح علاقة معه ودَعَمَهُ بوجه فتيان الحي وصار يرافقه طوال اليوم مما زرع الغَيْرة في نفس إدريس الذي كَتَّمَ الأمر في نفسهِ في البدء ثم لم يُطقْ سماع تعليقات بقية الصبية حول الصلّة بين صالح ورشدان فانفجر بوجه صاحبهِ واتهمهُ بأنه على علاقةٍ جنسية مع الآخر مما أضْطرَ صالح لدفعهِ على حائطٍ لدارٍ قريبة، وكادَ يلكمه ولكنه تركه وانسحب، وظلا لفترةٍ قصيرة متخاصِمين حتى رحل رشدان وعائلته من الحي وعادتْ علاقة الإثنين إلى ما كانت عليه... ظلّ إدريس لفترةٍ يُعيب على صالح علاقته مع رشدان ولكن بشكلٍ مازح.

كانت علاقةُ إدريس بمدينة المحرق شبيهةٌ بعلاقةِ صالح معها، كانا بمثابةِ طائرين يغردان نَفْسَ الصوت، وسمكتين تعومان في ذات البحر، كانا بحاريّن وصياديّن تفوح منهما رائحة المدينة بكلّ روائحها الطيبة والسَمِجَة، ولكنهما افترقا عند مهنة الغوص، فصالح أضحى غواصًا وإدريس أصبح "سيبًا" يعمل من فوق سطح السفينة لمساعدة الغواص على السيطرة أثناء الغوص والخروج منهُ وهو بمثابة حماية. كان صالح شديد الولع بقاع البحر، أما إدريس فكان يهوي صيد الأسماك وتَفَنَّنَ في المهنة فكان يُخاطب الأسماك في الماء... يعرف كيف يداعبها ويستدرجها لصنارتهِ، لا تكاد سمكة من أسماك البحرين لا يعرف اسمها وماهيتُها وكيف تُطبَخ وكيف تؤكَل حتى أنه كان يختار أنواع الأسماك المُحبَّبة إلى صالح ويُقدمُها إليه، وعندما تزوج الثاني، دأب هو على اختيار سلّة منوعة من الأسماك الصغيرة التي

تعشقها جوري ويأخذها إليها... وكانت تلك المرات التي رآها فيها... كانت خلالها تقوم بكنسِ الفِناء أو نشر غسيل الثياب على الحَبْل وقد أثار فضوله عندما وجَدَها تفعل ذلك بفصلِ الشتاء مع انعدامِ أشعة الشمس وحين سألها باستغراب، أجابته بابتسامةٍ وكأنها تسخر من الشمس التي ظلّت لأيامٍ في غياب: سأتركها على الحَبْل حتى تنشف أو تتَهَتك!

كانت جوري التي رآها بِضعَ مرات صورةٌ أصلية عن نساء المحرق، لهجتها وحركاتها وتصرفاتها ونبرة صوتها، إلا في شيءٍ واحد وهو لون بشرتها، فقد أخذتها عن جدتها غير المعروفة الأصل والتي لم ترها هي ذاتها ولكن هناك من قال إنها من أصلٍ إيراني، خرجت من رحم فتاة أعجمية من خلال علاقة غير شرعية وحين أنجبتها تركتها قرب منزل أحد الجيران وفَلّتْ هاربة، وهناك من قال أنها ابنة غير شرعية لأحد أعيان المحرق تَوَرَّط بعلاقةٍ مع والدتها وتَخلصَ منها دون رحمة. وفي النهاية ظلّت جوري في عقلِ إدريس زوجة جميلة ومثيرة فاز بها صاحبه صالح.

- أخيرًا اعطاني إشارة بأنه حي وأنه يريد مزيدًا من الوقت.

قال إدريس ذلك بعد أن أفاق من ذكرياتهِ مع جوري وصالح ومدينة المحرق وهو يجيب على أسئلة بعض البحارة الذين لم يصدقوا بقاء صالح كلّ هذه المدّة تحت الماء.

- هذا والله جنيٌ من أمٍ جنية، ليس في الإنس من يقدر على احتمال القاع كلّ هذا الوقت، أنا أخشى هذا الكائن الذي لا مثيل له بين الغاصة.

من يُطيق الغوص كلّ هذه المدَة الخيالية؟ لقد منحنا الله طاقة محدودة، وليست هذه طاقة بشرية.

قال ذلك بحارٌ يُدعى عيسى بَعثهُ الربان يَسْتَعلم عن صالح وما قام به، ألقى عبارته وأنسَل يَنقلُ الخبر إلى سليمان الهمام.

عَلقَ آخر قائلاً: هذا جني...

- صنْ لسانك يا رجل، لا تنسَ أنه صاحبي.

ردّ إدريس.

- أقنعني أن هذا من فعل بشر.

عاد الرجل يَستفزْ إدريس بتلك العبارة.

- لقد منحهُ الله هذه المعجزة التي تحسدونه عليها، لماذا تستغربون مثل هذا البأس في الرجل؟ لقد وُلِدَ في مدينة المحرق.

قهقه بحار آخر وأجاب بسخريةٍ:

- كلنا من المحرق... وكلنا بشرٌ، ولنا احتمال محدود في كلِّ شيء، لكن صاحبك من الجِنْ... وهو جِنٌ بحري...

قهقه بعض البحارة الذين كانوا يحيطون به، وانصرفوا دون مزيدٍ من الاهتمام، بدا على بعضهم عدم الاهتمام وعلى بعضهم الآخر سِمات الدهشة... ظلّ إدريس وحده، يتَطَلَّعَ لمياه البحر ثم للأفق وسرح بعيدًا.

"أنا أيضًا أقول إنكَ عفريتُ يا صالح، سنين وأنا معكَ ولم تُبدِ لي شيئًا من أسرارك العميقة، كم قطعنا من وقتٍ وصولات ومغامرات وكم عبثنا

وتحرشنا بكبار السِنِّ الذين لا يتمكنون من اللحاق بنا، سرقنا ببراءة ونحن أطفال ثم استقمنا واقتحمنا البحر، ذهبنا للصيد ثم للغوص، أنتِ تزوجت وتركتني على حافَة التَبَتل، لم أَلْمَس امرأة بعد واكْتَفي بالاستمناء على خيال وجوه النساء... آه لو أَعْتَرف لك صالح بما ارتكبتهُ من جُرمٍ في أعماقي تجاهك؟ لقد خنتك حين تَخيّلت جوري في أحضاني؟ ماذا ستفعل بيّ يا صاحبي لو عرفت أن إدريس استمنى مستوحيًا صورة زوجتك جوري؟ هل ستغفر لي ذلك؟ أُقْسم لك يا صاحبي أنني لم أفكر بها ولم يخطر ببالي مجرد النظر في عينيها ولكن خيالي الجامحُ لم يكن بيدي سيطرة عليه... ما ذنبي إن جرفني الخيال الملعون لأتجرأ وأحلم ذات ليلة بجوري شبه عارية بعد رؤيتي لها في الفِناء وهي تُسَفَط السّمك وقد ارتفع ثوبها للأعلى وبانَ ساقها المرمري الذي لا أظنّ أن الخالق قد وضع في امرأة غيرها مثل ذلك الجذع السامق المكتنز الذي لا يشبه شيئًا آخر... "

كان يخاطب نفسه وعيناه على الموج وسَمْعهُ على الحَبْل الذي كان مرتخيًا بيده...

"اغفر لي صاحبي وخليلي هذا الجموح، فما بيدي أن أمنع الحلم ولا بمقدوري أن أُسيطر على شهوتي واحتقان جسدي الذي أَفْرَغَت جُذْوتهُ في خيال امرأة تَعِزُّ عَليّ الأمانة بيننا فعل ذلك... وَحْدهُ شيطان الشَهْوة يَدفعُنا لفعلِ الشر... إننا ضد الخطيئة ولا نَقْربُها ولكن في السرِ بيننا وبين ذواتنا نَقْترفُ الرجس، وأنا فَعَلتُ ذلك سرًا وأظنّ أنكَ لن تُسامحُني لو اعْترفتُ لك

بذلك... أُفضل أن أعترف لنفسي وأتجاوز الخطيئة بأن لا أرى زوجتُك ثانية حتى لا أقْتَرف ذات الذنب".

تنهد وتَمْتَم ببعضِ كلماتٍ مُبهمة لم يستوعبها ولم يفهم مغزى ما خرج منه سوى كلمات فَقدتْ معناها. عاد يُفكّر ويتذكّر...

"عندما نعود للبرّ صالح، لن أزورك في البيت ولن أقتحم الدار، سنلتقي في المقهى وعند الساحل، سوف نذهب للمسجد الذي أنوي الصلاة فيه وألْتَمس الغفران وسوف أبعد الشيطان عن نفسي من الشهوة اللعينة بالزواج، وليتك تسندني وتشاطرني بالتفتيش عن فتاة يانعة جميلة كجوري حتى يُمْكنني التَّحَرُّرُ من خيالي الجامح... أول ما سأفعلهُ حين العودّة هو جَمْع المال بأي وسيلة وحيلة حتى أضْمن مَهْر الفتاة التي سأتخذها شريكة الفراش وأنتهي مثلك من الأحلام والشهوات المكبوتة الطائشة التي تقودنا لارتكاب الخطيئة في السرّ، بمداعبة أنفسنا... سأبذل ما بوسعي لجمع المال بسرعةٍ وأضاعف العمل بالبحر والصيد وما سأجنيه من الغوص ليكون ثمن تحقيق حلمي بامرأةٍ جميلة".

عندما انتهى من مخاطبة ذاته، رأى من خلال غيمةٍ هائمة، تَحَركَتْ في السماء، إشارة تُنْبئهُ بأن ثمة قتال حامي الوطيس في قاع البحر... حين نَشَط الحَبْل بين أصابعه جاءهُ الجواب من صالح تحت الماء!

❁❁❁

# 18

المكان-السفينة-الوقت-الظهيرة-الحالة-عناقيد الثلج...

تَدَفقَ الرجالُ فوق سطح السفينة ريحانة وتجمعوا حول صالح الذي انْدلقَ بأعجوبةٍ من فوق سطح الماء إلى السطح وقد سَالَ الدم من ساقهِ وبدا مُنْهك القوى، كادَ يفقدُ الوعي لولا قطرات الماء التي احتساها من يد إدريس وهو يساعده بالاستلقاء... بدأ البحارة يتوافدون من أجزاءِ المركب ويحيطون به، فيمّا كان ينظر لوجوههم وهو يبتسم ويقول بنبرةٍ جازِمة رغم نغمة الوهن فيها.

- سأُعاود الغطس وأرجعُ للقرش الحقير وأصرعه ثم أَشُقَّ جوفه وأمُزقَ أحشاءه وأستخرجُ أصبعي من بطنهِ الوسخ.

- ماذا جرى في القاعِ؟

سأل بحار

- هذا وقت سؤالك؟ عالجهُ بالأول ثم أفهم ماذا جرى.

ردّ آخر

- أنا بخير كنتُ على وشك الفوز بمَحارةٍ فضية اللون، مجنونة الوجه نَظَرَت لي وهي تستدعيني لولا هجوم القرش اللعين، سألتقطُ أنفاسي وأعود

لها لأنني لم اترك علامة مميزة بمكانِها وأخشى أن تضيع مني... أريدُ كأس ماء به ثلج.

قال صالح بعد أن جلس وراحَ يُحدقُ في وجوهِ البحارة الدهشين من كلامه رغم ما أَلَمَّ به وما أصابه في ساقه اليمنى.

- إنه يهذي... ثلجٌ في البحر؟!

قال بحار

- لا يمكنك العودّة ثانية، لن يسمح لك الربان سليمان.

قال خميس المؤذن.

قفز صالح من مكانهِ فزعًا وقد تملكهُ خوف وهلع، وقف مُستقيمًا لِيبْرز قوته، فَتَلَ عضلاتهِ وقال مخاطبًا الجمع برجاءٍ وتوَسُّل...

- أَلْتَمسكم لا تخبروا الربان ليس بيّ سوء، ولن أستغرق هذه المرّة سوى وهلَة وأعود، أعدكم، ألا أُجازف ولا أنتشي كالمرات السالفة.

- ولكنكَ وَعَدتَ بالعودّة لأجل القرش وليس للؤلؤة.

ردّ الآخر...

تقدم خطوة منهُ دون أن يُبدي ارتباكًا وأظهر ثقة بنفسه وأمْسكَ بيد المؤذن وقال...

- قرشٌ أبله لا يُألف خطورة، سأغافلهُ وأناورهُ ثم أسحقه.

قال صالح وما زال يقبض على يد الرجل الذي سحب يده بتؤدّةٍ وَذَكّره قائلاً:

- لا تنس أن الصبي ذهب للربان ونقل الخبر.

- نقل الخبر ولكن لم أذكر أمامه أنني سأعود للقاع وأصرع القرش.

أجابه صالح بعد أن انْسَحبَ بعض البحارة حينما اكتفوا من التحديق وبعد أن تأكدوا من سلامة الغواص الذي ما زالت قدمه تَنْزِف بالدم فيما صالح يمسح بخرقةٍ مُبَلَّلة قدمه ويتفقد الجرح.

- بل قلت أمام الصبي ذلك.

ردّ عليه إدريس مؤكدًا على كلام صالح قائلاً بثقةٍ.

- لا لم يكن الصبي هنا حينها، ولم يشهد الوضع.

- أنت حُرٌّ...

غادر المؤذن ومعه اثنان من البحارة، وبِمُجرد أن ابتعدا هَمَسَ لهما بنبرةٍ تَنمّ عن حسٍ غامض لا يوحي بخشيةٍ على الرجل بقدرِ ما تشي عن حسدٍ أو غيْرة.

بدأ إدريس وأحد البحارة يُعالجان ساق صالح، الذي استلقى على نصفه متكئًا على حافةِ السفينة وأمامهُ سَلّة المحار التي سَالَ حولها الدم ولَوَّثَ جزءًا من خيوط الخيش.

- هل تَجْلبُ لي سعود فنجان شاي إذا لم أكَلْفَ عليك.

- حاضر...

بمجرد أن قفز الفتى الذي كان بسِنِّ صالح وإدريس وقد أظهر تأثرًا بوضع الغواص المصاب، حتى سارع صالح وهو يَتَلفّت حوله ليتأكد من عدم وجود

أحد يراقبهما، وأخرج من سرواله لؤلؤةٍ كبيرة الحجم لَمَعَتْ كَبَرْقٍ شَقَّ السماء، تَوَهَّجتْ لومضةٍ بعيني إدريس الذي كادَ أن يَصْعَق لرؤيتها...

- احفظها حتى أعود من طلعتي التالية...

أَطْبَقَ الصمتُ بينهما فيمّا دَسَّ صالح الجوهرة في يدِ إدريس بشدّةٍ مبرهنًا بنظرة منه لاذعة على أهميتها القُصْوَى لهُ.

- هذه جائزتي خَبَأْتُها فقد دَفعتُ فيها حياتي...

قال صالح وهو ينظر حوله ليرى إن كان هناك من رأى ما بينهما.

- ما حاجتُك للعودّة ثانية بعد ما فزْتَ بالدانة؟

ردّ صالح ببَهْجةٍ فاقَتْ الخيال الذي أبداه الآخر وهو غير مصدق ما يسمع ويرى.

- حتى أبعد الشكّ عني... وثمة غرضٌ أخر أيضًا، أريد الانتقام من القرش اللعين...

عندما عادَ المدعو سعود وبيده فنجان الشاي، خاطبهُ إدريس قائلاً...

- دعنا نترك صالح يستريح فهو متعبٌ ويَنوِي النوم...

ردّ سعود متسائلاً: ألم يقل إنه سيعاود الغوص لملاقاة القرش؟

- لن أسمح له بالغوص...

ردّ إدريس متعمدًا إبعاد الفتى.

حين غادر الشاب الذي لم يظهر أي شكّ في كلام إدريس بادر الآخر بسؤال صالح وما زال في وَكرِ الصدمة من رؤيتهِ للؤلؤة.

- كيف عَثَرتَ عليها؟

- سأحكي لك عند عودتي... لن أتأخر حتى لا يفاجئُني أمر الرُبان بمنعي من الغوص، رغم أنه من وعدني بالنهار كله.

- بل بنصفِ نهار وقد أوشك ذلك أن يحدث.

قال إدريس مؤكدًا، ثم راح يتَجوّل بعينيهِ بين وجه صالح والجرْح الناتئ في ساقهِ الذي ما بَرِحَ يَنْزفُ ولكن بقسطٍ أقل بعدما امْتَصتْ خِرقَة القماش الدم.

- ماذا جرى بينكَ وبين القرش...؟

نظَرَ صالح لوجهِ إدريس الذي بدأ يَشْحَب وقد وخَيّمَ الهدوءُ على صوتهِ، كان مُمْتَعضًا من شيءٍ لم يتراءى لهُ في نظرتهِ أو عينيه، كثيرٌ من البشر يملكون غريزة الاحتفاظ بالإنفعال في قاعِ النفس ومهما كان الحادث صادمًا إلا أن الاحتفاظ بالتحكم في المشاعر معجزة البعض مهما تناهَتْ الأخبار معهم، نظرات الأعيّن واحدة من دلالةِ القوة والضعف عند المرء، تبدو في غالبِ الأوقات فاضِحةٌ للمشاعر ولكن ليس بكلّ الأوقات، فوراء كثير من نظرات المرء بحالاتٍ عدّة دلالات عكسية تَنقُض ما يدور بداخلهِ من أفكارٍ لا تعكسها النظرات... كانت النظرات بين صالح وإدريس في تلك اللحظة تتوارى وراء مشاعر كثيفة مُعقدة لم تَصْرف انتباههما تلك الضوْضاء على سطحِ المركب الذي كان يمُوجُ بالحركةِ والأصوات. اثنا عشر رجلاً من بحارٍ وغواص ومساعد يموجون بالتحرك في كلِّ الاتجاهات وينغمسون بكلِّ

الأعمال من صيدٍ وغسيل وتسْفيط للسمك وتقشير للبصل وفَتْل للحِبال. كان واضحًا التحضير للعودّة إلى الديار وأحْدثَ هذا الاستعداد للرحيل انفجارًا في مشاعر الجميع وحفّزَهُم بحيويةٍ طارئة مختلفة عن كلّ الأيام المُنْصرِمة، أعادتْ لهم ذكريات اليابِسة والأهل والأحبة وأخرجتْ ما في أعماقِهم من انفعالاتٍ متباينة كانت أبرزها عند أولئك الذين يحلمون برؤية من على مسافةٍ واجهة ساحل المدينة التي غادروها منذ أربعة شهور ونيف.

عادَ صالح لسؤالِ صاحبهِ عما جرى مع القرش أسْفل الماء واستعادَ اللحظات الدامية التي مرَّ بها هناك... سرح بعيدًا كأن الأمر كان باللحظةِ الراهنة. تنهد وجال بعينيه بين صاحبه وساقه التي راحَ يتأمَّلها وقد تَركَّز عقله في أصبعِ قدمه الذي فقده مقابل فوزه بدانةٍ خيالية لم يرَّ مثيلاً لها...

"كانت معركتان مع القرش، ومع المَحارة"...

قال ذلك وسَرحَ مرّة أخرى دون أن يُعير الضوْضاء من حوله أي انتباهٍ.

"كان لونُ البحر كَعيني جوري، أبْصَرتُه هذه المرّةُ بالذات من دون المرات السالفة.. مظلمٌ ولم أُدرك حتى الآن لماذا تغيّر هكذا، كان جسدي واهناً بعد كلّ غطس [الشهور الماضية، راودني صوتٌ بعد نزولي البحر يُحرِضُني بتَحذيرٍ مُبطَّنْ أن أصْعَد وأستلقي لأنتهي من يومي الأخير، لكن صوتًا نقيضًا آخر وَثبَ حينها مستنكفاً... ماذا لو فَوّت الدانة، بقيتُ بالقاع استجابةً للصوت الثاني، حين دَنا ذلك المرتفع الرمادي الهائل مني! بدا ظِلّهُ كجبلٍ شاهق مغروس في البحر، سادَ ظلامٌ دامسٌ أعماني لوهلةٍ. دأبنا نحن

الغاصة على التزامِ الصمت التام في مثل هذه الأوضاع، جَمدتُ كالوثن، لكن هذه المرّة تباينتْ عن المراتِ الآنفة، حَدقَ في عيني بعينين لم أرَّ مثيلاً لهما في عيني قرش من قبل، بدا البحر مثل عالمٍ سفلي لا علاقة له بالبحر... قرشٌ رماديٌ داكنُ اللون، صلد الجلد، بدا جلْدهُ كأنهُ بنيان سفينة جانِحة منذ سنين، ناوَرَ حولي ينبهني بأني فريستهُ، لم أعرْهُ شأنًا واكتفيتُ بالصمتِ واللامبالاة حتى بدأتُ أفقد نفسي، لا أتجرأ على شدَّ الحَبْل لك، خشية أن تسحبني فنباشر حربًا ضروسًا، تحققتُ من وجود سكين معي، اِبْتغيتُ المُناوَرَة، ولكن مضى الوقت، شعرتُ بالحَبْل يَشْتدّ، لم أحركهُ...

- كنت موقنًا أن معركةً في القاع... شعرتُ بها فَنَشطتُ الحَبْل لأتمكن من محادثتك...

قاطعهُ إدريس بتلك العبارة وقد بدا وجهه دون أي تعبير يُذكّر...

"تمالكتُ نفسي وتجشمتُ حَبْسُ أنفاسي، مرَّ وقتٌ طويل وأنا أكْتمُ النفس وأتحدى أحدًا كَتْم أنفاسه كلّ هذا الوقت، بقي يُسّوف معي، حتى إنه تغافلَ عن أسماك أخرى مرّتْ بمحاذاتنا وكان بإمكانهِ اختيار الأسهل ولكنهُ فَضَلَ تجاهل الأسْهَل ليقترِب من قدمي، راح يستدير، يذهبُ ويعود، ثم راح يُعكّر الماء حتى لا أراه... لم أرّ قرشًا بدهائه. كأنه يُنذِرُني ببدء القتال"

- الله نجاك صاحبي... ونحن هنا كانا نتداول الثرثرة حولك، من قال إنكَ من الجِنَّ ومن قال إنك مسحورٌ... يا للهول.

"كنا، هو، وأنا بصمتٍ نُحدقُ لبعضنا، للحظةٍ ظنّنتُها دهرٌ، عيناه تنهج وهي محدقةٌ بيّ... فضاءٌ هائلٌ يحتوينا وحدنا"...

أقبل أحدُ البحارة يطمئِن عليه. أَبدى صالح قوة وجسارة ليوحي بأنه بخيرٍ ولن يؤثر ذلك على قرارهِ بالنزول ثانية للبحر...

- ألا يشكل نزولكَ البحر خطرًا على جرحِك الطري؟

قال الرجل.

- بل سيُطهرُه ملح البحر...

- هل عَلِمتَ بآخرِ خبرٍ من الرُبان؟

سأل الرجل.

- ماذا؟

سأل إدريس.

- سنبحر الليلة إلى جزيرة يابِسة ثم نستأنف عند الفجر العودّة للديار...

بعد أن أنصرف الرجل نهض صالح بسرعةٍ...

- إلى أين؟

سأل إدريس.

- لا أملك وقتًا، سأغوص لفترةٍ وجيزة قبل أن يغلق الربان باب الغوص في وجهي...

- هل أنت مضطرٌ للغوص وأنت مصاب؟

- هناك مهمةٌ في القاع عَلىَّ إنجازها.

ردّ صالح وهو يفحص جرحه ويشطفه.

- على الأقل أكمل ما بدأته لا تتركني معلقًا بلا نهاية.

قال إدريس وهو يَتَطلّع إليه برجاء...

- معك وقت بعيد على الإبحار ما زلنا في أولِ النهار...

"راحَ جبل الظلام يَصْدرُ ذبذبات في وجهي، لم أرَّ في عينيه جوعاً أو شهوة في الأكل لم يكن جائعاً حتى إنه بدا متقززًا من لحمي، تبدى لي شرساً ونهماً ووحشيًا، لقد انتقاني بالذات من بين كلّ الغاصة واعتزم مبارزتي، أدْركتُ أنه ما من مفرٍ، هي الحربُ، ارْخَيتُ الحَبْل حتى أَتَحرّرَ من قيده وأنا انْزلقُ لهذه الهُوَّة"

- شَعرتُ بذلك حين وَضعتُ أذنيّ على الحَبل ولم أسمع سوى صفير الهواء وهذا أرعبني...

قال إدريس...

"غابةٌ مظلمةٌ، بردٌ قارس، انْبعثتَ بغتة ركائزٌ أمامي أشبهُ بالصواري الهائِلة... أشجارٌ سوداء داكنة... تحيط بها جبالٌ حادّة تتألق... كبرقٍ في سماءٌ داكنة بالسحب السوداء، لهيبٌ في لبَّ اللُجة، رأيتُ ستين سيفاً في صفين متوازنين يتجهان نحوي، أَبْصَرتُ غابة من سيوفٍ تخطو نحوي، وحدي مع سكيني اليتيمة؟ خُيِلَ لي أنه يمضغ شيئاً في فوهتهِ التي نتأت من خلالها هاوية، فتح الجحيم أبوابه، أحْسَّستُ برياحٍ عاتية تهبُ من ناحيتهِ، اِلتفَّ حولي مراوغًا قبل المواجهة، استدار مُحدثاً بركاناً في القاع، ثم اقتحم

كطوفانٍ، غَطستُ في قاع الظلمة أكثر لتجنبه، رَأيتُ غابةُ السيوف تتوجه نحوي، لَوَّحتُ بالسكين كي أن أُسدِّدها أسفل فكِّه، شَعرتُ بجاثومٍ يُطبِقُ عَليّ، موجةُ برد، غُشى على عيني، غَرستُ السكين أسفل الفكّ... غاصتْ معها يدي في كتلةٍ لَزِجةٌ ساخنة، أعَدتُ الكَّرّة حتى لم أحسَّ سوى أني في قعّرِ هاويةٍ هي مزيجٌ من الصقيع والسعير، ظلامٌ دامسٌ غشى عيني. رياحٌ تُزمجر... إعْصارٌ هَبَّ... زوبعةٌ... وحوش البحر، لا ظلٌّ لسماء ولا ضوءٌ من شمس ولا نسمةٌ من هواء، هُوةٌ، شَبحٌ لسانٌ طويلٌ... نَهَجتُ بآخرِ نفسٍ فِيّ، لم أرَّ ولم أسمع إلا وجه ربي يوم الحشر، ردّدت عبارتي اليتيمة "يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةَ، ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّة "

- يا للهول...

علقَ إدريس.

"وأنا هنا معك، لكن ما زلتُ هناك، تحيق بيّ غابةُ السيوف... "

أضاف صالح...

- وبعد كلّ هذا تنوي العودّة إلى هناك...؟

سأل إدريس.

- هل أُفْشي لك سرٌ...؟

سأل صالح وهو يُحَضّر نفسه للعودّة إلى القاع.

- هل بعد سرّ الدانة ثمة سرٌ أبعد منها؟

- هناك واحدة أخرى بالقاع... تركتُها في مكانٍ ما في الأدغال المائية، إن كُتِبَ لي الفوز بالأخرى سأقيم عرسًا جديدًا لجوري يفوق عرسنا الفقير، الكئيب، الذي كان أشبه بمأتم... سأعوّضها عن ضَنْك حياتها كلها، أتخيّلها من الآن وهي تَستقبلُني على الساحلِ وبيدي ورقةٌ مطوّية من تلك الأوراق التي تُلَفّ بها السجائر... عندما تفتح عينيها البحريتين وتَرمقُ سهم لحْظَها... لقد ابتسم لنا الحظ إدريس وآمّل أن يبتسم لك بدورك وتحظى بغزالٍ كجوري... فتنة وسحرًا وشغفًا و...

- كفاكَ صالح لقد أثرتَ شجوني.

قال إدريس العبارة وهَمَّ بإخراج اللؤلؤة من جيبِ سرواله، فعاجلهُ صالح بقبضةِ يده محذرًا.

- إياكَ أن تُظهرها من جيبك حتى أعود وبعد أن يتم تفتيش خزائننا ونوشك أن نبلغ اليابِسة حينها سلمني إياها... لقد ائتمَنتكَ على حياتي وحياة جوري معًا. كنتُ موقنًا من أنني سأربح في النهاية، الحياة مُلهمةٌ يا صديقي وتفاجئنا من حيث لا نعلم... كم كنا مغفلين عندما نستسلم لليأس وتطوّينا الأفكار السوداء، لكن الغيب الذي نكرههُ حينًا لو علمنا ما يضمرهُ لنا فيه لما تملكنا اليأس... أحذرك إدريس بيدك مصيري الذي كِدتُ أفقدُ في سبيله حياتي، فاحتفظ بها ودع لي الفوز بالثانية...

فتح إدريس فاه وخرس صوته، لم ينظر في عيني صاحبهِ بل أشاحَ بوجههِ ناحية البحر وقال: أرى أمامي اليابِسة وكأننا بلغناها...

- وأنا أرى أمامي جوري على الساحل وهي ترتدي ثوبُها الأبيض المهترئ والذي سأحرّرها منه وأجعل من حياتِها شمعة لا تنطفئ إلا حين أخلد معها إلى الظلام وأنزع عنها الأسمال وأحُدقُ بتمثالِ الجمال الذي وُفقَ الخالق في رسمهِ

تغيّر لون وجه إدريس بينمّا انشغل صالح بتوضّيب عدته للغوص... الْتفتَ نحو الآخر واستدرك:

- هل أنتَ سعيد، إدريس لفوزي هذا؟ سأل صالح.

- أسعدُ من نفسك أنت يا صاحبي...

خطى صالح نحو إدريس وأقبل نحوه، فتحَ ذراعيه وعانَقهُ بشغفٍ دون أن يَلتفتَ حوله في لحظةٍ عاطفية غريزية لم يبالِ بنظرات الآخرين لو رأوا هذا الموقف... ظلّ يحتضِنه لوهلةٍ وحين افترقا بدتْ عينا صالح وقد اغْرورِقتْ بالدموع من غير أن تهطل.

- نفسي هذه اللحظة بكأسٍ من ماءٍ باردٍ به تلك الذرات الثلجية... هل تُصدق كم حَلِمتُ في الليل بالثلج الذي نضعهُ في الماء ونحتسيهِ ونشعرُ به وهو يَنْسلّ إلى جوفنا وكأنه سفر إلى الجنة... لم يُذْكّر في القرآن الثلج، تُرى هل هناك ثلجٌ في الجنة إدريس...؟

قهقه الآخر وقال بنبرةٍ شجية وقد بدت ملامحهُ مضاءةٌ تَبرُقُ بضوءٍ غامض: هناك عناقيدٌ من الثلجِ يا صاحبي...

❁❁❁

# 19

المكان-السفينة-الوقت-ظهيرة-الحالة-عناقيد الفتنة

اخْتلجتْ مشاعر إدريس بين طيف جوري التي تنتظر التفاحة الإلهية، وبين أحلام صاحبه صالح الذي يوْشك الآن على الهبوطِ إلى البحر، خطواته الرشيقة وهو يستعد للغوص لا تعكس حالتهُ المُصابة، جرحهٌ ينزف... هبوب رياح خفيفة توقظ الموج هناك بجنبِ السفينة، حركة البحارة على السطح... يسير أحدهم بمحاذاتهِ ويبتسم ولا يفهم هو سرّ الابتسامة المُقتضَبة، رائحة سمك يُسَفَط ويُملَح ويُترَك لفترةٍ ما قبل المساء معدًا للشواء، لا توجد وجبة رئيسية عادة في النهار أيام الغوص، فالوجبة الأساسية تُقدَم على العشاء، هي العادّة بكلّ سُفن الغوص، حتى لا تُثقل هذه الوجبات الغاصة وتُعيق أغلبهم عن الغوص، لذا تُرَحَّل الوجبة إلى العشاء... ولكن الربان وعدهم بوجبةٍ دَسِمة قبل موعدها المألوف باليومِ الأخير لرحلةِ الغوص... كانت هناك بالقربِ منهُ ربطةٌ كبيرة من الحِبال بجانب الصاري عكَفَ اثنان من البحارة على فَتْلِ خيوطها وإعادة غزْلَها، لم يفهم إدريس وهو يراقبهما ماهية هذه المُهمة ومن كلفهما بها، لكنه عادَ والتفَت يساره ليرى بحارًا قوي البنية

أسمر البشرة، رَكعَ على قدميهِ وراح يَلوِي ذراع آخر بدا يعاني من التواءٍ في الكَتفِ... ابتسم وتجاهل بعدها ما يدور حوله حينما أيقظهُ صوت صالح.

- أذكّركَ بالدانة وحفظها بأمان، أنا أوشك على الغوص ولا أريد أن أشْغل ذهني تحت الماء بهذا الشأن... تَذَكَّر أن الأحلام تكمن في قاع البحر ولو أطعتني منذ سنتين ولم تخش الغوص لكنت الآن معي في القاعِ تُفتشُ عن أحلامك...

ضحك صالح وأردف...

- لكن لا تيأس فهناك أحلامٌ أخرى على اليابِسة عندما نعود إلى البرّ ابْحث عنها في أحياء وأزِقَّة المدينة، المحرق يا صديقي تَعجُ بالأحلام وفيها فرصٌ ربما توازي فرص البحر ولكن بحاجةٍ لجسارة، عليك أن تكتسب جرأة وتركب المحاذير وتتجاوز الخوف والتردّد ربما يحالفك الحَظّ مثلي... أتمنى لك حظًا على البرّ إدريس...

سافرَ إدريس في ضوءِ كلام صاحبهِ إلى دهاليز مدينته المحرق... دخل أزِقَّتَها للتو وراح يُفتش في طُرقها الضيقة الوسِخَة المليئةُ ببقايا مخلفات القطط من عظام السّمك... عن وجهِ فتاة تشبهُ جوري... حدقَ في واجهاتِ بيوتها العتيقة بجدرانِها المُهَلهَلة وسقوفها البالية، لمح التشققات في الحيطان واستغربَ عدم انهيارها رغم سَعَة حجم تلك التصدعات، ربما لأنها بُنيَّت من الطينِ وبَلَتْ من شدّة مياه الأمطار وحِدّة أشعة الشمس فَتَصَلَّبتْ وقاوَمتْ التَقوّض... بَحثَ عن اِمرأةٍ، فتاة أو صبية لكنه لم يصادف سوى

عجوزين تقودان بعضهُما وبرفقتهُما طفلٌ صغير يسير خلفهُما حافي القدمين... رجلٌ طاعن في السِنّ يحاول جاهدًا رفع صّرّة كبيرة لوضعِها فوق ظهر حمار بني اللون وقف جامدًا كأنه يَسْخر من محاولة الرجل المُسِنّ الذي كان يرتدي ثوبًا أبيض فضفاضًا. رأى من على بعد مسافةٍ، قططًا تعبثُ في زبالة، كلابًا كسلى تتثاءب مستلقية وقد تَجاهَلَت ما تفعله القطط، ماعز تنبش، نوافذ خشبية، لم يعثر على ما تنبأ به لهُ للتو صالح من أحلامٍ في مدينة المحرق!

"الحَظّ يكْمنُ في قاع البحر"

قال مخاطباً نفسهُ

"الخير كله في البحر، والحَظّ في القاع، أما على اليابِسة فلا حُظّوظ إلا عند جنود الاحتلال البريطاني وهم يسعون وراء الفوز بنساءٍ جميلات عابثات. الحظوظ عند أولئك الذين لم يُبحروا، وخلدوا على البرَّ ومعهم المال ويمكنهُم من شراءِ الثلج واللحم والدجاج، أما أنا فليس لي من حَظٍ سوى السّمك أسْرطهُ نهارًا وليلاً... أنت صالح محظوظ، وكم سَخَرتُ منك في داخلي واسْتهَنتُ بحلمك وازْدريتُ طموحك... كم أنا مُغفّلٌ حين تجاهلتُ حلمك واكتفيت بسحبك من الماء"

- أين سَرَحتَ إدريس؟ انتبه سأغوص بعد قليل...

كانت الضوْضاء حولهما على أشدّها... فجأة ظهر غواص من الماء على مسافةٍ منهما وقد بدا مرتاحًا وهو ينظر لمساعده نظرة ودية.

"هل ترى وُفقَ هذا الآخر بدانة كصالح؟"

تساءل إدريس ونظرتهُ على الرجل الذي اسْتلقى مُنهكًا على السطع وراح يَمسَح عن وجههِ الماء ويَفْرك عينيه فيمّا أخذ الرجل سَلّة المحار ووضعها بجنْبِهِ وسمعه وهو يخبره بأنه سيحضر له فنجان الشاي. عندما أغمض الغواص النحيف البنية والضئيل القامة عينيه وبدا كما لو غفى اجتاحَ إدريس هاجسٌ غامض خبيث.

"ماذا لو أعْبثْ بسَلّتهِ وأسْرقُ بضع محارات قد يكون في إحداها حلمي؟ هل انتظر حتى أصبح غواصًا؟ لقد كنا نسرق أنا وصالح عندما كنا صغيرين؟ ماذا لو فعلتُ الأمر الآن من أجل مهر حسناءٍ خلابة من مدينة المحرق تشبه فتنتها جوري؟ مدينة المحرق تَعجُ بنساءٍ تَفَنَّن الخالق في صنعهِن وليس لديهنَ مُعيلٌ أو وليٌ، ويتطلّعنّ إلى أمثالي من الرجال! ألم يكن نصيب صالح جوري وهو الذي لم يكن يَحُوز حتى قوت يومه، تزوج بعد أن اِقْتَرضَ مني المال ولا أذْكّر إن كان قد سَدّدهُ أم لا؟"

انتبه فجأة لصوتِ الرجل المساعد، حمل فنجان الشاي للبحار، جلس قربهُ وأيْقَظَهُ... أفاق إدريس على ذلك.

"حتى حلمي بالسرقة طار في الهواء... تلاشى... لم يتَبقَّ في خيالي سوى رائحة عطر نَفذَ إلى أعماقي ذات أمسية عندما زرْتُ بيتك صالح وصادفتني جوري تَشوِي سمك بالفناء، لا تستغرب إن لم أشتَمّ رائحة الشواء التي كانت تعبقُ في الفناء وتلوح في خيوط الدخان المتصاعد من موْقد

الخشب، بل ما وَلجَ إلى أنفي وتَسلّل إلى أعماقي ولعب بخيالي رائحةٌ زكية لعطرٍ كان يفوحُ من جوري"

خاطب إدريس نفسهُ بصوتٍ داخلي، لا يجْرؤ على البوْح بمشاعرهِ وخيالاته الدفينة، تلك التي تَعْلق عادّة بأعماقنا دون أن نتجرأ إفشاءها لذواتنا حتى أننا نخشى من ذلك... كم من مشاعر بنا نحو الآخرين لو فَتَّشَ أصاحبها بنياتنا وتسلّلوا لعقولنا وقرأوا ما يَطوف في أذهاننا من أفكارٍ وخيالاتٍ جسورة وسرية ودفينة، غزيرة الفحوى، لفُجئوا بأهوالٍ يَصعبُ تصورها، قد تُدمّر ما بيننا... هناك أحاسيس تجاه بعضنا البعض من كراهيةٍ وحبَّ وشغف ورغبات طائشة... أسرار في الداخل تموج... أمنيات وشهوات وأهواء كلها تجري في دمائنا وتَضْطرم مثل النار في الهشيم ولو لَمَحَها من نحمل لهم هذه المشاعر لتَحَطَّمتْ السماء فوق رؤوسنا جميعًا... لقد رَفقَ بنا الخالق حينمّا وضع حجابًا فوق هذه المشاعر وجعلها في هاويةٍ وأغلق عليها... أذْكّرُ عندما كنت بعمرِ العاشرة ورأيتُ لأولِ مرّة فخْذَ أحد رفاق الحي الذي أقطن فيه بعد أن خرج من البحر وقد الْتصَقَ بجسدهِ سروالهُ القصير، كان من عائلةٍ ميسورَة وذو بشرةٍ بيضاء نظيفة ووجهٌ وسيم وبنية رشيقة، تَحركَتْ مشاعري نحوهُ وشعرتُ برغبةٍ أخافتني في البدءِ وسرعان ما أحْسّستُ بلذّةٍ في أعماقي تجاهه... وعندما عدتُ للمنزل واخْتليّت بنفسي اِشْتعلَ خيالي نحوه وبدأت لأول مرّة أُداعبُ أعضائي الداخلية... بعد أن انْتَشيت وذقْت طعم الشهوة الغامضة، انتابني على إثرها إحساس بالكآبة ثم

تَبدَّلَ لإحساسٍ بالذَنْب ومع الوقت تَخلصتُ من تلك المشاعر ولكنها ظلّت محفورة بأعماقي... إن من نِعم الخلق إن نياتنا وشهواتنا وأفكارنا وخيالاتُنا مَخْفيّة عن الآخرين وخاصة أولئك الذين نحمل لهم هذه المشاعر"

كان يحاكي نفسهُ بانفعالٍ كما لو كان يَسْردُ انفعالات مشاعره المُتخَمة بالهيجان لأقرب الناس إليه، لم يَفقْ من انْغماس صوته الداخلي مع ذكرياتهِ الخفية إلا حين دَنا منه صالح وقد بَدَّلَ ملابسه وأرتدى سروال الغوص واحتسى آخر قطرة كانت في فنجانِ الشاي.

- أين ذهب عقلك إدريس؟ هل كنت في غيبوبة؟

قهقه صالح وأَسْتدرَك...

- عقلك في المرأة أم في اليابِسة؟

- ألم يَحظُر الرُبان احتساء الشاي والقهوة قبل الغوص؟

قال إدريس محَرفًا دفّة الكلام لصديقه الذي انشغل بتَضميدِ جرحه.

- هذا النهارُ الأخير في قاعِ البحر واليوم قبل الأخير لنا في البحر... بعد غدٍ سَنبْسط أقدامنا على اليابِسة ونسْتذْكّر اللحظات هذه، لن يلاحظ أحدٌ بعد اليوم ما جري على هذا المركب، فالجميع شُغِلوا بتحضير أنفُسهُم وعدتهم وتهيئة ذواتهم للعودّة، هذا هو الوقت المناسب لكَسر القواعد يا صاحبي. أنت لا تعرف انفعالات الناس حين انْتهاء المِحَنْ...

- هل تعتبر الغوص مِحنَة؟

تنهد صالح وأجاب...

- مهنة ومحنة!

ردّ إدريس متسائلاً.

- هل ستتأخر كعهدك هناك في القاع؟

- إذا ما سُئِلت متى نَزلتُ للغوص قُلْ توًا.

أجاب صالح.

- لكن بيني وبينك كم ستبقى؟

فكّر صالح وسرح لوهلةٍ ثم ردَّ

- الله أعلم!

تقدمَ من حافةِ السفينة اثناء ما كان يَسْتعدُ للغوص اقتربَ منه ثلاثة بحارة يتساءلون عن حالةِ ساقه، أخفى الساق بِسَلّة المحار، وابتسم لهم معبرًا عن حيويته وقال...

- كأن لم يحدث شيء...

بعد أن تبادلَ معهم كلامًا خاطفًا وحياهم باقْتضابٍ كأنه يُبعدُهم عنه، التَفتَ لإدريس وقال...

- أنا مستعدٌ الآن.

ابتعد البحارة، فدَنا صالح من صاحبهِ ونظرَ في عينيهِ كأنه يبحث عن مغزى شيء ما في أعماقهِ الدفينة أمسكهُ من يده وقال بنبرةٍ شَجية رافقتها ابتسامة مُقْتضبة للتخفيف من وقع ما سيبوح به.

- إذا لم يُكْتَب لي عودّة من القاع والله وحدهُ عالمٌ بالغَيْب أوصيكَ خليلي الوحيد الوَفّي أن تُسلم الدانة لجوري وتُوصيها أن تأخذ بالها من نفسها...

قاطعهُ إدريس قبل أن يُكمل بوضع يدهِ على فم صاحبه ليَمْنَعهُ من الاسترسال بالكلام.

- ماذا تهذي؟ ستعود وسَتهدِيها الجوْهرة بنفسك يا صاحبي... أزحْ الوساوس عنك وإذا كنتَ تستشعر هواجسٌ كهذه دعكَ من الغوص واكتف بما لديك.

انْسابَت دمعةٌ يتيمة من عيني صالح وأمسَكَ بيد إدريس ونظرَ في عينيهِ الناعستين!

❁❁❁

# 20

## 1940-المكان-مدينة المحرق-الوقت-مساءً-الحالة-عناقيد الماضي

قبل فصل الشتاء بأيامٍ، ووقتمّا تَتَعوَّق قليلٌ من سُفن الغوص في العودّة لسبَّبٍ أو آخر، تجتاح أهالي الغواصين والبحارة، وأغلبهم شيوخ وأطفال ونساء، نوبة ذعر ماكِرة، تَتَخلّل هواجِسُهم وتَنْفذ إلى عروق آمالهم بعودّةٍ سليمة للغائبين عنهم... ولدى رجوع الغواصين من سفرتِهم المُضْنية مُثقلين بأحزانٍ أو مشحونين بفرحِ العودّة، بِحسَبِ كلّ ما واجهوا في البحر من أهوالٍ، كَفَقد أصاحبهم ورفاقهم ولا يجدوا وسيلة، لإبلاغ الأهل بأخبارهم، ولا يلقوا سبيلاً لإحضار موتاهم مما يَضْطرّهم لإلقائهم في اللُّجّة، بعد أن يُصلى عليهم... يستسلمون لمصيرٍ محتوم صاغَهُ لهم القدر. تختفي النسوة من على الساحل عندما ييأسنّ من عودّة السفن ثم يُعدّن الكرّة باليوم التالي ليتكرر نفس الإحساس والألم، ويعانين من القنوط والأمَّل معًا... للبحارة الغائبين زوجات أو عشيقات حتى بنات هوى... أمهات وأخوات وبالطبع برفقتهن الأطفال، يلْهُون بالتراب ويتقاذفون بهِ على سواحل جنوب المحرق دون مبالاة بما يجري، بل أغلبهم ينخرطون في اللهو والضوْضاء، غير مدركين مشاعر الكبار، مما يدفع النساء لنَهرِهم وزَجرهم بينمّا نساءُ أخريات لا يعبئن بما يفعله الصغار...

جوري واحدةٌ من نساءٍ عدّة، أَلِفنَ أن يأتين للساحل بين يومٍ وآخر، وليس برفقتها أطفال، ظلّتْ تقاوم إلْحاح رقية العمياء باصطحابها معها، لكن الفتاة تجاهلتْ طلبها لسبَّبٍ وجيه لديها وهو خشيتها من لسانِ العجوز الطليق الذي لا يتوانى عن الْهَذر واللغو وترى فيه الفتاة فضيحة واحراج لها بين النساء. كانت تقفُ بعيدًا عن الجميع لشعورها بازدرائهم ونظرتهم المرتابة فيها، تَعرفْ أن ماضيها يلاحقُها وتشعر أن نَبذها من قبل الأهالي نابعٌ من سُمعتِها وقد جعلها ذلك مَحَل نبْذ حتى بعد أن تزوجتْ واعتزلتْ الخروج، لم يسبق أن زارتها امرأة من الحي والجيران، باستثناء رفيقتها نرجس التي كانت معها في بيت دلال وقد اختفتْ في الفترة الأخيرة ولم يُعْرَف عنها شيء، سَألتْ عنها ذات يوم حين تَجرأتْ وزارتْ بيت دلال لتطمئن عليها هناك فأبْلغتها دلال بأنه لا أثّر لها في المدينة، وخَمّنَت أنها انْتقلتْ لمدينة المنامة .

"ما الذي يدفعني للمجيء هنا والوقوف وحدي منبوذة؟"
قالت مُحدِثة نفسها.

"اسْمعُ أصواتًا لا أفهم إن كانت بداخلي أم هي أصوات دخيلة، هل صوتي أم صوتٌ خارجي اقتحمني وصارَ يَنطُق باسمي؟ كنت أظنّ أنه صوت الشيطان يُلاحقُني ولكني أدْركتُ أن الشيطان ليس بحاجةٍ إليَّ. من أنا حتى يَهجُر الأغنياء والشرفاء والمؤمنون وأصحاب المكانات العالية ويُلاحقني؟ ماذا أملك ليأخذهُ مني؟ أنا مُجرَّد بهيمة تائهة في دنيا الله لا قيمة لي بين

البشر، ولو مُتَّ أو حَيَيتُ لن يتأثر الكون برحيلي أو وجودي... لا أحد يحتاجني في هذا العالم، لا أساوي حتى ثمن كفْني، هذا الصوت هو صوتي الحقيقي وأساله: لماذا آتي كلّ يوم هنا وانْتَصب وحيدةٌ معزولة بانتظار رجل ربما لم يُفكّر بيّ لحظة واحدة وهو هناك وراء البحر وخلف الأفق تركني وحيدة ورحل دون أن يترك بيدي قرشًا أقْتاتُ بهِ... هل يقع عَليّ اللوّمَ لو أكلتُ وشرِبتُ ولبستُ من ثمن جسدي؟ عندما أقف ببابِ الله وأطلبُ منهُ برجاءٍ أن يَتَفهَّم حالي لا أسْمع له صوتًا ولا أرى ما يُبرهِنُ على أنه سمعني وتَفَهَّمَ حالي، الله لا يَسْمعُ الفقراء مثلي والدليل أنه تركني أقف هنا وحدي مَنْبوذةٌ من الجميع"

بَدأتْ أشعةُ الشمس بالأفولِ بالتدريج وانْسابتْ في السماء بعض الغيوم وهَبَّتْ رياحُ شمالية خفيفة تلسعُ البَدَن فَتُحدْث رعشةً فيه، سارتْ خطوات نحو البحر، اقتربتْ من حافته وراحتْ تُحدقُ بأطرافِ الموج وهي تَصفَع اليابسة فَتُزيح التراب بعيدًا ثم تَجرفهُ ثانية معها... عندما رفعتْ رأسها والْتَفتَت حولها، رأت بعض النسوة يحدقن فيها فأدركت أنهن الآن يتحدثن عن نقائصها ويعبثن بسيرتها وسمعتها، في داخلها هي على قناعة بذلك وأنها سيئة السُمْعَة وصاحبة رذيلة، ولكن ذلك من صنع الله، لم يكن ذلك خيارها وهذا ما هَمسَ بهِ البحر لها عندما وقفتْ تَسْفحُ عندهُ خواطرُها وتُفْضفضُ عن مشاعرها، لا يوجد كائنٌ يَسمعُها وتخاطبهُ، حتى صالح الذي كان بقربها قبل سفره للغوص لم يكن يستمع لها أو يُناجيها كمّا البحر في

هذه الساعة... كان صالح منغمسٌ في حبِّها بجنونٍ وعاشق لها ولكن ماذا يُفيد الحبُّ والعشق حينمّا يعجز عن وضع لقمة الطعام في الفم؟ صوت الموج وحدهُ الذي تسمعه ربمّا ينقل في هذه اللحظة رسالةٌ منها إلى زوجها هناك خلف الأفق السحيق... يا تُرى هل سيسمعها؟

"عندما تزوجتني صالح أقْسَمتُ أن أكون امرأة عفيفة، مَسحتُ ماضيّ ورجعتُ لبراءتي الأولى وربيّ هو شاهدي على ذلك، كنت قد عاهدتُ نفسي أن أحتفظ بهذا الجسد لكَ وحدك لأنك من تستحقه ولأن هناك شهودٌ على بيع جسدي بثمنٍ بخسٍ لا يختلف عن ثمن بيعه هنا بدون ورقة مكتوبة... ماذا استفدتُ من هذه الورقة؟ ما قيمتُها؟ فقط لأن بها آية قرآنية وشاهدين من البشر فاختلف الأمر... لقد كنت أشبع أكثر من الآن عندما بعتُ جسدي لمن يدفع وكنت ألْبِس أفضل وأعيش أحسن وأنام هادئة بلا جواثيم بالليل توقظني من نومي وتتركني مفزوعةٌ حتى اليوم التالي... كنتُ أهدر جسدي في اليوم الواحد مرات عدّة ثم أنام ليومين كاملين، أما الآن فلا نوم ولا أكل ولا راحة بال... هل أُسامح نفسي أم ألومُها على خياراتي في الحياة التي لم تهبني منها سوى مسحةٌ من جمالٍ ورشاقة في القامة وهي سبَّب تعاستي... لو كنتُ قد وُلِدتُ بمنزلٍ في أسرةٍ وعشتُ وسط عائلة ووجدتُ حنان الأب والأم ما كنت بحاجةٍ لهذا الجمال الذي بدأ يفقدُ نضارته بسبَّب الجوع والفقر والوحدة"

اكْتفَتْ من التحديقِ في البحر وسارتْ بمحاذاةِ الماء نحو الجهة الأخرى وابتعدتْ خطوات عن تجمهر النساء حتى بلغتْ مرفأً خشبيًا قديمًا صعدتْ نحوه وتطلَّعتْ في عددٍ من سفنٍ متباينة الأحجام والأشكال راسيةٌ حوله... سَمعَت صوت صرير الخشب أسفل قدميها. كان بعضهُ مهترئٌ وبعضه جديد ما دَلَّ على ترقيعه بسبَّب القِدَم... في الأسفل رأت مياه البحر زرقاء صافية لاحَ من خلالها لون الرمل الذهبي، كانت هناك بعضٌ من مخلفاتٍ صغيرة لبقايا أخشاب وقطع معادن وأعشاب وطحالب... وأسماك صغيرة تتحرك بسرعةٍ مذهلة وكأنها مُصابة بصدمةٍ في رأسها...

وقَفتْ لوهلةٍ تتأمَّل حولها. كانت ترتدي ملاءة سوداء فوق ثوبها ولم تضع أي من أدوات الزينة... وجهها بدى كما لو صحتْ من النوم وخرجت للتو، وحين لمَحتْ اثنين من الرجال برز من هيئتهما أنهما من البحارة اِنْسَلَّت مبتعدة دون أن تنظر نحوهما وعَمَدتْ لتسريعِ خطواتها... فَكّرتْ للحظة أن تعود وتسألهما عن رحلة زوجها ومَرْكَبهُ ومتى يتوقعان أن ترجع المراكب المتخلفة؟ ولكنها خَشِيتْ من عبثهما معها أو رؤية أحد الجيران وهي تقفُ معهما.

فَكّرتْ بالعودّة للمنزل ولكنها نَكَصتْ حين تَذكّرتْ وجود رقية تنتظرها بالشتائم في داخلها هامسةٌ بالدعاء عليها وملاحقتها مطالبة إياها بالصلاة. مَشَتْ وهي تُفكر بزيارة بيت دلال ولكنها صَرَفتْ النظر وعَبرتْ بين عدّة بيوت داخل الحي متجاهلة خلال سيرها رؤية وجوه الْمارَّة ممن يُصادفونها...

كانت ترتدي نعالاً سوداء تخلّلها التراب، وأخذت وهي تسير، تَشمَّ رائحة الطبيخ تنبعثُ من بعض المنازل، تخمن نوع الطعام ثم تشتهيه... تَعلمَتْ الطبخ منذ صغرها ولكنها لم تتقنه بسبَّب عدم توفر الفرصة لها لممارستهُ، اكْتسَبتهُ ممن اختلطت بهم، فقد ركزوا معها على الغسيل والتنظف والكنس ونادرًا ما كانت تطبخ واكتفتْ بتقشير البصل وتقطيع البطاطس وتنظيف الدجاج قبل الطبخ. ظلّت تقضي الساعات في بعض المنازل، تكنس وتغسل وعيون الرجال تلاحقها بالرغم من أنها لم تتعدَ الحادية عشرة من عمرها، كان أغلبهم متزوجين من سيدة الدار وبعضهم من الأبناء وكثيرًا ما تعرضتْ للتحرش منهم. راحتْ تبتسم كلمّا مرَّتْ بأحدِ البيوت واستعادتْ ذكرياتها الحزينة فيه، ونادرًا ما حَملتْ ذكّرى طيبة من تلك البيوت، باستثناء منزلين أحدهما لربانِ سفينة وآخر لامرأةٍ غنية تعيش وحدها مع حظيرة صغيرة من الماعز والدجاج...

"ماذا تفعلين جوري في الطرقات وحدك؟ ماذا لو صادفكِ أحدهم وأغراكِ بالمال؟ ماذا لو رافقتِ رجلاً مغتصبًا سيئًا وعاملك بنذالة ولُؤم؟ أنت الآن وحيدة وكئيبة وفقيرة وليس بِحوزتكِ سوى قرشين لا تعرفين ماذا تفعلين بهما؟ لو عادَ صالح زوجي اليوم أو غدًا لن يكون بمقدورهِ أن يُزيل عني الخوف الذي ينتابني من الحياة برمتها، أنا لا أستحق هذا الإنسان البريء العفوي الذي لا يحمل ضغينة أو مكر... أنه لا يستحقني ولو كان بيدي لعتَقتُهُ مني ولكنه وهذا اغرب ما في الحياة غارقٌ بحبي حتى الجنون وليته

يدرك أنه كان يستحق أفضل مني... كلّ ما آملهُ أن يعود سالمًا معافى وأُقْسم بأن أحفظ له عفتي، والله وحده رغم تخليه عني شاهدٌ على نيتي السليمة، فقط لو يُحرّرني من تلك العجوز التي لا أُطيق صوتها ويخلصني من طيور الحمام التي تنوح بفجاجة".

حين خطر ببالها طير الحمام ابْتسمتْ وتذكّرتْ قبل فترة وجيزة فعلتها وهي تُسممها، كانت تنقع حبوب الرُزَّ في الكيروسين ثم تعجنه بنبتة سامة تستخدم في تَسمّيم الأسماك في البحر لصيدها وتلقي بها في فِناء الدار فتتساقط الطيور هامدّة... كلّ تلك الوسيلة لم تُوقف بقية الحمام عن الضوْضاء، حينها يَئِسَت واكْتفتْ برميها بالحجارة... واصلتْ الْمَشْيَ محاولة تجنب الاحتكاك بالمارّة سواء نساء أو رجال، دلَفتْ لأزِقَّةٍ محاذيةٍ لبعضها البعض... وقفتْ وحدقتْ بأحد المنازل، تسْكنهُ عائلة كبيرة مكونةٌ من أمٍ معروفة في الحي وزوجها أحد تجار الخشب ويُدعى فضل الجار، تَذكَّرت فجأة المكان الذي أقامتْ فيه ما يُقارب من السنة، عريشة من الخشب بزاويةٍ من الدار محاذية لرقعةٍ مُسَيّجة بسَّعفِ النخيل ومغطاة بنفس السَّعف تَسكُنها الدجاج والديكة. تَذكَّرت عريشتها الضيقة المفروشة بسجادةٍ مُهترِئة مع حوض معدني مليء بالماء تستخدمه لكافةِ حاجاتِها ابتداءً من غَسْل وجهها بعد النوم إلى غسل يدها بعد تناولها بقايا الطعام الذي تحتفظ به في سلّةٍ معلقة بسقفِ العريشة... كانت عريشتها تحتوي صندوقًا خشبيًا متوسط الحجم ضَمَّ كلّ مُقتنياتها من ملابس أغلبها بالية وخواتم وأساور معدنية

رخيصة حصلتْ عليها من سلّة القمامة التي تلقي فيها ابنتي صاحب الدار تلك الخُرْدَة، فَتَستخْرجُها وتحتفظ بها. جاءتْ لهذه الدار وعمرها كمّا تُخَمن بين العاشرة والحادية عشرة، يأتي بها من كانت تعتقد أنهُ جدُّها بعد كلَ موسم غوص لتَخدم حين لا يجد مناصًا من تركها وحدها بداره... ومن يومها اعتادتْ على العمل في المنزل حتى بعد أن يعود من الغوص إلى أن توفى... حين انتقلت لدار دلال بعد محاولة زوجُ شبق بأحد المنازل على اغتصابها فَفَضلَت على إثرها اللجوء إلى دار دلال التي التقطتها بطريقِ الساحل ورَأتْ حالتها المُزْرية.

عَبرَتْ طريقًا آخر وتوقفتْ عند منزل ثانٍ وقبل أن تُفكر به وتسرح بأرجائهِ فاجأها أحد أفراد المنزل خارجًا منهُ فسارعت بالخطى... واستمرتْ بالتجول في الأزِقَّةِ لرغبةٍ مُباغتة في استعادة ذكّرياتها بالمنازل التي عَملتْ فيها... كانت تقف على بعد مسافة وتحُدق بالأبواب والنوافذ والوانها وأنواعها ثم تَعْبر بذهنها الذي يحفظ الصور إلى داخل هذه المنازل وتستعرض محتوياتها وأين كانت تُقيم أو تعمل؟ وماذا حدث لها هنا وهناك؟ ثم تعبر بخطواتٍ متباطئة لتَتَوّقف عند منزلٍ لم تعمل فيه ولكن لمجرد أن تَتَأملهُ والتفكير بمن يسكنه.

"الله يسامحك صالح، ظنّنتُ أنني بالزواجِ منك سأبقى بالمنزل ولن أخرج منه إلا معك نَتجوّل ونُشاهد البحر والسفن التي تحدثني عن أسمائِها وأنواعها، وتأخذني لمحلاتِ البيع وتشتري لي ما في نفسي... كنتُ أظنّ

أني سأمحو من ذاكرتي هذه البيوت وأهلها وما جرى لي فيها، كلّ ذلك لم يَحْصَل إلا بفترةٍ وجيزة سرعان ما ضقتُ بالحياة وأُصِبتُ بصدمةِ الفقر، هذه المرّة أنت معي فيها... لا لَومَّ عليك بل على نفسي وعلى الزمن الذي طالَ بيّ وهو يَلعبُ فيّ... تركتني مُعْوّزة وفي عنقي أُمكَ هي الأخرى عَليّ تَدبّر لقمة عيشها... لو كنتَ تعمل كبقية الرجال الذين خَدمتُ عندهم ولو تَدَبَّرتَ أمْرُكَ مثلمّا تَدَبَّر الكثيرون غَيّرُك، لكنتَ الآن بداري بعيدة عن هذه الأزِقَّة والذكّريات الأليمة فيها".

تَنفَّستْ من أعماقها بحرقةٍ وشعرتْ بقدميها تخذلانها عن المشي، كان التراب قد تخلّل نعليها التي زَنَقت فيها قدميها وأحسّتْ بالعرق يتسرب من إبطيها والدنيا بدأت تَعتمّ مع صوت أذان المغرب الذي انطلق من مسجدٍ صغير قديم أهترأ أحد جدرانه كانت تعبر بمحاذاتهِ... انكفأتْ نحو طريق فرعي بعد أن أدركتْ أنها تجاوزت الحي الذي تسكنه بمسافةٍ طويلة... قَرّرَتْ العودّة للدار وتحسّستْ جيبها للتأكد من وجود قرشين به، حينها اعتزمتْ التوقف عند أحد الدكاكين بطريق العودّة.

"ترى هل تفكر بيّ صالح الآن وماذا يشغل تفكيرك عني؟"

عندما دلفتْ لدارها وجَدتْ الظلام قد خَيَّمَ على المكان... أوقدتْ شمعتين ووضعتهما بقرب النخلة الوحيدة، نهضتْ حين سمعت صوت خطوات العجوز خارجة للفِناء تسحب نفسها وقد ارْتدتْ فستانها بالمقلوب... ابتسمت جوري وأسرعت بدخول الغرفة، قبل أن تنطق الأخرى

وأوقدتْ السراج... تركتْ المرأة الكبيرة وحدها تتعرض لنسمات الهواء تداعب وشاحها الأبيض الخفيف، منسدلٌ على طرف رأسها وقد غطى جزءاً من شعرها الأحمر المصبوغ بلون الحِناء، وجزءًا منه على جانب من وجهها.

بدتْ امرأةٌ وحيدة هَرِمة تُشبهُ سفينة حائرة تجرفها الرياح في مياهٍ هادئة، يُحيط بها ضوء ضئيل تدرك مقداره خارج أوقات الليل والنهار، اسْتَسلَمتْ لبردٍ خفيف لامسَ بشرتها اليابسة ذات التشققات الزمنية ما يوحي بما تعرضت له من أهوالِ في الدنيا، بدت كريشةٍ خفيفة عمرها أكثر من سبعين عامًا، يقذفها الهواء وحيدة بدون شراع ولكنها في داخلها شعرتْ بأن الدنيا خَضَعتْ لها وانتابتها سعادة غامرّة اجتاحتها في لحظة تمازج النسمات بالضوءِ الشاحب ورائحةٌ منبَعِثة من بعيدٍ لأسماك تُشْوَى على الخشب، اكتفتْ بتذوقِ رائحته فغمرتها سعادة مباغتة.

"سبحانك يا خالق الدنيا.

قالت العبارة ورفعتْ رأسها للسماء تعد النجوم دون أن تراها ولكن تَتَخيّلها كدأبها في الليالي التي تلْمسُ فيها سعادة كهذه، ردّدت العبارة مرات أُخرى وهي قابعة على العتبة في الفِناء، فاحتْ رائحة الشجر والشواء على السواء.

- سامحيني بنتي جوري...

قالتْ ذلك دون وعي منها!

ثم أرْدفتْ برجاءٍ كأنها تشكّ بإحساسها الذي على إثره فقدتْ بسرعةٍ خاطفة ومضة السعادة التي أحسّتها لوهلةٍ.

- هل أَنتَ بخير ابني الوحيد في الغُربةِ؟

❁❁❁

# 21

المكان-السفينة-الوقت الظهيرة-الحالة-عناقيد الجسد

"أحسُ بقلبكِ يخفق ويقفزُ من مكانهِ جوري حين ترين دانة لم يرَّ الكون مثيلاً لها ترقصُ في راحةِ قلبكِ المكْسور... أحسُ بسؤالكِ الطريف على لسان شفتك: هل نبيعها ونغير حياتنا بها؟ أم تتركينها تتدلى بعقدٍ يزين جيدك النضر؟ أحسُ جوري بفرحٍ لم تشعري فيهِ بحياتكِ قط... أشعرُ بضَمتكِ لي وأنتِ تُزيلين عن كاهلي تعب سنين عجاف يبِسنا فيها كأغصانِ الشجر بالشتاء وكسَّعفِ النخيل بعد أن يُقَطع ويُرمى وتلفحهُ الشمس فيتحَوَّل إلى أغاثٍ يابِسة... أتخيّلُكِ جوري واقفة أمام المرآة المشروخة بغرفتِنا الصغيرة التي تهتكَ طلاءُها وتصدعتْ جدرانها وأنتِ بفستانكِ الأبيض الوحيد الذي تتزينين به في المناسبات وهو نفسهُ فستان عرسك الطويل الممشوق الذي يليق بخصرك النحيل، ينسدلُ شعرُك الطويل الناعم على كتفيكِ وأنت ترتدين بمعصميكِ أساور معدنية تشعرك بأنها من فضة ولكنها مجرد معدنٍ فقد بريقه ولونه ولكن حين ترتدينه يُشبه في معصميّكِ أساور الأميرات... أنت أميرتي تنتظرك مفاجأة العمر أحملها لك مثلمّا وعدتكِ وكنتُ عند عهدي".

- ألم توعدني بمزيدٍ من التفاصيل قبل أن تهبط القاع؟

أيْقظهُ إدريس من تأملهِ وسأله وكان يقفُ حينها منتصبًا على الحافة الخشبية، يغرف من ماء البحر ويغسل قدميه...

- نفسي في سيجارة بمجرد خروجي من الماء... ماذا وعدتكَ إدريس؟ كثيرٌ هو الكلام الذي أقوله وأنساه؟ وكثيرةٌ هي الشجون بداخلي ولا أعرف ماذا أقول وماذا أترك؟ في أعماقي يا رفيقي زادٌ لا ينضبُ من المشاعر ولكن البحر ينادي...

- إذا لم يُكْتَب لي العودّة من القاع والله وحدهُ عالمٌ بالغَيْب أوصيكَ إيصالْ الدانة لجوري وتنصحها أن تأخذ بالها من نفسها... هذا بالتحديد ما توَجسّت به لي وكأن بأعماقك وساوس لا توَدّ البوح بأكثر من ذلك...

- حدثني عن هذه الهواجس صالح، لتنزعها من حضيض عقلك المشوش حتى تغوص وأنت مُنشرح البال... تذكر أن معك جوهرة لا تقاس بثمن... تعرف؟ كلما نزعنا من داخلنا ما نشعر به وفضفضنا به لمن حولنا، محوّنا تلك الوساوس؟ حدثني عنها وأزحها عن كاهلك المُثقل بالشكوك.

سأل إدريس وما فتئ منشغلٌ بغسلِ قدميه بماءِ البحر وراح يجففهُما بخرقةٍ بالية، ثم أخذ يَشمَّ الخرقة.

- أنت تُأخرني عن الغوص ثم تجرجرني للبوح بأسرار دفينة، هل تظنّ لو بحتُ لك بأشياء لا يعرفها إلا الله قادرٌ أنت على كتمانِها؟ أنت رفيق عمري ولزيمي وكاتمَّ أسراري ولكن ثمة أمور خفية هناك تحت الرماد لو نَفَختُ فيها

لاشْتعلَت النار من جديد... هل أنت قدير على كتمان ما في القلوب من خفايا...؟ لا أشكّ بنواياك خليلي، لكن البيوت أسرار.

قهقهَ إدريس بعد أن انتهى من قدميه ولاحظَ أن أحدُ البحارة كان يقبعُ على مسافةٍ منهما وأفتعل الانشغال واللامبالاة، حدقَ نحوه وصَوَّبَ نظرتهُ لوهلةٍ، حينها نهضَ الرجل وابتعد... عندها استأنف إدريس الكلام.

- لماذا نخشى البوح؟ أنه يريحنا؟

- لماذا لا تبوح أنت بمكنون عقلك؟

ردّ صالح

- لأن عقلي خالٍ من الأسرار ولا يموج به سوى الحَبل الذي أُخرِجُكَ به من البحر، أما أنت صديقي ويكفي وجود جوري برأسك حتى يمتلأ بالأسرار.

صمْتٌ مطبق.

- اسمعني قبل أن أغوص...

قال صالح...

- كلي آذانٍ صاغية.

ردّ إدريس.

- انتبه لما أقول فهذا آخر حديث بيننا قبل أن أنزلقَ إلى الماء.

قال صالح ذلك ونَفذَ نفسًا حادًا وأردف:

- عندما نمتُ أول ليلة لي مع جوري اعتقدتُ أنها ذكرٌ في صورة امرأة! لا تتعجل ولا تفتح فاك مثل قرشٍ جائع... اسمعني ولا تعلق أو تندهش فمّا

أقوله سيظلّ بيننا وأفضلُ بأن تَمحيهِ من رأسك بمجرد أن يدخل... هناك أشياء في الحياة قد يتعلمها المرءُ من المرّة الأولى وهناك أشياء قد لا يتعلمها حتى لو عاشها مئات المرات... عندما تزوجتُ جوري ونمتُ معها كانت باردة كأنها قطعة ثلجٍ من ذلك المخلوق السحري الذي اقتحم حياتنا... كانت جامدّة، فاترة، جسدها مُتصلب كجسدِ فتى مفتول العضلات، لم أرَّ تضاريس جسدها لأنها أجبرتني على النوم معها في الظلام، وسترت نفسها بملاءة أذكر لونها حتى اليوم، كانت صفراء باهتة. حاولتُ... أنت تفهم لا أريد الإطناب ولا التوضيح... بذلتُ جهدي حتى... فهمت، أنتظر لا تتعجل... اسمعني حتى أنتهي من هذه اللحظة الحَرِجَة... حين انتهيتُ شعرتُ بأني كنت مع فتى من أولئك الذين خبرناهم بطفولتنا وعبثنا معهم وأنت تعرف الباقي... لا تنظر لي هكذا ليس لهذا الكلام مغزى...! هناك أسرار في لغة الجسد لا نفهمها من المرّة الأولى وعندما نُعيد الكرّة مرّة ومرّتين أو أكثر نكتشف أن بداخلنا كائنًا مختلفًا عن الكائن الذي نراه أمامنا و...

- هل تقصد...

- أخبرتك لا تقاطعني... أنتَ طالبتني بالبوح فأنظر كيف أُجَرّد عقلي من كلّ الصور التي لا تُكْشَف، من يدري نحن لا نعلم الغيب ولا نعلم بأي ساعة نرحل وبأي بحر أو يابِسة نُدفَن فمّن الأولى أن نُخلف وراءنا الصور التي برأسنا ليحتفظ بها غيرنا... ليس من السَهلِ الإفشاء لأي انسان نصادفهُ

فهذه مجازفة، ولكن من نختاره لترك أسرارنا معه هو من يُؤتمن عليها... فلا تقاطعني يا صاحبي لأن الوقت يسرقنا والشوق بداخلي يُصْليني وإذا لم أُفْشِ غليلي منه فسوف يحرقني فلا تقاطع...

قال صالح بانفعالٍ بالغ.

- بح وأفشِ غليلك كليّ أذان صاغية ولكن لا تلمني إن احترقت معاك!

أجاب إدريس وتجاهل نداء بحار كان يُشير إليه...

- ماذا كنت أقول لقد أنسيتني...؟

وضَعَ صالح كفَّ يدهِ على فمه علامة التزامه بالصمت... ولكن لم يدّم صمتهُ فقال:

- كنت تتحدث عن علاقة ما بين جوري وشعورك لأول مرّة تطارحها بأنك مع فتى تعرفه من الحي، أظنّ هذا ما سمعته.

تنهد صالح وأردف دون أن ينظر في عينيه، إذ وَجَّهَ بصره نحو الأفق حيث كانت الشمس بأشعتها الباهتة تُنبئ عن يومٍ هادئٍ يَبرد من خلاله موج البحر.

- اعذرني على تشبيهي هذا ولكنه لم يَدمّ طويلاً، بينمّا كنتُ بإحدى الليالي الشتائية الباردة معها بالفراش أحاول استمالتها إلى دفئي، إذ فاجأتني برغبتها في قطعة ثلج تَمتصُها، قالت وهي تضحك: أتمنى كِسْرة ثلج أمْتصُها أشعر بحرارة في صدري ولا يُطفئُها سوى الثلج، تخيّل صدمتي من هذه الرغبة الغريبة الغامضة التي لم تعنِ شيئًا سوى الجنون ولكن عندما حَقَقتُ

أمنيتها باليوم التالي، إذ خَرَجتُ إلى مصنع الثلج بطرف ساحل جنوب مدينة المحرق، أنت تعرف مكانه وجلبتُ قطعة كبيرة تزن ربعة أو أكثر ووضعتها تحت تصرفها، لا أنسى أن أذكر كم حَرِصتُ عليها إلا تذوب قبل أن يحلّ المساء، فقد وضعتها في خيشة سميكة وهِلتُ عليها طبقة من الخرق ودفنتُها في صندوقٍ خشبي، حتى إذا ما حلّ المساء وفاجأتها بقطعة الثلج رأيت وجهها وقد تَوَرَّدَ وعلتْهُ ابتسامة نادرة ترتسم، كانت أجمل ابتسامة رأيتها فيها منذ عرفتها...

صَمتَ لوهلةٍ وبدا مترددًا في الاسترسال مما دعا الآخر إلى النظر في عينيه وكأنه يشجعهُ على المضي بالبوح.

- ما سأقوله يجب أن تنساه الآن وتمحوه من ذاكرتك إدريس لأنه أمر لا يعنيك ولا يجب أن تفكر فيه حتى بخيالك.

- كيف أتحكم بخيالي صالح؟

سأل إدريس

- بالبحث لكَ عن فتاة تغني خيالك.

ردّ صالح واستدرك...

- لو كنتَ مكاني وجَرَبتَ لهيب الجسد بليلة شتاء وأنت تتضور من جوع مصدره شغفك المجنون، لرأيتَ أن امرأة تمتص الثلج في الشتاء ثم تَحْفرُ لسانها في فمك لن تشعر سوى بالنار تلتهمَ جسدكَ كله وتحفر فيه شهوة لا طاقة بك لتحملها غير أن تنزعها منك وأنت... تعرف...

- ماذا...؟

سأل إدريس بفضولٍ بالغ.

- لن تفهم أو تدرك ما أعنيه إلا إذا مرّرتَ بمثل هذا الاختبار الشيطاني.

قال ذلك وضحك ثم أردف...

- لهذا أوصيك لو جرى لي ما لا يُحمَد عقباه أن توصل الأمانة إليها فهذه الجوهرة التي بحوزتك، جائزتها الكبرى وتستحقها على كلّ يوم قضيتهُ في جنةِ نعيمها... هذه المرأة إدريس هبةٌ من السماء ولا أفهم كيف فَلتَتْ من كلّ الرجال وصارتْ من نصيبي... الله يحبني وإلا ما وضعها في طريقي صدفة.

- هل هذا كلّ شيء صالح؟

- لا... هناك خلف الحجاب ما لا يقال لمصلحتك؟

قهقه إدريس مستغربًا قول صالح، كان وجهه يَنمّ عن رغبة فضولية فضحتْ ملامحه المُتوَرّدة وهذا ما دفعهُ للسؤال...

- نورني... لا خبرة لي بالنساء حتى إذا ما التقيت بواحدة أفهم أسرارها.

هذه المرّة قهقه صالح ونهضَ ينفضُ عنه رذاذ بقايا من كسرةِ خبزٍ يمضغها، كان قد سرَّبها له أحد الصبية مما يُخْبز خصيصًا للربان.

- ستتعلم بنفسك فكّ الألغاز وكشف الأسرار عندما تجد نفسك في فراش دافئ وحولك جسدٌ نضر ملتهب سيخفق قلبك وتزداد ضرباته كلمّا أزاحتْ المرأة قطعة من ملابسها حتى إذا لم يبقَ شيئًا سيغمى عليك.

قال العبارة الأخيرة وغرقَ في الضحك فيمّا تَجَلَّدَ وجه إدريس واحتقنتْ ملامحه وتوَرّدتْ بشرته.

- هذا كلّ شيء إدريس...

قال صالح ذلك وتهيأ للغوص.

- تذكرني وأنا في قاع البحر بعد قليل، كما سأتذكر أنا بدوري جوري!

بعد وقتٍ قصير من تفكيرٍ عميق وتأملٍ سرح خلالهُ صالح بعيدًا، قفز فجأة إلى البحر...

# 22

المكان-السفينة ريحانة-الوقت-عصرًا-الحالة-عناقيد الشيطان

قفزَ إدريس من مكانهِ وبيده الحَبْل وراحَ ينزلقُ بسرعةِ الهاوية التي تبتلعُ الأشياء، حتى أنه شعر به ينْخرط من قبضةِ يدهِ أسْرعَ ممّا كان بكلّ المرات السابقة التي وَثبَ فيها صالح للبحر... كان قد رافقه في كافةِ أسفاره البحرية وعَبَرَ معه مراكب الصيد وخدمة المقتدرين بتوصيل الحاجيات... رافقهُ منذ الطفولة بمغامراتِ اللهو والعبث في الطرقات والأَزِقَّة وارتياد الأماكن الخطرة كالبيوت المهجورة والخرائب المُكْتظَّة بالكلاب والقطط وملاحقة الأخطار، تعلم منه المجازفة رغم عدم تَنمُّر الآخر مثل الكثير من رفاق الحي بالأحياءِ المجاورة. جالَتْ برأسِ إدريس تلك الخواطر الزمنية وهو يرْبط بين ما سمعهُ للتوَّ من صالح وقفْزَة الآخر الخاطِفة إلى البحر وتَحَسّسهُ بذات الوقت الدانة النائمة في جيبهِ والتي نسيَّ أن يضعها في صِرّةِ ملابسه حتى لا تسقط منه... أخرجها بعد أن تأكد من بُعْدِ البحارة عنه ووضَعها في راحة يده التي ارْتَجفَت حالمّا لمحها هذه المرّة بدقةٍ وتفصيل ورأى فيها جوهرة لم يَسْبق أن رأى مثلها حتى بأحلامه. سَرح َبذهنهِ المُتَقد ويدهُ ما زالت ترتعشُ وبها الدانة. تنهّد وغرق في أفكارهِ مع صوته الداخلي...

"انزلقنا نحن الإثنين بصدفةٍ خاطفة في قاعِ مدينة المحرق المُكْتظّةُ بالكائنات الغريبة، التائهة، يختلفُ فيها بعض السكان أمثالنا، عن القطط والماعز والكلاب الضالّة، كانت المدينة وحصريًا جنوبها المُسمى بحالة بو ماهر، مرتعًا لنا نحن الكائنات الساكنة في قاعِ الهاوية، رأينا نور الشمس فقط في النهار، وبالليل حَيّينا في ظلمةٍ حالكة، حتى تَنْعَم علينا الليالي بضوءِ القمر بضعةِ أيام من الشهر، وفي الشتاء يَسْكنُنا الظلام، عندما تبتلعُ الغيوم ضوء القمر، لا نحوز على مصابيحٍ ولا حتى شموع".

حكَّ قدمه وتحَسَّسَ اللؤلؤة في جيبهِ وعادّ يستعيد صور حياته مع رفيقه صالح بتلك الأيام التي صادفَ فيها وضَرَبَت البلاد موجةُ فقرٍ وعوزٍ وجوعٍ، سبَّبها ركودٌ رافق عشية اندلاع الحرب الكونية الثانية...

"كأطفالٍ ونحن بسِنٍّ مُبكِّرة، وُلِدنا صدفة، كمّا هي ليالي القمر، على مسافةٍ قصيرة مداها البحر واليابِسة، وُلِدنا وعشنا في مياهٍ دافئة، مالحة، نادرًا ما كنا نحوز المياه الحلوة الصالحة للشرب، ثم تزحلقنا منها للحياة مع رذاذ الضوء، خُلِقنا من ضوءِ الشمس وملح البحر وأزِقَّةَ مدينة المحرق الرمادية التي يَكتنفُها الضباب في الشتاء والرطوبة في الصيف والغُبار في الخريف، تألَّفَ عالمنا الصغير الجميل رغم الجنوح للفقر والوحدة وفقدان العائلة... جئنا من فراغٍ! وعشنا في فراغٍ أكبر... لا أب ولا أم، ولا أخوة، من أين جئنا؟ لا نعرف"!!

أفاق لوهلةٍ وراح يتَحسّس الحَبْل بأصابعِه، تلقى جواب صاحبه من خلال إشارةٍ مُتَّفقٌ عليها... مفادُها سيبقى فترة في القاع... عادّ وتذكّر الأحلام كيف تُصْنَع من مجازفةٍ... تساءل في داخلهِ: كيف أصْنعُ حلمي؟ ثم عادّ وغرق مع صوته الداخلي...

"وُلِدنا هو وأنا من قلبِ عالمٍ مكتوم، مجهول، لا يدركهُ من لم يغْشهُ، حَيّينا في سديمٍ أشبه بيومِ القيامة، حيث يُولد الإنسان وهو يبكي، ينتهي به المطاف وهو يبكي نفسه، هذا هو عالم الفقراء المقطوعين من شجرةٍ للعائلة، نَعْبرُ الولادة، نخرج للنور، تبدأ خطواتنا الأولى، نحياها بتلقائيةٍ، لا مكان لطفولةٍ مُدَبرٌ لها ولا تنشأ طفولة تَتَلبَّس فينا، تَترعْرع حياتنا الصغيرة من هواءِ البحر والزمان والمكان الذيّن نقطنهما. نستطلع بفضولٍ كفُتُوَّةٌ المخاطر من دون حذر، من دنيا صغيرةٍ محدودة هي مدينة المحرق، وجنوبها فقط، كنا نظنّها العالم كله، من هذه المجازفة الجاذبة تُشْرع نافذة نطُلّ منها على عالمٍ وردي، ثلَّة أطفال مُهمشون شرسون، يلتقون، بعضهم بعضاً في حيٍ مُدقِع. لَمَّتنا طفولة جزافية من عدّةِ أحياء فطرية، بلا تأهيل لمواجهة العالم الخارجي الذي لا نَعرفُ عنه شيئاً وتوّحدنا مع أشياء بسيطة، سطحية، سرقنا دون ضمير لأننا وُلِدنا بلا شجرة تحضننا جذورها... خضنا المجازفة بأعمارنا الصغيرة من دون عقلٍ أو تفكيرٍ بأن هذه المجازفات قد تقودنا لحتفنا. خرجنا صغاراً للبحر من دون رقيب، من دون تنبيه، من غير معرفة بأسرار البحر ودوائر الخطر فيه، داهمنا الخرائب المهجورة، تجسّسنا على الدور

المشبوهة، تسَرّبنا إليها ولعبنا مع الكلاب الضالّة... تسلّلنا إلى سراديب جراء صغيرة من دون أن نعرف دفاع الكلاب عن جرائِها أين يقود؟ كنا هدفًا للموت لأكثرِ من مرّةٍ، مات بعضٌ منا غرقًا وما بَرحَتْ وجوههم الصغيرة النَضِرة تُلاحقُنا، عالقة حتى اليوم رغم عبورنا للزمن. هكذا زُرِعنا في الطرقاتِ وعلى السواحل وفي الخرائب ننبتُ كمّا يَنْبتُ الفطر في الصحراء، كلّ الأخطار كانت تُحيقُ بنا ونحن بأعمارِ السابعة والثامنة والعاشرة، تاهَتْ خطواتنا ونحن ننمو ومن حولنا تترصدنا المخاطر، بِحارٌ مجهولةٌ نخوضها دون معرفة بأسرارها، وطرقٌ مفتوحةٌ نقطعها حتى الأسواق، منازلٌ وبيوتٌ كبيرة خربة ومهجورة نرتادها، وكلابٌ مسعورة نحتضنها، كلّ هذه المغامرات خرجنا منها بمعجزةٍ من دون أن تُصيبنا الحوادث المُميتة كما وَقَعتْ لغيرنا من نفسِ الأعمار.

كانت مدينةُ المحرق التي احتوتنا صبية، هي عالمنا بأسرِهِ، عشنا تحت سمائها الرمادية ونَكْهة بحرها الأزرق الذي تبدو سواحله مساحة رحبة تتسع لأحلامنا... وها أنا الآن أفكر فيكَ يا رفيقي وقد تحقق حلمك من دوني!".

تَجّمَعَ عددٌ من البحارة يعدون صررهم ويحشونَها بمقتنياتهم، تنتابهم موجات سعادة تَرْتَسم على وجوههم وتكشف ملامحهم البهيجة غبطتهم، كانوا فرحين بقربِ العودّة وكان إدريس يُحدقُ بهم ويتَخيّل عودته خالي الوفاض من حلمٍ كحلمِ صديقه صالح، وفيما هو يتأمَّلهُم ويده على الحَبْل، إذا فجأة انْبَعثَت معركةٌ بالأيدي وتعالتْ الأصوات بالسِبابِ والشتائم بين عددٍ

من البحارة، جَرَّ ذلك انتباههُ وجعله يُخمن سَبّب ذلك الشجار المُباغت الذي ظلّ مستمرًا بشدّةٍ بين بعضهم فيمّا حاول البعض التدخل لِفكِّ المعركة، التي شَغلَتْ انْتباهه.

- اخْتَصِموا على أحلامكم الضائعة.

قال ذلك في سرِهِ وعادّ يَنْصتُ لبقايا الواقعة التي توشك على الانكفاء...

- لو كنتَ هنا صالح لَرَدّدتَ عبارتُك المعهودّة، الصلاةُ محَبَّة لا تؤديها ما دامَّ قلبُك مشحونٌ بالحقْد، لكن الصلاة جَلبَتْ لك الدانة من دونِ أن تُصلّي، الله الذي طالمّا لمْتهُ على تجاهله لك ها قد مَنَحك حياة عظيمة. أنت الآن بقاعِ البحر تْطْمع في لؤلؤةٍ ثانية، هذا طمعٌ يا صاحبي وقد كَشَفْتَ عن جشعٍ مختبئ في أعماقك، ظّنّنتُ أنك ستكتفي بهذه الجوهرة، تُرى ماذا وَهَبتكَ جوري من هِبةٍ جعلتك تفكر بلؤلؤتين بَدلاً من واحدة...؟ لا شكّ أنها مَتَعتكَ ورَأيْتَ منها ما لا يُخَيَّل... ما الذي مَنَحَتكَ إياه لِتُجَنَّ بها كلّ هذا الجنون؟

ظلَّ يتَحسَّس الدانة بين فترةٍ وأخرى ويُفكّر بجوري وبالمحرق وأزقتها وعودتهِ للمقهى طوال اليوم، وتسكعه على السواحل، تَخَيَّلَ صديقهُ الذي سَيهْبطَ اليابِسة ومعهُ جوهرتين يَفلت من خلالهما من فَقرهِ.

- تُرى صالح، هل نخرجُ معًا كمّا اعْتدنا؟ هل سَترافقني للأماكن التي اعتدنا ارتيادُها؟ أم ستغلق عليك الدار وتختبئ في فراش جوري تَرْفّه معها

بالنعيم وتهجرني كي ألوذَ من مقهى لآخر وحيدًا ومن ساحلٍ لمرفأ؟ ماذا ستفعل بك اللآلئ يا صاحبي؟ قد تُغيّرُك وتنسى إدريس...

بعد أن هدأ صوت الشجار بالركنِ الآخر من السفينة، وتَبعثَر الرجال، إذا ما بَلغَ الأمر الربان واستدعى المتورطين. حَسَبَ إدريس المدّة التي هَبطَ فيها صالح إلى القاع وأدرك أنه لم يَمْضِ وقت طويل كما تَخيَل، رغم كلّ ما جرى حوله... فَهَمَ أن الوقت بدأ ينفذ منه ومشاعره مع أفكاره راحتْ تَخْتلط مع هواجسه الغريبة الغامضة التي تجتاحهُ لأول مرّة بحياتهِ، أحسّ فجأة بنوبةِ ذعر سارعتْ برفع دقات قلبه... رأي وجهَ صالح وهو يَهبط من السفينة بمرفأ جنوب مدينة المحرق عند الساحل وقد تجمع الناس، نساءٌ وأطفالاً وشيوخًا يحيطون ببحارة سفينتهم ريحانة وقد طوقوهم وراحوا ينثرون عليهم الورد والمشموم... مَيّزَ وجه جوري وقد اِزدانَ وتوَّردَ وبدت فائقة الفتنة، أبصرها تَمْسك بيد صالح وتسير معه كمّا فعل الجميع، إلا هو وجد نفسه على ضفة المرسى يحمل صرَّته على كتفه وحيدًا دون أب أو أم أو زوجة أو شقيق أو شقيقة... لا يوجد من يعانقُه أو يمسك بيده ويسير معه، ظلَ معلقًا نظره نحو صالح الذي مضى مع جوري دون أن يَلتَفتَ نحوهُ أو يُلقي عليه تحية وداع!

- ما بالُكَ يا خليلي هَجَرْتني وازَحْتني من حياتِك ومضيتَ مع زوجتك؟ أنا إدريس الملا الذي لا أحد له في الدنيا سِواك، حتى لقبي الملا اُلْصِقَ بيّ قسرًا من خلال الملا راشد الذي تبنى تلقيني القرآن وعندما لم يجد ما

يناديني بهِ من لقبٍ منحني كنية الملا ليزيح عن كاهلي شعور النبذ، اِمضِ مع جوري زوجتك الجميلة وأتْرك لي الحَسْرة، لقد وثقتُ بك واعتبرتُك خليلي وها أنت تهجرني... لا ألومُك ومعكَ هذه الحسناء التي سَتَرْوي عطشك بعد أن ترى جائزتها الكبرى بين يديها...

- قلْتُ لك تزوج امرأة ولم تَسمعُني، نصحتُك مرات عدّة ولكنك فَضَلتَ المقاهي والتسكع على السواحل وبين أحياء المدينة.. لو سَمَعتَ نصيحتي لكنت الآن بين يديّ حسناء هي الأخرى تصحبُك مثلي ولكن...

تخيَّلَ ردّ إدريس، فأثارَ ذلك خيالّهُ الذي حَلَّق به بعيدًا...

- غَدَرْتَ بيّ عندما ازحتني عنك وهَربْتَ، ليس ذنبي أنني لم أتزوج... لقد كنتُ لك خيرُ نديم ورَغْبْتُ فقط في بقائك معي ولكن يبدو لي أن صيدك الثمين وظَفْرُكَ بجوهرةٍ ستجعلك تعيش مع جوري بترفٍ وفي بهجة.

- هل ذنبي إدريس أن أفوز بقلب امرأة وأكسب لؤلؤة؟ لقد سَعيْتُ مع حلمي وجْلَدتُ صبري حتى أفوز، هل تلومني على ذلك؟ أم تحسدني على جوري؟ قلتُ لك تزوج مثلها...

أَجَّجَ ردّ صالح خياله فَردَّ ساخطًا...

- أين سأحظى بامرأةٍ مثلَ جوري؟ لقد وصَفْتَها لي وشَخَصْتَها بل وصَوَّرْتَها كمّا لم يمُرَّ بخيالي وصفُ لامرأةٍ مثلها... هل تظنّ أنني سأفوز بمثلها؟ لقد تعاهدنا من دون اتفاقٍ بوعدٍ عُرْفي بيننا أن تَظَلّ صداقتنا للأبد لكن يبدو أنك ابتعدتْ وذهبتْ بطريقك مع جوري وتركتني...

صمتٌ... تلاهُ صوت الموج وهو يَرجَّ السفينة أيقظ إدريس من خيالهِ الذي سرحَ به، نظر للماء فوجده يتثاءب وشعر بوخزةِ الحَبْل تُنبّئ عن صوت من الأسفل يسْألهُ، كان صالح قد توافق معه على إشاراتٍ بالحَبْل يَهُزّه له ويُحركه بحَسبّةٍ بينهما، تكون على هيئة حوار، يفهم من خلاله كلّ منهما مراد الآخر... شعر إدريس بأن صالح يُنبِهُهُ لمسألةٍ بينهما ولكن عادّ وسرح في خياله متجاهلاً الآخر...

"عَرَفتُ مدينة المحرق بأفيائها الدافئة الساكنة... رأيتُ وجه نسائها وفتياتها ولم تثْر فيّ إحداهما شيئاً يُذكّر، تسكعتُ في طرقاتها الضيقة والعتيقة والهَرّمة ورأيتُ الكثير من البيوت المُعدَمة والضبابية، تدخل وتخرج منها النساء ولكن لم تثرني أيٌ منهن، حتى سمعتُ وَصْفُكَ لجوري واسْتلهَمتُ صورتها التي حَشَرتها في خيالي وامْتَزجَت في مشاعري وشاركتني الخيال والأحلام، فَعَبثتْ بعقلي، فَصرتُ أحلم بها كلمّا أغْمضتُ عيني... هل هذا ذنب إدريس؟ أم أنت الذي أغرقني بالوَصف في أدق التفاصيل وجعلها تتَسلّل إلى عقلي وتُغْرس فيه ولا تستطيع الخروج منه؟ عندما جئنا منذ شهور أربعة مُنصرِمة وحتى اليوم الأخير بعد قرب نهاية الغوص لم أسمع من صالح سوى حديثهُ عن جوري وانْصاتي له حتى لم يتبق ما لم يصفه إلا سروّالها الداخلي الذي تخيّلتهُ مرات عدّة بأحلامي وبيقظتي... أربعة شهور كأنها أربع سنين وأنا أسمع وأُخزنُ الصور في رأسي ومن قبلها أبصرتها مرات عدّة بملابسها الفضفاضة وهي تَكنسُ وتغسل وتُسفَط السّمك وتُشويه ولم

ألمَس أي من المشاعر نحوها سوى الآن بعد أن غرس ذلك، زوجها بوصفها وتشخيصها بالتفصيل الذي لم أتوقعه... زرَعَ في عقلي صورة امرأة لم يسبق أن حَلِمتُ بها ولا تخيّلتُ يومًا سألقاها، ثم زادَ من ذلك بروز شهوةٌ غامضة تجاهها، ولشدّة ما شعرتُ بتأنيبِ الضمير وأنا أتخيّلَها كأنني أخون صاحبي... لكن الصَّبرُ والتجاهل والضَّمير، كلها مشاعر، تلاشَتْ تدريجيًا حين أبْصَرتُ لؤلؤةٌ ثمينة بين يديّ ستجعل من علاقة جوري بصالح قصة تُروى مع قصص الغرام... هل هذا خيالي؟ أم جنونٌ انتابني؟ أم هو واقع أصبَحتُ فيه؟"

- هل ما زال صالح في البحر؟

سأل أحدُ البحارة وقف فجأة بجانب إدريس.

- كدأبهِ لا يشعر بالوقت...

ردّ وقد تجاهل أنه سمع إشارة من الآخر تحت الماء... لم يشعر بأنه أذِنَ له لسَحبهِ ولكن تَخيّل أنهُ يطلب مزيدٌ من الوقت، كانت الإشارة غامضةٌ هذا ما خُيِّل إليه!

- هذا الجني لا أُصدق كيف أقنعَ الرُبان سليمان بمنحهِ هذا الخيار دون غيره... ماذا أخْبرَ الربان حتى يُجيز له هذا الحق؟

قال البحار الذي يَمضغُ شيئًا أسفل حنكه بحدّة وكأنهُ يُفْرج عن شعور ما يعانيه...

- إذا لم يُجِبكَ اسْحبهُ بنفسك دون انتظار إشارة منه، لقد أزَفَ العصر وسوف يَرْفَع خميس الأذان بعد قليل والجميع يستعد للرحيل عند الفجر...

قال الرجل وانصرف...

تَذكَّرَ إدريس أن صالحًا لا يستجيب للحَبل إلا إذا شعر بنفسهِ بالرغبة في الخروج، يستطيع أن يُبادرْ ويسحبهُ ولكنه اعتاد من الآخر أن يترك الحَبْل يزْربْ حتى نهايته قبل أن يستجيب للآخر فوق سطح السفينة.

- ماذا أخبرتني صالح قبل قليل؟

سأله وكأنه بقربهِ يَسْمع ما يقوله... فعل ذلك حتى يشعر بالرضى من نفسه ويتجاوب مع شعوره بالإرضاء الداخلي...

- أنا لا أسمعك صالح...!

عادَ طيف جوري وهيْمَنَ على عقلهِ، كما سَيطَرَت الجوهرة التي بجيبه على ذهنهِ الذي بدأ يتشوّش، شعر بارتباكٍ وبدأ تفكيره يتَوّزَع بين الساحل والمرفأ والاستقبال وبين صالح الذي يربض في القاع وفوزه باللؤلؤة وعناق جوري لهُ... اخْتلَطتْ الصور بداخل رأسه ولم يعد يُسيْطر على أنفاسه التي بدأت تتصاعد وبدأتْ معها دقات قلبه تخفق بسرعةٍ... جوري... مرفأ السفن... جموع تلاقي البحارة... غشى الضوء عينيه وشعر بأن عقله ينغلق ولا قدرة له على التفكير...

- ماذا يختبأ في رأسك إدريس ولا تجرؤ على التفكير فيه؟ ثمة غموض يكتنف أعماق روحك وتحْبسَه ولا توَد تصديقه؟

سأل نفسه وعادّ يسترسل...

- اسْتعذْ بالله ومن إبليس!

قال ذلك ولكن لم يسْتَطع الهَيمَنة على أفكاره، لقد فَقدَ السَّطْوَةُ عليها وراحتْ تغزو عقله وتنْخر فيه... حين صَدحَ صوت مبارك، بَدَّل خميس بأذان العصر، عاوَدّتهُ الأفكار المشوشة...

"جوري... جوري... مثل ألم الضرس الضاري ينتابني، ماذا فَعَلتَ بيّ صالح؟ لماذا غَزَّوتَ عقلي ورسَمتَ فيه لوحة لجوري؟ هل تَعمَدتَ ذلك لإثارتي؟ أم لتتباهى بها؟ ولكن اِعْلَم أنك بِفعْلتك هذه قد سَمّمتَ عقلي ودَسّسْت فيه خوالج أخشى أن يكون من بينها الشيطان... أنتَ لم تتباه بالمرأة فحسب بل أشْعَلتَ فتيل النار، فجأة لا أعرف كيف انْفطَرَ قلبي وتَخلَّلتهُ اِمْرَأتك... لن أبوحَ بحجمِ النار ولا بسَعيرها بداخلي... إنك صاحبي تغوص هناك في القاع وأنا أغوص هنا في الهاوية... لم تتركْ لي خيارًا... "

- استعذ من إبليس إدريس...

- تُرى هل هذا صوتي أنا إدريس الملا؟ أم صوتك صالح الزري؟ لقد اخْتلَطت عَليّ الأصوات ما عدتُ أُرجح صوتي من صوتك...!

❁❁❁

# 23

المكان-تحت الماء-الوقت ضبابي-الحالة-عناقيد الصَمتْ

في عمقٍ مُسْهبٍ، من غاباتٍ ومغارات، ورؤوسٍ حجرية... عند تُخومُ متناهية الجذور أسفل الماء، مدينةٌ من الأمواجِ والتلال والصخور والأحرش... أسماكٌ وقواقعٌ ومحار وأحلامٌ وخيال، اجْتمَعتْ كلها في بوتقَةٍ من الأنوارِ المُضيئة كأنها الفضاء الخارجي... تلك المدينة البحرية التي يُشبه لونها لون الثلج الذي عرفهُ صالح لأول مرّة بحياتهِ، تراءى له قاع البحر في تلك الثواني من الوقت وهو يسبحُ فيه كأنه يُماثل من يُحَلقُ بالفضاء... لا حدود للخيال ولا نهاية للحلم ولا شعورٌ بالوحدة... هو والبحر والكائنات والغابات يتَنفسُ الهواء رغم اِنْعدام الهواء تحت طبقات الماء... وَقفَ الزمن! عند حدود الأحياء الساكنة والمُتحركة... أسماكٌ متباينة الأحجام، صخورٌ مغروسةٌ في الأحراش برؤوسٍ مُدَبَّبة... دنيا الله الثانية تحت الماء...

ظلَّ صالح يِنْتقل من حفرةٍ إلى صخرة، ومن رقعةٍ لأخرى بسرعةٍ خاطفة وكأنهُ يُسابقُ الوقت، فقاقيع الماء تَملأَ المحيط، وأصابعهُ تتحركْ بوتيرةٍ

حثيثة، وجسدهُ النحيف يَتَموَّج برشاقةٍ متناهية، سَلّة جَني المحار تتدلى من رقبتهِ، خشبة الفطام تَسدُ أنفه، وفمه يَلفِظُ الأنفاس، سروّالهُ انْتفخَ وقد اِمتلأَ بالمياه، بقبقةٌ في هيئة رذاذ الماء، تتصاعد للأعلى، يَتَلَفَّت يمينًا وشمالاً، عيناهُ مفتوحتان على سعتهما، يتَفوّقُ في حركتهِ الرشيقة على حركة الأسماك، ويَنعكسُ ظلّهُ في القاع فيبدو كأن هنالك غواصًا آخر يُسابقه...

"سأفْرِدُ لكِ جوري جنة في القلبِ وسأحملُ لكِ الهدية والحبَّ وأرْكعُ عند قدميكِ الداميتين من كثرةِ مشْيُكِ حافية... لو تعلمين هذه اللحظة كم تعني إلى صالح... لو تعلمين أن الهواء البارد الآتي من سطح البحر، يغور قبل أن يَنْفُذ إلى أعماقي بنَّكْهتِ الفراق... لو تعلمين جوري مدى... ".

فجأة شَعرَ باخْتناقٍ لومضةٍ... تخَلَّلَ الماء صَدرهُ وتَسلَّلَ لرئتهِ، تَوقفَ عن البحث ورفعَ رأسه للأعلى كمن يتنفس... اجْتاحتهُ نوبةُ خوف من حدوث شيء له، لم يُبادِرَ بِهزِّ الحَبْل... انْتظرَ وهلة للتأكدِ من أنفاسهِ وقدرتهِ على التَحَمُّل.

- ماذا جرى لي فجأة؟ هذه أول ُمرة يحدث معي ذلك... اِنْزعَ الخوف عنك صالح، لَعلَّهُ هو ما تَسَرَّب إلى نفسك وأوقعَ بك... اِهدأ!

خاطبَ نفسه وقد توقفَ عن صيد المحار... بدا له وجههُ في مرآة البحر مُضْحكًا، أراد أن يبتسم ويبعد شعوره بالخوف. زَفَرَ وحاول طرْدَ الأفكار المشوشة من رأسهِ...

- لا تخف صالح أنت بأمانٍ طالمّا تغوص في البحر، الخوف يأتي من اليابِسة، هناك يأكلُ الناس بعضهم البعض، أما هنا فالكائناتُ مسالِمةٌ هادئة، ما عدا سمك القرش الذي يشبه الكائنات البشرية في العدوانية، أمَّا أنتَ أيها البحر لا تجعلني أُصدق ما يُقال عن غَدرُكَ... الغَدْرُ طبيعةٌ في البشرِ وليس في البحرِ... البحرُ فيه الخير والوفاء وال...

صمتٌ... اجْتاحَته نوبةُ خوف ثانية، أعطى إشارة استعداد لصديقه فوق السطح، جاءهُ الصمْت لا جواب من الحَبْل...

- تُرى أين أنت إدريس؟ لماذا لا تُجبْ على ندائي؟ لعلَّكَ مُنْشغلٌ بتنظيفِ قدميك كعادتك المُزمِنة، أو لعلَّ هناك من البحارة من يقف على رأسك ويُشاغِبُكَ بالكلام ويلهيك عني... أعرفُ أفكارك صاحبي رغم حرْصكَ عَليّ لكنك تَسرحُ كثيرًا وتفكرُ، ربمّا شغلتكَ اللحظة فكرةٌ عابرةٌ نزَعتكَ من على سطح السفينة وطارتْ بك لمدينةِ المحرق وحِمْتَ مع نَزْعاتُك بالمقاهي وفي الأزِقَة، ثَبتْ انْتباهُك معي فأنا أمرٌّ الآن بحلقةٍ ضيقة ونَفَّسٌ مُتقطع لا أعرفُ مصدرهُ... هذا يحدثُ لي أول مرّة منذ داوَمتُ على الغوص... يبدو لي أن الرسالة تقول اِكْتَف بما لديك صالح.

حاور نفسه وشعوره الغامض بالاختناق، رغم أنهُ لم يبْلُغَ بعد المرحلة الحَرِجَة التي تَفرضُ عليه سحب الحَبل والخروج من الماء... اكتفى برسالةٍ تحذيرية لإدريس ليوقظهُ بأن يتأهب لأي إشارة منه بالخروج... أزْمَعَ التفكير بجوري لطردِ الأفكار التي تشوشه وعلَّلَ الحالة التي يمرٌّ بها بأنها نتيجة

شعوره بالبرد في الماء وإحساسه بأن هذه الطّلعَة إلى القاع هي طلْعتهُ الأخيرة التي بعدها سيشدُ الرحال إلى اليابِسة حيث بانتظاره جوري ومعها والدتهُ رقية العمياء التي ترد إلى ذهنه كلمّا فكّر بما يجري الآن بينها وبين زوجته، فالعلاقة بينهما متوترة والعجوز دائمة التحرش بالزوجة وتفتعلُ المواجهات لشعورها بأنها أقرب إليه من الزوجة، لكن ثمة تفسيرٌ آخر وهو محاولات رقية الدائبة بِزرعْ الشكوك في رأسهِ حول غموض حياة الزوجة التي ربطتها بها منذ فترة ما قبل الزواج...

- لم أرَّ من جوري ما يُثير الشكّ...

ردّ مخاطبًا نفسه... وتواصل مع الأحياء المائية دون أن يَنْتزعَ مزيدًا من المحار، كانت عيناه تجولان بين بعض المحار صغير الحجم والذي لم يُغريه وبين حركة بعض الأحياء المُتحركة بتؤدّة وكأنها اطْمأنتْ لوجوده بينها، ولكن عقله ظلّ قلقًا من شعور ما ينتابه بين فينة وأخرى جعلَ دقات قلبه تتسارع وتقوده للتفكير بما يجري فوق سطح المركب الآن... تخيَلَ التحضيرات التي عليها البحارة وهم يتأهبون للإبحار عند الفجر... تخيّل الرُبان سليمان وقد بدأ يصدرُ أوامره هنا وهناك... عَبَرَ نحو رائحة السّمك وهو يُشوى مع الرُزّ، تساءل عن وجبة الليلة... هل هي الرز المُحمّر أم رز أبيض؟

"ترى كيف ستلاقيني جوري لحظة وقوع بصرك عَليّ؟ هل سترتدين فستان عرسك الأبيض الوحيد أم ستلبسين واحدًا من أثوابك الثلاثة التي تحوزينها منذ أمد بعيد، أفضلُ ثوبكِ الأزرق بلون البحر... وأتمنى رؤيتكِ

بعد هذا الغياب الطويل وقد سَرَحتِ شعرك وطَرَحتيهِ على كتفيكِ بدلاً من طيهِ فوق رأسك... لا أُفضلهُ عندما تجْدُلينه، تخفين بهذه الوضعية جماله... أتَطَّلع لرؤيَةِ المفاجأة على عينيكِ المُسْبلتين بعد النوم أو إثر التعبْ الذي يَلمُّ بكِ بعد يوم شاق... ما وَقْع رؤيتكِ للدانة؟ هذه أجمل وأشَدّ لحظة أنتظرها... هل تصدقين جوري وأنا الآن تحت الماء وفي قاع المدينة المائية المُكتَظّة بالكائناتِ أرى طيفُكِ وأشعرُ بأنه يحميني ويجعلني أحرص على البقاء حيًا لأعودَ إليكِ ومعي جوهرتُكَ التي حَقَقتُ بها حلمنا... لقد فعلتها جوري واصْطدتُ تلك المعجزة التي لم يبخل بها البحر عَليّ ومنحني إياها كما توقعت؟ من قال أن البحر غدار لا يعرفُ شيئًا عن البحر ولا عن أسراره، البحرُ هو سرّ بهجتي جوري وأعشقه كما أعشقكِ... ورغم شعوري في هذه الثانية من الوقت بضيقِ النفس ولا أعرفُ سببهُ أو مصدره وهو شعور لم يسبق أن مرَّرتُ به لكنني أُناجيكِ لأبقى محتفظًا بتماسكي المعهود عني وأنا بالقاع... لا أود الخضوع للخوف ولا الابتزاز من قبل المشاعر المخادعة التي تغزو أفكاري... أنا وحدي هنا والبحر وقد خلا من الغاصة إلا صالح زوجكِ يَحْتفلُ بآخرِ طَّلعَة له في القاع... بعد قليل سأُعلن لإدريس عن رغبتي بالخروج من الماء... وستكون تلك اللحظة وداعي للبحر الذي إذا كُتِبَ لي سأعود إليه بموسمٍ آخر قادم ولعلّي حينها أحظى بدانةٍ أخرى ولكن هذه الدانة التي بِجيبِ صديقي الوفي إدريس الآن، هي جوهرةٌ نادِرةٌ في هذا الموسم كلّهُ ولو عَلِمَ أحدٌ غير إدريس بها، لأنقلب الكون وتغيرت الموازين

أنها بحوزتي ولكِ وحدُكِ جوري، إنه موسمُكِ... موسم جوري الحبَّ الأزلي بحياتي".

- ماذا تفعل الآن إدريس؟ تُرى تُخرج اللؤلؤة وتنظر لها ثم تُخفيها... اِحذر أن يراك أحدٌ فينتهي الحلم.

هَمسَ في داخلهِ...

- أنا هنا في الماء وعند قاع النهاية، وحافة الغابات والمغارات... ليتُكَ تأتي وتَرّى مدينةً زاهيةً تحت الماء، لا تعرفَ ماذا يفوتكَ من حياةٍ هنا من دون أن ترى وتعيشَ هذه الومضات مع كائنات حية أوفى من البَشرِ؟ فمهمّا أصْفُ لك من تفاصيلٍ فلن أبْلَغ ما أرى من فردوسٍ يُبرْهنُ على وجودِ عوالمُ أخرى غير تلك التي نعيشُ فيها... لا تعتقد أن الدنيا هي مدينة المُحرق ومقهى عبد الرحيم، أو راديو بو سلمان اليهودي الذي أدهشنا. هنا العالم صاحبي، خَلْقٌ مُخْتلفٌ، لا يوجد هواءٌ ولا ثلجٌ ولا قهوة أو شاي. تعالَ وانظر للأسرارِ التي تختبئ في ألغازها الجواري! والجواهر... لا تظُنَّ أنني أهذي، أنتم هناك فوق لا تعيشون اللحظة التي أعيشُها هنا تحت الماء...

صمتٌ...

- إدريس... هل تسْمعُني؟

سألَ صالح، تلاهُ صَمْتٌ أطول...

- قامَ بهَزِّ الحَبل إشارة انتبه لي إني على وشكّ الصعود...

عندما يكون الغواص تحت الماء وعلى مسافةٍ هائلة من السطحِ، يتَجَمّد تفكير الرجل ويَحْبسَ أنفاسه ويسود السكون الذي يُشبهُ صَمتْ القبور، بخلاف إن القبور تمتلئ بالهياكل البشرية والبحر يزخر بالأحياء التي تتنفس... حين يَغْطسُ الغواص في القاع، ينتهي إلى دنيا غير دنيا اليابِسة... ظُلْمة ونور، خوفٌ وأَمَّلْ ورهاب وعنفوان، رجال ينغمسون في مجازفة لا تحدوها تخوم... كان صالح واحدٌ من أولئك الذين نذروا أرواحهم للهاوية، ينْزلُ للماء ويصل القاع، يقطع المسافات بين السطح والقاع بلا رعشة تنْتابهُ ولا فجوة في رأسهِ تؤخره عن مصيره... يَدْرك أن الرحلة التي تستغرق دقائق هي في مقياسِ الزمن البحري تعادل ساعةٌ كامِلة... يَعبُر الأغوار ويطوف بالتخوم، يقتلعُ الأحجار الكريمة من بين فَك الصخور... لو فتحَ قلبه وسمح لمشاعره في تلك اللحظة التي يحاصرهُ فيها البحر والقرش وانعدام الهواء مع ضيق النفس لمّا كان لوَصفهِ حدود... عندما أدركَ سِنَّ الغوص لأولِ مرّة ورأى القاع، ذَهلَ من تلك العوالم الزاخرة بالأنوار والألوان والأشكال، لم يتَخيّل قاع البحار بذلك التَكْوين الذي يُشبهُ المُدن تحت الماء... قارَنَ بين مدينتهِ المحرق والمدن التي غاص إليها... وَجَدَ الفرق في الكائناتِ، ففي المدينة هناك بشرٌ، يخونون ويغدرون ويعشقون ويكرهون، وفي البحر، هناك كائنات تشبه البشر ولكن ينْتابُها الخوف، حتى عندما تُهاجم لا تفكر بعقلِ البشر... حين يَسبحُ في القاع، يتأمل رَملَ البحر، فيراهُ ناصعاً لم يلوثهُ الوَحلُ، لا يشبه تراب اليابِسة السمج الذي تغوص فيه

الأقدام... القواقع والصخور والنتوء في القاع، لها ألوانٌ زاهية نقيض أحجار وتراب اليابِسة المُشبِّعة كلّها بالوحل ورَوْث الأغنام ومخلفات القطط والكلاب من عظامٍ وفُتات... كان عقلهُ وهو يسبح يقارن بين ما يراهُ فوق البرَّ وبين ما يُبصرهُ في قعرِ البحر، فهنا كلّ شيء صافٍ ونظيف لم يَتلوَّث بالنفاياتِ وهذا ما جعلهُ يتنفسُ هواءً غير موجود أصلاً.

بعد وقت قصير بدأ يُخامرُه الشكّ فيمّا يجري فوق السفينة، أخيرًا قرَّر الاكتفاء من حصاد المحار الذي ملئ به سلَّتهُ وقبل أن يَهِمّ بجذْبِ الحَبل وإعلام إدريس بقرارهِ الصعود إلى السطح.

- هناك لغزٌ يجري فوق، ليست هذه عادّة إدريس ولا أي مساعدٍ آخر... هل وقعَ له مكروهٍ؟

بدأ يساورهُ الشكّ... في النهاية بعد تفكيرٍ عميق وحين أحسَّ بامتلاءِ رئتهِ بالماء وسُدتْ أنفاسه، حَسمَ أمره، وتجاهل ما رآه حوله من محارٍ ناصعٍ، يُغريه بالاستمرار، قام بالخطوة الأخيرة المُتبقية له وسحبَ الحَبْل من عقدتهِ الأخيرة...

- إدريس...

نادى بالاسم في داخلهِ وكأنه يَسْتنجدُ به، فقد بدأ يساورهُ القلق لكن تبقى له خيارٌ وهو أن يسحبَ الحَبْل حتى نهايتهِ ومن ثم يصعدُ بنفسهِ إلى السطح حتى يبْلغهُ من دون مساعدة من الآخر... هذا ما يَفعلهُ بعض الغاصة المتمكنين عندما يبتعدون مسافات طويلة ويستنزفون الحَبل حتى نهايتهِ...

- إدريس... ماذا أصابك؟

صمتٌ مطبقٌ ولا حركة في الحَبل الذي بدا مرتخيًا...

- إدريس لا تمْزحَ معي! أنا على وشك الاحتقان... جسدي يرتعشُ والتعب استنزف طاقتي كلها، لم يتبقَّ سوى لحظات تركتُها لمسافةِ الصعود...

كان هذا خطابهُ في داخلهِ وقد تشَتَّتَ ذهنهُ في الاحتمالات التي جَعلتْ الآخر، لا يستجيب لندائهِ منذ مدّة، في البدايةِ اعتقدّ أنه شُغل بشيءٍ طارئ، ثم ظنّ بأنه ربما وقف أحد البحارة على رأسه وشاغلهُ عن الانتباه له. وأخيرًا ظنّ أنها مَزحَة ولكن بدأ له الأمر مُعقدًا عندما شعر بالإنهاكِ والخُوار، الوضعُ أضحى خطيرًا... وعاصفًا!

- هل وقعَ حادثٌ فوق السفينة؟ ماذا لو انتشرَ وباءٌ وأهلكَ سكان المركب؟ هل أغمى عليك إدريس ولا أحدٌ يعلم؟ لماذا الحَبل لا حدود له؟ أشعر أنه قُطع أو أُرْخِي حتى النهاية؟ ماذا جري فوق السطح بحقِ البحر والسماء؟

صمتٌ متواصل...

- إدريس... إدريس...

راحَ يسْحبُ الحَبْل دون جدوى... بدأ سخطهُ ينْهار وتبَدَّلَ لونُ البحر... صارَ رماديٌ، رأى أسماكًا صغيرة وغريبة تدنو منهُ وقد ازدادتْ حدّة الفقاعات، تبادلَ النظرات مع عيون الأسماك التي رأى فيها مُحاكاتُها لهُ،

كانت جامِدةٌ في مكانِها تحْدقُ فيه وكأنها تسْألهُ عمّا يُمكنُها أن تَفْعلهُ لهُ للخروج من زَنقَتهِ؟ مرَّ من حولهِ سمكُ القرش وتجاهلهُ وكأنهُ أدْركَ مصيرهُ ولا حاجةٌ لمزيدٍ من الضغطِ عليهِ... تغيّرتْ ألوانُ البحر فجأة، بدتْ بلونِ الثلج الذي ظلَّ يحلم به وهو بعيدٌ عن اليابِسة... تذكّرَ أولَ مرّة تذوقَ الثلج، ودَّ الآن لو يذيبه بين فكَيهِ ويَمْضغهُ بين أسنانه التي قبَّضَت على أنفاسهِ في هذه الدقيقة الحَرِجة... رأى في حركة الأسماك حديقةٌ زاهية بالأشكال والألوان تشعُ منها رقصة الأسماك حوله كأنها تزفه في عرسٍ خيالي... زادتْ رغبتهُ في الثلج من دون أن يدرك سبَّب هذا الشغف المُباغتْ بالثلج وهو في قاع الهاوية من الماء... هل يتَجَمَّد البحر ويتحوّل لثلجٍ يُلبي عشْقه به؟ راح يصفعُ الرَمل بيديهِ ثم صعدَ خطوات فوق الماء فوجدهُ ثقيلًا وضاغطًا لم يقوَ على الصعود أكثر...

- جوري بربكِ أغيثيني كي أفيئ إليك فمعي دانتكِ وهي بِحوزة إدريس...

صمتٌ تكْسره ذبذبة فقاعات الماء... صَمتٌ أخْرسْ... فجأة رأى حولهُ عناقيدٌ من الثلج تَتدَلَّى، فابتسم وأدْركَ أنه اقْتربَ من تحْقيقِ حلمهِ...

❁❁❁

# 24

المكان-مدينة المحرق-الوقت-قبل يوم-الحالة-عناقيد النار...

بينمّا كانت جوري مُتردَّدة ُبالذهابِ لمنزلِ دلال القوّادَة، خائفةٌ وعاجِزَة عن ملاقاة أي من صيادي النساء الضالّات والمعوزات، تناسَتْ رغبتها باقْتناءِ فستانٍ جديد وسروالُ بدَّلَ سراويلها المُهترِئة منذ سنين، حتى أنها خاطَتْها مراتٌ عدّة وتسَلّلتْ خيوطها بعد كلّ فترة من استخدامها. كانت تُفكر فقط بأمرينِ رأتْ فيهمّا ضرورة، حتمية تدبير المال بأي وسيلة لإتْمام ما أزْمعتْ التحضير له مع عودّة زوجها الذي تأخر، وكان كلّ يوم يمرّ ولم يظْهر في الأفق ما ينبئ عن عودّة سفينتهم، تبْرز لديها رغباتٌ وحاجات متزايدة لتأمين ذلك الأمرين الشديدي الأهمية، الأول توفير مؤنة غذائية بالدار حتى إذا ما حَلَّ صالح بعد غيابٍ موحش، يجدُ ما يأكلهُ... هي تَعْلَم منذ مَوسِم الغوص المُنصرم، قبل زواجهما أنهُ، أتى خاوِي الوِفاض، ليس معه قرشٌ واحد لأن محصول الغوص من المال لا يوّزَع إلا بعد فترة من الرجوع. هناك حِصّةٌ من المال تُمنَح لهم في بدايةِ كلّ موسم، ويُطْلق عليها "تْسْقام" وهي سُلْفَة مالية تُحَدَّد بشروطٍ احتسابها من أجْرة البحار، وحتى هذه الحِصَّة حُرِم صالح من نصْفهِا المعهود بسبَّب الضائقة المالية في البلاد قبل موسم الغوص، لم

يكْفِهُما المبلغ الذي اسْتَلفَه لسَدِّ حاجتها مع والدتهُ رقية إلا لأسبوعٍ يتيم بعد اِبْحاره... فكّرتْ بأنه سيعود غدًا أو بعده ولا يملكُ شيئًا، ولا تَحْتمل رؤية وجهه مُهيّض، ولم تُخمن حتى إن كان سيسألها عن مصدر المال، لأنه ذاته لا يملكهُ ولن يجرؤ على طرح السؤال، ما زال تفكيرُها منصبٌ في كيفيةِ تحصيل هذا المبلغ، والوقت يمرّ والعودّة قَرُبتْ، ولا تضمن بعد مجيئهُ أن يَحْصل على مبلغٍ مماثل حتى لو تحقق ذلك فلن يتبقى له شيء فيما بعد، وهنا تقع كارثةٌ مالية ويغرقان من جديدٍ في فقرٍ أسوأ من حالتِهما قبل رحلة الغوص. من هنا فكّرتْ وتدَبرَتْ في رأسها المشوش، عن مصدرٍ من المال تُؤمّن فيه مؤنة تكفي على الأقل لمدّةِ أسبوع أو عشرة أيام، فهي لا تُطيق بعد فُرّاق شهور من زوجها أن تراه مكْسور الجناح لدى عودتهِ، مكتئب وغير قادر على النظر في عينيها لأنه لم يستطع تأمين حتى لقمتهِ لنفسه... كان هذا مصدر قلقها وتَشوّشُها حتى أنها قلَصتْ متطلباتها والْقتْ الفستان الجدّيد والسراويل الجدّيدة من قائمتها لتسهل الوصول لمَوْرِد يُسَهّل لها حيازة المبلغ من دون أن تُعَرضَ نفسها لزيارةِ بيت دلال، أو الخضوع لاغتصابٍ من أحدِ الذئاب المسعورة والذي من المحتمل ألا يلقي بيدها بعد أن ينتهي منها ما يُيَسِر حاجتها من المال...

جَلستْ على عتَبَة الدار الخارجية عمدًا وكشَفتْ عن وجهها، وبدلاً من التفكير في المال، سَرَحتْ للوراء وتذكّرتْ ما تتعرض له من ذُلّ حين تُسَلِمَ نفسها لعابرِ سبيل. تعْرفْ بعض البيوت وتُدركْ وجود رجالٌ شبقون مستعدون

بأي وقت وفي أي مكان لمُطارحَتها، ولكنها تُدرك أيضًا ما يُسببُه لها هؤلاء القريبون والمعروفون من فضائح، فمن خِبْرتُها ببيتِ دلال قبل زواجها، كانت تتعامل مع الغُرباء أسْلَم لها وأكثر سرية وتجنبًا للفضيحة، فمّا بالك اليوم وهي متزوجة... تذكّرتْ رغبة الرجال فيها وأدْركتْ أنها تستطيع أن تجني كثيرًا من المال، فهي تعرف جسدها وقيمة جمالها وتكوينها المُثير للغرائز، وكم اسْتغلَّتهُ قبل الزواج ولكن الأمر اختلف الآن وهي برباطٍ مع زوج غائب في الغوص يَفْترضُ أن تنتظرهُ وفي قلبها الحبَّ والوفاء والإخلاص...

ضحكتْ وتحوّلتْ نظراتها بخفيةٍ لامرأتين من المارّة عَبرتَا أمامها، التَفتَتْ إحداهُما نحوها ثم سرعان ما نَكصتْ برأسها. ضَحكتْ وخَمنَتْ أنهما الآن ترغبان في سيرتها.

تذكّرتْ سنوات العمل الْشاقَة في البيوت، وارتبط خيالها برؤيتها حينذاك للقلعة التاريخية التي بناها البرتغاليون المُقامَة على حدود ساحل قرية عراد والتي يَفْصُلها خوْرُ مياه عميق، زارتْ المكان مراتٌ عدّة مع أفراد الأسْرَة التي كانت تَخدْم لديها، فقد كانوا يجرونَها معهم لمساعدتهم بنَقلِ الأثاث والمؤن وغيرها لدى تَصْييفَهم خلال موسم الصيف بأحد البيوت القديمة بالقرية... كان موسم الصيف لدى بعض الأسْر المَيْسورَة وقت التصييف بالأيام والأسابيع في قرية عراد وقرى أخرى مجاورة يتم عبورها عن طريق عَبّارات شراعية، تقطع خوْر ساحل جنوبي حالة بو ماهر إلى ساحلِ قرية عراد، وهناك تَتذكّر سلْسلة البيوت والأكواخ التي تم بناء أغلبها من سَّعَفُ

النخيل، والطين والأخشاب ونادرًا ما وجَدتْ بيوتًا شُيِّدتْ من الأحجار... كانت تخرج بالمساء مع سيدة الدار المدعوة عائشة الخميسي، وهي سيدة خمسينية بيضاء البشرة، معتدلة القامة، وبدينة البنية، عامَلَتْها بلُطْفٍ ولكنها سرعان ما كانت تثور في وجهها لدى أي إخفاق في مهمة توّكلها إليها... كانت تخرج معها ساعات المغربية، عندما يميل قرص الشمس للغروب وتخف حرارة الطقس، تتمشى معها وقد راقَ مزاج السيدة، فتفتح قلبها بالحديث والشكوى لها في بعض الأمور المنزلية الهامشية لمجرد الحديث وقطع الصمت... كانت تَسْتَمعَ لها من بابِ المُجاملة، وعينها على الساحل والسفن الصغيرة الراسية وبيوت السَّعف المُمتدَّة على الساحل وحولها تجمعتْ بعض الأُسَر وراح الأطفال يلعبون ويعبثون بالتراب فيمّا الكبار وأغلبهم من النساء منشغلاتٍ بالأحاديثِ الجانبية وهي غالبًا ثانوية وتَنْصبُ على الطقس والحرارة واختفاء أغلب السلع من الأسواق بسبَّب الحرب التي نَشَبتْ في العالم، وبعضهم يعتني بِتَسْفيط الأسماك لوجبةِ العشاء، فيمّا ينشغل البعض بلعبِ الورق وشرب الشاي وتدخين لَفائف السجائر، البعض يتسكعون عند طرف القلعة ويبتعدون مسافات داخل القرية لرؤية المزارع والبساتين الخاصة التي يكون بعضها بلا سياج وبعضها مُسَيَّجة بسَّعَفِ النخيل وبها برك سباحة تؤجر على رواد القرية من سكان مدينة المحرق الذين دأبوا بمواسم القيْضْ على التَصْييف في هذه القرى.

كان عُمْرها وقتذاك لا يتجاوز الثانيةَ عشرة، ورصَدتْ ذاكِرُتها تلك الصور والحوادث، رغم ما كانت تتعرضْ لهُ من بعضِ أفراد الأسر التي تخدم لديهم، كانت مَحلَ انظار بعض أفراد تلك العائلات الكبيرة خاصة من الأبناء البالغين الذين ثابروا على التّحرش فيها بين فينة وأخرى، لكنها تمَكَنتْ بحيّلٍ عدّة من مراوغتهُم والإفلات منهم، دون أن تُثير فيهم الغضب أو تتيح لهم التنكيل بها كمّا حَدثَ في منازلٍ أخرى... فجأة مع ورود تلك الذكريات أمامها، تخيّلت لو أُتيحَ لها الذهاب اليوم إلى تلك القلعة الكبيرة وصعدتْ أعلاها وألقتْ بنفسها من فوق قُبْتِها لكانت حَرَّرتْ قد نفسها من أفكارها وحيرتها. ضحَكتْ في سرِّها وما بَرحتْ جالسة بعتبةِ الباب تتأمل، ولم تنتبه خلال سرحانها للمارّة... ظّلتْ تعْبث بالتراب بعودٍ خشبي وجدتهُ على الأرض، لَمَحَتْ ماعزًا صغيرة تُهَرول، تبعتها قطة، توقفتْ وراحتْ تعبث في بعض الزبالة. حاولتْ تجاهل محنتها مع المال والتفكير في عودّة صالح وإطعام العجوز العمياء، وراحتْ تُفكّر بجسدها.

خطَرَ ببالها لو خضَعتْ في هذه اللحظة لهاجِسِها بالبحث عن مالٍ تُلبي به متطلباتها وهناك زوجها من المؤمل أن يعود غدًا أو بعده، كيف ستُلبي رغبته الجسدية، وتُخفي عينيها عن نظرتهِ لها؟ تذكّرتْ جسدها الذي كان مُلكًا للغير قبل سنة ونصف أضحى الآن ملكَ زوج غائب، ستَكره الجسد حتى لو اغْتسَلتْ وطَهَّرتُه، لن يكون سوى جسدًا زاهيًا من الخارج ونَجسًا من الداخل... هذا ما خطر ببالها وهي تتَخيّلْ الجسد الذي كانت من قبل تتأمَّلهُ

أمام المرآة وتزهو به... وَعَتْ لكلّ تضاريسه، بَطنها الرَهيف ذو النَدْبَة البُنيَة اللون قرب السُرّة، خُصْرها النَحيف تبْرُز عنه نتوءات لشدّة نحافته، نهديها المشدودين توسطهما حلمتان سوداوان عريضتان، فخذين مُكْتنِزين يُثيرانِ الشهوة، رغم آثار جروح قديمة طَبَعتْ بصمات فارقة عليهما، ثم هناك القدمان الصغيرتان الناعِمتا المَلْمس على رغم تَعَثرُهُما الأزلي بالتراب عندما تمشي حافية في فناء الدار، والساقان الممتلئتان المحفوفتان أبداً من الشعر حرصاً منها على نظافتهما، حتى الابطين كانا مثيرين يَفْرِزان العرق بالأيام شديدة الحرارة، بدا لها جسدها يَلمعُ عندما تَغتَسل وتقف عند المرآة... يبدو لها الآن حادًا كالنّصْل...

- يا لكِ من هَبْلهٍ جوري! ماذا جري بِعقلكِ؟ قرري واحْسمي شأنكِ ولا تبقي مسجونةٌ كدجاجةٍ في التراب...

نهَضتْ فجأة، دلَفتْ للدار. تَوَجَّهتْ لدولاب ملابسها بغرفتِها الضيقة المتشقِّقة الحيطان، وتَهَتُّك الطين وسقوط قِشرة الطلاء، فتَحتْ الجهة الوحيدة المُتبَقية من باب الدولاب، وبدأت تخرج ملابسها وتُفرِزُها وقد تملكتها نوْبةُ سُخط، أخذتْ تضع السراويل في جهةٍ والثياب في جهةٍ، وبعض قطع ملابس متهرئة في زاوية، ثم راحتْ تفْرِزُها مرّة أخرى رغم محدوديتها، بعد تفكير قصير، ترَكتْ فستانين فقط وسروالاً واحدًا، لَمّتْ الباقي وخَرجتْ غاضبةٌ للفناء، كوَّمَتْها في الركن قرب النخلة وانْكفأتْ ثانية للدار. قَصَدتْ الحجرة ذاتها وتَوجهتْ نحو فراشها وأزاحتْ عنهُ الغطاء

الأصفر اللون المُكْتَظّ ببقعٍ سوداء وقد تَهَرَّئتْ أطرافه وتسلّلتْ خيوطه، نزَعتهُ عن السرير الخشبي القديم الذي تبدَّلَ طلاؤه البُني، وضعتهُ جانبًا على الأرض ثم نزَعتْ بعدهُ وبعصبيةٍ غطاء الوسادتين وقذفتْ بهمّا فوق الغطاء وراحتْ تتَلفَّت حولها دون تركيز محدد، لَمَحتْ في الأسفل قميص نومها القصير، رفعتهُ عن الأرض وأخَذتْ تتأمَّلهُ ثم الْقتْ به فوق الكوْمَة...

- كلّ هذا هُراءٌ يا جوري...

حَملتْ الكومَة وخَرجتْ بها للفناء، وضعتها فوق بقية الخرق. وعادتْ للدار مرّة أخرى، دلَفتْ إلى مطبخٍ صغير مُنْزوٍ في ركنٍ من المنزل، غَصَّ بخُرْدَوات مُتباينة، براميل معدنية صغيرة، قُلّتي فَخّار إحداهُما مُهَشَّمة الرأس، سَجّادة مَطْويّة بجانبٍ، وبجانبٍ آخر حَوْضٌ أرضيٌ، صُفتْ على حافتهِ سكاكين وملاعق خشبية قديمة، كان يحتوي أيضًا على دولابٍ كبير، دون أبواب احْتَشَدتْ رفوفه المُتهَتّكة بقناني معدنية وزجاجية، مختلفة الأحجام، بعضها فارغٌ وأخرى احتوَتْ على بعضُ بُهارات وأعشاب، فَقَدتْ رائحتها... أخذتْ مَوْقدًا صغيرًا ذي ثلاثة قوائم أحدهما مُلْتوٍ. ثم بحَثتْ عن علبةِ ثقاب، أَخَذَتها وخرجتْ إلى ساحة الدار، سَكبَتْ الجازولين على كومَة القماش وأَشْعلتْ فيها النار، ثم جلستْ تَتأمَّلَ النيران وقد تَصاعدَ معها دخانٌ كثّ راحَ يعْلو إلى السماء.

- نارٌ تأكلُ الجميع...

قالتْ عِبارتها بعد أن خَمِدتْ النار وظلّ الدخان يتصاعد ومعهُ تصاعد صوت رقية مُنْتصِبةٌ عند عتبة الدار من الداخل وتنادي بصوتٍ مُتَشَنج...

- جوري... جوري... حريقٌ في الدار...

- نار تأكلُكِ أنتِ والدار...

قالت ذلك بصوتٍ هامس ثم نهَضتْ ودلَفتْ للداخل...

"حتى سَعْفَ النخيل الذي صَلَّتْهُ نار الشمس، أقل عطشًا مني للحياة، حتى أوراق شجرة الْلَّوْز الذابِلة أكثر مني طَراوة... ماذا تبقى منكِ جوري الصوري غير الذُبول والظمأ؟ فلا جذورَ حية فيكِ، ولا أوراق نَضِرة ظلَّتْ بكِ، ماذا تبقى فيّ لأُحافظ عليه... وُلِدتُ بلا اِسمٍ أحملهُ معي وتَرَعرَعتُ بلا عائلةٌ أنتمي إليها... لا بيت، لا سقف، لا وجبة نظيفة، لا نومٌ عميق يكفيني، ولا يقَظَةٌ تسْكنُني... ولا مكان للصلاة أؤديها. على ماذا أبْقي وأنا لا شيء؟ عن اسم غريب أو بيت خلا من الطعام؟ أو سَقفٌ يُوشك أن ينهار فوق رأسي... حيطانٌ مُهتَرِئة... لا أمْلكُ فستانًا أرتديه ولا سروالاً غير تلك الخرق البالية... وتقول لي أيُّها الرّبّ صَلِّي واصْبُري؟ على ماذا؟ على متاهةٌ بلَعَتني؟ لماذا خلَقتَني ما دِمتَ لا تستطيع تحمل وزري؟ لتُعذبُني دون ذنبٍ سوى أنكَ شكلتني في هيئةٍ بشرية وألْقيتْ بيّ في قاع سحيق؟ ماذا استفدت من وجودي أو عدمه؟ لو لم تتْعب ذاتُك الإلهية وتخلقني لوَفَّرتَ عَليّ وعليكَ مُهِمّة لا تشكل فرقًا في الكون... لماذا احتفظُ بجسدٍ ميتٍ وهو في الظاهر

حي؟ لأجعل منهُ وقودًا للذئاب البشرية؟ فأقلُها أنتقم منهم ومن نفسي! هل أنتَ تسمعني الآن؟ أجب أو اصمت للأبد"

ارْتدتْ آخر فستان تبقى لديها ذي لون أزرق، طَلَتْ وجهها بمسحوقٍ ورديٍ شاحب. وضعتْ لونًا أحمر باهتًا على شفتيها من مادّة عشبية مَضَغَتها ثم مَسحَتها على شَفَتَها، دَهَنتْ شعرها بالزَيت ورَحتهُ أمام مرآةٌ مشْروخة من نصْفِها، معلقة على حافةِ جدارٍ مُهترئ... كان العرق ينْحَدر من طرفَي وجهها واخْتَلط بمسحوقِ الوجه، رأتْ فجأة سِحلّية برْصاءُ اللون تَسلّلتْ للتوِ من شَقٍ في الجدّار، حدَقتْ فيها لوهلةٍ ثم تناوَلتْ صفيحة معدنية مُلقاةَ على كنبةٍ قديمَة ذات لون بُني، قذَفتْ بها السِحلّية، لم تُصبها واختفت على الفور... زاد سخطها على وجهها... بحَثتْ عن نَعْليها فلم تجدها... خَرجتْ من الحجرة وقد بدأ يَسودْ الظلام، لم تُشْعل المِصباح ولم تلْتَفت للوراء، بحَثتْ عن النِعال في كومْة من الخُردة أمام الباب، سَحبَتها ودسَتها في قدمَيها وخَرجتْ للطريق المُعْتم...

كان الهواءُ في الخارجِ قد تَشَبَّع بالرطوبة رغم بعض نسماتٍ عابرة...

- لو تسقط السماء علينا لارْتحنا من هذه الحياة.

"لَستِ وحدكِ جوري التي تعاني... انظري لِلاتي كنّ معكِ بدار دلال طوال السنين الماضية حين كنتِ تُقيمين فيها... تمَعني في أولئك اللواتي يَخدمنَ الآن بنفسِ البيوت التي خدمتي فيها... انظري لزوجك ولمئاتٍ من أمثالِهِ، بل آلاف من أولئك الذين هم بلا عملٍ ولا أمَّل... لا تظني أنكِ

وحدكِ في الكون بلا هذا الرجّاء... امْضي في طريقكِ ولا تلتفتي للوراء حتى لا تتَعَثَّري".

عندما بلغتْ مُنحَدر الطريق الذي يؤدي بدروه لمرتفعٍ، يُفضي إلى التَلَّة الطينية التي يقبعُ فيها بيت دلال الكبير، ذو الدورين، توقفتْ على بعدِ مسافةٍ ولمَحتْ ضوء المصابيح الزيتية يتَسرَّب من نوافذه العُليا فقط... لمحتْ رجلين أحدهما متوسط العمر، أبيض البَشرَة، يرتدي ثوبًا كحليًا والآخر، فتىً لم تتمكن من لَمحِ وجههُ، ارتدى سروالاً أبيض وقميصًا كاكي بلونِ ورق الشجر...

ظلّتْ مُنتصبة وقد بدا عليها التردد...

- ماذا تنتظرين جوري؟ فيمّا تُفكرين؟ غدًا سيرْجع زوجُك بعد فراقٌ طويل ولن يَجدّ بالدارِ ما يأكلهُ...!

# 25

المكان-سطح السفينة-الوقت-عصرًا-الحالة-عناقيد الغيوم...

ارْتعشَتْ يدُ إدريس الملا وهو يقبض على الحَبْل وقد اِرْتجَّ بشدّة وعُنْفوان في يده، أرْخى الحَبل وتركه ينْسلُ في الماء، راحَ يُسْدل بمزيدٍ منهُ في البحر، ظلَّ الحَبل يْنْجرفُ بسرعةٍ فيمّا أغمضَ عينيهِ وشَحبَ وجهه، اهْتَزَّ بغتة وقد سَمعَ صوت أقدام تقترب منهُ فزاد ارتباكه والتفتْ بسرعةٍ خاطفة نحْوَ صبيٍ صغيرِ السِنَّ، يرتدي إزارًا مُزركشًا وقميصًا أبيض فَضْفاض وبدا يمْضَغ شيئًا ما في فمهِ... أدار رأسه ثانية نحو البحر، رأى الموجُ يَتَلألأُ في ضوءِ خيوط شمس العصر التي انْحَسرَت منها حرارة لهيب الظهيرة، كان لونُ الموج أزرقٌ غامق أكثر من المُعتاد، نسمات هواء خفيفة راحتْ تمْسَح بلطفٍ على سطح الماء، فتخلِق تعرجات تتبلور لرَغْوةٍ تنتهي رؤوسها الحادّة إلى فُقّاعاتٍ بيضاء مُشَكِلَة زَبَّدٌ أبيض أشبه بِزبَّدِ الْلبَن بعد المَخيضْ... تَشَتَّت ذهْنهُ واشْتَعلتْ ملامحهُ مُتوَرِّدَة وكأن من يقف على رأسه شيطان... دون وعي منهُ وبعفويةٍ مُباغَتة سأل الصبي الذي لم يبدُ عليه أنهُ جاء يحمل رسالة أو لديه ما يُبلغه بهِ.

كان البحارة مشْغولينَ في ارجاءِ السطح، ولم يظْهَر اثرٌ للشجار الذي نَشِبَ منذ فترة بين بعضهم، ولم يَلفتْ انْتباه إدريس في تلك اللحظة سوى الصبي الواقف على رأسه.

- ماذا تريد؟ ألا تراني مشْغولٌ مع الغواص؟

حين تلاشى من أمامهُ بومضةٍ خاطفة، كَذَّبَ عينيه، يسْتحيل أن يكون ما رآهُ للتوِ بشرٌ واقفٌ هنا منذُ لحظة... لم يسْبق أن رأى هذا الوجه ولم يسبق أن حلم بهِ أو مرَّ بخيالهِ، هل يكون ذلك وَهْمٌ تَسَرَّبَ إلى عقلهِ؟ هذا الوجه لم يَرْكب السفينة ولم يُشاهِدهُ في أيِ مكانٍ تخيَّلهُ.

- هل كان شبحٌ؟

سأل نفسهُ وعاد يُحدق إلى البحر... حين تأمَّلَ ثانية موج البحر، تَفَتَّقتْ ذاكِرتهُ المَخْفية عن صورة الصبي، ذكَّرَتهُ بطفولةِ صالح بسِنَّ السادسة أو أكثر حينمّا كان يلْعبُ معه أمام باب المسجد القريب من منزلِ جده الذي تربى معه، ولم يَسْمَح له حينذاك الابتعاد عن باب المنزل خَشية عليه من أولادِ السوء... اسْتعادَ ملامح الطفل المُنْطَوي على نفسه، ولم يجد وقتها من الرفاق سواهُ يعْبثان في التراب ويلهوان بقذْفِ المارَّةُ بالحجارة، لِيُشْبعا فُضولهُما في ردِ فعل الآخرين تجاه تَصرّفهُما الغريب... كانا يَغرِّقان في الضْحكِ ويَتوَجَّسان في الوقتِ ذاتهِ من اِرتِداد حماقَتهُما تلك بِصَفعة على الوجه توقفا بعدها عن هذا السلوك... حدَثَ ذلك بطريقِ المُنْحدَر الرمادي المؤدي لزُقاقِ مُربي الحمام حيثُ يقَع المنزل الذي تربى فيه صالح، كان

المكان زَّنْقَة يُشبهُ كوخ طيور الحمام حُشِر فيه كَوْمة من البشر المُعدمين الذين سَمحَتْ لهم بلدية المحرق بإقامة تلك الأبنية العشوائية دون سنَدَ مُلكية، كان يعيش في ذلك الحي الذي أَطْلَقَ عليه سكان الأحياء المُجاورة بحي أم أربعة وأربعين، وهي حيوان مفلطح، تحتوي على أرْجل عديدة غامِقة، تَكْتنفُها قصصٌ خياليةٌ غامضة كثيرًا ما تسلّلتْ في خيال الأطفال.

- صالح... تذَكّرتُ الوجه... كُنْتَ أنتَ من يبحثون عنهُ بصوتٍ شاهق بأرجاء الحي...

ما الذي تذَكَّرهُ الآن؟ ما علاقة وجهُ الصبي الذي انْتصبَ منذ بُرهة بمحاذاتهِ واختفى بغتة؟

الرياح بدأت تُحرك السفينة وضوء الشمس ما برِحَ ينْسابُ شاحبًا تتخلَّلهُ طبقة من الغُبار رغم عدم قرب الصحراء والرمال بالبحر. كان ذلك مَحَل دهشة بعض الرجال الذين لا يعلمون من أين يأتي الغُبار في أبعد مسافة من البحر، يفترض أن يكون الضباب هو الذي يَسود، أما الغبار فهو مَثار استغراب وتهَكُم الرجال الذين لفَتَ انتباههم تغيّرُ حالة الطقس فجأة ورافق ذلك تغيير مزاج إدريس الذي عادَ يتوهَّم وجود الصبي هذه المرّة على سطح البحر الذي بدأ موجه يهيجُ.

كان هناك رجلٌ أعمى طاعنٌ بالسِنِّ يُدعى ربيعة يخرجُ في الحي وينادي بصوتٍ عالٍ على من رأى ولدٌ ضائع... كانت مهنة ربيعه الوحيدة هي المُناداة على ضياع وفَقد الأشخاص والأشياء والبهائم، مثل الخواتم وأساور

الذهب والماعز والأبقار الضالّة، كان ربيعة صوت الحي لمن فقد شيء منهُ وارْتبط في حينها بالبحث عن ضياع وفقدان الأطفال من صبيانٍ وبنات وكان صالح قد ظلَّ فيمّا يبدو ذات مساء وفقد معالم الدرب بعد أن ابتعد عن الحي مسافات طويلة واقتحم طرقًا مُتشَعِبة حتى بلغَ ما وراء سوق المحرق وتاهَ في دهاليزهِ المُعْتِمة حتى بلغ الليل ووجد الدروب مقطوعةٌ بهِ ولم يعد إلا باليوم التالي حينمّا عَثرَ عليه صدفة أحد الجيران ويُدعى غانم العلي يعمل بَنَّاءٌ، وجدهُ نائمًا على كرسيٍ خشبيٍ طويل بركنِ إحدى العمارات التي يُباع فيها الخشب والحِبال وكافة أغراض البِناء والبحر... فاقتادهُ إلى منزلٍ يُدعى بدار فاضل الطَبال وهو منزلٌ قديم يبعد مسافةٌ عن دار دلال القوادة، ويقع في مُنحدرٍ قريبٍ من منعطفٍ يقود لرُقعةٍ لبناءِ السفن، وهناك قضى يومين حتى عَثَرَ عليه جده والذي بعدها بثلاثة شهور توفى، فتبناهُ عمهُ الذي كان كمّا قيل له زوجٌ سابقٌ لوالدتهِ خديجة الفرض التي شاعَ اسمها في الحي لِفتْنتِها وقد كانت مثار جَدلٍ بين السكان لعلاقتِها المَشْبوهة بالرجال، كان الصبي بتلك الفترة الزمنية التي غابَ في ضَبَاب النِسْيان، هو صالح الزري الذي ظهَرَ للتوِ وهو يقف على رأسِ إدريس...

سَرحَ إدريس وغابَ عن الوعي، لم يرّ البحر ولا السماء، لا شيء أمامَهُ سوى طَبقَة ضَبابِية اختفى وراءها وذابَ، شعر أنه داخل غيمة رَحلتْ به إلى المحرق، المدينة التي ضاعَ فيها صالح رفيق دربه، ثم فتحَ عينيه من نافذةٍ داخل الغيْمة فرأى جوري تطلُّ هي بدورِها من داخل غيْمة مُماثِلة.

- أين ذهبَ صالح؟ لماذا لم يعد معكَ؟

كان هذا صوت جوري جاءهُ من وراءِ الغيْمة وجَمدَ خياله.

- هل للخَيَالِ هذه السَطوَة على العقل؟

سأل إدريس نفسه. ثم غابَ عن الوعي ثانية...

"أي خيال فرَّ بيّ كلّ هذه المسافة؟ ما الذي جعل كهف الزمن يفتحُ نافذته ويخرج كلّ الذكريات والصور والطلاسم؟ لقد عِشْتُ سنينًا اقْفلَ الزمن بوابتهُ ومحي الأحداث من رأسي ولم أعد أذكّر الطفولة ولا الرعونة التي قضيتُها بالمدينة العائمة فوق تِلال الفقر والمجازفات واللهو والجوع والتَشرُد... طَمسَ الوقت الاحق كلّ شيء وبالكاد كنتُ أذكّر طفولتنا، ما الذي أيقظَ كلّ هذه الذكريات؟ هل أنا أعيشُ في الحلم أم أن اللحظة هذه هي حقيقة ما يجري خلالها؟ كيف وَصلَ صوت جوري هنا عندي وأنا منها على بُعد مسافةِ بحار شاسعة... أمواجٌ وغيوم، هواجسٌ وظنون، أفكارٌ، وخيالات... أرى المحرق المدينة النائِمَة تحت وِسادة الجوع والفقر والضياع تصْحو من جديدٍ وتلْتَهم عقلي وتقودني للجنون... ماذا تفعل إدريس؟ أفعل الصواب. هل هذا صوتي؟ نعم هذا صوتُكَ؟ لماذا أشعرُ بالخوف والفزع ما دام هذا صوابٌ؟ الغَدرُ... الخيانة؟ أنت تأخذ فرصتك من الحياة، لا تستمع لصوت الفقر، أنظر وراء البحر وخلف الأفق سترى امرأةٌ مُثيرةٌ تحظى بها... حلمك يتحقق إدريس... لا تَسمع إلا هذا الصوت... اغْلق أذنيك عن الأفكار المُحبِطة، وأنظر إلى اليابِسة التي تنتظرك بعد اليوم... غدًا ستكون

على البرِّ، وستكون غنيًا بالمال، ستفوز بالجمال... لن تحْتاجَ للحلم بعد ذلك... لكن لماذا أشْعرُ بالتردّد؟ فاتَ الوقت إدريس لم يعد أمامُك ُخيارٌ، صوتُك الحقيقي لا تهْرَب منهُ لقد اخْترتَ الحياة، لا تهرب من خيارِك... لم يعد ذلك حلم لقد صَحوْتَ وأنت الآن على حافةِ مدينتُك المحرق، ستعود إلى مقهى عبدالرحيم، ستَعلبْ الورق مع كبار البحارة، لم تعد فقيرًا، ستنسى طرقات وأزِقَّة المدينة المُعتَمَة ولن تضطر للتسكع على سواحلها الكئيبة، هناك المرأة التي طالمّا حلِمتَ بها، ستَخرِجُها من دنيا الفقر... سُتُقدر لكَ ما فعلتهُ لها وستَعرفَ الآن الفارق بينك وبين صالح، ستجعلها تلْبس أزهى الفساتين وتأكل ألَذّ الطعام، وتَتَزيَّن لك وحدك وستراها أجملَ مما كانت لأنها استعادة نضارتُها بفضْلك إدريس... لا تحزن، الحياة خياراتٌ وأنت نِمْتَ وصحوْتَ على خيارٍ داعَبَ عقلك منذ أمَدٌّ بعيد... "

هواءُ البحر يختلف عن هواء اليابِسة، في البحرِ، تشعرُ بأنك في فضاء خيالي، كلّ شيء فيه مختلف عن مثله في البرّ، السماءُ مختلفةٌ والروائح غيرها في المدينة، الطيور نادرًا ما تراها إلا إذا كانت تائهةٌ أو منتحرة، عندما تنتحر الطيور تُهاجرُ إلى مسافاتٍ بعيدةٍ عن اليابِسة ويظْنُّ البشر أنها ضاعَتْ عن السِرْب وتاهَتْ، لكنها في الحقيقةِ التي لا يعرفُها سوى البحارة المُتَمرّسون بعلومِ البحر وأسرار الكون من أمثالِ الربان القديم سيد البحار وأسْطورتهُ الذي عاش في القرن الماضي، الشيخ الرئيس سليمان بن أحمد السليط الهلالي الذي ورَدّ ذِكْرهُ بالصحائفِ القديمة، عن علومه ومعارفه في

قراءةِ أسرار وطلاسم البحر والنجوم والطيور... كلّ شيء هنا عند حدود البحر أَخْتلفَ، وهذا ما شعرَ به إدريس خلال ومْضةٌ خاطفة استيقظ من غيبوبتهِ ثم سرعان ما رَجعَ لها...

"سترى المدينة إدريس ولن تعْرفُها لأنها اخْتلَفتْ عن ماضيها، شَتَّانَ بين المحرق التي كانت حزينةٌ، كالحةٌ، تَفوحُ أحيائُها النَتّنَة بروائِحَ عَرقَ البحارة الفقراء أمثالُك في الماضي، وروائح دَهانَ السُفن المُسْتَخْرجة من جلود القرش، روائحُ المُسْتنقعات في الشتاء، وروائح البلاّعات الطافِحَة بنفايات البُطون... كنتَ تعيش في تلك الأماكن الدبِقة والآن سترى وجه المحرق الآخر وراء هذه الأزِقَة، هناك عند مُنْعطف الطريق من السوق إلى قلبْ المدينة حيثُ بيت الحاكم ومنازل الأعيان وروائح الطِيب من بخورٍ وعود وعطورات مُسْتخرجَة من أزهى الورود... ستَعرفْ المرأة التي معك ماذا صْنعتَ لها وسَتنْسى بسرعةٍ ما كانت عليه من فقرٍ... لكن هل سأعيشُ سعيدًا؟ هل أنسى...؟ أنت تعرف إدريس ولا داعي لذِكرِ الباقي... ماذا لو صَحوْتُ ورأيتُ وجه الصبي مرّةً أخرى...؟ ماذا لو لم أنسَّ؟ ستنسى إدريس... هل تعْرفْ متى ستنسى؟ حين ترى مدينة المحرق وقد تَزَيَّنتْ لكَ كعروسٍ خلاّبَة... أنت وجوري ومدينةٌ تَشعُ بالأنوارِ في انْتظارِك إدريس... يا للهول"...

حين فتحَ عينيه بعد ومضة من الغيبوبة، كان الحَبْل في رمقهِ الأخير وهو ينْسلَّ بتؤدةٍ.

وكان الموج في ذُروةِ الهيجان، فيمّا اشْتدتْ الريحُ فجأة وكأن البحر فقد صوابه مع الريح... اتسعتْ حَدقَة غالبيةَ البحارة الذين فوجئوا بالتحول المُريب الذي باغَتهُم فتوزعوا على أطرافِ السفينة يتطلعون للسماء ويحدقون إلى الموج... دبَتْ فيهم الحيوية وراحوا يتبادلون نظرات الدهشة وسُمِعَ بعضهم يردد عبارات: انقلبَ الطقس، دخلَ الشتاء... هاجَ البحر... وفيمّا كان الهرج يعمُ أرجاء السفينة كان إدريس يقاوم شعورًا كاسِحًا يجْتاحهُ ويُغيبه عن الكون...

"لون السماء الداكِن... وبحر هائج، أي رسالةٌ هذه التي تًعبثُ بعقلك إدريس، هل ما أراه الآن خيالاً أو واقعًا؟ صالح... جوري... الدانة... انتبه إدريس لعقلك... ماذا؟ أنا اخْترتَ جوري... ليس من حقك؟ اغرتني؟ هذه نزوة؟ أثبت لي أنك صوتي الذي أسمعهُ الآن... أنا صوتك ودليلي أن الجوهرة الثمينة... حلمك في جيبك الآن، تحسّسها لتتأكد... أنها هديتُك إلى جوري... بل هي هدية صالح لجوري... لعنة الله على جوري التي لعِبتْ بعقلي؟ ما ذنبَ المرأة أنت من تخلّيتَ عن صديقك... بل أنت من حقق حلمهُ، إلى متى ستظلَّ بلا امرأة؟ إلى متى ستَتَكبّد الفقر؟ إلى متى ستَتَجشَّم الضياع؟ إلى متى ستتحمل الوحدة؟... هذا صوتك إدريس... بل هذا صوت صالح...! تذكَّر أن اليوم هو نهاية موسم الغوص وغدًا ستكون على برِّ الديار... مع دانة تساوي الآلاف وهناك امرأة بحاجةٍ لرجلٍ... ماذا عن زوجها؟ هو نكِرَة ولا تسْتحقهُ... بل هو صاحبي ورفيق عمري... إذن

عشْ في فقرِك حتى تُدفنْ في قبرِك... هذه خيانة... بل هي فطنة... هذا غدرٌ... بل هو ذكاء... أنت لا تعرف الحقيقة... فقْ من خيالِك... لقد فاتَ الأوان... بل هناك دقيقة متبقية من وقت، الحَبْل ما زال يتحرك وثمة نَفَسٌ تحت الماء... فاتَ الأوان... ماذا أفعل؟ اتبع حلمك إدريس... بل اتبع ضميرُك إدريس... الحلم أبقى... "

أفاق على يدٍ خشنة رَبَّتَت على كتفهِ وأيقظهُ من غيبوبتهِ... رفعَ رأسهُ ورأى الرُبان سليمان الهمام بنفسهِ يقف فوق رأسه ويسألهُ...

- هل ما زالَ صالح في قاعِ البحر...؟ لقد هاجَ الموْجُ... سوف نُبْحر ونترك موْضعنا ونلوذ إلى مياهٍ هادئة...

# 26

المكان-قاع البحر-الوقت-عدم-الحالة-عناقيد الضوء الأخير...

طريق السوق بمدينةِ المحرق يتفرعُ لأكثرِ من منعطفٍ وإلى عدّةِ أسواق مُتشَعّبة، تتَداخل بينها طرقٌ ضيقة تكْتظّ بأسواقٍ مُتخصّصة لكلِّ سلعة من السلع، هناك سوق الأواني المعدنية يبدأ من مدخل شارع السوق الرئيسي الواقع عند أول سوق القَيْصرية وهو سوقٌ أغلبهُ لبيعِ الملابس المختلفة، نسائية ورجالية، ملابس داخلية، أحذيةٌ ونِعل وسراويل وأغلب الباعة من الرجال المسنين، بعضهم لا يتوانى عن معاكسة النساء والتَحرُّش بهن مُسْتغلين حاجَتَهن للشراء لقِلّةِ مواردهن... وهنا توقف... انْتعشَتْ أنفاس صالح وهو أسفل قاع الماء، إذ كان يشعرُ بأنه غاصَ أبعد من سطح القاع، ورَسبَ إلى قعر الأرض ورأى نفسه فجأة يستعيد ذلك السوق وفروعه المتعدِّدَة عندما كان يخرج ويتَجوّل مع جوري بأيامهُما الأولى عند الزواج حيث كان لديه تلك الساعة بعض المال وكان يرغبُ بدافعِ الوله الشديد في تلبية رغبتها للشراء التي حُرِمَتْ منها طوال عمرها...

تذكَّرَ سوقًا آخر تقع فيه عدّة متاجر للذَّهب، وهو سوقٌ يبدأ من مدخل سوق مسقوف بصَفائِح المعدن يقود لسوقٍ آخر يعرض منذ بدايته حتى نهايته، السِلال وسُفر الطعام المنْسوجةُ من سَّعف النخيل اليابِسة والأواني الفخارية والملابس النسائية الفَضْفاضة التي يغلبُ عليها الطابع الهندي، ومنسوجات يدوية محلية، وأمواس حلاقة، وصور وسجَّاد كلها مُزرْكشَة ببَصْماتٍ هندية... كانت تفُوحُ من تلك الطرق والأزقة والمنعطفات روائحُ مختلفة، بين بخور العود وقناني العطورات المُستوْرَدة من الهند وأبرزها زجاجة عطر فاخرة كانت تتَصَدَّر مُلصَقها راقصةٌ هندية... تذكَّر كَم أدْخلتْ تلك الزجاجة البهجة على قلْبَ جوري التي قَبْلَها كانت تتَطّلعَ لواجِهاتِ محال الذَّهب وتتأمّل الخواتم والأساور، رأى في عينيها تلك الساعة شَغفٌ بقطعةٍ من الذّهب، وحين تَحسَّسَ جيبه وأدرك أن كلّ ما فيه لا يَفِي بخاتمٍ أو سوار، شعر بتَدنِّي مستواهُ بين الرجال الذين يراهم حوله كلّ يوم يُلَبّونَ رغبات نسائهم وخاصة بأولِ أيام الزواج... أدركَ دناءة الحياة التي يعيشها ومرارةُ الفقر والعَوَز...

عندما نظَرَ لوجهِها لم يرَّ تلك الابتسامة التي صاحبَتها بأولِ عبورهما دهاليز سوق المحرق... وحين لمَحَها تتَطّلع لزجاجةِ العطر المعروضة بأحدِ المحلات وشعر بأنه قادر على تلْبيَة تلك النظْرة الشغفة، تنازل عن السؤال حول ثمنها وكمْ سَتُكلفْ وقرَّرَ اقْتِناءها، فرأى الابتسامة تعاودُ وجهها، حينها شعر برجولتهِ وإن شكَّكَك بعد وهلة ما إذا كانت تلك الابتسامة قناعةٌ منها

باقْتِنائِها قارورة العطر، أم هي مُجرد طيف غَطَّتْ به خيبتُها من عدمِ قدرتها على اقتناء ذهَّب بأولِ أسبوع من زواجها... أن العُيون التي تَخْدَع وهي تخفي حقيقة جوْهَر صاحبها هي عيونٌ مفْضوحَة، كلّ جزء في جسمِ المرء يستطيع أن يُخفي تعبيرهُ الحقيقي، إلا العيون فإنها لا تَكْذُب... كم كانت عيونكِ جوري بتلك الساعة مُخادعة...

في الليلةِ ذاتها التي عادا بعدها من جوْلتهُما بسوقِ المحرق، أَعْطّتهُ من أسرارِ جسدها ما لم يحلم به، أغْدَقتْ عليه من الحبَّ والشَّهوَة ما جعلتهُ يظنّ أنه مَلْكٌ أهدى مِلكتهِ مفتاحَ الحُكْم، كانت مُبْتهجةُ، حيوية، حنونة، مُتَعاطِفة، لم يرَّ تلك الليلة منها سوى نعيم فردوس الشَّهوة التي لم يَخْتبرها في حياتهِ من قبل، ترى هل كان بسبَّب قارورة العطر؟ ماذا لو وَهَبَها ذلك اليوم خاتم ذهَّب أو إسْواره؟!

"جوري هل أسْعَدتكِ قارورة العطر؟" ماذا سيكون سؤالَهُ لو أهداها قطعة من الذهَّب؟ الفقراء يَسْعَدونَ بأصغرِ الأشياء وأرْخصَها، وسوق المحرق الذي طافَ بخيالهِ هذه اللحظة وهو في قعْرِ الهاوية لحظة وداعَهُ للمرأة التي، كان يودَ أن يُقدْم لها دانة نادِرة الوجود ولم يتمكن... شعرَ أن القدر عاكَسهُ وإن عجْزهُ عن شراءِ خاتم الذهَّب، عَجِزَ عن إهدائها جوهرة أسطورية حتى بعد فوزه بها...

"لم يكن مُقدرٌ لكَ صالح أن تفوزَ بقلبِ جوري حتى بعد أن فُزْتَ بدانةٍ تساوي الآلاف"

خاطبَ ما تبقى فيه من نفسٍ وأرْدفَ وقد بدأتْ تتَشكَّل حولهُ كُرةٌ من فقاعاتِ الماء، ثم أخذَ يتَحَلَّل بالتَّدريج إلى ذراتٍ بلورية...

خارتْ قواهُ وامْتثَلَ لإرادّة البحر، رَضخَ للرحيل مُبكّرًا عن ساعتهِ المَحْتومَة، أدْركَ أن ثمة شيء فوق السفينة قد حدثَ وتركهُ مع مصيرهُ، لعلّ وباءٌ مباغتْ صَفعَ القوْم فوق السطح وقضى عليهم... ربمّا فَقدَ إدريس وعيهُ أو توقفَ نَبْض قلبه؟ كلّ الاحتِمالات واردّة وها هو مصيرهُ قد تحدّدَ وليس منهُ مَفَّر...

فَكَّ عنهُ الحَبْل وقد أسْلَمَ مصيرهُ الحتْمي، تركَ جسدهُ النَحيف يغدو مع كائنات البحر، كأنهُ جزءٌ منها... زَرَبَ مثل ريشة في الهواء! فاضَ قلبه مع فقّاعات الماء بآخرِ الأنفاس...

"عيناكِ جوري أُشَيْعُهُما، سَحابةٌ تَحُول دون بلوغكِ، هل هو سوء الحَظّ؟ أم نواقيس الموتُ تدنو، بردٌ... رعشةٌ قبل الأخيرة... صمتُ الريح... صوتُ الصمتْ! أرى سقف المنزل... فِراش الجسد... سأتْرُكُكِ بمدينةِ المحرق العذبة التي كَرِهتُها في ساعةٍ وأحْببتُها في ساعةٍ... عيناكِ تُلاحقني... النَحْس يطاردني... لا مُعْجِزةٌ الآن ولا إلهٌ مُنْقذ، فَكّ البحر مثل فكّ القرش... أشعرُ بالبرد جوري... "

رعْشَة ايقظتْ صوتٌ قادم من أعماقِ روحه...

"لا تَحزَن لن تبْتَعد كثيرًا صالح، أنتَ قريبٌ جدًا من الفَوْز... أي فوْز يا هذا؟ لقد خَسِرتُ معركتي مع الحلم... لم يكْتَمل الحلم... لا تخدعني أيُها

الصوت الزائف لقد خَسِرتُ... لا تيأس لم يحن الوقت؟ متى؟ سترى النور الأخير وسَتكْسبَ المكافأة... لا تكذبْ عَليّ، أعرفُ هذا الصوت لطالمّا رافقني ومَكَرَ بيّ وجعلني أُصدْقُ الأحلامِ... كَذَبَتْ الأحلام، لم أجد ما سَمعتهُ طوال حياتي... انْتَظرْ سيأتيكَ الحظُّ... هذا الصوتْ أعرفهُ، لن أصدقهُ بعد الآن... بَلَغتُ حدود الخروج من المَجرَّة الأخيرة التي احتوتني... ما عادَتْ مدينتي المحرق... ما عادَ بمقدوري التَسَكعُ في الأسواقِ القديمة... ما عادَ بوسعي الوقوف على حَوافِ السواحِل... ما عادَ بإمكاني الوثوق بالناس ولا بالإله... سأفْتقدُ الجلوس معكِ جوري فوق سَطح الدار ورؤية النجوم بالخريف... كنتُ أظنَّ أنني سأبْلغُ اليابِسة بمنتصفِ الموسم ونحْتَفل بهواءِ الخريف... لا تَحَزنْ صالح بوسعكَ الاحْتِفالِ في البحر من مرآته الواسعة... افْتحْ عينيكَ ولا تغْمضُهُما... تَنفْس، لا تخشِ الغيابْ وسترى المدينة والطُرقات ومتاجر الأسواق... اسْتَعد سوق الذهّب... اسْترْجعَ المقاهي وكتاتيب تحفيظ القرآن... تَذَكَّرتُ الآن عَصَا الملا راشد وهي تَدقُ على أصابعي بالشتاءِ البارد حين أخْفَقُ في حفْظِ سورة الحَشْر... لا تبْتَأس صالح لن تَّحْتاجَ بعد الآن لحِفظِ القرآن... ماذا سَأتْركُ لجوري؟ تَرْكْتَ لها جوهرةٌ نفيسَة لا تُقَدَر بثمن... لن أتمكن من إهْدائها إليها... لا تبتأس الجوْهرةُ مع رفيقكَ إدريس...! أين هو الآن؟ لماذا أهْمَلَني؟ ما خَطْبهُ؟ لن يَنفَعكَ صالح معرفة الحقيقة... اِرْحَل بسكونٍ وصمتٍ أفضَل... ألا يحْقُ لي معرفة الحقيقة؟ لن تؤخْر ولن تُقدم في مصيرُكَ... أتْركْ رسالتُكَ الأخيرة

لجوري وغادر... هكذا دون أن أعْلَم؟ ماذا تستفيد من المعرفة؟ اكْتفْ برِّسالةٍ أخيرة إلى جوري... ماذا عن رفيقي إدريس؟ ماذا عنهُ صالح؟ أُوصيكَ إدريس العِناية بجوري فهي وحيدة... وأنتِ يا رقية اعْتَني بنفْسكِ وقلْلِي صُخبكِ... ربيتي صالح وتَعهَدتِ بهِ كما لوكنتِ خديجة الفرْض التي لم أرَّها ولم أعيّ وجودها... أنتِ أمي الحقيقية رقية لم أعرفَ غيركِ... لا تُفكّر بإدريس صالح... دعْهُ يَحْملُ عبئكْ... ماذا حدثَ له؟... لا يهمْ... بل أُريدُ أن أعرفْ... لماذا إصرارُكَ صالح؟ حقي قبل أن أُغيب وراء الكوْن... لا تُفكرْ بهذا الوقت احْتَفظ بوجهِ جوري وحدها... لقد تَركْتُ مع إدريس الجوْهرة... أجبْني لماذا الصَمتْ...؟ هناك أسْرارٌ صالح لا يُفترَضْ أن نعرفُها ساَعة الرَحيل... ولكنَ إدريس صديقي... تَذكَّر لا تَبحْ بسرّكَ لأحدٍ... كانت هذه خَطيئتُك الكبرى... ماذا؟ أجبْني أيها الصوتْ... أجبني أرجوكَ ما هي خطيئتي... فاتَ الأوانُ صالح...!

أزِقَّةٌ... منحدراتٌ... سواحلٌ... سقوفٌ... حطام سُفن... أوانٍ فَخَار... ملابس وسراويل معلقة على الحيطان حِبالٌ ومسامير وأخشابٌ، قططٌ وكلاب، نوافذٌ خشبيةٌ عتيقة... أبواب عتيقةٌ مُشَّرعَة... وجوهٌ... طحالبٌ... أشجارٌ... ونخيل... سراويل داخلية، فِناء الدار... قلعة... تلَّةٌ رمْليةٌ قديمة... مرافئ... ساعةُ حائط... ثلجٌ... عناقيد ذهَّب... عناقيد شموع... أسماكٌ مُجَفَّفة... ثم بدأتْ تتَلاشى الأشياء...

"ما هذه الأنْوارُ الصاخِبة التي تحيطُ بيّ؟ لا أُسمعُ ضوْضاء، من أين تألَّقَ كلّ هذا الضِياءُ الشديد البياض؟ أنا هنا جوري... أين أنتَ صالح؟ هنا تعالَ... إدْن مني... أين أنتَ؟ أنا هنا... "

"جوري... جوري جوري... "

ضوءٌ أبْيضٌ...

# 27

المكان-السفينة ريحانة-الوقت-مساء-الحالة-عناقيد النوايا...

نَفَرَتْ شمسُ العشي، ومال قُرْصَها البُرْتقالي اللون إلى فجْوَةِ حجِاب الأفق وجَحَّظ جزءٌ منهُ عبر الغَيْم، غاصَ القُرصُ نصْفهُ في البحر على مسافةِ الأفق... وطَفحَ نصفهُ الآخر ولامسَ السماء، لسَعاتٍ باردة هَبتْ من الشمال تُنْبئ عن ريح قوية تلوح في الأفق، أمَرَ الرُبان سليمان الهمام البحارة بتهيئةِ الشراع... تحرك البحارة بعصبيةٍ فوق أرجاء السطح وانهالوا على الحِبال والأعْتِدة، فيمّا اِنْفرَدَ الربان في ركن المؤخرة من المركب ومعهُ إدريس الذي انْتصبَ وقد نَكسَ الرأس للأسفل، وقفَ محني الظهر، انْكفأتْ كتْفاهُ للأسْفل وجَحظَتْ عيناهُ بانْتظار أمر سليمان الهمام الذي لم يكتفِ بالتحقيقِ معه في مصير الغواص صالح الزري... اسْتدعاهُ ثانية بعد أن فقد الأمّل بمحاولتين للْغوْص من قِبلِ غواصين للبحث عنهُ في القاع، فَشلَتْ المحاولتان ولم يتمكن الغواصيّن من مجرد الهبوط إلى الماء بسبَّب هبوب الرياح وتَكّدْر موج البحر الذي هاج. لقد اعتادَ البحارة بكلِّ السفن على وقوع مثل هذه الحوادث، وامتلأ قلب الربان بقصصٍ مثيرة حول بحارةٍ اخْتفوا أو أفْتُرِسوا من

قِبلِ أسماك القرش... عاصر حقبةً شهدتْ خلالها سفن الغوص انتشار وباءٍ فتاكٍ، بَطشَ بالبحارةِ وأمرَ حينها بِرَمي من أصيبوا في البحر وهُم أحياء حتى يُنْجي بقية الرجال... حتى أنه خسر ثُلثي بحارتهِ، لينقذ الثلث الآخر، دون أن يرِف له جفن. كان الربان سليمان صَلبُ المراس، صَلْد القلب، قوي الشَكيمَة، لا يتأثر بالحوادث ولا تَهزّهُ الوقائع ولهذا لُقبَ بسَفاح البحر... عندما بلغهُ خبر اختفاء صالح، هزَّهُ النبأ وكانت المرّةُ الأولى التي يَرْتعشُ فيها قلبه، تذكَّر حديثهُ الأخير مع الغواص الذي لَقي مصرعه، واسْتذكّرَ رغبة الأخير بالفوز في دانةٍ وحديثه عن زوجته وعن طفولتهِ وحلمه، فأصيبُ بصدمةٍ جعلتهُ يحاول أن يسْتطلعَ الأمر تحت الماء ولكن الطقس السيء عانَدهُ وحال دون إتمام محاولتهِ فأمر برفعِ المرساة والاستعداد للإبحار إلى نقطةٍ هادئة بحزام البحر، حتى يحين الفجر ليُعطي الأمرَ بالعودّة إلى الديار...

طفقَ البحارة يتحركون بوتيرةٍ مختلفة عن المعتاد، هيْمنَ عليهم التوتر، وسادَ بينهم الصمت كأنهم يتجنبون الخوْض فيمّا حصل لرفيقهم صالح الذي كان طوال الشهور المُنصرِمة محور حديثهم حول مُجازفاتِه الخيالية التي بلغتْ عند البعض في وصْمهِ بالجنى والمسحور، كانت هذه أول حادثة في الموسم على هذا المركب وقد أثارتْ طريقة اختفائه في قاع البحر كوْمَةً من الحزن على وجوههم وسَرَتْ في حالة الصمت المُطْبِقة التي انْتابتهم وانعكستْ في سلوكهم المُتوتر. لم يستغرب أكثرهم مصْرعهُ المُباغتْ فقد

كانوا يتوقعون هذا المصير لشدّةِ قناعتهم بأن ما كان يقوم به تحت الماء، سلوكٌ يفوق العقل... كانوا ينظرون له بدهشةٍ ويتجادلون حول ركوبه المخاطر وتجاوزهُ الحدَّ المعقول في وعيهم للبقاء أسفل الماء. كانوا يتوّجسون من هذا الغواص الذي رغم ما أثارهُ من إعجابٍ في نفوسهم وربما حسدٍ من قلّةٍ من الغواصين الآخرين وخاصة المُخضْرمين منهم على شدّة بأسه في القاع ونطاق تَحَمله وجسارته، لكنهم جميعًا أصيبوا بصدمةٍ لدى مصرعهُ بهذه الطريقة غير المتوقعة أو المُبَرَّرة... لم يستوعبوا إنهم فقدوهُ رغم تَوقّع بعضهم لمصيرٍ كهذا، لكن أن ينتهي به الأمر إلى الاختفاء في الماء ويأتي الحَبل فارغًا من دون جسد، هذا ما لم يدركوه... وهذا ما قادَ الربان سليمان للتَحفْظ على مساعدِ الغواص إدريس الملا ليواصل بنفسهِ استجوابه بعد أن أخْلَتْ السفينة ريحانة موضعها إلى موضعٍ أجْزَل هدوءً وأقل اضْطرابًا قبل أن تشْتَد الرياح أكثر.

قَعدَ الرُبان بتؤدة على منَصتهِ المغطاة بجلدٍ حيواني وأثنى ركْبتَيهِ، ثم أشارّ إلى إدريس أن يجلس قُبالَته على السطح، دون أن ينظر نحوهُ، أشارَ إلى أحدِ البحارة وهو على مسافةٍ كان ينتظر، فأسْرعَ الآخر وَوضعَ النارجيلة أمامهُ، فيمّا تَحركتْ السفينة وقد أوْرَمَ الهواء في الشراعِ الهائل الحجم...

- هه... ماذا حدث معكَ هناك؟ أخبرني بالتفصيل.

سأل الرُبّان

- أخبرتُك سيدي سليمان.

- أعد ما ذَكّرتهُ مرّة أخرى وبالتفصيل ذاته.

ردّ الرُبان بنبرةٍ جافّة.

بدأ التوتر يغزو وجه الرجل.

- كان من عادّة الغواص صالح، سيدي، أن يُطيل الغياب في القاع، وكلّ من على ظهرِ المركب يدرك ذلك و...

قاطعهُ الآخر...

- لا شأنَ لكَ بالبحارة وما يرونه، وضْح لي ما كان يدور بينك وبين الغواص فقط، ولا علاقة لك بالآخرين وما يعتقدون.

- أمرك سيدي...

ردّ إدريس بنغمةٍ مُرتبِكة واعْتدَل في قعدتهِ، حرَك ساقهُ اليمنى ونظر للأعلى ثم أردف بنبرةٍ مُتعثِرة...

- قبل أن يهْبط إلى البحر أبدى لي تردِدهُ وكان متوجسًا من هذه الطلعة إلى القاع... كان يُكرر عبارة لن أغوص اليوم، وظلَّ يُحدثني عن خوفه هذه المرّة، بدا لي من صوتهِ المشوب بالخوف، أنه لا يرغب بالغوص وقلتُ له: توَكَّل على الله وانْزل أو أبقَ هنا إن كنت تشعر بريبة، ولكنه غافلني فجأة وقفز إلى البحر... لم أتوقع منهُ سيدي تلك النقلّة المُباغتة ولكني سارعتُ بالعمل معه وبدأ يغوص كالْمعتاد... ظلَّ هناك تحت...

قاطعهُ الربان

- قبل أن نصل إلى هذه النقطة قلْتَ في كلامك السابق أيُها البحار، إن صالح كان ينوي الغوص هذا اليوم، وإنهُ ألحَ عليك بالغوص رغم تغيّر الطقس وأنك نصحتهُ بألا ينزل إلى البحر، فكيف تزعمُ الآن أنه كان مترددًا...

تنهد إدريس وحكَ ذقنه ثم مطَّ شفتيه واسْترسَل.

- اعْذرني سيدي سليمان، أشعرُ بدوارٍ في رأسي ومغصٌ في معدتي منذ الواقعة، فهو صديقي ورفيق عمري ومن هوْل الصَّدمَة ربمّا اختلطَ عَليّ الأمر، لكنه في النهاية غابَ في البحر وبدأتُ أتابعهُ كالمعتاد وكان كلّ شيء يجري كالمعتاد، إلى أن شعرتُ بعد مدّة بأنهُ أطالَ البقاء أكثر مما سبق فبدأتُ أحاورهُ بالحَبل ولكنه لم يسْتَجب...

- متى شعرتَ بأنه لم يسْتجب لك؟

سَأل الرُبان

- بعد أن سحبتُ الحبل ولم أرّ منهُ استجابة.

- كم استغرق الأمر...

- مدّة سيدي.

- لماذا لم تُبْلغ أحدًا من المساعدين لي أو البحارة بذلك؟

قَطعَتْ السفينة شوطًا في المسير، وكانت العتمة قد هبَطَت مع تسلّل خيوط الشمس وراء الغيوم، صرخَ الربان فجأة على مساعدهِ وطلبَ منهُ وقف الضوْضاء التي كان يُثيرُها صوت البحارة على السطح... عادَ ونظر إلى الرجل أمامهُ وأشار إليه أن يُكْمل...

- لم أخَمّن سيدي بأن الأمر خطيرٌ إلى هذا الحد، لقد اعْتدتُ من الغواص صالح على مثل هذه المواقف معي...

- قلتَ إنك سَحبْتَ الحَبل ولم تجد اسْتِجابة منهُ، ألم يخْطر ببالَك أن ثمة مشكلة معهُ هناك؟

اِعتَدل الرجل في جلسته، وأثنى أحد ساقيه وقال...

- بلي ولكني لم أظنَّ أنها بتلك الخطورة، كنا أنا وهو قد تعرضنا لمثلِ هذا الموقف من قبل وعندما يعود يقول لي: لا تقلق من حركاتي فأنا أرقص تحت الماء...

- ماذا؟

سأل الربان بدهشةٍ!

- قال إنهُ يرْقصُ في الماء...

ابتسم الرُبان وقال

- هذا أخْرق شيء سمَعتهُ في حياتي.

صمتٌ

- متى شعرتَ بأنك فقَدتهُ.

بدا وجه إدريس مُتورِّدًا، لوهلةٍ سرح في البعيد، لم يتَمالَك نفسه فانْخرَط في البكاء...

رَبَّتَ الربان على كتفهِ وانْتظَر أن يَكفّ عن البكاء ثم قال بنبرةٍ هادئة ودية...

- منذُ متى كانت علاقتك به؟

- منذ كنا أطفالاً نلعبُ في الحي.

ردَّ إدريس.

راحَ سليمان الهمام يمْسح بيدِهِ لحيته ويُحدق بالآخر ثم سَأل...

- هل أوْصاك بشيءٍ قبل أن يهبط إلى البحر؟

- نعم سيدي... قال لي اهْتمَّ بوالدتي الوحيدة!

"أشْعرُ أن هذا الرُبان يسْتغْفلُني ويسْتدْرجُني، إنه لا يعرف حزني ولا يفهم صدمتي ولا يشْعرُ بحلمي... إنه يقودني للجنون، ما الذي يبحثُ عنه؟ أين يُريد أن يصل بيّ؟ هذه مسئوليتهِ إدريس، فقد خَسر بحارًا من طاقمهِ وهو متأثرٌ أشدّ الأثر... لا يبدو عليه ذلك إنه يتَسلى باستفزازي، لا بل نه يبحث عن الحقيقة؟ أي حقيقة؟ لماذا اختفى الغواص؟ تكلم إدريس قل شيئًا أنا صوْتُك الداخلي ولن يضْر أن تبوحَ؟ لا لستَ صوتي، أنت تقودني لأفقد أعصابي ولن يكتب لك ذلك فقد كانت دموعي كفيلةٌ بتوضيح مشاعري، والتعبير عن ألمي... هل أنت مقتنعٌ إدريس؟ إنها دموعٌ فحسب؟ لا لن تخدعني أنت صوتُ الربان سليمان... بل أنا صوْتُك، صوت ضميرُك الحي الذي دفَنتهُ في القاع... أنت صوت المُكْر... أنت الربان تتَخفَى وراء صوتي... "

- أين شَطّطْت إيها البحار، لم تجب سؤالي، هل أوصى بشيءٍ قبل أن يغوص بطلعتهِ الأخيرة؟

خفضَ رأسه إلى الأسفل وقال بصوتٍ شاحبٌ يكتنفهُ الحزن...

- قال على ما اذْكُر أن أهتمَّ بأسرتهِ وأنا أنوي سيدي فعل ذلك.

- كيف ستفعل ذلك إيها البحار؟

سَأل الربان بعد أن أخذَ نَفّسًا من النارجيلة ونَفثَ الدخان في الهواء... كانت السفينة تمْخُر المياه والرجال انْغمَسوا في أعمالِ البحر...

- سأرى حاجتهم بقدر المستطاع.

عادَ الربان يسأل

- هل أعطاكُ شيئًا أو لمحَ لشيءٍ لأسرتهِ؟ هل أوْحَّى بأمرٍ ما تساعد به؟

فكَّرَ إدريس وقال.

- أنوي أن أُوْصل أغراضه وأساعد في سدّ احتياجاتهم بحسب قدرتي سيدي الربان وآمال دعمكم في هذا الصَدَّد، فالغواص صالح كان مُخلصًا في شغله، وفيًا لكم سيدي سليمان...

سرحَ الربان سليمان وأخيرًا قال...

- ماذا كان يسْعى إليه الغواص صالح من كلّ هوَسه بهذا الشغل، كان مؤخرًا متَكالب على الغوص وكان دؤوبًا في الإلحاح بالغوص حتى آخر يوم؟ ماذا كان يدور في رأسه؟

بدا التوّرّد على وجه إدريس. ردّ بنبرةٍ مُتَعثِرة...

- كان يحلمُ بصيدِ دانة ويقدمها لزوجتهِ، هذا ما أَطْلَعني به، ولكن لم أكْن اعْتَمد كلامهُ مَحْمَل الجدّ... ظنّنتُ إنه يمزح.

مطَّ الربان شفتيه وقال.

- هل كان ينوي أن يُخْبأ ما سيجنيه عنا؟

- لا أعلم سيدي.

- ألم يبحْ لك بذلك؟

- بلي

- إذن لماذا لم تُبلغ عنه؟

صمتٌ

- أذكُر قوله منذ مدّة بأنه فاتَحكُم في هذا.

ابتَسم الربان باقْتضابٍ كعادتهِ عندما يفعل ذلك وهو ما يَفعله نادرًا.

- ما مدى علاقتك بأسرتهِ إدريس؟

سَأل الرُبان وقد حَركَ ساقيه وامْتَعض...

صمتٌ

هزَّ الربان رأسه وقال وهو يُنْهي الجَلْسَة بينهما.

- لقد قلتَ أشياء مختلفة هنا عما سبق إدريس.

تنَفَّسَ الرجل وأجابَ مُتلعثمًا ومالَّ إلى البُكاء...

- شدّة الصدمة سيدي أدارت رأسي.

- عدْ للعمل إيها البحار ولا تَذْكر شيئًا ممّا دار بيننا للبحارة. اعْتَبر ذلك سرًا.

- أبْشر سيدي الربان سليمان...

نَهضَ ومشَى بخُطى حثيثّة، رتيبة، كانت طلْعتهُ مكتئبة، لمَحهُ بعض البحارة وهجموا عليه يتساءلون بهَمسٍ وحذر، عما دار بينهُ وبين الرُبّان، لم يَبحْ بشيءٍ، اكْتفَى بهز رأسه وبدا الحزن عليه، اتجه نحو الصاري بصَدرِ المركب وجلسَ القُرفَصاء تحت فَيّء الشراع، أضحى ضوء الشمس النهائي ينْجَلي مُسْتَترًا وراء بعض الغيوم في السماء ومضى الهواء يُؤلب ثيابَ البحارة ويُرفْرفَ بأطرافِ الشراع ويَدْفع بهِ بِحدهِ الأقصى. كانت الريح القويةُ تنفخُ فيه، فيمّا نسائِمُها الباردة تُداعبُ الموج بضراوةٍ. راحتْ السفينة تَشْقُ البحر، مُخْلْفةٌ وراءها زَبَّد البحر في هيئة فَرَدهاتٍ بيضاء تَنسابُ مسافة ثم تتَلاشى. توارَتْ السفينة في العَتمَة إلا من ضوءٍ ضئيلٍ ثابَ من على بعدٍ.

جلسَ إدريس منْكفئًا على نفسهِ يتأمَّل، خلَعَ الغُترَة من فوقِ رأسهِ فراحَ الهواء يهاود شعرهُ الغليظ، تَنفَّسَ الصُعَداء وحَدقَ للأفق القصِي، ثم ابتسم باقْتضابٍ وقال بصوتٍ همسٍ للغاية:

- متى يَحينُ الفجر لأبْلغ اليابِسة!

عادَ يتأمّل، دنَا منهُ أحد البحارة وكان مُسِنًّا وبدا مكْتئبًا، حَملَ بيدهِ فنجان شاي، حَياهُ بنظرةٍ مغْمُومَة، مُتعاطِفَة، وقدَّمَ له الشاي.

- أبلغني المؤذن خميس أنهُ بعد صلاة الفجر الليلة، سوف تَتم مراسم صلاة الغائب على الغواص صالح.

تَناولَ إدريس فنجان الشاي من يدِ الرجل المُرْتعِشَة ذات العروق الناتئة، وضعهُ على السطح، دون تعقيب منه، ثم رَمَّقَ بنَظَراتهِ نحو الأفق ثانية،

انْسَحبَ الآخر بتؤدةٍ وخَلَفهُ وحده... بعد لحظات وجيزَة غابتْ الشمس وأوْقدَ البحارة قنْديلَين بكلٍّ من مقدمة السفينة ومؤخرتها، مَضتْ نسماتُ الهواء الحَثيثَّة تُرفْرِفُ بفتِيلَةُ النار من داخل القنْديل، لاحَ في البعيد الناء ما يُماثل جَبلاً شاهقًا من خيالٍ للضوْءِ سرعان ما تَبيَّنَت اليابِسة...!

- عَجبٌ... هل بلغنا اليابِسة بهذه العجَلَة.

خُيِّلَ ذلك لإدريس وقد زَرِبَتْ عَبْرَةٌ يَتيمَة في عينهِ...

❁❁❁

# 28

1940-المكان-البحر-السفينة ريحانة-الوقت-عصرًا-الحالة-عناقيد النورس

متى اسْتهَلَّتْ عَلاقَةُ صالح الزري بإدريس الملا؟ طَفِقَ السؤال يَسبَح فوق مياه البحر مع تَيمّم السفينة ريحانة إلى برَّ الديار بعد أربعَة شهور وتسْعة عشرة يومًا ونصْف نهار، كانت تَشْقُ موج البحر، واعْتلَتْ السماء كُتلاً مُتَبَاينَة الحجْم، مختلفةُ اللون بين السواد والبياض، تتَحرَك بتؤدةٍ وكأنها ليست في عجلةٍ من أمرها، بدتْ كمّا لو تُهيئ لمْوجَةٍ سريعة من المفاجآتِ غير المُتوقَّعة... نهارٌ دافئ تهادَتْ خلالهُ السفينة كأنها غيمةٌ تسبح في فضاءٍ ضبابي، وجوهٌ حزينة تَكالَبَتْ عليها الكآبَة والقنُوطْ والكَمَد، صمتٌ حينًا وثرثرةٌ عابِرةٌ حينًا آخر... بعض الوجوه لم تستطع إخفاء بهْجَتها بالعودّة إلى البرّ، لكنَها اِحْتفظَتْ بمَلامحِ الشَجَن على وجهها لتشارك البعض الآخر مرارَّةُ فقدان صالح الزري... انْغَمسَ البعض في غَسلِ سطح المركب، وراحَ عددٌ من الرجال يفتلُونَ الحِبال ويُعيدون غزْلَها دون مغزى، جلسَ اثنان بمقدمةِ

المركب وراحا يلعبان الورق، فيما توزَّعَ البعض في تهيئةِ صناديق وحقائب أغراضهُم وفحَص أدواتهم وملابسهم... وفي مؤخرة السفينة عند منَصَّة الرُبان استغرقَ سليمان الهمام في القراءة من كتابهِ الذي اعْتادَ تصفحه عندما يكون المركب راسٍ في ركنٍ من البحر، أو يَعْبرُ الموج...

استلقى إدريس على جهةٍ من السطح بمحاذاةِ الحافَة وتوَسَّد صرَّة ملابسه وقد ارتدي إزاره المُزركش وقميصًا بنيًا وراح ينظرُ للسماء رغم أشعة الشمس الساطِعَة.

بين تفكير عابر في الماضي ونظرةٍ خاطِفَةٍ للمستقبل، تداعتْ ذكريات الطفولة التي لم يسبق أن نُبِشْت من قبل، فقد تفَتَّق ذهنه واِحْتدَم عقله الباطن بجذورٍ عميقة في الذاكرة، خزَّنتها السنين وغمَرها غُبار الزمن، فاختبأتْ وسط كومَة الانشغالات، فانْفطَرت بلحظاتِ التأمّل والتَمعُّن التي صاحبتْ عشية العودّة للديار. نتأتْ تلك الصور مع صالح وقبلْهُ وبعده... انْجرفَ فجأة إلى أيام خوضهما ساحل البحر بالحي الذي عاشا فيه، عندما كانا بعمرِ التاسعة يخرجان بنهاراتِ القيْض اللاهبَة، كانت المياهُ ضَّحلةٌ عند الصباح، فكانا يستحمان في البحرِ ويصطادان السرطانات وهما يرتديان السراويل القصيرة، ويحملان عَصّي الخشب وحراب معدنية، ينقبان في الرمل عن مخابئ السرطانات، وعادّة ما كانا يجدا بعضها خارج المخابئ الرملية فيتعقبانها بالحراب أو العصي ويقومان بصيدها ووضعها في سلَةٍ اعتاد أن يحملها إدريس بينمّا يقوم صالح بمهمةِ ملاحقة الباقي منها... كان صالح

منذ البداية وبطبعهِ من يقود الآخر، فقد كان أكثر مُجازَفَة وهو ما أَهَّلَهُ ليقود إدريس، لم يبلُغَ مرحلة السيطرة عليه ولكنه كان دائمًا هو المُبادر، فيمّا الآخر كان يميلُ إلى الحذر، ومن مفارقاتِ ذلك، أنه كان من يتعرض عادّة للحوادث بعكسِ صالح المغامر.

قبل توجههُما إلى البحر، يًعبُران حي بو ماهر، يقطعان أزِقَّته العديدة، ينطلقان من سُدّة بيت دلال القوادة المزروع بحافةِ الساحل الجنوبي المُطلَّ من على بعدٍ لمرفأ السفن المعطوبة والخَرِبَة التي أُخْرِجتْ من الخدمة ورُكِنتْ في تلك الزاوية، وكانت مرْتعًا لتخفي الفتوة هناك وتحوَّلت لركنٍ مُقفِر للكلاب الضالّة، وحين يُصادفا بعض الغلمان المشاكسين ينكفئون على اعقابهما خشية منهم. كان صالح جسورًا في التصدي لبعضهم وكان يواجه صغارهم بعنفوان التحدي وحدثَ في كثيرٍ من المواجهات أن تًعرَّضَ لضربٍ مُبرحٍ ولكن ذلك لم يرْدَعهُ، كان السبب الوحيد لنكوصهِ هو خشْيتهُ على إدريس الذي عادّة ما كان يَفرُّ من وجوهِ أولئك الفتية، ويترك صديقه وحيدًا... بعد أن يعْبرا تلك الرقعة يصعدا طريقًا ضيقًا عبارة عن تَلّةٍ تكتَظُّ بعددٍ من المنازل الصغيرة والحقيرة التي تقطنُها بعض الأسر الفقيرة، وأغلبهم من المُهمشين الذين فَقَدوا مُعيليهم ممن لقوا مصيرهم بالغوص، أو تُوفوا بالأوبئة، وكانت تلك البيوت مصدرًا لتزويدِ دار دلال ببناتِ الهوى، وقد شكّ صالح خلال معرفتهِ بجوري أنها ربما كانت من رواد تلك الدار، ولكنهُ تغافَلَ

عن الأمر، بل ومسَحهُ من عقلهِ ولم يترك خيطًا من نسيجِ ذلك الشكّ يتسلّل إلى ذهنهِ.

كانت ثمة أزِقَّة أخرى مترامية داخل وعلى أطراف الحي، ظلّا يقطعانَها طوالَ النهار، دون غاية سوى استنزاف الوقت والتَكهُّن بمُصادَفَة واقِعةٍ أو حدث يلتهيان بقطعِ الوقت فيه، كأن يشهدا شجارًا مُتَعمَدًا بين الكلاب يؤججُه بعض الفتية، أو معركةٌ بين زوج وزوجته تخرجهُما من المنزلِ ويتواصلا بالخِناقَةِ خارج الدار لتكون فُرجَةً لأهالي الحي. أو حادثة سرقة تَعرضَ لها دكانٌ أو بيتٌ أدى لعويلٍ وصُراخ، كانت السرقات تعمُّ بعض الأزقَّة، ولا تصل لأزقَّةٍ أخرى رغم ترك أبواب بيوتها ودكاكينها مُشرَّعةٌ على مصراعيها من دونِ وجود أحدٍ فيها، ولم يُعرفْ لغزُ ذلك. كانت بعض المحلات الصغيرة المحْشورَة في أطرافِ الحي التي تبيعُ الخُضار والفحم وبعض البهارات وعجائِن الصابون وأعواد الثقاب وأوراق التْبغ، يترك أصحابُها أبوابها مفتوحة لأداءِ الصلاة. ونادرًا ما تعَرضتْ تلك المحلات للسرِقة كغيرِها في بعض الأزِقَّة. كانت مثلُ هذه الحوادث تسْتوقف صالح وإدريس، يتخذان من المكان زاوية ينْتصِبانِ فيها ويتابعا بفْضولٍ بالغ ما يجري، حتى إذا ما انتهتْ الواقِعة، تركا المكان وانْعطَفَا إلى أزِقَّةٍ أخرى.

شَجعَ انعدام وجود عائلة كبيرة ترعاهما، غياب الأب، وأم عمياء بالتبني لدى صالح وغياب أب لدى إدريس على تفاقُم تسكعهما بلا رقابة، تربى صالح وحيد رقية وتربى إدريس وحيد جدٍّ لا يذكرُ كيف ترَعرَعَ في حضانتهِ،

تشابَهتْ حياتهُما في العيشِ واختلفتْ في السلوك والمشاعر، كانا وليدي فراغٍ أسري، تلقَفَتهُما الطرقاتُ والسواحل، فشَبَّا على سجِيتهُما العشوائية، عاشا بعفويةٍ، وضمن دائرة الأخطار والأمراض والتعَرض للاعتداء ولكنهما تجاوزا ذلك بمُعجزاتٍ كانت تحدث لهما، فقد تَعرَّضا مراتٍ عدّة للغرق في البحار، وواجها الموت في خرائبٍ مهْجورَة تَعجُّ بالكلاب، تناوَلا بلا دراية وبباعث الجوع أطعمة ملوثة ومسْمومَة، أُصيبا بالحُمى دون رعاية طبية إلا من عِلاجاتٍ اعتباطية محتواها الأعشاب والخلْطات السِريَّة الغامضة، خرجا من كلّ ذلك بِمعْجِزةٍ، لم يفهما مغزى بقائهُما على قيدِ الحياة.

في البدءِ كان صالح هو من يقود إدريس إلى الأسواق بشمال وجنوب مدينة المحرق حين بلغا العاشرة والحادية عشرة، كانا يتَوجَهان من بوابةِ حي بو ماهر، عند تقاطع أزقَّة الشريط الساحلي الجنوبي، يمُران ببضْعةِ أحياء مُنفَصِلة عن الحي الذي يُقيمان فيه، يتأمّلان سِلْسلَة المنازل الحديثة نسبيًا والمَبنية من طُوبٍ وحجارة ونوافذ حديدية غير تلك النوافذ الخشبية المُهترِئة التي على بيوت حَيهُما، كانت هناك شرفات في هذه البيوت تَطلّ منها الوجوه، وأبوابٌ من خشبٍ مطْلي باللون البني والرصاصي، غير تلك الأبواب الصغيرة الضَيقة التي ما يكادُ يخرجُ منها المرء، ثم يتوغلان في طريقِ سوق العجم المُكتظّ بباعةِ البهارات ومؤن الأكل المُستوْرَدة من بلادِ فارس، يعبُران طريقًا آخر، مخترقان سوق الذَّهب ليبلغا قلب سوق المحرق. لم يكونا وحدهما بهذا السِنَّ يقْتحمان السوق، كان هناك زُمرٌ من أطفالٍ بعمرها وحتى

أصغر منهما يجولون في تلك الدهاليز وهم عُرْضَة للكثيرِ من الرجال المتحرشين بالأطفال. هل تَعَرضًا للتَحرْش إسْوَة بغيرهُما من الأطفال؟

- كثيرًا...

أجابَ إدريس على خواطرهِ التي جالتْ في عقلهِ الباطنْ وهو يستعيد رُغْمًا عنهُ هذه الصور، فقد تَجنبَ طوال رحْلة العودّة التفكير في صالح وما جرى لهُ! أغْلقَ باب عقله على الواقعة وحاول محْو كلّ ما حدث ولكن ظلّ هناك في قعْرِ العقل الخفي صوتٌ يتحدث معه ويتحدى محاولَتهِ تجاهل الأمر، حين مرَّ السؤال بذهنهِ داخل قشْرَة هذا العقل المسْتور، قفَزَ صوتٌ من حضِيض دَهليز الرأس ونَبَشَ الصور وأجابَ على السؤال الذي راودَ ذكرياته بوابل ذكريات المدينة التي كانت في فترةٍ من حِقبةٍ بداية الأربعينات مع تدفق قوات الاحتلال البريطاني إثر تفاقُم الحرب العالمية الثانية، نَبشَتْ ذاكِرته التي اتقَدتْ بغتة هذه اللحظة، واقعِة الضَجَّة التي اجْتاحتْ الحي وعمتْ الأهالي لدى اختفائهُما، فقد مضى نهارٌ بطولهِ وحلَّ المساء ولم يعودا للمنزل، ما حدا برقية التي جَنَّ جنونها للخروج حافية في الحي والصراخ بأعلى صوتها: ابني اختفى، ولدي سَرَقوه... تلا ذلك خروج بعض جيران جدّ إدريس وتوكيل منادٍ يطوف بأزقَّةِ الحي وينادي بصوتٍ عالٍ وخلفهُ بعض الفتية: يا ناس من رأى طفلين تائِهين؟ من سمعَ عن ولدين مُختفّيين؟ ظلّ حتى منتصف الليل يُنادي حتى بحَّ صوْتهُ واعتقد السكان أن صالحًا وإدريس قد خُطِفا... أو اغْتُصِبا، حتى الفتْيَة ضعيفّي البُنْية، كانوا عرْضَّة لذلك على

أيدي بعض رجالٍ عانوا من كَبْتٍ فأصبحوا يجْرونَ وراء الأطفال، وكان شائعٌ بتلك الفترة مثل هذه الحوادث ممّا جعل أهالي حي بو ماهر يُسلِمونَ بأن الولدين قد وقَعا ضحية ذلك... وعندما وُجِدا باليومِ التالي وكانا قد تاها لدى خروجهُما من الحي وتوَغَلا بأحياءٍ بعيدة، أن فقدا الطريق وتعَرَّضا لمتاهةٍ جعلتهُما يضلان طريق العودّة ويقضيان ليلتهُما عند منْعطف مقهى خارج نطاق السوق بالقربِ من عماراتِ بيع أعْتدَّة البحر وأدوات البناء... وصادَفَ بذاتِ الفترة أن اخْتفَتْ طفلةٌ صغيرة بعمرِ السادسة، خَطفَها فتى بتَحريضٍ من والدتهِ المدعوة أسماء، وحين اكْتُشِفَ أمرهُما وُضِعَ الفتى على ظهرِ حمار وجُعِلَ وجهه مقابل مؤخرة الحيوان وراحَ أحد العَسَّس يدور به في الحي بأمرٍ من المُقيم السامي البريطاني الذي يَضْمن الأمَن وقد طُلِيّ وجهه بالفَحم عقابًا له على ذلك... مرَّتْ كلّ هذه الصور بذاكِرته حتى توَقفَ عند تلك الحادثة ولم يفهم لماذا تذكَّرها، وحين أعْمَل ذهنهُ بوتيرةٍ حادّة، ارْتعشَ حين تذكَّرهُ القصة.

روَى لهُ صالح بليلةٍ ساخِنةٍ من فصلِ الصيف بعد يوم شاق في البحر، أن تلك الطفلة التي تعَرضتْ للخطف وعثروا عليها ببيت أسماء المذكورة، كانت والدتهِ الحقيقة خديجة الفرض، وقد روَى له صالح الحادثة تلك نقلاً عن لسانِ والدتهِ بالتبني رقية العمياء... لماذا خَطرَتْ ببالهِ تلك الحوادث الآن؟ أصابهُ ذلك بالحَيرَة، وبنوْبةِ خوف...

"كنتُ غلامًا صغير السِنّ، وجْهَتي البيت والزُقاق وساحل البحر، خَرجتُ في البدء مع جدي ورافقتهُ لمقهى وسط سوق مدينة المحرق، يقع بمحاذاة البلدية، وبقربه بعض محلات لبيع الحلوى والخضار، ومطعمٌ صغير يقدم وجْبَة صباحية يُطلق عليها الباجّة... كان يأخذُني بعد صلاة الفجر، وقبل شروق الشمس، إلى مدخل السوق، يحمل معه طاسًا معدنيةً كبيرةً ذات غطاءٍ مُحكم، نمرُ بخبازٍ خلفَ سوق الذهَّب وهناك يبْتاعُ بضع أقراصٍ من الخبز، ثم يتوجه بيَ إلى ذلك المقهى، نجلسُ بإحدى المقاعد الخارجية المُطلَّة على واجهةِ البلدة، ويتناول فنجان شاي، ثم يخرج الخبز ويَبْترُهُ إلى قطعٍ صغيرة ويضعهُ في الطاس ثم يتوَجه لمطعمٍ الباجَّة وهناك رجلٌ أعجميٌ بوجهٍ تكْسوهُ الندوب وبشَرَةٌ مُعقَّدة النسيج، صارِخة تَنمُّ عن قسْوَةٍ، يكْتظُّ المكان برُوادٍ من مختلف الأجناس، يعطيه الطاس ويَغمُرُها الرجل ذو الندوب بالحِساء مع قطع من الكوارع والكرش واللسان، ثم نتوجه نحو المنزل مع بزوغ خيوط الشمس الأولى ونتناول تلك الوجْبَة التي ما زالَ طعم مذاقها في فمي، كنا نبتلعُ الطعام بشَغفٍ وسرعة، بعد ذلك حين توفي الجدّ وقد بلَغتُ سنًا تؤهلني للخروج وحدي، دئِبتُ أنا وصالح على توفير بعض المال والذهاب لنفس المطعم وتناول تلك الباجَّة وما زلتُ حتى الآن اتَّطلَّع إليها، وأنْوي أن أزور المكان... "

توَقفَ إدريس عن محادثتهِ العقلية الصامِتة، حين تذكَّر غيابَ صالح وأن عليه أن يعْتادَ منذ الآن القيام بعملِ الأشياء التي كانا يقومان بها معًا وحدهُ... عليه أن يَألَف الوحدة وأن ينسى السنوات والشهور، الأيام والساعات والدقائق التي جمعتهُما وافْترَقا أخيرًا! كان عقلهُ مُتقدًا بكلّ الاتجاهات حتى أنه فقدَ اتجاه مسار السفينة التي كانت تشقُ الموج والهواء الذي يُرفْرفُ بالشراعِ وفي الأسفل تُخَلِفّ سرعة المركب فقّاعاتُ الماء وزَبَّد البحر وراءها... كان بعض البحارة قد استلقوا وتوَسَدوا ملابسهم وبعضهم راحَ يُحدقُ في الموج وآخرون انشغلوا بخياطةِ ملابس مُمَزَّقة، فيمّا البعض اكتفى بالجلوس والتأمّل، بحارٌ واحدٌ فقط قَبعَ عند حافَة الوسط وراح يُنشدُ موالاً حزينًا يناجي ويُعاتِب بهِ البحر والبشر معًا.

عندما ثابَ إدريس لسْلسِلَة الوقائع التي أَلَّفتْ بينهُ وبين رفيقه صالح، كان حنينُه إلى اليابِسة قد خَفتَ فجأة وشعر برغبةٍ في التقيؤ، كان ثمة صوتُ آخر يتحدث إليه لم يفهم مغزاهُ، فبينمّا شُغِلَ عقله بالبرّ، أدركَ فجأة أنه سينزل اليابِسة ولن يلتَقيهِ أحدٌ، ثم طافَ بذهنهِ طَيْف جوري...

"هل ستقفينَ بمرفئِكِ القديم على بعدٍ من الناس تنْتظرينَ، كمّا بالموْسم المُنصَرم؟ هل سأراكِ من على مسافةٍ؟ ماذا سأخبرك جوري؟"

علَقَ السؤال بداخلهِ كمّا لو غَصَّ به، تثاءبَ، انهالَ شعورٌ ضبابيٌ في رأسه، وانتابَتهُ أفكارٌ جمَّة، خليطٌ من الصور والوقائع، احتشَدتْ أصوات عصافير على شجرةٍ... سفن قديمة مُهترِئة على الساحل... نوافذُ خشبية

مُعتَّقة... وجهُ رقية العجوز... حين تراكَمتْ الصور واحتشدتْ بكثافةٍ في رأسه شَتَّتْ تفكيره وجعلتهُ ينهض ويبدأ بالمشي على سطح السفينة، اِلتقاهُ أحد البحارة وسَأله دون مقدمة...

- هل تناولتَ وجبةُ الفطور إدريس؟

لم يذكر إنه تناولَ شيئًا منذ مساء البارِحَة، لم يشعر بالجوع ولم يخطر بباله الأكل، تبادل مع الرجل بضعُ عبارات تَغافَلَ خلالها تداول سيرة رفيقه صالح ثم مضى يتَجوَّل في الأرجاء. جرَّبَ محوَ كلّ ما علق بذهنه عن الرجل، حدقَ في السماء، تمعنَ في الموج، سرحَ بالتفكير في اليابسة، ثم فجأة، تذكَّر أمرًا فسارع بالتوجه نحو صندوقه الخاص بأغراضه، انتزعهُ من طرفِ السفينة قرب الصاري حيث كان قد ركنه منذ الفجر، جلسَ وأَثْنَى ركْبتيه، فتحهُ بحذرٍ شديد، تلفتَ حوله بريبةٍ، أدخل يده بالصندوق وأمسكَ بصرَّة صغيرة من خرقة قماش، تحسَّسها دون أن يُخرجها من المكان، تنهد وأغلق الصندوق ووضعهُ بجانبهِ.

"كلّ شيء بالحياة يحدثُ له مَغزى، الله هو من يرْسمُ أقدرانا ومن يتَحكَّم بنواياانا، لا تَحزن إدريس، كان مُقدرٌ أن يقع ما وقعَ، فهي إرادة السماء وأنت لست إلهًا، ولا نبيًا ولا مُتحكّمًا بالأمور، نحن بشر خُلِقنا ضعفاء، لا نملكُ مشيئة حياتنا ولا نوازِعُنا، الأعمال بالنيّات إدريس وأنت، نِيَّتُك الحلم مثل صالح... والحلمُ جاء عندك وهو من منحك الحلم بوَضْع الدانة عندك وتَرَكَها ورَحلَ... لستَ إلهًا لكي تتَحكَّم بنوايّاك، قُمْ وغيّر وجهُك العابِسْ،

أغْسلهُ بالماء وتوضَّأ وصَل وأذْكُر الله واسْتغْفرهُ والله وحدهُ يعلم ويغفر، ربمّا أرْسلَكَ لتُحْدِث تغيّيرًا في حياةِ امرأة كَتبَ لك أن تسمعَ تفاصيل حياتها وتنْخرِط في وهمٍ سرعان ما نَبتَ منهُ حلم لتكون على مفْترقْ طريق معها... قُمْ إدريس وغيّر دفَّة حياتُك من الآن، اِمْح كلّ ما علِقَ في عقلك وانظُر للبحر واشْتمَّ الهواء وتأمّلَ السماء فسترى دنيا جديدة بانتظارك".

- الله يرى ويعرف ويُدبِر إدريس...

اهْتزَّ لوهْلة، ثم أفاق وهَجَسَ في داخلهِ...

"ماذا تعني؟ لن تقْدر على مُجاراة عقلك، لن تستطيع تضْلّيلَه، إنه يُجاريكَ فتظنُّ أنه معك... هل أنت عقلي؟ هل هذا صوتُك؟ أنا ضميرٌ مسْتتَر في عقلك... بل أنت صوت دخيلٌ تناورني وتقودوني لمَتاهَة، لقد حسم الله وقُضيّ الأمر وانتهى... لا إدريس، الله هناك في قاعِ البحر... والله رسَمَ خطَّته ونفَذتُها أنا بالنيابَة عنه، كلّ ما نفعَلهُ هو الله... تذكَّر جوري إدريس وإنْسَّ هذا الصوت المُقْتَحم بوقتٍ قُضِيَّ فيه الأمر... الله يُعْطي والله يأخُذ... صوتي هذا أم صوْتُكَ؟ تذكّر المدينة التي عانَيْتَ منها، المحرق التي ظلَمَتكَ... الجوع الذي عانَيْته، الحلم الذي فَقَدتَه، تذكّر إدريس كم كنتَ وحيدًا، ضائعًا، منْبوذًا، حانَ لك أن ترى المدينة ببَهْجةٍ، ستَبلغُ البرَّ وستَشمّ هواء مُختلف... ستعرف امرأة... لقد كَسبتَ إدريس حياة جديدة مُثيرَة، لماذا أنتَ مُبْتئس؟ صالح ماذا عنه؟ لقد رَحلَ... غابَ في القاعِ والسفينةُ تعود الآن من دُونِهِ... لقد اخْتارهُ الله ولستَ أنتَ؟ جوري صارتْ من

نصيبُكَ... ألم تتَمَنها في داخلك؟ ألم تتَخَيَّلها؟ ألم تَشْتَهيها؟ ألم تحبُّها؟ لقد تحَقَّقتْ أمْنِيتك! تذكّر أن كلّ ما نتَمَناهُ يتَحقَّق؟ حتى لو كان ليس من حقِنا؟ كلَ ما تتَمَناه يتحقَّق؟ هذا هو قانون الحياة إدريس".

قلقٌ ورتابةٌ وتفكيرٌ عميق، طارَدهُ طوال فترة سَيْر السفينة نحو برّ الديار، ماذا كان يدور برأسهِ؟ ظلّ عقلهُ دقيقةً بأُخرى يتخيّلَ ما سيُصادِفهُ على اليابِسة، ظلَّ يحسب كلّ خطوة منذ أن تَرسُو السفينة في المرفأ ويخرج البحارة، ويتجمع الأهالي، يأتون من كلِّ حيٍ وزُقاق وحتى من أحياءٍ متاخمة وبعيدة لدى علْمهُم بقدومِ مركب من مراكب الغوص... كيف يعلمون بوصول هذه المراكب؟ كان هناك بعض رجال البحر من كبار السِنَّ، وحتى بعض أبناء البحارة الغائبين، دأبوا كلّ يوم على الوقوف بالسواحل وفي المرافئ القديمة المُتهالِكة، والنظر إلى الأفق من على مسافةٍ، وحالمّا يلْمحونَ مركبًا قادمًا يتنادون بسرعةٍ خاطِفَة ويبلغون أهاليهم فيتنادى أغلب السكان من نساءٍ وأطفال ومُسنين، حتى ممن ليس لديهم مُعيل أو غائب بالغوص، يتَحوَّطون المكان، ينتظرون وصول السفينة على الساحل. كانت بعض السفن الكبيرة التي لا تستطيع الرُسو عند المرفأ إذا صادفَ وكان البحر بحالةِ جزْر، ترسوا السفينة في البحر على مسافةٍ ويهْبطُ منها البحارة، أو يكون هناك قاربٌ صغير يَقلهُم... وحين تَطأ أقدامهُم اليابِسة بعد تلك الشهور الضِرام، ينْتفِضون رعْشَة حينما تُلامس أجسادهم أحبابهم ممن ينتظرونهُم...

ينْسونَ طعمَ ملحَ البحر، ويتَذوقون حَلاوة اللقاء، بعضهُم يظلّون عالقينَ في البحر، ويحتاجون لمسافةٍ زمنِية طويلة كي يسْتردونَ مذاقَ اليابِسة...

مرّ عقلهُ بتَفاصيلِ رؤية غير متوقَعة له حين يَهبِط إلى البرّ... لا أحدٌ في اسْتقبالِه ولا أحد ينْتظرهُ سوى شعورٍ هذه المرّة يرافِقهُ وهو ينزلُ وحدهُ من دون صديقه صالح.

- هناك هذه المرّة جوري بالانتظار!

جاءه صوتٌ من الداخل.

- لن تَنظرَ إليك إدريس... عينيها ستكون موَجَهةٌ نحو أفق أبعد منكَ... ستكون صَدمتُها هائِلَة ولن يُكتبْ لك حتى الدنو منها...

ردّ صوتٌ آخر يشاغْب عقلهُ المُحتَدم بالتأويلات...

- سأتقدم منها وامْتَصُ صدمتُها وأرافِقها للدار وأمْسَح حزنَها... من يدري إدريس، قد تجدُ فيّ عزاءً عن فقدانها صالح.

قال مخاطبًا صوته الآخر الذي ظلّ يُعمِّق الشكوك فيه...

- لا تخدع نفسك... هي تحب صالح.

- حين ترى الجوْهرةُ سيخْتَفي حزنها...

لم يستطعْ الجلوس، نهضَ وراحَ يسير، مخْتلطًا ببعض البحارة محاولاً نزعَ الصوت الثاني المُعكّر من رأسه... أخذ يتبادل بعض العِبارات مع بعضهم، ثم جَنحَ إلى المرحاض وهناك جلس من دون أن يكون بحاجةٍ أصلاً لاقتحامه، شعر بأنهُ يريد الهروبَ من وجوه البعض، ثم اكتشَفَ شعوره الدفين

أنهُ يُريد أن يهرب من نفسه، كان يرى ذاته مُحبَطَة ومشَوشَة رغم تفكيره في جوري والدانة التي حَبَسَها في جيبهِ.

"ستفوز إدريس بقلبِ جوري، ثِقْ من ذلك، النساء يعَشَقنَ الحياة، سرعان ما ينْسَّيْنَ

الحزن، بنقيض الرجال الذين يُعشْعِش الحزن في قَعْرِ أعماقهم... سَتنْسَى جوري صالحًا، سيتحقق الحلم... ستَغدقُ عليك الحبَّ... وحتى الله سيغفر لك حينمّا يرى سعادتها بين يديك... هذا غدْرٌ إدريس لن يُنْسى، ستَظلّ روحك مُعلَّقةٌ بساريةٍ مدى حياتُكَ... لا تُصدق هذا الصوت، إنه يغُشُك، فكر بالجنّة مع جوري، سيمْحو الحبَّ من ذاكِرتك كلّ ما جرى، بل ستعيش مع جوري ومعَكُمّا صالح، سترى وجْههُ ما حَيّيت... لا تُصدق، سوف يمحو وجودكَ معها في فِراشٍ واحد وجهُ صالح... ماذا عن وجه رقية العمياء، لن يُفارقُها الحزن... لتذْهبْ إلى الجَحيم... جوري وحدها هي المُنْتَهى... ماذا عن حياتُك التالية؟ كيف ستمضيها وحدك؟ من سيذهب برفقتك إلى المقاهي والسواحل وجولات السوق؟

ستكفيني جوري... لقد كنتُ أحلم بها ولشدّة شغفي بها اسْتَمنَيت على خيَالها شهورًا عدّة... إنه ذنب صالح وحده الذي حشَرَها في عقلي، لولا تفاصيلُها الشَبِقَة معها ولولا تصويرهُ وتجسيده لعلاقتِهِ بها لمّا بلغتُ أنا هذه النقطة الفاصِلة... لقد زَرعَها في قلبي وعقلي، فَسَّرَتْ في شراييني طوال موسم الغوص... رَبَطْتُ بين رؤيتي لها من قبل، وبين تجْسيدهُ عن جسدها

وعاطفتها وعُنفوان شَهْوَتها التي لمَسَها منها، رأيتُ ذلك في أحلامي... كم من أحلامٍ نارية قضَيتُ الليالي أحترق معها؟ كم عشتُ قصصًا خيالية في ذهني معها؟ لم أبْدِ أمامهُ ذلك ولم ألْمحُ لشيءٍ من ذلك... كنتُ استمتعَ برواياته معها وكان يظنّ أنني ألهو معه فقط... لم يعلم ما أوْقَدهُ في أعماقي من شغفٍ بها... كان مُهوّسًا بها وحبه لها جعلهُ يثقَ بكَ ويَمنحُكَ فرصةَ التفْكير في امرأةٍ مثلها، كان يُريد سعادتُك أنتَ من حُبِهِ لكَ... بل كان يتباهى بها أمامي ويُكْويني بنار لا يعلم ضراوتها... سأحبها وأعوضها وأنسيها، سأُعطِيها كلّ ما أملكْ... لن يفْلحَ ذلك... كلّ ما تُعطيه يعودْ إليك... ليس هنا... بل سترَى الحبّ يمْحو الخطِيئة".

حين لاحتْ اليابِسة من على بعدِ مسافةٍ، يتَخلّلُها ضّبابٌ خفيفْ... خَفقَ قلبهُ. ظهرتْ بعض طيور النورس بِريشّها الرمادي، ورؤوسها التي يَكْتنِفُ جزءٌ منها السَواد، وهي تحلقُ في السماء إيذانًا بقُربِ اليابسة بعد ساعات من الإبْحار، بدأ منذ الفجر، اسْتدارَ الرُبان سليمان بالسفينة حينمّا أمرّ مساعِدهُ بتغْييرَ وجهة الدفّة ليُعادِلَ بين جَهةْ رياحُ الشَمال، وجهة الشراع، تَبدَّتْ مدينةُ المحرق من مسافةٍ ضئِيلّة، رمادية اللون... يكْتنفُها غموضٌ عميقٌ... لتَبدو كَمنْ كانت نائِمةٌ وتوشكَ أن تَسْتفيق.

- استعدوا يا رجال...

صَرخَ مساعدُ الرُبان بأعلى صوتهِ...

تغيّرتْ ملامحُ البحارة وسادَ بينهم الصَمتُ وقد جَمَّدتْ نظراتهم نحو البرّ وبعضهم رَفعَ رأسهُ يُحدقُ بسْربٍ من الطيور كان يُحلِق بتشْكيلٍ مهيبٍ فوق السفينة ريحانة المُقْترِبة من اليابِسة.

- حانَ موْعدُك إدريس...

خاطبَ ذاتهُ فيمّا خَفقَ قلبه وهو يتَطَّلَع لِسرْبِ الطيور تلك وإلى مَلامِحِ المدينة وقد شابَ واجِهتُها البحْرية وُشاحًا من غُبَار الخريف الموْسمي، فأضْمَرَ لون أفْقها، وهذا هو طابعُها المعْهود في هذا الوَقتُ من السنة.

- عُدنا يا مُحرَّق، يا مدينَةُ الضَياعُ...

قالَ ذلك خميس المُؤذِن...

# 29

21 سبتمبر 1940-المكان ساحل المحرق الجنوبي-الوقت عصرًا-الحالة-عناقيد الرَّمل

انْطلقَ سِباقُ الأهالي نحو مرْسَى السُفن عند الشَريط الساحلي جنوبي المدينة بِمحاذاةِ الواجِهة الصَخْرية بالقربِ من مَعمَل السفن التي هي تحتَ الإنشاء، حالمّا أدركوا الخَبَر من بعضهِم بعضًا، حيث اعتادَ فرْدٌ منهم ما أن يعلمْ بالنبأ حتى يَسْري كالنارِ في الهَشِيمْ، هَروَلوا رجالاً ونساءٌ وأطفالاً، يُردِّدونَ عِبارَة عادَ الغَواصُون... عندها يَنْفرُ كلّ من له عَلاقة وحتى من ليس له طَرَف في البحر إلى نقطةِ الرسو، من غيرِ معْرِفة بهَوِية المركب القادم حتى يلُوح على مسَافةٍ قصيرة...

المَرْسى المُقامْ جزءٌ منهُ من الخَشْب الصَلد المُقاوم للمياه والرطوبَة والحرارة، وجزءٌ آخر منه وهو السُفلي من حجرٍ، برَزَ مُحيطة التَحْتي قاتِم اللون بفعلِ حدود مياه الموج عندما يَبلغُ المَدُّ، مَداهُ. يَنْتشرُ الخَبر، فتَعمُّ الجميع مشاعرٌ مُتباينَة، بين الخوْف والشكّ والفرح والارْتياب، ولكن الابتسامة تسُود الوجوه بقربِ لقاء الأحبابْ.

كان الوقتُ عصرًا وسماءُ الخريف بدت مُثقلَةٌ بالغُبار وشَرْذمَةٌ من غيومٍ بدتْ كأنها بقايا طَّبق مُهَشَّم، وقفَ البعض عند حافَة الساحل ونَزلَ البعض الآخر إلى محيطِ الرمْل والبحر، طَفقَ بعض الأطفال يتراكضُون ويقفِزونَ في الهواء وكأنهم فَراشات تتنَقلُ من نقطةٍ لأخرى، فيمّا انْشّغلَ أهاليهُم بالحديثِ مع بعضهم بعضًا وحَدّقَ آخرون بصَمتٍ باتجاهِ سفينة لاحتْ من على مسافةٍ قريبة بدأتْ تُرخِي شِراعها الهائلُ الحجم وبَرزَ من سطحِها أعْدادٌ من بحارةٍ لم تَظهَر ملامحهُم بعد، كانت الرياحُ ساخِنَة يشُوبُها الغُبار، وانْعكسَ ذلك في انطلاقِ موجةٍ من السُّعال لدى بعض كبارِ السِنّ منهم، فيمّا تعالَى ضَجيجُ الأطفال في المُحيط... وتَعالَتْ من جهةٍ أخرى زَغاريدُ النِساء.

أُحيطَ المكان بضَّوْضَاء اخْتلَطتْ فيها الأحاديث، فلم تَعد تُميّز ما يَدُور بينهم لأن الجميع راحوا يتحدثون جميعهُم في ذاتِ الوقت، دون أن يَسْتمِعَ أحدهم إلى الآخر خلال زَعيقهم، وكأنهم في سباقٍ مع بعضهم البعض. عادتْ طيور النَوْرس تُحلقُ في الأرجاء، ومع دنو السفينة ريحانة من المرفأ، توقفت فجأة على مسافةٍ وألْقَتْ بمِرْساتها... مما وَتّر بعض الأهالي فأصابهم قلقٌ مشوبٍ بالصمتْ والهدوء...

سكونٌ مصحوبٌ بصوتِ رياح ساخِنَة تهُبُ على الساحل البحري بمحاذاةِ المرفأ المُطِلُّ في ركنٍ منهُ، على سِلْسِلة أقفاصٍ كبيرة لصيدِ الأسماك، وقطع من الأخشاب الطويلة والعريضة مُخَلّفة على الأرضية، مقابِلَ البحر الذي كانت أمواجهُ لحظتها تَرْتطِمُ بجوانبِ مُحيطَهُ الصخْري، كان البحرُ راكدًا في

بدايةِ مَدٍ، تُسْمع صوت أمواجه الخفيفة الهادئة تلْطُم سياجهُ المُكوَنةٌ من صخورٍ كبيرة مُتراكِمة على امتدادِ المكان... بدتْ السفينةُ الجاثِمَة هناك وراءُ الموج، كمن تَنتظِرُ اكْتِمال حالة المَدُّ لتَدنو إلى المرسى...

اعْتادتْ مدينة المحرق اسْتقبالَ بحارتُها القادمين من الغوص، في بداية موسم العودّة، بالأهازيج والأغاني، والطبول، حينمّا ترسو مجموعة من السفن بذاتِ الوقت، كان السكان يَهِبُّونَ عن بَكْرَةِ أبيهم ويَحْتشِدونَ على طولِ السواحل المُترامية جنوبي المدينة من السوقِ وحتى ذَيل الشريط البحري الذي ينتهي عند القلْعَةُ الأثرية المُطلّة على البحر... كانوا يتَوجَسونَ الخوف والمُتعَة بوصولِ أقرِبائهُم معًا، وبعد مُضي الشهور الأربعة وعودة غالبية مراكب الغوص، لا يبقى سوى البعضُ، ثم يبدأ توافد مركبان أو ثلاثة، بعدها ينقطعُ حَبلُ العودّة إلا نادرًا فيمّا تبقّى من سُفنٍ كان آخرُها على ما يبدو سفينة الرُبان سليمان الهمام الذي عَرفَ أهالي المدينة عنهُ دائمًا تأخرُه بالعودّة.

لم يَأتِ أي من الأهالي هذه المرّة بالطبول ولم يَحْضر المُغنُون ولم يَظهر هناك من يَقفزُ إلى الماء بالتوَجّه للمركب لبُعدهِ نسبيًا عن الساحل، كان رسُوَّه هناك قد أجّجَ مشاعر المحْتشدين وبدأت أصواتهم تخبو تدريجيًا ولاحتْ عليهم دلائل الضَجَر وهم ينتظرون... بَرزَ عددٌ من الرجالِ راحوا يتجاذبون أطرافَ الحديث بِهَمسٍ وكان بينهم من خَمنَ سبب تأخر السفينة ريحانة عن الرسو، ليس بسبَّب ضَحالةُ مياه البحر الذي ظهر وكأنهُ اكتَملَ المَدُّ بعد مضي فترةٌ من الوقت...

- يبدو واللهُ أعلم أن ثمَة موتى على السفينة.

قال رجلٌ طويلُ القامَة مُتوّسط العمر، كان يتَداوَلُ أطْراف الحديث مع آخرين وقد بدا على مَعْرِفةٍ بتَقاليدِ البحر والغوص وقد أشَاعَتْ عِبارَتهُ هذه الهَلَع في نفوسِ الآخرين، وسرعان ما تَسَرَّبتْ تلك العِبارَة بين الجميع وانْتشَرتْ مثل النار في الهَشيمْ...

كان من تقاليد مراكب الغوص عند الردّة، ومعهم بعض المُتوَفّين مُؤخرًا، أو ممن تَوفّوا منذ أمَدٍ ودُفِنوا في البحر، أن يتأخر بلوغ المراكب تلك بعض الوقت عن المَرسى للصَلاة عليهم أو لتقرير ماذا يُخْبِرون أهاليهم، لأسبابٍ تتَعلَق بمَراسمِ الحزن التي يتم توْضِيبها قبل أن يَهْبط البحارة إلى البرِّ ويلتقون الأهالي... كانت للمدينة طقوسها في التعاطي مع السفن التي تُوُفَّي فيها بحارة، كانت بعض السُفن تَذهبْ لمراسٍ بعيدة من تلك المُتَوقّع فيها وجُود مُسْتقْبِلين، وكان ذلك بِهدفَ مُراعاة مشاعر أقرباء المُتوَفَّى، ورغْبة بعض الربابنة في عدَمِ جعل مشاعر الحزن والفرح تتضارب بآنٍ معًا، تقديرًا لمشاعر من لن يَلتقوا بأهاليهِم وسط فرحَة البعض الآخر ممن سيَجتمِعون بأحبائِهم العائدين.

بعد بُرهَة من وصولِ السفينة ريحانة ورُسوُّها على بعدٍ من الساحل، أدْركَ الجميع فجأةً الخبر المُفْجِع عندما رَفْرَفَتْ بَغتَة رّايةٌ سوداءُ بِساريَةٍ طويلة على جانبِ مُؤخرة المركب... حينها أدركَ المُترقِبون على الساحل أن ثمَة أمواتٌ بين البحارة!

صمتٌ أطبَقَ على الناسِ، إلا من ضَجِيج الأطفال، زَقْزقَة بعض عصافير اعْتَلتْ نخّلتين مُنتَصبتَين بطَرفِ الساحل، وسادَ الوُجُوم... في العادّةِ عندما تغُصُّ الضفَةُ بالناس لدى توارد الغواصين، وتَّرفَع بعض المراكب الأعلام السوداء، يَعمُ النحيب والعويل المنطقة حتى قبل أن يَتعَرَف الأهالي على هوِيَة المتوفين، تنْهالُ بعض النساء على رؤوسهِنَ برمالِ الشاطئ، ويَعلُو البُكاء وينْتَحبُ بعض الرجال، فيَشهَد الساحل مأتمًا دون جِنازاتْ، وتتَحوَل فرحَةُ العودّة إلى مَناحَةٍ نُواح وحزنٍ قاتِم، ويَزول تدريجيًا مع هبُوط البحارة من السفن، ويحْتَفى المترقبون بمشاهدة أقربائهُم وقد عادوا سالمين، إلا أولئك الذين لم يلتقوا بأحبائهم، يلُوذُ بعضهم بصمتٍ تُكْبَتُ فيه المشاعر، أو يتضاعَفُ حجم العوِيل والنُواح. لا شيء تغيّرَ في هذه الطقوس منذ سنين، وظلّتْ الشَعائِر تتوالى بمرورِ الزمن، وما قلّلَ اليوم من هَوَّلِ هذا الحدث السوداوي قِلّة عدد المراكب العائدّة.

حين لمحَ البعضُ رايةً سوداء منْصُوبةً على سفينة سليمان الهمام، هَجسَ كلِّ فردٍ من المُتَجمْهرينَ ممن لهم غائبٌ على ظهرِ هذا المركب، أن المَفقُود يعْنيهِ هو، يظلّ هذا التَخمِين عالقٌ برأسِ الجميع حتى يبدأ توافد البحارة على البرّ، فَيزُول هذا الهاجِس وتحلُ مكانهُ فرحةٌ، ويسْتمرَ الآخرون يعانون نفس الهاجس بانتظار زَوالُهُ أو ثباته. حتى إذا ما بلغَ آخر البحارة البرّ، تفرَقَتْ الجموع بين حزين ومُبْتهج، بين منكوبٍ ومُغتَبط، وكثيرٌ ما كان الجميع فرحين ومبْتَهجين حين يَرجَعُ الجميع دون مفقود. هذه الطقوس المُتَبايِنة بين

أحزان وأفراح لازَمتْ طابعَ مدينة المحرق سنين طويلة منذ عُرِفَ الغوص واِرْتادَهُ غالبية رجال وفتيان المدينة... كان الاحْتِقان طابع السواحلُ والمرافئ وكانت الكلابُ التي تنْبح بقربِ البحر، تزيدُ من ضَوْضّاء الرقعة التي تشْهَد تلك المناخات التي تعكسُ وجه المدينة الآخر، إن لمدينة المحرق الرمادية، وجوهٌ عدّة، منها الغُبار والضَبابْ والغمُوض والضِياع، وهناك وجُوهٌ أخرى كالأهَازيج والأعراس وليالي الحِنَّاء التي تُطلَى خلالها يدا الفتاة بلونِ الحِنَّاء وحفلات الخِتان ولكن تظلّ وجوه الحزن الأزلي ترافق موْسمُ الخريف، وهو ميقاتُ عودّة الغواصين. هكذا تمضي المحرق، مدينةً بوجوهٍ مُتناقضةٌ، يَؤمُ أرجاؤها خلقًا متَنافرُ الأعراق والألوان والمشارب، بحرينيين، عُمانيين، فرس، وهنود، غالبية فقراء... معْدَمون، وقلّةٌ أغنياء ميسورين... تَخْتلط وتفترق المشاعر، ولكنهم انْخَرَطوا في بوْتقَة أحيائها وأزِقّتها، كانت واحَةً مليئةٌ بالتَناقُض، والمُفارقَة فيها، إن فقراءها قَنَعوا بما قُسِمَ لهم والأغنياء تذمَروا من هَيْمنَة الاحتلال البريطاني الذي رَءُوا فيه قيودًا ضد توَجهاتهُم...

كان أغلب الأغنياء فيها من تجار اللؤلؤ الذين راكَموا ثرواتهم من خلال تصدير تلك الجواهر النفيسة إلى الهند، والتي كان نَصيبُ الغاصَةُ والبحارة منها لا يكاد يسِدُّ رَمَّقهُم، ورغم ذلك كانوا راضين بِحالهِم، بل يحمدون الله إن تيَّسَرت لهم الحياة للمواسم التالية. بعد كلّ موْسم غوص يعودون بعده وتكاد أيديهم لا تَقْبَّض إلا ما ييّسْر حياتهم المعيشية لبضعةِ أيام سرعان ما تُصَفَّر جيوبهم ولا يجدون ما يَتسَنى لهم سوى البحث عن أعمال أخرى كصيدِ

السّمك وتوْصيل الأغراض والانْخِراط في البناء، الذي أغلبهُ مقام من سَّعَفِ النخيل والأخشاب وقلّةٍ من المنازلِ تُبنَي بالحَجَر البحري، بنسبة ضئيلَة لبعضِ سكان الأحياء المَيسورَة بوسطِ المدينة، كانت بيوتُ الفقراء معظمها يقع على السواحل وفي ضواحي المدينة الجنوبية المُحاذية للبحر، هناك حيث يَحْتشدُ الأهالي الآن لاستقبالِ القافلين على السفينة ريحانة القابِعَة بوسطِ البحر تترَقَّب أوامِرَ الرُبان سليمان الهمام لإفراغِ شحْنتُها من الأحد عشر بحارًا بعد فَقْدِ أحدهم في البحر ألا وهو صالح الزري...

❁❁❁

أحد عشر بحارًا ورُبان ومفْقودٌ، كان هذا حَمْل السفينة التي هبطوا جميعهم منها مع أُفُول شمس الحادي والعشرين من شهر سبتمبر 1940. بدأ عناق الأهالي لأقربائِهم، بين بَهجَة تُرافِقُها دموعُ الفرح بعودتهم سالمين، كان البعض يَتفَرسُ في وجوهِ البحارة بحثًا عن تغييرٍ في ملامحِهم بعد طول غياب، امرأة كانت تَحملُ طفلةً صغيرةً بعمرِ السنة، وبرفْقتِها صبي بعمرِ السنتين أو أكثر، أمْسكَت بيد زوجها الذي كان يرتدي ثوبًا بني اللون وغترة بيضاء مُكوّرَة فوق رأسه، كان أسمرُ البِشرة، طويل القامَة نحيف البُنية، بدتْ سعيدة بجانبهِ وقد تَرقْرَقَتْ عيناها بالدموع، أطْبقَ رجلين بدا من سحنتِهُما شقيقي البحار واحتضناهُ وظلا يتأمّلانه وهمّا يرحبان به بغَبطةٍ فيّما بدا هو وكأنه غريبٌ عن الوجود... في طرفٍ آخر بَرزَ المؤذن خميس وقد أحاطتْ به أسْرةٌ كبيرة، معظمها من رجال بذاتِ السِحنَة السمراء، وعددٌ من أطفالٍ وفتية

وقد حَملَ أحدهم عنه صندوقه، ظلوا يتبادلون العِناق معه ولم تظهر معهم امرأة... بِركْنٍ آخر دارَ حوارٌ بين رجلين رافقا الرُبان سليمان الذي كان ينتظرهُ في الخلفِ عدد من رجاله حملوا ثلاثة صناديق، اثنين كبيرا الحجم وآخر كان متوْسطًا، وصندوق آخر كان ما يزالَ على الأرضِ وقد وقفَ بجانبه بحار رافق الربان.

- سلامتُك يا بو محمد، نوّرت مدينة المحرق بعوْدتك...

تبادلَ معهم حديثًا مقْتضَبًا، ثم التَفتَ نحو معاونه غانم وكان الأقرب إليه من غيرهِ من المساعدين على السفينة، وكان بدورهِ يتبَعهُ ومعهُ أحد الرجال حمل عنه صندوقه، نظرَ إليه لوهلَةٍ كأنه يسْتجْمعُ شَتاتَ أفكاره ثم قال بنبرةٍ باردة شابَها حزنٌ دفين.

- هل تقَصَّيت عن وجود أحدٍ من أسْرةِ صالح بين الحضور...

سألَ الرُبان وقد توقفَ عن المَشي نحو عربَة دواليبها خشبية، يجُرُها حمار، وُضِعتْ عليها الصناديق...

- لم أجد أحدًا سيدي سليمان...

ردّ الرجل المساعد...

تنهدَ الرُبان وقال وهو يستأنف سيرهُ نحو عربَة الحمار، وبرِفقتِهِ الرجال، ثم ردَّدَ بنبرةٍ قانِطَة:

- سيتكفل صاحبه إدريس بذلك وسنرى أمرهُ لاحقاً...

ثم أردفَ وهو يقتربُ من العَربَةِ، فيمّا لا زالَ المكان يَغصُ بالضَّوْضاءُ، وتَلاحَمَ الأهالي مع اقربائهُم العائدِين. وقفَ بحارٌ ممن كانوا على ظهرِ السفينة، وسَلَّم على الرُبان وقَبلَ يدهُ وقَبْل أن يبتعد اسْتوْقَفه الرُبان وسَألهُ عن اسمه...

في تلك اللحظة ومن مسافةٍ بين جموع المتَجمعين، من أهالٍ وبحارة، بانَ من بين الجموع إدريس، وَقفَ ينْظرُ حوْلهُ بذهولٍ، قلبهُ ظلّ طوال الوقت يَّخْفقُ وتتَصاعَد ضرْباتهُ، غاصَتْ قدماهُ في الرَّملِ دون أن يشعر بضَغط جسمه على الأرض، كان رَّملُ الساحل من النقاءِ حتى بدتْ خلالهُ قطع صغيرة بارِزَة من شَعْرٍ، ومسامير، وأعقاب سجائر الْلفّ، دنَا منهُ صبيٌ كان على ظهرِ السفينة معهُ، مدَّ يدهُ له قائلاً بنبرةٍ خجولَة وودية...

- سقَطتْ منكَ هذه وأنتَ تسير...

نظرَ في يدِ الصَبي، فرأى خِرقةٌ صغيرة كان يَحْفظُ فيها لؤلؤة الدانة، قَبَّضَتها يدهُ بشدّةٍ وأغْمضَ عينيهِ كمّا لو كان سَيقعْ على الأرض... شعر بأن رجْليه غَطَستا بالرِّمال أكثر...

# 30

المكان-بيت دلال القوادة-الوقت-مساء-الحالة-عناقيد الحِنّاء

قبلَ المساء، في حيِ المدينة الجنوبي، بعيدًا عن كوْمَة بيوت السكان المُتواضِعة، يقْبعُ منزل دلال القِوادة بطَرفِ التلَّة النائِية، على مدى شريط طويل، سلْسِلة الزقاق المُحاذِية، للأحياء الفقيرة المَنْبوذَة وكأنها اِنتُزِعَتْ من خريطةِ المدينة، يقبعُ المنزل الكبير ذي البناءُ القديم بشَبابِيكَ خشبية منحُوتَةٌ بإتْقانٍ فائقُ التَصميم، لم يُخْفِ القِدَم جمَاليتُها... تتوَسَط الدار الكبيرة التي كانت قبل فترة سنتين أو أكثر مَقرًا لفرقةٍ من قوات الاحتلال البريطاني، رقعة نائية، وقد تم إخْلاؤه ليتحوَل فيمّا بعد إلى سَكنٍ لفتياتٍ منْبوذاتٍ، ولقيطاتٍ، أو مُطلقات كنَّ يتَسَلَّلنَّ إليه وقتَ حاجَتَهِن للُقمةِ العيش... يتوسط المنزل، فِناءً ترابيًا يَضُمّ على طرفيهِ عددًا من غُرفٍ مُختلفَةِ الأحجام تتوسط داخلهُ صالةٌ كبيرة مَفروشَةٌ بسجّادٍ أعْجَميٌّ قديم وتَضمّ كنَبَة محَشُوَّة بالقْطن مُدَعمَة بأطْرافٍ جِدارية ذاتَ نقُوشٌ اسلامية مُطَرّزةٌ بصورةٍ كبيرة لطائرِ الطّاووسْ بدا عليها القِدَم، تهَرَّأتْ حَوافُها بشدّةٍ لمُضيِ عدّة سنين عليها ولِكَثرةِ الاسْتعْمال. وعلى الناحيةِ المُقابِلة ظهرَ حاجزٌ خشبي يُفْضي إلى صالةٍ وُسْطى عازِلَة عن بقيةِ الغُرف على الناحِيتَين، طُلي باللون الأسْوَد وفي أعلاهُ بانَتْ

قطعةُ قُماش ورْديةُ اللون تَحجِبُ الرؤية وتمْتدُّ على مِتْراسٍ يسْمحُ برؤية الباطِن والخارج.

قَعدتْ جوري بزاويةٍ من غرفةٍ واسِعة، تقعُ بأوْسَط الدار، وحوْلَها تَحلَّقتْ فتَاتين، إحْداهُما بعمْرِها تقريبًا، ناصِعة البَياض كلون الحَليب، وتدعى طاهرة، والأخرى امرأة أربعينية بيضاء تَتلفَّتْ من حولها وتَهْتفُ في فرحٍ بقربِ عودّة زوج جوري صالح، فيمّا كانت تقوم بنقش الحِنّاءُ في راحةِ يديّ جوري... صَعدتَ رائِحة الحِنّاء قويةٌ، ملأتْ المكان، سرعان ما فُتِح باب الغرفة ووَلَجَت فتاةٌ أخرى سِمْراء اللون طويلةُ القامَة، اِنْتصبتْ عند عتَبَة الباب من الداخلِ وراحتْ تُخاطِب جوري بنبرةِ لوْمٍ وتَوْبيخْ:

- ماذا تفعلين هنا حَظِي؟ الناس هناك كَسْرَة عند الساحل الجنوبي لوُصول الغواصين وأنتِ هنا تنْقشينَ الحِنّاء؟

قَفزتْ جوري من مكانها، اِنتصَبتْ قائلة بلَهْفَةٍ وفجاءَة...

- حقًا؟ لماذا لم يُخبرني أحدٌ؟

دلال، التي يَرجَع جذْرها للعراق، واسْتوْطَنتْ المحرق منذ عقود مُنصرِمَة، تعود لبدايةِ الثلاثينات من القرن الماضي، كانت بدايتُها مدينة المنامة قرب مسجد من وسط المدينة، اتَخذَتْ من الدارِ، سَكنًا لها ولِفتَياتُها اللواتي قُطِعْنَ من شجرة العائلة، وأولئك اللواتي كنَّ منْبوذاتٍ ولقِيطاتْ، اسْتَبقَتْهِنَ معها وفتحتْ الدار للدعارة، في البدءِ تحت غِطاء زِينَة النساء، ثم كشَفتْ عن وجهها وأصبح الأمر واقعًا بعد أن ارْتادهُ عددٌ من جنودِ الاحتلال

الانجليزي وكانت بعض بنات الهَوَى هؤلاء، يَرْجَعنَ للدار حتى لو اِنْقطَعنَ عن تَعاطِي الهَوَى، لمُجَردِ رؤية صديقاتهن، وليس شرطًا لتَعاطِي الدَعارَة، بعضَهُن كن يتوَجَهنَ هناك لقَضاءِ حاجة أو للنوم حينمّا لا يَجِدنَ مكانًا، وحتى عند قيامهن بتَحضِيراتْ العرس لو كُتِبَ لهنَ وَوُفقْنَ لرجلٍ يقتَرنْ بهن، يلْجَأنَ للدار للتَزَيُّن والحِنّاء وغيرها من تجهِيزات العرس كما هو حالَ جوري الآن.

راحتْ تُلَمْلم نفسها وتُحاول تقْشِيرَ طَّبقَة الحِنّاء من راحة يديها، فيمّا تأمَّلتْ نفسها من الأسفل حتى الأعلى... كانت ترتدي ثوْب نوم أبيض قصير، مُطَرَّزًا بورودٍ صغيرة حمراءُ اللون، وبدا شعرها غيرُ مُرتَب ووجها شاحِبُ البِشرَة، راحتْ تتأمَّل مظهرها حتى أدْركتْ الفتياتُ الثلاث ما تَعنيه بتلك النظرات، أخَذْنَها بسرعةٍ إلى غرفةٍ أخرى بنِهايةِ الرواق الذي يَفصِلُ الصالَة عن بقية الغرف، أدْخلْنَها الحجرة وفتحنَ دولابًا وسط المكان وقد اكْتظَّ بفساتين وملابس مختلفة، بدأنَ يبحثن بِعجلّةٍ وارْتِباك عن فستانٍ مناسبٍ لها فيمّا تناولت طاهرة صندوقًا خشبيًا بني اللون، علي جانبيهِ نقوش تفصيلية مُبهمَة، فتحتْ الصندوق وأخرَجتْ منه بعض أدوات الزينة، وراحَتْ بعَجالةٍ تُطْلي وجه جوري بالْبُودْرَة وتَصبغَ شفتيها بعودِ قَصبْ باللون الوردي...

- هل ما زالوا عند ساحل السُفن؟

سَألتْ جوري بنبرةٍ باردة...

- من يعلم؟ سَمعتُ الخبر للتو من جارتي التي صادَفتْني مُهروِلَة نحو مَرسَى السُفن وهي تُزَغْرد...

جَذبتْ فتاةٌ تُدعى زمزم، فستانًا أخضر فاتح اللون، ضيق الخصر، بكتفين شفافين بلون الماء، قاسته عليها من الخارج فوجدته مناسبًا، انزوت بطرف من الغرفة، ودون حاجز خلعت ثوب المنامة الذي كان عليها، بان جسدها متناسق القامة، ضَيّقُ الخصْر، بَرزَ صَدرُها بنَهْديهِ النافِرينْ، وكشَفتْ بشرتُها الطَرِيَّة عن لونٍ أبيض يميل للون الورد في بعض من أجْزائهِ أعلى الفخذين المُكْتنِزين قليلًا، ظهرتْ بعض النُدوب الصغيرة قربَ حَوْضِها الأيسر... سارَعتْ بارتداءِ الفستان، وهي بعَجلةٍ تكاد تتَعثَر وهي ترتديهِ، ثم أنْهتْ مع صديقاتُها زينَتُها وبدتْ مُشِعَّة كعروسٍ تستعد لليلة الدُخْلَّة، ظلّتْ يداها تتَحركُ بِحذرٍ خشْيَة، تلَوَّث الفستان ببعضِ بقايا الحِنّاء الذي أزالتْ قشْرَتهُ وظلّت رائِحتهُ تفوح منها.

- لو تأخرتِ أكثر سَتلقِينهُ الآن في داركِ مع رقية.

قالتْ إحداهن: قلبي يخفق من أعماقهُ وأطرافي تَرجِفُ، لا أفهم هذا الشعور؟ أحسُ بانقباضٍ حتى أنني لا أستطيع تحريكَ ساقيّ...

قالتْ جوري ذلك وهي بصَّدَدْ البحث عن نعالٍ أو حذاء، ترتديه.

- هذا من لهَفكِ عليه، خفِي روحكِ وانطلقي واستعيذي بالله.

قالتْ الفتاةُ السمراءُ طويلة القامة ذلك واسْتطردتْ:

- هل تريدين أن أرافقك؟

ضَحكتْ جوري وظلَّتْ تُقهْقه ثم قالتْ بنبرةٍ ساخرة...

- حتى تمْضغُ ألْسُنْ الحي كله في سيرتنا، أنا وحدي ولا أستطيع أن أتَحاشَى كلامهُم المسْمُوم، وما أدْراكِ لو سِرنا بالطريقِ معًا؟

لَمْلَمتْ نفسها بسرعةٍ خاطِفة وخرجتْ من دار دلال، وراحتْ تقطعُ الطريق بعَجَلةٍ وقدماها تُبعْثِر التراب خلفها، كانت تسير بطريقٍ مُختَصر عبْر مُنْحَدر يمُرّ من وراء شريط بيوت العريش التي بُنِيتْ في غالبِها من الأسفل بالطين والحجارة البحرية، ومن الأعلى بِسَّعفِ النخيل اليابس، كانت تلك البيوت التي تَسْكُنها أُسَرٌ فقيرة أكثرها من دون مَوْردٍ تقْتاتُ منهُ وأغلب سكانها من المُعدمِين بلا عمل، تعيش على الصدقات، وكان أكثر فتياتهم يَعتَمِدنَ على بيعِ أجسادهن بالسْر والعلن. عبَرتْ الطريق الفرعي الذي قادها لمدخَل الساحل الجنوبي والذي راحتْ تقطعهُ حابِسةٌ أنفاسُها وبداخلها صوتٌ يتَداخَل مع أفكارها المُزدحِمَةٌ بمشاعرٍ مُشوَّشَة.

"هل أعْدَّدتِ له جوري وجْبَة يسْدُّ بها رَمَّقهُ بعد رحْلَة العودّة؟ لقد فكَّرتِ بالتَزَيُّن له ولكن لم تُفكَّري بوجبَهٍ دَّسِمة، لقد نسَيتِ ذلك... كانت أفْكارِي مُنصَّبَة على اسْتقبالهِ، سأتْركُهُ بالدار وأذهبْ لمنزلِ نرجس أو فطوم الطويلة واسْتلفُ من إحداهما دجاجة، أعود وأبَدل ملابسي، أذْبحُ الدجاجة وأنْتّفُ ريشها وأغْلِيها ثم أعدَّ له الوَجبَة التي يَستَحقُها وبعد العشاء، أسْتَحمَّ وأرتدي لهُ الفستان الأخضر، وأمْنحَهُ ما يشْتَهي... لكن ماذا جوري عن اليوم التالي والذي بعده؟ هل تُرى جَاءَ ومعهُ ما يكفي ليَنفقْ عليكِ وعلى والدته؟ لاشك

أنه تَدَبَّر أمره، لا يوجد رجلٌ يعود بعد غيابٍ طويل ولا يجدُ ما يَقْتاتُ به هو وأسرته... أولاً أنتِ دَعِيهِ يدَخُل الدار واحْتَضْنيهِ وارْسِمي له ابتْسامَةٌ مُشْرِقةً على وجهكِ لتَمْحِي عنهُ معاناة الغوص والغُربَة في البحر، دَعي أفكارُكِ ومشاعركِ بعيدًا عن قلبكِ وحَكِمي عقلكِ واجْعليهِ يَدْفَّئ في حُضْنكِ، حتى لو كان قلبكِ في مكانٍ آخر وعقلكِ في جهةٍ أخرى... لا تسْمحِي جوري لفَقرُكِ وعوزكِ أن يُعَكِّرا فرحَة العودّة... من الآن أزِيلِي عن وجْهكِ الحزن والكأبَة ودَعِي بودَّرَة الحُمْرَة وطَلاء الشِفاه ليرى فيهمّا الزوجة التي تنتَظرهُ بوَلهٍ وشَغفٍ شديدين... حتى لو كان فُؤادكِ مَكْسورًا... أفْردِي وجْهكِ جوري... دعِي الأفكار جانبًا... وهل أستطيع؟ مَثْلِّي دوْركِ بإتقانٍ جوري... أنتِ سيدةُ التظاهر، طالمّا أخفَيتِ أحْزانكِ طوال السنين قبل الزواج، وطالمّا كَتَمْتِ مشاعركِ معهُ طوال المدّة التي اقْترَنتِ به... هيا جوري أفْرِدِي وجهكِ... اِمْحي الفُؤاد المُحَطَم وارسمي وردة مُحمَّديَّة على ثغرِكِ... "

لم تنْقطعْ أفكارُها حتى بَلغَتْ رأس الساحل المُؤدي لِمَرسَى السُفن، لاحَ لها من على بعدٍ، أطْيافُ الأهالي واجْتذَبتْها الضَوضاء تدريجيًا إلى واجهة المكان الذي تفْصلُها عنهُ خطوات عدةٍ قَبْل بلُوغ نقطة التَجْمع... أرْختْ خطواتها وبدأتْ تتَمَهَّل بالسيْر، كانت تخشى نظرات وجُوه الأهالي لها، تُدركْ بيأسٍ من ذاتِها، ما يخْطرُ ببالِ النساء بالذات، تبدو منْبوذةً بينهم، سُمعتُها في تصورها لم يَمْحها الزواج من صالح، وخيبتُها مع الناس، هو ما دَفعَها للعودّة لدارِ دلال من دون أن تسْتسْلمْ في كثير من الأوضاع اليائِسة

للدعارة... وصَلتْ لأول عَتبَة في رقْعةِ استقبال الغاصَة، توَقفتْ في زاويةٍ بعيدةٍ عن الجموع وظلّتْ تُحدقُ بتَمعُنٍ في الصَخبِ الذي كان عليه المكان، نساءٌ وأطفالٌ وغبَارٌ، صراخٌ وزغاريد وهمهماتٌ وتراب يتَطايَر في الجو، ظلّتْ تتَجنَب الاقتراب ولكنها رَكَزتْ نظراتُها في وجوهِ بعض البحارة. لم يكن هناك الكثير منهم، ربمّا ثلاثة أو أربعة ظلّوا يعاينُونَ صناديق وأغراض، كان عدد الأهالي يفُوق بكثير العائدين من الغوص، لم تفهم سبَّب هذا الحَشدُ من الناسِ وتصَوَّرتْ أن معظمهم جاءوا للفُرْجَة أو بداعي الفضول... أوْشكَتْ على الأقراب أكثر، لولا نظَرَة حادة وجَهتْها نحوَها امرأة خمسينية العُمر، بدينَة البُنيَة، قصيرة القامَة، ذاتَ وجه دائري وبشْرةٌ خمْرِية اللون، كانت ترتدي عَبَاءةٌ سوداء، لم تُغطِ شعرها... عرفتَها على الفَوْر، كانت تعمل لديها منذ سنوات وتذَكَّرتْ كم عَانَتْ منها خلال وجودها معها، لم تنْسَ ما تعَرضَتْ له مع زوجها الذي كان يتَحَرش بها رغم أن سِنها كان بحدودِ الثانية عشرة... هذه النظرَة منها تُدركْ هي مغزاها وتفهم مُحتوَاها وكأنها تقول: ماذا جاءَ بكِ هنا الآن؟

"موتٌ يأخذُها الظالِمَة، الله عليها، اسْتَغلَتنِي شهور في الخدمةِ وطردتني من دون فلس واحد، اكْتفَتْ بإطعامي من نفاياتهم ومخلفاتهم مثل البَهيمَة ".

صَدَّتْ بوجهها واخْتارتْ زاوية أخرى من المكان تُحدقُ منها، ظنَّتْ أن صالحًا هَبطَ من المركب منذ مدّة ولعلَهُ بلغَ الآن الدار... تخيَّلتْ رقية

العمياء تحضِنهُ وتبكي وتلعن غيابُها، وربمّا تُصوْر لهُ أنها بساعةِ عودته هي خارج الدار، لا يعلم أنها هنا بانْتظاره وتتعرض للاحتقار والخوف من هذه الوجوه التي تنظر لها كبهيمة لا تستحق الحياة. اختارتْ أن تبقى لحظات أخرى لعلَ زوجها بالدار أو هو في الطريقِ نحوها الآن، لامَتْ نفسها على قطعِ درْبٍ مُختَصر من وراءِ شريط بيوت العريشْ لو جاءتْ من طريقِ الحي المُعتاد إلى وسطِ الساحل من مدخلهِ الجنوبي لربمّا التَقتهُ في دربِها...

- دائمًا الله يختار لي الصِعاب... ولا مرَّة تَوَقَّقتُ في خطوَة إلا ينَقُضُها لي، سبْحَانكَ ما الذي فعَلتُهُ لكَ لكَي تلَوعني؟

قالتْ في داخلها وهي تتَرَقَب وتَتلَصَّص على الحَشد وبذاتِ الوقت تلْزّم الحذر إلى أن بوغِتَتْ بيدٍ ترْبتُ على كتْفِها وتهْمسُ لها...

- أنتِ جوري زوجة صالح الزري؟

سألَها صَبيٌّ صغير بنّيّ اللون، كان يقفُ ويُراقبُها على مقْرُبةٍ دون أن تشعر بهِ، بدا وجههُ غامقُ البَشرة، وأسنانهُ بيضاء ناصِعَة، غطى وجهه الغُبار فأخْفى بشرته الطَريَّة، نظرتْ نحْوهُ وابْتَسمتْ ورَدّتْ بنبرةٍ ودية...

- أنا هي، ماذا عن صالح؟ أين هو؟ هل خرجَ من السفينة...

رأتْ نفسها تخاطب شبحًا كان أمامها واخْتفَى بطَرفَةِ عين...

- يا للهول... أين ذهبَ الصبي؟ ما هذه الفكرة اللعينَة التي طَرأتْ ببالي؟

لم يطْرأ ببالها شيء، لقد اخْترَعتْ العِبارة من بناتِ أفكارها وظنَّتْ أنها لو رأتْ الصبي مرّةً أخرى ستفهم إن كان حقيقة ما رأتهُ أم مجرد خيال...

- هذا الفتى الصغير كان يحملُ رسالة من صالح...

قالتْ ذلك في ذهنِها وغادَرتْ على الفوْر مسرعةً باتجاهِ الدار وهي واثقةٌ كلّ الثِقة بأنهُ الآن في أحضانِ رقية تحَرْضهُ عليها وتَصفُها بشتى النعُوت ومنها العُهر...

- يا لعجوزِ النار!!

قالتْ ذلك وانْسحَبتْ هذه المرّة بقَطعِ طريق الدار من خلال الأزِقَّة الداخلية البعيدة عن شريط مُنحَدر بيوت العريش الفقيرة المنْبوذة وسط الحي...

"لماذا أعود للدار ويدي فارِغة من أي شيء أهديه له بعوْدتِه سالمًا بعد غياب مديد؟ سأسْتَجير بنرجس ملازِمَتي بالسَراءِ والضَراء، سأسْتَلفُ منها دجاجة... أسْتلفْ؟ من أين أردها لها؟ سأخْطفُ منها دجاجة سمينة تكفينا نحن الاثنان؟ ورقية العمياء عجوز النار؟ لنا نحن الثلاثة... سأُطهِيها الليلة بكلِّ ما أوُتيتْ من شغفِ الطبخ وأجعلها وجبَةً تُسعِدهُ وتفتحُ شهيتهُ لحديثٍ مسْهبٍ عن هذا الغياب الطويل... ".

انْحرَفتْ نحو مُنعطَف خارج سياق الطريق إلى دارها، توَجهَتْ نحو منزل رفيقتها نرجس، وفي ذهنها أن تأخذ منها بضعِ شموع تُوْقدها فوق السطح وتَفْرشُ السُفرة وتضع وجبَةُ الدجاج وتَسْتنْشقُ عليل هواءُ الخريف المُغْبِر،

وتتَنَفسُ الصعداء وتنْسى وجه تلك المرأةُ اللعينة التي وخَزَتْها منذ برهةٍ بينمّا كانت واقفة بالساحل... توجهتْ نحو طريق فرعي، واصْطَدمتْ فجأة برجلٍ كهْل يركبُ حمارًا ويبيع الخضار، كان من عادة بعض باعة الخُضار التَجوْلُ في الأحياءِ والأزِقَة والمُناداة على سلعِهم من الخضار والفاكهة الموسمية، تَلفَتتْ حولها وحين لم تُشاهد سوى الرجل يقود الحمار، كان ضعيف البُنيَة ذو لحية بيضاء ووجه كَسَتهُ التجاعيد وأنفٍ طويلٍ وقد لَفَّ غترة مُهترئة على رأسهِ، اسْتوْقفَتهُ ودَنتْ منه وسَألتهُ إن كان يرْضَى بإعطائها بعض الخُضار مقابِل إسْوارَة فضية قديمة بمِعصَمِها، أشارتْ إليها... تَأمَّلها الرجل وسَألها إن كانت لا تَملِكُ المال فأجابتهُ: بأن رجلها عادَ من الغوص توًا ولا تملك ما تُقدمهُ له، سألها ثانية إن كانت قبل قليل بين جموع الأهالي بالساحل فأجابته بنعم حينها، توْجه نحو سلَة كبيرة مُعلقة على طرفِ ظهرِ حماره، أسْتَلَّ منها كمية صغيرة من الخضار والفواكه، من الباباي والبربير والرويد والفلفل الأخضر مع قطعة من القَرعْ وقال لها بعبارةٍ ودية وهو يُسلمها الكمية...

- في ثوابِ المتوفين...

وضَعتْ كمية الخضار في طرفِ العِباءة وحَمدتهُ ودَعتْ له ثم اسْتأنفَتْ طريقها نحو منزل نرجس وفي نِيتِها سرقة أو اسْتدانَة دجاجة من دجاجاتها...

"هل يْستَّحقُ الأمر كل هذا الذُل؟ أين كان مختبئًا لي كلّ هذا؟ أنتِ لم تُدركي جوري كيف تختارين طريقُكِ بالحياة، ما تزْرعينه تَحصدِيه... هل هذا مكتوبٌ في لوحي عندما وُلِدتُ منذ اليوم الأول؟ بل كُتِبَ لكِ وأنت في بطنِ

والدتك؟ ومن تكون هذه التي أنْجَبتني ورَكْنتني على الطريق وحدي؟ لا سَندٌ ولا حول ولا قوة... من أين أبدأ؟ لقد وقع الفأس في الرأس جوري، لا مَفَرٌّ من هذه الحياة؟ هل أحرقُ نفسي كما فعلتْ فتيات بائسات مثلِي من قبل؟ أنتِ الخاسرة... وهل أنا رابحة الآن؟ أقَلُها أنتِ تتنفسين وتأكلين وتنامين... آكلُ يومًا وأجوع يومين، ومن قال إنني أنام؟ لم أذقْ النوم، والله وحده عالم بحالي ورغم ذلك أذَلني بلا سبَّب... قال: رزقناكم... أين رزقي إذن؟"

عندما لم تُصادف بمنزلِ صديقتُها نرجس سوى جدَّها العجوز غارقٌ بتدخين النارجِيلة، مع موْجة سُعال حادّة كلمّا نفَثَ دخان التبغ، حَيَّتهُ وعرَفَها على الفَوْر من صوتها وسَألها عن رَجُلها وأخْبرَها أن نرجس مُتَغيِّبَة عن الدار منذ يومين ولا أحدٌ يُطْعم الدجاج، أخبرتهُ بأنها ستفعل... كان منزلُ نرجس رغم سِعتَهُ عِبارة عن مساحة فارِغَة إلا من غُرفتين من الطين وعريشة صغيرة غير مُسْقوفَه، وحظيرة في نهاية الفناء بقربها شجرة لوْز كبيرة أغلب أوراقها صفراء متساقطة على الأرض... جلسَ الجدّ على عتَبَةٍ من الطين قربَ حجرة مُتهالِكة تَصَدَّعتْ جدرانها وراحَ ينْفثُ الدخان ويعصر عينيه المُصابتين بمرضٍ جعلتهما تُدْمِعان طوال الوقت، وتعيقان نظره...

كان نحيلاً للغاية، بارِز العظام في كلِّ مكانٍ من رأسهِ حتى قدميه، أرتدي إزارًا لفَّهُ حول خصْره وقميصًا لم يعد له لون من شدّةِ الاستعمال، لم يُجرِ معها حديثًا غير ما قالهُ في البدءِ... وجَدَتها فرصة لتتجَوَّل في الدار وتُفَتشُ هنا وهناك... حين انتهتْ من التقصي، صَبَّتْ كميةً من الماء في

حظيرة الدجاج التي ضَجَّت بصوتٍ الدجاج حالمّا اقْتحْمتْ الحظيرة، راحتْ تتأمَّل الدجاجات وكان عددها يفوق العشر، راحت تُحصيها ثم توَجَهتْ للخارج ونَستْ باب الحظيرة مفتوحًا فتَسلَّلتْ دجاجتان، سَارعتْ بإغلاق الباب... وضَعتْ صُرةُ الخضار التي تحملها في إناءٍ معدني قديم كان مرْميٌّ في الفناء، طاردتْ الدجاجتين واصْطادتهُما، قَيَدتهُما بخيطٍ من الأسفل وتَناوَلتْ الخضار وقبل أن تَخْرج حَيَّتْ الرجل وأوْصَتهُ بالسلام على نرجس... في الطريق راحَتْ تهَرْولُ وقد تَنفَستْ الصعداء...

- دُمِرَّتْ كلّ زِّينَتِي.

سَارتْ في طريق عودَتها للدار بسرعةٍ وقد انْحصَر تفكيرُها في لقاءِ صالح الذي لا شكَ أنهُ بلغَ هناك وهو الآن في مَصْيدة رقية تُؤلِبهُ عليها وتمْلأ رأسهُ بالتُرهات. دفعَها

صوتُ نَقنَقَة الدجاج إلى الإسراع خشية الحرج من رؤيتها وهي تهرول وبيديها الدجاج والخضار، وطرف عباءتها يحرفُ تراب الطريق المُغْبر، نسَت زينتها التي تعثَّرتْ وكان هَمُها الوصُول إلى الدار عاجلاً حتى لو انْشقَت الأرض وابْتلَعتها.

"ذُلُ ما بعده ذُل يا جوري"

هَمسَتْ في أعماقِها مُخلِفةً ورائها غُبارٌ وتُرابْ...

# 31

المكان-ساحل المحرق-الوقت-مساء-الحالة-عناقيد الغروب.

أمامَ نصْفُ قلْعَةٌ قديمَة منْدثِّرة، تنتَصِبُ محاذاتها بضعُ نخْلاتٍ، بعضُها فارِعَة الطول، وأخرى هالِكَة، يبِسَ السَّعفُ عليها وانْحنى جِذْعُها، كأنها عجوزٌ حدْباء، تراكَمتْ حجارة القلعَة أسْفلها وظلَّ نصْفُها الآخر منْتصبٌ وقد تَهتَّكَ من جانبٍ وبقي جزءٌ منه جاثمٌ وحوله تجَمعتْ القمامة وبقايا أسماكٌ متَعفِنة، فيمّا راحتْ أطراف الموج مع المَدُّ التام تَرتطِمُ بحِجارة الجزء المُتهَتِّك من القلْعة... كانت تبْعدُ مسافةً ليست بالطوِيلةِ ولا بالقصيرة عن موقع تجمعُ الأهالي وهم يحتَفُون باستقبالِ البحارة الذين هَبُّوا ينْحدِرونَ من سفينةِ الرُبان سليمان الهمام. كانت هناك بقعُ سوداء على حافةِ الساحل بين التراب والماء، وبعض الطَحالب وأعشاب البحر التي جَرَفتْها المياه وألْصَقتها بجوانب حائط الصخور المُحيطة بجدارِ رُكامُ القلعَة، لم يكن الجَمْع بعيدًا عن المكان ولكن لم تتَضح ملامح الكثير من الناس المُتجَمهرين في المكان. في خِضَمِّ الضوْضاء والصُخبْ الذي سادَ الرقعَة المُقابِلة للقلعة المُهَدَمَة، انْتَصبَ إدريس الملا بعد أن تسَلَّل من السفينة بهدوءٍ قبل حتى أن يَكْتمل رسُوُها في

المرسَى، إذ قَفزَ في الماء، والْتفَّ من وراء المركب وسارَ نحو حافةِ الساحل بعيدًا نسبيًا عن الحَشد البشري، وذلك خَشية تعَرضهُ للأسئلةِ والاستفسارات حوْل غياب صالح الذي اعتادَ سكان الحي والزُقاق الذي يُقيمُون فيه، رؤية الاثنين معًا لعمقِ صداقتهم، فقد كان إدريس يَهابُ مواجهة هؤلاء لو تعرضوا له بالسؤال في حالةِ افتقادهم الآخر.

سارَ بهدوءٍ، حاملاً على كتفهِ صندوقَ ملابسه وأغراضه، متجهًا نحو بقايا قلعَة بو ماهر المُتداعِية، كان يخوضُ المياه الضَحلَة وقد رَفعَ طرف ثوبه، وجابَه وجههُ تيار هواء ريح الشمال الساخنة، شعر بدفءِ مياه البحر في قدميه، وبارْتباكٍ مُباغت تسلّل لأعماقه، وتَشتَّتَ فكره بين مشاهدة جوري تنتظر صالحًا وبين خَشيتهِ من ردَّة فعلها بعد أن تيأس من رؤية زوجها العائدُ بعد غيبَة طويلة، تَنازَعتهُ رغبتين متناقضتين فاكتَفى باتخاذِ زاويةٍ عليا مُطلَّة على المرسَى والساحل وجمهور الأهالي المُحتشدين ومراقبتهم، وضعَ صندوقهُ بالأسفل واسْتقامَ يُحدقُ بتَمعنٍ نحو الجموع، وتحديدًا جهةَ النساء، حَصرَ نظَرهُ في الفتياتِ اللواتي يمكن أن تكون بينهن جوري، هدأ قلبهُ قليلًا عن الخفقانْ لشعورهِ بأمانٍ وهو بعيد عن الضوْضاء، ولكن ظلَّ شغَفَهُ لإبصارِ فتاتهِ التي أصْبحتْ الآن في نظرهِ أرْملَةٌ وبحاجةٍ للوقوفِ معها وإسْنادها ورعايتها، فقد أوْصاهُ صالح بالاعتناء بها في غيابهِ، وقد غابَ للأبد ولن يعود وهذا يعني أنها ستبقى وحيدةً بلا مُعيلٍ، هي تعرف علاقتهُ بزوجِها وقد قابلَتهُ مرات عِدّة ولن يكون صعبًا تَقَبلُ زيارتهِ لها والعناية بها وبوالدة صالح

رقية العمياء، سيحاول كَسبَ ثقتهما منذ البداية، ولن يتَسَرع في كسْبِ الثقة والانْسجام مع الزوجة الحزينة التي لاشك أن صَدمَةُ وفاة زوجها ستترك أثرها على نفسيتِها ولن تَتقَبَّل في البدءِ أي عونٍ أو تقرب من أحدٍ ولكنها ستجد نفسها بعد فترةٍ وجيزَة بحاجةٍ للرعايةِ، إذْ لن تَقْدر على العيش وحدها، سيزُول الحزن تدريجيًا، وستَنْدمج في الحياةِ اليومية بعد أن تعتاد على غيابِ زوجها المرحوم وعندها ستبدأ في تَقبُلِ الحديث والفَضْفَضَة وربما الاقتراب والانسِجام معه بعد أن ترى منهُ ما لَم ترَّ من صالحٍ في الاهتمام بها والعناية بها وتلْبيَة كلّ طلَباتُها حتى يُكْتَب لهُ بلوغ قلبها الذي سيبدأ في الْلِينِ ونسيان الراحل، عندما تَجدَ الحبَّ والْوله والخوف عليها من إنسان استطاع توفير كلّ ما تحتاجه، عندها سَتَدركُ الفرق بينه وبين الزوج السابق.

كان يُراقْبُ الأهالي ويتَفَحَصُ بشدّةٍ وعُمْق وجوه النساء اللواتي كنّ أكبر من سِنِّ جوري بكثيرِ، لم يَرَّ جوري هناك، ربمّا لمحَ طيفْ فتاة تقف بعيدًا عن الناس، وقد بدَتْ غير عابِئة بأحدٍ ولا يمكن أن تكون جوري التي يتَوَقّع منها أن تنْتَصب عند أول خط الساحل بقُربِ حدود الرمال حيثُ هَبطَ البحارة على حافَةِ مرسى السُفن... كان منذ البدء يقفُ ويراقبُ ولم يرَّ أي ممّا يُوحِي بوجودِ الفتاة التي ينْتظرُها، كان مقرَّرًا له كما خطَطَ أن يتبعها إلى البيتِ بعد أن تسير يائِسة مُحبَطَة وربمّا مصْدومَة، ليواسِيها في البدايةِ ثم يُعلنُ لها عن نيتِهِ الوقوف معها وأن يطمئنها إلى أن تُدير بالَها بكلِّ شيء... كان يُفكر بهذه الوتيرة الحِرفّية حينمّا داهَمهُ أرْجَحية أن يَبعَث الرُبان أحدًا من أتباعهِ أو

بحارته ليُطلعها على النبأ، لكنه سَيُبادر بذلك قبل أن يصل غيرهُ إليها، فقط لو يراها الآن ويَحسمُ الأمر.

مرّ الوقت وهو يَتنَقَل من زاويةٍ لأخرى من جهةِ القلعَة، كان من الصعوبةِ رؤية المنظر كاملاً من هناك لبُعدِ المسافة ولاخْتلاط الجموع بعضها بعضًا، كان يرفعُ قدميه للأعلى حينًا، ثم يظل منتصبًا عليهما حتى يخُور، يميل لليسار أو اليمين، و يتخذ وضعية أخرى من زاويةٍ مُختلفة، ظلّ على هذا المنْوال إلى أن بلغَ به اليأسُ من رؤية الفتاة التي شكَّ أن تكون تلك الناهِضَة هناك وحدها على مسافةٍ، تبدو أصغر حَجمًا من جوري التي يَعرفُها وهزيلَةً نقيضَها، فهي كانت مُكْتنِزةٌ، صَرَّفَ النظر عنها وفكَّرَ أن هناك ما منَعها من الحضور لاستقبالِ زوجُها ولاشك أن أفضل وسيلَة في الذهابِ إلى مُنحَدرِ التلَّةَ الطينية التي يقعَ فيها منزل رقية العمياء، هكذا يُدعى البيتُ رغم وجود رجلٍ فيه كالمرحوم صالح لكن الجميع أصروا على تسْميتهِ ببيتِ العمياء.

"ماذا لو بَلغَها الخبر مسبقًا من أحدِ البحارة ولم تحْضر؟ لكن متى؟ لقد هبَطنا جميعنا بذاتِ الوقت؟ لعلَها لم تعلم بوصولِ المركب؟ أو ربما عَلِمتْ وقَرَّرتْ انْتظاره بالدار؟ ثمة أمرٌ غامضٌ وسيَنكشفُ الغطاء وتتَضح الحقيقة هذا المساء، فقد وصلنا للتو وهناك وقتٌ للخبر المُحزن المُنتظر أن يَطْرق باب دارها... ماذا لو لم تتَقَبل الأمر وظلّت مُتعلِقةً بالرجل؟ هل يعقل أن تعيش بلا رجل؟ يمكنها الاسْتغناء عن الرجل لو أنها اتخذتْ طريقًا ملتويًا وانْزلَقتْ في بئرِ الدعارة... لن أسمَح لها، لقد كانت حلمي، لن أدَعها تنزلقُ

حتى لو كلفني الأمر الزواج منها الآن وهذه الساعة... نعم سَأتزوَجها مباشرة! لكن ماذا عما يُسَمى بالشهور الأربعة التي تَنتظرُ فيها الزوجة قبل الاقتران بزوجٍ آخر؟ هناك حجْرٌ على المرأة الأرمَلة، يُشبه الحَجْر على المُصابين بوباءٍ، لن تكتب لي رؤيتها خلال هذه الفترة، هل مسموح الحديث معها من وراء الحجاب؟"

انْغمَس إدريس، بل غرقَ في هذه الهَواجِس والشُكوك فيمّا كانت عيناهُ على جموع الناس، الذين بدأ الكثير منهم يغادر المكان، خَلاَ الساحل تقريبًا من الغالبيةِ ولم يبقَ سوى بعض الرجال والأطفال ونساء وكبار في السِنِّ وبعض البحارة الذين كانوا معه على ظهر السفينة ينقلون الصناديق ويُوَظِبونَ أمورهم، أصُيبَ فجأة بخَيبةِ فيمّا كان يتوَهَّم رؤية جوري على الساحل... حتى تلك الفتاة الصبية التي كانت قبل قليل مُنْتصِبَة وحدها بِعزْلةٍ عن جموع أهالي البحارة تُراقبُ الناس اخْتفَتْ... هل كانت تلك جوري ولم يدْرك ذلك؟ لم يُفكر في الأمر بهذه الوَسيلَة. لقد كانت صغيرةً وهزيلَةً وضئيلة البُنية. لا يُمكن أن تكون تلك جوري... ماذا لو كانت وقد نَحُلَت بباعْث فراق صالح؟ هل كانت تَعشَقهُ؟ أهذه غَيْرَة منذ الآن إدريس؟"

سَأل نفسهُ بلوْعةٍ وقد بدأتْ تُراوِدهُ الشُكوك.

"ربمّا الآن في الدار قد تزينت له وارتدت فستانًا جديدًا وطَلَتْ شفتيها بصبغة الدورم، وأنا هنا أقفُ عند أطلال هذه القلعَةُ النَحِسَة التي تُوحي بالكآبَة... اِتْركْ مكانُك إدريس واذهبْ لدارك وغيّر ملابسك وتعطر إن وُجِد

ما يُستعَمَل، اسْتحمْ، وحَضّرْ كلمات وعبارات تَليقُ بدخولِكَ عليها لامْتصاص حزنها، هذه الساعة هي فُرصتُك لتقف معها... ماذا لو كان هناك حَشدٌ من الناس بالدار يواسُونَها؟ ما موقفك هذه الساعة؟ إن كنت من الآن ستَرضَخ للتَردُّد والشُكوك والمخاوف، فلن تَسْتحق الحلم، وتسهَر الليل تُفكر وتُدبر له... إن لم تَسرَع وتقْتَنص الفرصة قد يسبقك بحارٌ أخر، أو مُترصدٌ كان ينتظر هذه المناسبة ليَقفز ويخطفُها... ترى هل هذا الوقت المناسب لمثلِ هذه المواقف التي يُخَيِّم فيها الموت على الدار... نعم هذا هو وقْتُك الأنْسب... ماذا عن دخولها العدّة، التي يُحَرَّم فيها على الأرامل رؤية الرجال أو الاخْتلاط بهم ولا حتى سماعهم؟ هذا يأتي بعد انتهاء مأتَم العَزَاء... بل قبْلهُ... هذا وقتُ الجدّل إدريس؟ يا لِعقلُك الصغير، لا تنْسَ أن معك جوهرة لا تُقدر بثمنٍ... ماذا لو بِعتُها وجعلتْ من حياتُك نعيمًا دائمًا أنت وجوري... ابْنِ لها حجرة جديدة... غَيّر فرشها وأثاثها، أجْعلها ترى حياة بهيجة بعد مرارة الضَنَك التي عاشتها، لقد كنت قريبًا منها ورأيتَ معاناتها مع صالح... كم مرّة اسْتَلفَ منك المال ولم يُرجعه ولا يُحْتَكم عليه... لماذا في ظَنِّك كان يسْتدين المال؟ لها ولتلبية طلباتها... أنت معك الآن المال والحلم ويُمكِنك بعد خروجها من العدَّة، أن تعقد قرانك عليها تلبية لتوصيةِ صالح في العنايةِ بها... لكن لم يكن يعني الزواج منها... يا لكَ من أبْلهٍ إدريس... هل كنتَ تنتظر منه أن يطلبَ منك الزواج بها وهو على قيدِ الحياة؟ لقد كنتَ تُفكر

بوضوحٍ ورؤية قبل أن تَهبُط إلى اليابِسة... ماذا جرى وقلب عقلك رأسًا على عقب؟"

برَزَ سِربٌ من طيورِ النَورس يَسْبحُ في تشْكِيلَةٍ خَلابَة كأنها رسمٌ إلهي، وانْبثَقَ أفقٌ بين السماء والبحر، صَبَغتهُ أشعة الشمس الشاحِبَة وهي تأفُلُ للغروبِ، امتزجَ سربُ الطيور مع ضبابٍ وغُبار، لاحَ على مسافةٍ من القلعَةِ الهرِمَة... وقفَ إدريس حائرًا وأمامهُ صندوق أغراضهُ، ونظرةٌ حائرةٌ صَدرتْ منه نحو الأفق المَطلِي باللون البرتقالي...

"أهْربْ من هنا بسرعة، اِلْقِ بصندوقكَ الحقير الذي لا يحوِي سِوى ملابسُكَ الرِثَّة، اسْتحمْ وتوجّه لبيتِ صديقك صالح، واسَّ زوجته وابدأ مسيرة علاقتكُ، لا تَطْل الوقت... خوْف... شغَف... ضِياع... حبّ... شكوك من كلِّ شيءٍ حولك... شهورٌ عِدّة في البحر ولم أشعر بطعمِ اليابسة... ألَم في القلب... اذْهَبْ الآن لمنزلِ جوري وانْجِز ما بدَأتهُ... هل الله معي؟ أنتَ أحمق إدريس، الله، ينتظرُ منكَ أن تفعلَ الصواب... صواب؟

لم أعد أفهم... هذه بدايةٌ سيئةٌ ليومكَ... أين صوتُ الله وأين صوتُ الشيطان؟ كم أنت مِسكينٌ! اذْهبْ إلى جوري ولا تُفكر بالله أو الشيطان... الاثنان إلى جانبِك!"

حملَ الصندوق ثم ألْقَى به تحت قدميهِ فجأة، وتطَّلَع ثانية للبحر وقال بصوتهِ الداخلي الذي لا يَعْرف إن كان هذا الصوت ينْتَمِي له أم هو صوتٌ قادمٌ من عالمٍ آخر...

"ما هذا الجنون جوري...؟ أشْتاقُ اليكِ الآن... أكادُ أجِن... رحماكَ صالح لقد تَركْتَ لي الجنَةُ والنار معًا...

عادَ وحملَ الصندوق، توجَه نحو حافَة القلعَة من الخلفِ مقابل جهة البحر الذي كان عميقًا هناك... وقفَ لبرهةٍ، حدقَ بالموجِ... كان لونهُ أزرقٌ داكن.

- ساعاتٌ طويلةٌ شاقة تنتظرني، خُذ أيها البحر، لا أُريدُ شيئًا من الماضي.

قذفَ بصندوقهِ إلى البحر، طفحَ الصندوق وأخذتهُ الأمواجُ بعيدًا... تحسّس جيبهِ، أخرج لؤلؤة الدانة، تأكَّدَ من وجودِها معه، تأمَّل صندوقهُ الخَشبي يسْبحُ مع الموج، ابتسَمَ وغادرَ المكان... قرَّرَ التوجهُ لدارِ جوري قبل كلّ شيء يفعلهُ الآن.

# 32

1940 – المكان - حي بو ماهر – المحرق – الوقت – مساء – الحالة - عناقيد الموت

صَبيٌ صغيرٌ رماديُ اللون، كصُبغَةِ مدينة المحرق ذاتُها، ينْبُتُ من حينٍ لآخر، يقْفز من بين الرماد، يَنْبعِثُ مع الغُبار والدُخان والضَباب، ينْسلُ من عمقِ هاوية ويطْفو على سَطحِ المياهُ وفوق اليابِسة، في النهارِ والليل، وكأنهُ خيالُ حياةٍ غير موجودة فوق الأرض، يَزرعُ الشكَّ ثم يختفي، تراءى لإدريس ولجوري، ظهرَ بين وقت وآخر واختَفى بلمحِ البصر، هذا الصبي ذي الطَّلعَة المُريبَة الكالحَة، بلا أسم، ولا جذْرٍ إنه الريحُ التي تهْبّ وتكْتَسح الضبابْ، يخرجُ فجأة ويغْشى الأبصار ثم يتوارى... طَفقَ مرّة لجوري، ومرّة أو أكثر لإدريس، يطفو فوق السَطح ويذوب مثل ذراتٌ في الفضاء.

دنَا من منزلِ صديقه صالح وقد سادَ الليل، هدوءٌ يُخيم على الدار، ضوءٌ شاحبٌ ضئيلٌ ينساب من أعلى شرخٍ بالنافذة الخشبية المُتهَتكَة نقوشها العتيقة، والصَدِئة المُطَرَزَة بها عند الحَواف من شدّةِ حرارة الشمس ورطوبة الصيف ومياه الأمطار. كان الصمتُ مريبًا وقد لفَتَ انتباههُ، أيُعقل بعد أن

اكْتشفَتْ كلٌّ من الأم والزوجة فَقْد الزوج وعدم عودتهِ، ألا ينْدَلع صراخٌ وعويل ونواح من بيتٍ أيَقنَ أصحابهُ وفاة المُعيل؟ وقفَ على مسافةٍ ولم يُشاهد بالحي أي أثرٍ لضجيجٍ أو ضوْضَاء، فكَّر بِطَرقِ الباب ولكن خشي أن يَفتَح بوابة الجحيم عليه حين تُدرك المرأتان موتُ رجلهُما، ألَمْ يصلْهُمّا النبأ؟ أي صمت هذا الذي أطْبقَ كالموت ذاته على البيت؟

مرّ من أمامهُ كلبٌ ضخم الجثة، مُلطَخ بالوَحل، يلهثُ ولسانه خارج كليًا، وقفَ البهيمة عندهُ وحدَقَ به، شعرَ برجفةٍ لومضة، ثم مضى الحيوان ينْهَج، فيمّا عادَ الهدوء على المكان، في زاويةٍ من الحي قريبة من المنزل، وعند منعطف الزقاق المؤدي لِتلَّة الطين، من خلفِ دكانيّ سالم خلقون، وعبد الرحيم، انتزعهُ صوتٌ هائل لعْلعَ بغتة وكسَرَ كلّ الصمت في الزقاق، وانْحسَر الهدوء، كلمّا بدأ يدنو من الضجَة والعويل الذي أشاعَهُ صوت امرأة في الحي...

"اجتاحَني شعورٌ مرعبٌ، أزاحَ عن كتفي حلم تَخيّلتُ كنت فيه، لامَسْتُ حافَة هاوية، من عمقِ ذلك الصوت الجَلّل الذي مسَّ شغاف قلبي، طفتْ رائحةُ موتٌ ما في الزقاق، المُعتِم، متُ معهُ، لا ضوء، لا هواء، غُبارٌ، ونواحٌ، شمسٌ منطفئ شُعاعُها منذ وقت طويل... سحابةٌ فوق رأسي بتلك الدقيقة، لا أملكُ ساعة بجيبي، لكن الوقت ضاقَ بيّ... صوتها يقطعُ شرايين القلب ويصْدحُ في السماء، فَشَعرتُ بالأرض ترْتَج تحت قدميّ قبل أن أرى ما أسمعهُ... تَجمّدَ كياني، واهْتزَ لدى عبور بعض المارَة مهرولين كما

يبدو وراءَ صوتٍ ما فتئ تردّدهُ يُدوي بالأصداء... حَملتُ رجْليّ المُثقلَتين وسِرتُ نحو الصوت... اسْتغاثَةٌ... موتٌ... صوت الموتُ يدوي... لا شيء غير الموت يُعْلَنْ...

هذا ما طافَ في دهليز رأسي المشُوب باحْتمالات الموت والحياة، خَطوْتُ بقدمين مُرتَعشَتين، نحو خواءٍ فاضحٍ اكتنفهُ الوَحل الطيني في الأرض والغُبار في السماء المُشرَعة على باحةٍ عارية إلا من بيوتٍ من عريشٍ وأكواخ، متراصة ببعضِها بعضًا بُنيَت بعشوائيةٍ، لِتَلِمّ شملَ عائلاتٍ كبيرة، مُعدمَة، اسْتوْلَت على تلك الرقعة دون سَند تمَلّك لأنها عاشتْ طوال حياتها، أما في العراء، أو خدم في المنازل، وحين الّفَت نفسها في العراء، جمَعتْ ما أمكنها من مخلفاتٍ وشيدتْ تلك البيوت التي بعضها من تَنَك، وأخرى من سَّعَفِ النخيل، قِلَّةٌ منها شُيدتْ بالطين وبقايا أخشاب السفن المُهترِئة الطريحة على اليابِسة قرب مسلخ للبهائم... تفوحُ منهُ رائحة بقايا الأغنام والأبقار التي سُفِكتْ هناك، أعرف هذا المكان، لأني قضيتُ فيه سنين طفولتي دون أن أعلم مع من كنتُ أعيش هناك... لقد كانوا يأكلون بقايا المسلخ، يلتقطونها، ويغسلونها، ثم يطهونها حتى لا تكاد تُصدقْ أن تلك الوجبَة من نفاياتِ المسلخ، ما وزالت نكْهَة تلك الأيام التي سادَ فيها الكساد والجوع، اذكُرها كما لو كانت الآن حيث جاءت تلك الصَرخات المُروِعة من تلك الرقعة... قادتني قدماي إلى هذا الزقاق، بينما كنت بطريقي لمنزل صالح، وعلى إثر صرخة مدوية انْزلَقت من بلعومِ امرأة نَفرَتْ مَرارةٌ منها تردَّدَ

صداها في الحي مُحدثاً فجوةٌ في الأثير، عَدوْتُ على بعد منزلين أو ثلاثة، لأصطدمُ بحشدٍ من نساءٍ مُعْدَماتٍ يحاولنَ رَدعَ رقية العمياء من التمرغِ بالترابِ الأصفر، مضتْ تُهِيل الرمل على رأسِها المُشْعَث ووجهها الرمادي الداكن وقد غمرهُ التراب والعرق رغم اعتدال الطقس. أَخَذتْ تلْطُمُ وجهها بكفيها ثم تُهيل التراب على رأسها ثانية... كانت تلبس ثوبًا طويلاً شفافًا، تهَتكَتْ أطرافه، وتسَلَّلتْ خيوطهُ، هيكلٌ عظمي غاطسٌ في كومَةِ مجاعة، رنينُ صوتها الصاخب، بدأ يخبو، وانفرط ساقها عن الآخر، وشَحبَ صوتُها أخيرًا، ثم تهالكَ بعد نوبة الصراخ المُدوي، وذابَ في عتمةِ الليل. وقَفتُ جامدًا وحدي بين النساء، لم يلفت نظري بتاتًا عدم وجود رجال، كنتُ قد جَمِدتُ مكاني"

- البحر غدرَ بكَ يا صالح... البحر غدر بابني يا ناس... البحر غدار..

"حاولتُ مَنعَ أُذْنَيّ من سماعِ تلك العبارات النائِحَة! لكنها اختَرقتْ طبلتهُما، شعرتُ بغثيانٍ ودوار، لم أفقْ إلا حين صدمتني فجأة، بينمّا كنت أرقَبُ حشْد النسوة وقد حَملَت إحداهن قنديلاً زيتيًا، واثنتين حمَلنَ الشموع، بغتة، تَسلَّلتْ جوري من بين الجموع، كانت كأنها مُختبِئةٌ بين طوابير النِسوة، يغمرُها فضول، لا أثرُ لبكاءٍ أو دموع، وسط الأصوات المردّدَة" لا إله إلا الله" خفقَ قلبي مع تَسَمر نظرتُها على الكومَة البشرية المُتعثّرَة بالتراب وقد خَفَتَ صوْتُها وانْهارَتْ قُواها، بدتْ هيكلاً عظمياً وهي بين أيدي

ثلاثُ من النسِوَة حملنها وسِرنَ بها وسط الصُراخ والعويل وتردِيد الأدعية الدينية.

- ابنها لم يعد مع الغاصة، أطْعَمُوهُ للبحر...

أنْصَتُّ للعبارةِ تطيرُ في السماء، راحَتْ جوري تتَمشَى في المحيطِ حافيةِ القدمين، تتطلع للعيون يغمُرها الدمع... وجوهٌ مُتَهدِّله... أصواتٌ مُتهَدِّجَة... أضواءُ السِّراج والشموع تعكسُ ظِلَال الأجساد على الأرض السَبخَة... وجه جوري وحدهُ احتلَ المكان.

بدأ الغيم يُخيمُ على سماء كئيبة، وتبعهُ الطقس الذي بدأ يبرد مع حلول العتمَة، ولدى رجوعها للمنزل، وكنتُ على مسافةٍ أتبعها، لمستُ شبح رجلٍ طفقَ من عتمةٍ بزاويةِ طريق الزقاق المُعتم، يتبعها بتحركاتٍ مُريبة، برْهَنتْ عن تَعمدهُ السير وراءها بترو، لم تلتفتْ إليه، واصلتْ سيرها، لعلَها كانت معتادة على مثل هذه الأشباح تتعقبُها بغيابِ زوجها من وقتٍ لآخر عند حلول الظلام أو عند الظهيرة حينما يَهجعُ الأهالي للقَيْلولَة بعد تلَوثهم بتخمةِ الجوع! أنين البطون الجائعة لانعدامِ الطعام، يُصَيّرهُم لأن يناموا الظهيرة وهم أشبه بالْمُتخَمين من وفْرَة الطعام، تتساوى القيْلولَة عند هؤلاء وأولئك، تَبَينْتُ زوَال الظلّ على الأرض من صدى خطواتهُ المتَرنِحَة بأنهُ واحدٌ من الذين سَبقَ أن رَصدَها ولم يَفلَح معها، أبْطأتُ الخُطى حتى دنَوْتُ منها فَالتَفَتتْ نحوي وصَوَبتْ شظية من عينيها أصابتني في العُمقِ، حاولت أن أبدأ الكلام،

أسْرَعتْ نحو الباب وكأنها لا تَعْرفني... وقبل أن تُوصِدهُ في وجهي وَضَعتُ يدي على الخشبة وقلْتُ بلهجةِ من هو واثقٌ بمّا يمْلكُ في جيبه"...

- أنا إدريس جوري... هل تَذكُريني؟

"كيف تَرَكتْ رقية وراءها وهَروَلتْ للدار؟ ماذا دارَ برأسها؟ أي امرأةٌ تهربْ من عجوزها وسط تلك المَعمَعَة الدامية؟ لم يعد عقلي يسْتوعبُ ما يجري حولي... موتٌ ونواح... وزوجةٌ تهْجرُ امرأة ثكلى في ولدها؟ نساءٌ حافياتٌ يلْطمنَ دون صوت... وأنا ذاتي إدريس ماذا أفعل هنا مع زوجة صديقي الذي غابَ في البحر... ما هذا الكون الغريب الذي يحتوينا؟... جالَ ذلك كلهُ بومضةٍ وأنا أقفُ وهي تُحدقُ فيّ لتَستَوْعبْ وجهي وكأنها نَستهُ رغم لقاءنا مراتٌ عدّة بالدار... "

- إدريس... ألا تذكُرين؟ أنا رفيق صالح... جئتُ للتَوّ من الغوص... البقية بحياتكِ.

"تبدا مظهرها كغريبةٍ، ليست كما أرآها في الحلم، ولا كما وصَفَها صالح طوال شهور أربعة، كيانها المهيض رغم طراوة جسدها، قوامُها المتناسق الطول انحنى إلى الأسفل، لم تعد مُكتَنزَة عند الردفين والفخذين، بل هزيلَةُ البنية، لم تعد ذات عينين واسعتين رماديتين تذكُو بنكهةِ البحر، بل عينين جاحِظتين فقداتا بريقهما، كانت ترتدي فستانًا لم يتَبقَ فيه لونٌ من أثرٍ، وثمة أثار زينَة كانت قد صبغت وجهها ولطختهُ بها من قبل. كان جليًا أنها كابَدتْ يومًا طويلاً، بل أطولُ يوم بحياتِها هو اليوم".

جرى هذا التخمين في حوارٍ دار في رأسهِ كبقيةِ الأصوات التي لم تخرج من عقلهِ منذ أن فقد صالحًا صديقه! كان ذهنهُ بكلِّ الجهاتِ ولكنه توقفَ هذه الساعة عند المرأة وها هو قد رآها أخيرًا...

- كيف تَركَتْ عجوزها هناك وراء تلَّة بيوت التَنَك والعريش وعادتْ للمنزل؟ ما الذي دفعَ بوالدتهِ العمياء لتجثو بتلك الرقعَة هناك بعيدًا عن دارها...؟ كثرتْ الأسئلة بذهنهِ بغضونِ ومضة زمن كان ينتظرُ خلالها منها كلمة.

كانت نظرة شَعّتْ من عينيها لم يرَ بحياتهِ مثلها، كبرقٍ خاطفٍ أضاءَ فجأة بقوةٍ حادّة، لم تعكس تلك النظرة الجَسورة الدامعة حالتُها المُنكسِرة، بل كانت نقيضًا لهيئتِها المُهيضة، كان الباب مفتوحًا نصفهُ ورأى يدها وأصابعها الخمسة البيضاء المشُوبة بندوبٍ صغيرة على حافةِ الباب، وكانت هناك أسوارة فضية قديمة تُحيطُ بمعصمِها، وشعرها انبثقَ ناعمًا على كتفيها رغم تَغَضنه عند الأطراف... بحثَ عن صورتها في رأسهِ كمّا رسَمَها صالح... أو حتى عندما رآها من قبل، فلم يجدها سوى امرأةٌ مُحطَمَة مشوَّشَة، لم يَخْتَف رغم ذلك بريق غامض ظلّ يسْتر جمالها من الداخل.

- دعني الآن من فضلك... هل ترى فيّ شيئًا؟

أمسكَ الباب قبل أن تَغلقهُ وقال بعبارةٍ خاطفة خشية أن تختفي فجأة من أمامه...

- جئتُ برسالةٍ من صالح... كنتُ معه على المركب.

- صالح؟!

قالت ذلك وأردفتْ...

- أين هو الآن...

"كان غريبٌ سؤالها، من أخبرها بموتهِ؟ لماذا لا تبدو حزينة كما تَوقَعتُ؟ لقد مزقَ صوت العجوز السماء، وها هي تعودُ للدار وحدها وقد خَلَفَت عجوزها هناك وسط العتمَة وفي الوحل والطين... أي امرأة جوري هذه؟ كلّ هذه الأفكار مني تَدفَقتْ بوميضٍ خاطف لم يترك لي فرصة لتأمّل وجهها حين فاجأتني بقولِها وبنبرةٍ باردة لم اسْتشفَ منها ردّة فعلٍ ما على كلامي".

- حياكْ تفضل...

تَركَتْ الباب مفتوحًا دون رغبة منها بإغلاقه، دَلفتْ للداخل...

كان الظلامُ التام قد خَيَّم على المنزل وانْبعثَت من أرجائهِ رائحة غريبة، لم تكن سمِجَة ولكنها أقرب لرائحةِ سمكٍ مُجفَّفْ... سِرتُ وراءها بتؤدةٍ وحين بلَغتُ عتبةَ الدار وَقفتَ وقالت بصوتٍ شجي:

- لماذا لم يعد صالح معك؟

بدتْ مثل فتيلَة الشمعة الخامِدة، ومن الأسفل طرية، وَقفَ إدريس قبالَتها وكلّ خياله عنها تَجمدَ عند عينيها الرماديتين، قارنهُما بلونِ مدينة المحرق، ارتعش لومضةٍ، وزال منهُ شعور الرَهبَة وحلَ مكانهُ شعورٌ غامض، بين الصدمَة في هيئتِها وبين تفرسهُ في جوْهَرِها الداخلي الذي أنْبأها بأنهُ يُخفي ما حكى له عنها صالح من شغفٍ واشْتهاء، لم تكن اللحظة مناسبة

ليُحَدقَ فيها ويُفتشُ عن تلك الجُذوَة المُتقِدة التي طالمّا قضى الليالي في اسْتمناءٍ مجنون مَحفوفٍ بخيالٍ جارفٍ، ينْتابهُ على إثرهِ شعورٌ بالذنْب... هل هي اللحظةُ الفارقة في هذه الأمْسية الداميَة ورؤيتهُ لمنظر العجوز في التراب؟ أم صدمةُ الشّهوَةُ والحلم والخيال؟ وقد فاجَأتهُ بصورةٍ مختلفة... لقد بدتْ له مُتَبرِجَة قبل فترة وجيزة، وزالَ تبرُجها... هل كانت على الساحل هناك بانتظار صالح؟!

- ماذا أفعلُ هنا وحدي معها دون وجهة ولا عِبارة، لا حوارٌ ولا موضوع ولا شيء يُحرك هذا الجُمود في الموقف؟ تساءلَ في داخلهِ، حتى جاءهُ صوتُ طرق على الباب... اِرتَجفَ وخشيّ أن يُفتَضح ويَفضحها معه في هذه الساعة النَحِسَة التي قادهُ قدرهُ معها، لا بوقتٍ مناسبٍ للحديث ولا بحالةٍ طبيعية للغزل، ولا وجود لمشاعرٍ يمكن تبادلُها بهذه اللحظة سوى رغبةً منه طَفتْ تتمنى لو لا يُفتَح الباب...

- ابقَ مكانكَ...

لم يكن الباب مقفلاً، فُتحَ بغتة واقتَحمْ الدار نساءٌ ورجالٌ، بيدهم الشموع والقناديل، يَحملونَ رقية العمياء، ليفاجئوا بوجودِ إدريس في الفِناءِ وأمامَهُ جوري مُحدِقة دون إحساس منها بالقافِلَة التي اقْتحَمتْ الدار، بعضهم توجهوا بِعجالةٍ يرفعون المرأة الهامِدَة إلى عتبةِ الدار ومن ثم يَلِجونَ بها للداخل، توَّجهَتْ الأعْيُن إلى إدريس الواقف عند طرف عتبة الدار، تبادل الرجال النظرات معهُ ما دفَعهُ للاقترابِ من بعضهُم والقول بصوتٍ بارد مُتَعثِّر...

- أنا إدريس رفيق العمر لصالح، قَدِمتُ للتوِّ من البحر.

هزَّ رجل مسِنٌّ رأسَهُ، كان يقفُ وهو يَتأرْجَح متعرقًا بجَنبِهِ وحوْلهُ امرأة حَملَتْ سراجًا زيتيًا انعكسَ ضوئه المُصْفَر على وجهِ إدريس وتَركَ ظلالاً في الخلف للماثلين بذهولٍ في الفِناء المُغْبر، لم يكن العدد كبيرًا ولكن ضِيق الموْضع بدأ يَخنقهُم فانْسَحبَ البعض تدريجيًا خلال وقتٍ وجيز من مجيئِهم...

- لقد غدَرَ به البحر...

عَبَّرَ الرجل الكَهل بنغمَةٍ فاتِرة خَلتْ من الإحساسِ وقد ظلَّ رأسهُ ينَوسُ فيمّا بدأت تسْجُو الأصوات...

- هل ماتَتْ رقية العمياء؟!

بينمّا كانت عينَا إدريس تمْسَحان المكان بحثًا عن جوري التي توَارتْ، كانت بعض العيون تُحدقُ نحوه بفضولٍ وراحتْ بعض الأصوات تتَهامَسُ بينها وهي تَغْمزُ من هنا وهناك، وجوهُ الناس مشْدودَةٌ نحو بعضها بعضًا ولا يبدو أنها مُتأثِرة رغم بُكاء بعض النِسْوَة من لحظةٍ لأخرى ثم سُرعان ما تعود تلك الوجوه للْهَمس فيما بينها وَكَرَّةٌ أخرى تُعاودُ البكاء، كان الأمر أشبه بدولابِ هواء يترنَح بين فينة وأخرى. تضيع الأسئلة الطائرة من ألْسِنةِ البعض دون أجوبة لتعاود الأسئلة ولا إجابات... مثل رحى الحبوب، تَطْحنُ وتترك القشور، أو تذرَّ الغُبار...

لم يشعر إدريس رغم هدوء دقات قلبه وهُجُوعَ رعشات أطرافه، أنه تمكن من رؤية جوري وتأمّلُها بالصورةِ التي كان يظنُ أنها ستُعّمقُ حلمهُ بها، لم تترك العِبارة الخاطِفة التي بادلَتهُ إياها أي انطباع عن رؤية جسدها وتفحُص قوامُها والتمعُّن بعينيها، كان الضجيجُ والضوْضاء حاجزًا منعهُ من الوُثوقِ من كلِّ ما تخيَّلهُ عنها... عزَا الخطبْ في شعورهِ هذا إلى الوَضع الذي كانت عليه، فقد واجَهتْ يومًا مختلفًا بحياتِها، بدأ بخَبرِ وفاة زوجها، وانهِيار عجوزها، ولكن لماذا إذا كان الأمرُ بهذا المَدلُول لم يبدُ عليها التأثُر ولا البُكاء... ماذا عن حالةِ التشوِيش الأقْرَب لِفقدان الوعي، أو الغيبوبة؟ حتى أنها لم تتَذكَّرهُ إن كان زارَ الدار من قبل؟ هل فقدتْ حِسَّها بما حولَها؟

"لو كنتُ أملك بهذه اللحظة جوري خيار التَصَرف؟ لو أستطيع أن اخْترقُ الجَمَع وأمسكُ بكِ وأجُركِ معي خارج هذه الدوامَة؟ لو تطاوعيني وتهْجُري الدار ونذهبْ لمنزلي الصغير؟ انِسِي صالح فهو لم يترْكْ لكِ شيئًا من الدنيا سوى فَقرُكِ... أنتِ الآن مفْجوعَة وقلبكُ مكسُورٌ، ومنْزلكِ أشبهُ بحظيرةٍ، كيف سَتَخلدين للنوم هذه الليلة؟ لو أنْتزعُكِ الآن فحسب... ماذا تُخرِّفْ إدريس؟ هل أنتَ بوعيك؟ المرأة منكوبَة في رجلها وأنت تُساومُها على الهروب معك؟ أنت الصوت اللعين الذي أكْرَههُ ويُلازمُني كلمّا سارتْ حياتي للأمام... متى كان ذلك إدريس؟ منذ وُلِدتَ وأنت فاشلٌ... لقد حان الوقت لتغير دفَّة العالم... معي لؤلؤةٌ تساوي الآلاف... معي الحلمُ... تغيَّرَ الكون أنا الآن أمْسكُ بالدفَّة؟ ليست اللؤلؤة من حقك... لم تعد لأحدٍ غيري...

دعكَ عني أيُها الصوتُ النَحِس... هل فّكَّرتَ ماذا ستفعل بجوري عندما تَفتَرشُ الأرض معها وتُخرج الجوْهَرة؟ ماذا ستقول لها؟ دعكَ عني صوْتِيّ الداخلي المُتَسلّل من هاويةِ الإحْباط، أنا الآن أبْنِيّ حياة جديدة، سأنْتَشِلُ الفتاة من قاعِ المدينة الرَجِسَة، سأُعوِضُها، سَأمحُو الألم من روحها، سأزرعُ ابتسامةً مشْرِقةً على وجهِها... كيف إدريس؟ بماذا؟ هي تشْعرُ وتقرأُ العيون وسَتفْهَم من أين جِئتَ... تكذب... تكذب... "

انْتبَه لصوتهِ وقد انْفلَتَ منهُ ولَفتَ نظرَ من حولهِ...

- البحرُ يَكذبْ...!

قال ذلك لامرأةٍ تَطَلَّعتْ مُحدِقَة بوجههِ حالمّا سَمعتْ صوتهُ يعلو...

- البحر غَدِرَ به...

أجَابتْ المرأة... توَرَّدتْ بشْرتهُ والتَفتَ عنها يبحثُ عن جوري بين النساء وفي خَضَمِ ضوْضَاء تُحيطُ بداخلِ الدار... كان الفِناء مُغبرًا ورائِحةُ الأجساد تفوحُ بالعرقِ، شعرَ بالاخْتناق لكنهُ أصَرَّ على البحثِ عن المرأة المفْجوعَة وظلَّ خيطٌ من شعورٍ مُبهم، يؤنِّبهُ تجاه العجوز رقية العمياء.

❁❁❁

# 33

المكان-حي بو ماهر-الوقت-ليلاً-الحالة-عناقيد الليل

حلَّ الليل، خَمِدَ صوتُ النِساء، خيمتْ سَحابةٌ فوق سقف منزل بزِقاقٍ ناءٍ في حيٍ بو ماهر، جنوبي مدينة المحرق... سادَ صمتُ القبور، ظلامٌ دامسْ، لا قمرٌ ولا قَناديلٌ ولا شموعٌ بالطريق... وحدهُ الطيْن والتراب والليلُ البهيم يزْرعُ الشكّ حولهُ... سارَ بخطواتٍ يتحسَّس جدران البيوت حتى لا يَصطَدم بشيءٍ في السواد... ضجيجُ أنفاسَهُ يطغى على الدربِ الذي خلا من الحَركَة... أصْواتُ كلابٍ تنبحُ من بعيدٍ، أطْمئنَ إلى أنها على مسافةٍ منهُ... صوت سُوسَة الخشب تدوي في أذنيهِ... سارَ خطوات وتوقفَ، ليس في رأسهِ هذه الساعة غير جوري، سيَطرقُ الباب وسيري ماذا يحدث؟ لن يأبَه بشيءٍ كليةً حتى لو كان الرُبان سليمان الهمام يقفزُ بوجهه، إن لم يرَها الليلة فلن يراها بعد ذلك... كان يبدو على وجهها حين لمَحَها بنَظرةٍ خاطِفة عند المساء هروبٌ مُتوَقعٌ... قد تفعلها وتَهِجُ من الحي... ربمّا يسعى غيره لاقْتناصِها بهذا اليوم السَقيم، لن يُضحي بكلِّ ما فعله حتى الآن من أجلِها، سيَنزل اللحظة ويقتَحمُ الدار ويواجهُ مصيرهُ معها الذي كتبهُ له الله... تأكَّدَ

في عقلهِ بأن كلّ ما حدث كان تَخْطيطًا من الربَّ، فهو من يرسم الأقدار ويَّخطُها ونسيرُ عليها...

- قدري كتبهُ الله منذ مدّة... الليلة يتَحقَّق الوَعد المكتوب.

قال مخاطبًا نفسه وهو يتحَسَّس دربه في العِتمَةِ، كان يتَعثَّر من حينٍ لآخر بقطعةِ حجرٍ، أو عمود خشب ولكنهُ تماسَكَ وسارَ بقلبٍ مصَمّمٍ على المُضي لرؤيتِها مهمّا كان ثمن هذه المُجازفَة...

- أنا رفيق صالح زوجها جئتُ أحملُ وصِيتَهُ التي أوصاني بها!

سيَقنَع كلّ من يُصادِفهُ ويُعيق مُضيهِ للوصول إليها.

- في هذا الوقت؟

سألَ نفسه...

- لقد جئتُ للتوِّ من البحرِ، أحملُ معي وصية المرحوم...

أجابَ نفسه...

سمعَ خطواتٍ حثّيثة تقتربُ منه، خفقَ قلبه، والتَصقَ بحائطٍ خلفي عند مُنْعطف الطريق نحو منزل التلَّة النائِية التي يقعُ فيها منزل صالح...

انتظرَ اقتراب الخطوات، لكنها توَقفتْ... خمَنَ أن ثمَة من يتْبعه.

- دعكَ من الشكّ إدريس، من الآن هل ستعيش في دوامَة القلق؟

طردَ طَيْف صالح بقوةٍ من رأسهِ حين اقتَحمهُ بغتة، ثم مضَى يسير بتؤدةٍ حتى بلغَ طرف الدار القابعَة فوق تلَّةٍ طينية، بعيدًا عن سلْسلَة البيوت... كان الظلامُ والصمتُ، إلا من صوتِ سُوسَة الخشب، تطلعَ نحو حيطان الدار، ثم

حَدقَ بنافذتينِ قديمتين، اقتربَ أكثر حتى كادَ يلتَصقُ بالباب، لا أثر لضوءٍ سوى ما يسْتَشفهُ من تخْمينه، حرّكَ الباب، يا للهوْل... وجَدهُ مشرعًا حالمّا دفعه انْفتَح وطلّ منهُ على الفِناء...

- هل ألجَّ المنزل؟

خَشِي أن يظلّ واقفًا عند الباب ويطول به الوقت فيَصْبَح عرضة لعابرِ سبيل في تلك الساعة المُتأخِرة من الليل، كان الوقتُ حرجًا والوضع الذي عليه جوري في هذا اليوم بالذات شائكًا، فَقَدَتْ زوجها، ولا يعرف شيئًّا عن عجوزها، وهذا الهدوء الذي خَيَّمَ على المنزل والعتْمَة كلّ هذه الكَومَة من الأحداثِ تثير ريْبتَهُ وتجعله يَجْمدُ حائرًا، بين الإصرار على الدخول والتفكير والتأمّل الذي لن يقوده سوى لفضيحةٍ في الحي له ولأهلِ الدار... الهدوء يُخيّم على الفِناء في الداخل... ماذا لو دخلَ وفاجأ الفتاة هناك فأطْلقْتْ صرخة بالليل والْتّمَ عليه الأهالي... لكن الدار معزولةٌ عن بقية البيوت، وربما يَفلتُ بسرعةٍ قبل أن يراهُ أحدٌ... هل يَليقُ به هذا التَصرف؟... بعد عِشْرَةِ سنين مع صالح، منذ طفولة شقية ورعونة وحتى البلوغ والنضوج، تكون نهايَتهُ الهروب في الليل من فِناء داره؟ هل يليق بيّ ذلك؟ سَأل نَفسهَ السؤال مرّة ومرتين قبل أن يتَسلَّل للمنزلِ بتؤدةٍ وخِفة ويغلق الباب. كان الظلامُ دامسًا ولمحَ من على بعدٍ ضوءٍ شحيح مُنبَعث من غرفةٍ صغيرة بركنِ الدار، خَمَنَ أن تكون حجرة جوري، توَجَه بخُطى بطيئة واسْتنَدَ على جِذعِ النخلة بالفناء، والتقطَ أنفاسه... ماذا يفعل الآن؟ لا مُبَرر للمُناداة عليها ولا

حِجَّة لطرقِ باب حجرتها بهذا الوقت... أيُ جنونٌ قادهُ هذه الساعة النَحس التي يبدو فيها الله قد قرَّرَ الانتقام منهُ وَوضعَهُ بهذا القَدَّر المكتوب وأن يَفضَح أمرهُ بين الحي وسكانه... ولكن ما ذنب امرأةٌ مفْجوعَةٌ بزوجِها أن تلْحقْ بها الفضيحة هذه الليلة بالذات؟

- يا الله نَجنِي من هذه الساعة وسوءِ البَخْت.

تراكَمَتْ الأفكار برأسهِ وظلَّ معتكفًا وراء النخلَة محدّقًا بضوءِ النافذة التي بدا ضوئها الشاحبْ يوحي له بوجودِ حياة وراء هذه الجدّران، انزَلقَ على الأرض وجلسَ يتأمَّل ويُبَرهنُ لنفسهِ إن كان على خطأ أم صواب في مجيئه الليلة وتسَلِّلهُ... بدأ يشعر بالبعوض والحشرات تُحيق به، وأدركَ أن ثمة حشرةٌ قد تَسرَبتْ لأذنهِ اليُسرى، طَفقَ يعرقْ عند الفخذين وبدأ يقلق من نوْبةِ سعال قد تُفاجئهُ وعندها لن يَفلت من الفضيحة إلا بالهروبِ الآن... لكن الفَرَّار سيَفتَح الباب لغيرهِ من رجالٍ متعطشين للنساء الأرامل، يَصْطادونهن، منذ اللحظة التي يُفارق فيها الزوج الحياة، وحتى قبل دخول المرأة العِدَّة لأربعةِ شهورٍ، إذ يسْعون إلى إغْداق المعونات عليهن حتى إذا انتهتْ فترة العدة ينتهزون الفرصة، ويسارعون نحوَهِن بلا زواجٌ ولا نَّفَقَة... هل أترك جوري لهؤلاءِ الذئاب؟ جوري جميلةٌ ومُثيرةٌ وقد تضْحَى لقمةً سائِغةً لدي هؤلاء، وسترى طابورًا منهم ينتظر، لا لن أغادر الدار قبل أن اربطها بيّ وأظْهر لها مروءتي، وهي تعْرِفني وتُدركْ مدى علاقتي بزوجِها صالح... وسَتثِقُ بيّ.

سرَحَ وهو مُسْتندٌ على الشجرة، وقد بدأ نسيمُ الليل يَهُبّ من جهةِ الشمال، في قصةِ الفتاة التي أدَهشتهُ حالتها، فهي فاتِنةٌ كما ظَهرَتْ له قبل اليوم، منذُ كانت بطفولتِها ثم بعد نضجها، فكيف لم تُوَفق بزوجٍ غنيٍ ينتزعُها من بئرِ الفقر؟ بل كيف لم تستغل هذه الفتنة وتُغيّر حياتها كمّا فعلتْ نساءٌ كثيرات في الأحياءِ المُجاوِرة؟ هل هي تعاسَة حظها الذي ألْقى بها في زقاقٍ كهذا النفقُ المُعْتم؟ لقد خَمّنَ مصْدر نشوئها ومن أين جاءتْ قبل أن تتزوج صالح، لَعلَّها ترَبتْ في بيتِ جمعة الدوحة، الواقع عند بستان عبد النور البحري ضمن بيوتِ التنَك التي تُقيمُ فيها الأسر المنبوذَة، كان يَعْبرُ هو وصالح تلك الرقعَة التي تَمرُّ بدكانِ خلقون القديم قبل أن ينتقل إلى وسط الحي، يَتذكَّر الآن أنهُ كان يتَوَقف هناك عند محل عبد الرضا لبيعِ الكباب ثم ينكفئُ نحو وسط السوق لتناولِ شراب الليمون الذي أشتهر به سيار وأخوه اللذيّن بلغتْ شهرتهُما المدينة... كان يقطعُ تلك الأحياء والأزِقَّة برفقةِ صالح والآن تَذكَّر أنه سَمعَ من صالح عن لقائهِ أول مرّة بجوري وهي عائدةٌ من الخباز ذات صُبحٍ باكر، وكان ذلك أول لقاء له بها ومن يومِها ارتبطَ بها من خلال مطاردتهِ المستمرة لها، وكم اشْتكَى لهُ من غطرستِها بالأيام الأولى وغَنْجِها بعد ذلك إلى أن بدأت تَستَريح له حتى أكَلتْ عقلهُ...

عندما تَغيَّرَ وجه الريح وفَتَرَ الطقس مع توالي ساعات الليل وهو مُسْندُ الظهر على جِذعِ النخلَة، لم يشعر بجسدهِ وهو يَنْخرطُ ويَسْتلْقي على الأرضِ ودون وعي منهُ غَطَت عيناه، وغَفَى فيمّا ظلَّ رأسهُ يسْرح بذكرياتِ معرفتهِ

بأخبارِ جوري... تَذكَّر حتى وهو غافٍ تلك الأيام السَقيمَة والضارية التي كان يجُوعُ فيها الناس ولا يجدونَ ما يأكلوه فيبيعونَ كلّ ما يملكون، والذي لا يمْلكُ شيئًا لبيعهِ يموتُ جوعًا... لقد عانى هو وصالح وغيرهم من أطفالِ مدينة المحرق، أولادٌ وبنات من ضائِقةِ الكسَاد والمجاعة ولولا أن الْتقَطَهُم بعض الأتقياء لماتوا دون أن يعلم عنهم أحد...

كانت هناك بيوتٌ كبيرةٌ هُجِرَتْ من قِبَلِ أهلها وبعد سنواتٌ تحَوَّلتْ لأوْكارٍ للكلابِ والقطط وأضحَتْ مصائد للفاحِشةِ، فقد ارْتادَها كلّ من أراد امتطاء الأطفال سواء كانوا صبيةً أو فتياتٍ صغيرات، فقد كان هؤلاء الصغار وقودُ الطُرُقات يلتقطهُم كلّ من بداخلهِ شَبقٌ تجاه الصغار، وقد فُقِدَ كثيرٌ من الأطفالِ حينذاك عندما تَوَرَّط فيهم الكبار وتَركُوهُم ينْزفون أو خنقوهُم وأخفوا جثثهم بعد ذلك... وقد سَعى المُقيم البريطاني من خلال حَملَةٍ واسعةٍ لرصدِ تلك الظاهرة التي أقلقتْ الأهالي... في تلك الفترة عاش إدريس حياتهُ في الطُرُقاتِ وغاصَ في تلك البيوت المهجُورة ويَتذكَّر الآن كيف فلَتَ هو وصالح من الوقوعِ في مصائدِ تلك الزرائب التي يُعشْعشُ فيها الموت... هل كانت جوري واحدةً من اولئك الأطفال الذين تمرغوا في أتونِ هذه المصائد؟ ولم تجدْ بعد تلك الفرصة لاسْتعادةِ حياةٍ شَهمَة؟ غَطَّ بنومٍ عميق على هذه الأفكار وسَافرَ عقلهُ الباطن وهو في ظلِّ النخلَة وقد قاربَ الليل على هزيعةِ الأخير...

من بيتِ عبد النور بِساحلِ جنوبي المحرق، إلى مُحيطِ قلعَةِ حالة بو ماهر، المُهَدمَة، سارَ إدريس حافِي القدمين، عَبرَ مُستنقع مائي أشبه ببُحيرةٍ صغيرة محصورة بين البحر الكبير وشريطٍ طويلٍ من القمامةِ والنفايات التي يَلْقي بها سكانُ الأحياء المُطِلَّة على الساحل، كان هذا الحِزام بين البحر واليابِسة، مزْبَلةُ جنوبي مدينة المحرق، كان البحرُ عندما يَفيضُ يجْرفُ معهُ تلك النفايات وينثرُها مع مدّ الموج، وكان الأطفال يعبثون في تلك المزابل بحثًا عن لعبةٍ مهجورة أو خشبة يلعبون بها، أو قطعة معدنية يتقاذفون بها، وصارَ إدريس يَعبُر تلك المزابل ويعبثُ بما يلفتُ انتباهه من مخلفاتٍ، ومن أغرب ما لَفتَ نظرهُ اليوم بعد أن وعى على تلك الأيام الغابِرة، وجود فتيات بنفسِ عمره هو وصالح، يلْعَبنَ ويتَسكَّعنَ معهم دون رقيب أو وَلِي عليهم، ظنَّ الآن أن جوري كانت من ذلك الجِيل من الأطفالِ وهذا ما اقْتادها للمصير الذي أضْحتْ عليهِ.

فتحَ عينيه، وقد رآها نصفُ عارية، بقميصِ نومٍ قصيرٍ شفاف، ودون سروالٍ داخلي، فزَعَ، غير مُستوْعب متى تمَكَنتْ من تغيير وجهها وتصْفيتهُ من الندوبِ والشحوب؟ بدتْ مستلقيةً على فراشٍ وثير، لم يخطر بباله أن تحتوي هذه الحجرة الصغيرة على مثلِ هذا الفراش النفيس، لم تكن حزينة، بل طَفَقتْ ابتسامة وردية كتلك التي تخيَلَها في حلمهِ تَصبَغ شفتاها، ولمحَ إبطيها ناعمين نظيفين مثل قشرة تفاحة، تحسَّسَ في جيبهِ لؤلؤة الدانة ثم تقدمَ منها وانتظرَ إشارة للجلوس بقربِها، لم تعرهُ انتباهًا، كانت ترنُو للسقفِ،

رفعَ رأسه ليرى إلى ماذا تُحدق؟ فاجأتهُ صورٌ ومرايا وشموع معلقة ومشْدودَة على أطرافِ الحيطان أسفل السقف... اسْتغربَ من كلِّ هذا الذي يراهُ وقد كانت قبل ساعات بحالَةٍ يُرثى لها بين الطرقات ووسط مستنقعات المياه... خطَرَ ببالهِ أن يبدأ الحديث معها لكنهُ أسرعَ باسْتدراجِ الجوْهرة من جيبهِ ودنَا منها حتى كادَ يُلامسُ حافة الفراش، تَمَعَّنَ بجسدِها الزهري وكأنهُ في حلمٍ!!

"جئتُكِ من أقصى مكانٍ بالبحرِ، ومعي حياة جديدة أقدمُها لكِ... أتيتُ بعد أن ودَعتُ رفيق عمري صالح، لأحْمِيكِ من خُطوبِ الدهر جوري، أنتِ الآن في عُهدَتي وأنوِي أن أُعوْضكِ عن كلّ الشَقاء والبؤس الذي عشْتيهِ جوري... أعرفُ معاناتكِ، وما مرَّرْتِ فيه منذ طفولتُكِ، خدمتُكِ بالمنازلِ، وتَعرُضُكِ للتَحرشُ وجوعكِ وتشَرُدُكِ. منذ الساعة أنتِ فتاتي ولن أتْركُكِ... رحِمَ الله صالحًا لقد انْتزَعهُ البحر مني ومنكِ، ولكني أنا متواجدٌ لديكِ، لو تعلمين عن الليالي التي حَلِمتُ فيها بكِ، لو تدْركين الخيال الذي طَوَّقني معكِ؟ أنا تَعِبٌ من رحلةٍ طويلة... عدتُ بالأمسِ وأشعرُ بكلِّ ثقلِ الدنيا على كاهِلي... لم أنَم ولم أسْتَرح، جئتُكِ من البحرِ بمُجرد أن هَبَطتُ من السفينة، رأيتُكِ منذُ قليل في الزقاقِ تهْربين من قدركِ لتأتينَ هنا بهذا الوقت وعلى هذا الفراشِ الثمين، كيف انْتقَلتِ بهذه السهولة؟ يا لكِ من ساحرةٍ... إدريس عَشَقكِ منذ أن رآكِ أول وهلَة، اقْتَحمْتِ رأسهُ وامتلَكتِ روحه... كلّ حياتي جوري رهنٌ لكِ... هذه لؤلؤة لعَقدٍ يربُطني بكِ مدى الحياة، معكِ في السَراءِ والضراء جوري جوْهرة روحي"...

انْطلَقتْ زُمْرَةٌ من الدِيَكَة تصيحُ مُعلِنةٌ بزوغِ الصباح، انْسلتْ خيوطُ الشمس من بين أفقِ السماء برتقاليةُ اللون، بدتْ باهِتة للوهلَةِ الأولى ثم سرعان ما أَصْفَرَ لونُها، فيمّا اسْتمرَ صياحُ الديَكَة من عدّةِ جهاتٍ، خَيَّمَ هدوءٌ على الكونِ، وأشاعَتْ شُجيّرةٌ صغيرةٌ بزاويةِ من الدار برائِحةَ قُرنفلٌ بحريني، وعادّة ما تفُوحُ رائحتهُ فقط مع بدء النهار وقبل أن تَصْليهِ الشمس. نسماتٌ خريفيةٌ كَتمَتْ أنفاس إدريس وطَرَحتهُ مُسترخٍ بالأرضِ في نومٍ عميقٍ، انْهالَتْ طيورُ الحمام تنُوحُ كعادتُها الأزلية... لونُ السماء رماديٌ... الطقسُ دافئٌ...

وقَفتْ جوري وهي تَتَثاءبُ، بثوبٍ قديمٍ مُهترئ، نظَرتْ للسماءِ، ثم سَارتْ خطواتٍ في الفِناءِ، وجهُها جافٌ وشاحِب وشعرُها مَنفُوشٌ، كمّا لو لم تَنَم الدهرَ كلهُ، بريقٌ غامضٌ يَكتَنفُ نظراتُها... جَمَدتْ عند قدميّ إدريس تُحدقُ بغرابةٍ في رجلٍ هاجعٍ في سكونٍ على الأرضِ بمُحاذاةِ النخلَة...

- رحْمَتُك يا رَبَّ... هل أَخَذتَ رَجُلي وجِئتني بآخرٍ؟!

# 34

1941-شهر يناير-مدينة المحرق-المكان-حي بو ماهر-الوقت-نهارًا-الحالة-عناقيد الشتاء.

صوتٌ مُشوَّشٌ لأغنيةٍ شعبيةٍ محلية، تَصدَح من مقهىٍ شعبي بسوقِ مدينة المحرق، قربَ مخفر لنَواطير الحراسة، كان أسْفلهُ مبنيًا من حجارةٍ وطين، وأعلاهُ من خشبٍ وتَنَك، تحيطُ به مقاعدٌ خشبيةٌ طويلة شبيهةٌ بتلك التي كانت مركُونة بالمقاهي، وأمام المقهى، مبني آخر من الخشب لمفتشي البلدية، يقابلهُ من زاويةٍ أخرى باتجاهِ غربي السوق عدّة دكاكين لبيعِ المواد الغذائية يحتلُ أغلبها باعَةٌ وتجارٌ من أصولٍ أعجمية، يُطلق عليهم، الكِراشية، وغالبية سلعهُم من بلاد فارس وهي تَشْمل البصل والبَهارات والبقوليات المُجفَّفَة كالعدسِ والفول، والرُزّ والطحين وغيرها. تنتشر بمُحيطِ هذه المحلات روائح الفلفل اليابس والثوم، وبالقربِ منها تصْطفُ عدّة عَرباتٍ صغيرة ومطوّلة، ذات عجلات خشبية، بعضها يتمُ جَرُها بواسطةِ حمالين أكثرهم أعاجم وهي تُدفع باليد، رَهن الزبائن من المقتدرين الذين يتسوقون مُؤنهُم من هذه المحلات.

انتشر الكثيرُ من البحارةِ والعتالون والعاطلون والمتسكعون، وتَجاذَبَ البعض أحاديثًا حول الحرب العالمية الثانية التي تَوَرَّطتْ فيها البلاد، حالَّها كدول العالم... كان المقهى الذي ضَمَّ عديدًا من الرجالِ ومعظمهُم بحارةٌ من صيادي السّمك، والعائدين من الغوص، يتحاورن رغم صوت الأغاني الركِيكةُ المُنبعِثة من جهازٍ خشبي مصقول، وُضِع فوق أحد الرفوف العالية، كانت الأغنيات المُنبَعِثَة منهُ تَطغَى على صوتِ المُتحدثين الذين كان من بينهم على طرفِ المقهى الخارجي بجانبِ الطريق، إدريس الملا... كان يرتدي ثوبًا من الصوفِ كحلي اللون، وغترةُ شال بيضاء ذات خطوط وتعرجات صفراءُ اللون، تنتهي بخيوطٍ سميكة منْسوجَةٌ ببعضها وتتَدلّى من أطرافِ الغترة التي بدتْ نفيسةُ الثمن.

كان الطقسُ شديد البرودة، وقد ارْتدى الجميع، ملابسٌ شتوية، تراوَحَت بين ثياب الصوف والستراتُ الملونة، والمعاطفُ المختلفةُ الأحجام والألوان ولا يجْمعُ بينها أي تناغم. السماءُ كانت غائمةً، والهواءُ جافًا يهبُ من الشمال، ويحملُ معه روائح، اسماكٍ وبهاراتٍ، ومخلفات الذبائح القادمة من مسلخٍ للبهائم، اخْتلَطتْ بروائحِ التبغ الصادرة من المقهى ذاته... كان الكَسَلُ والخُمول طابع الوجوه التي غلَبَ عليها الاسترخاء، ولفَّ بعضها الصمتُ والاكتفاء بتدخينِ النارجيلَة، وبعضها راحَ يتحدثُ مع الآخر بصوتٍ هامس ودون حماسَة، كان البردُ والبطالة والإفْلاسُ هو ما أشَاعَ هذه المشاعر بين رواد المقهى باسْتثناء واحدٍ أو اثنين من الميسورين نسبيًا وممَن ينتمون لفئةِ

الرُبان أو المساعدين، كانوا يتداولون أحاديث حول اِنْقطاع طريق التجارة البحرية، وتأخُر سفنٍ كثيرةٍ عن الإبحار من الهند وأفريقيا وبعض البلاد بسبَّب الحرب التي تطَوَّرتْ واشْتدتْ بين ألمانيا وبريطانيا التي سَيطرتْ قواتها على المنطقة وانْضمَّتْ لها إماراتُ الخليج ومنها البحرين... أما باقي الرواد من أولئك الذين لاذوا بالمقهى لأجلِ الاحتماءِ من البرد بعد أن كانوا يتسكعون على السواحل وهم من بحارةٍ عادوا من الغوص، أو من صيادي السّمك ممن منَعتهُم الرياح وحالة الطقس المُتقلِبة من الإبحار، وبعض العتالين أو العاطلين الذين يرْتادون المكان اعتمادًا على قيام بعض الرواد بالتَبرعْ لهم باحتساء فنجان شاي أو كوب حليب أو حتى بيضة مسلُوقة أو كأس زبادي الأمر الذي دَفعَ بصاحبِ المقهى المدعو عبدالرحيم وهو ينْحدرُ من أصولٍ عربية كانت تعيشُ في الساحل الفارسي ونَزلَت البحرين منذ سنين، أن يطْرد بعض أولئك المُتسكعين بطريقةٍ لبِقَة ومن دون أن يجْرحهُم إذا ما رأي المكان مزدحمًا، أو إذا ما أطالوا البقاء مدّة طويلة واحْتكروا المقاعد.

كان اليومُ هذا وهو الحادي والعشرين من يناير، أكثر برودة من سابقهِ، وهذا ما شعرَ به إدريس الملا الذي دأَبَ على ارتيادِ المكان يومًيا تقريبًا، حتى موعد أذان الظهر، ثم ينْصرفُ سيرًا على الأقدامِ عَبرَ طرق ملْتويَة يتأمَّل خلالهُ السوقَ ثم الأحياءَ الداخلية، يقطعُ الوقت بمراقبةِ كلّ شيء بتؤدةٍ وهدوء وشعور بأنه يرى الحياة مختلفةً عن سابقتِها بكلِّ يومٍ، كان يبدأ جولتهُ الصباحية بالمرورِ على سوقِ السّمك، إذا كان هناك ثمةُ ما يُوجدُ صدفة، إذ

افْتَقدَ السوق للأسماك الطازجة منذ أن هَبَّتْ موجةُ الرياح والبرد، وإلا انْعطفَ لسوقِ اللحم، ثم سوق الخُضار الموازي له، وبرفقتهِ أحدُ العتالين ويُدعى بو حاجي، شابٌ فقير، طويلُ القامَة، أحَوَّلُ العين، حاسِر الرأس، رغم شدّة البرد، يتحدث بلكْنةٍ هجِينَة، خليطٌ بين المحلية والأعجمية، وبعدها يقوم بزيارةِ أحد دكاكين الكراشية، لشراءِ بعض السلع، كالتَمر والرُز والبَهارات، ليجمعها في النهاية ويضعها بعربةِ بو حاجي الذي يُوصلها لدارِ جوري، فيمّا يعود لفترةٍ وجيزة أو يمْشي بتَريثٍ وبخطواتٍ كسولَة حتى يبلغ الدار.

اعتادَ هذا المشوار تقريبًا يوميًا منذ أن اقْترَنَ بجوري الصوري وعاشَ معها وبدأ يعتاد الحياة الجدّيدة بكَنَفَها هي ووالدتُها رقية العمياء التي أصِيبتْ بالصْمتِ الذي يُشبه البُكْم، منذ أن نَعَتْ ولدها بالتَبَني صالح الزري الذي لَقِيّ حَتفهُ في البحر، اقْترنَ الرجل بزوجةِ صديقهُ بعَقدِ زواج بعد انْقضاء مدّة عدتُها بيومٍ واحد، وكان ذلك من خلال تواصل معها غير مُباشر عن طريق صديقتها نرجس التي كانت مُخْتفِيةٌ ثم ظهرتْ فجأة ولم يَعرفْ أحد سبَّب اخْتفائُها ومُبرِّر ظهورها لكنها أسْهَمَت في التحضيرِ والإعداد لعَقدِ قرانَ إدريس بجوري بعد سلْسلَة من اللقاءاتِ والمشاورات، حتى تمكّن الرجل من إقناعِ أرْملَة صالح الزري أن رغبَة زوجُها قبل أن يتوَفى هو عنايته بها ورعايتها وكان هذا آخر ما طلبهُ منهُ قبل أن ينْزل للماء آخر مرّة... أقْسَمَ لها على ذلك وكانت المرأة بحالةٍ يُرثى لها ولم تنْتَظر حتى اِكْتِمالْ مدّة انتِهاء العِدَّة كما يبدو من الوقت الذي اسْتغرقهُ عقد الزواج الذي جرى بعَجلةٍ وهدوء

وبعيدًا عن الضَوْضاء. جرى ذلك بصَمتٍ ودون ضجةٍ، خلال الشهور الأخيرة منذ اعلان وفاة صالح الزري، وتوَسُّع دائرة تأثير الحرب العالمية في البلاد، وتَفاقُم أزمَة الركود وحالَة الكَساد التي ضَربتْ الجميع، انْغَمسَ الناسُ في تدبيرِ شئونهم الخاصة والبحث عن نقطِ ضوءٍ في الأفق تنْتَشلهُم من حالةِ المَجاعَة والفقر، ولم يعد الأهالي في واردِ الاهتمام بشئونِ غيرهم أو البحث عن أسرارٍ وفضائح ومُلاحقة الأخبارُ والشائعات كمّا كان الحالُ قبل شهور فقط من اسْتفْحالِ تأثير الحرب على الجميع، حتى أولئك الميْسُورين الذين تدفقوا على المحلاتِ والدكاكين يُخزنون المواد الغذائية خشْية سوء الأحوال... التي بدأتْ تَتدَهوَر بسرعةٍ وأدتْ لتَفاقُمِ أعداد العاطلينَ والفقراءُ والجوْعى...

كان إدريس قد تَدَبرَ أمره بهدوءٍ وسرية، ورغم اقْترانهُ بجوري منذ أقل من شهرٍ واحد، إلا أنه ظلَّ كتومًا، مُنْغلقًا على عالمِهِ، محاولًا قدر الإمكان تَجنُبَ الاخْتلاط برفاقِ السفينة التي كان عليها، مكْتفيًا بلقاءاتٍ سريعة وخاطِفَة، يعيشُ في عزلَةٍ عن الآخرين، مقْتصِرًا على جلساتِ المقهى مع بعض البحارة يتبادلُ معهم أحاديث قصيرة مُقْتضَبَة، ويلجأ في غالبِ الوقت إلى الصمتْ وتدخين النارجيلة التي أدْمنَ عليها منذ نزولهِ إلى اليابسة، كان همَّهُ الوحيد الحفاظ على حياةٍ هادئة مُستقِرَّة مع جوري، لذا كان يقضي معظم وقتهُ منذ المساء حتى نهاية الليل والفجر بالمنزل. كان يرْتادُ المسجد بعض الفروض ويكتفي الباقي بالصلاةِ في المنزل، كثَّفَ كلّ همَّه في محاولةِ كسبَ

وِدَّ جوري والتقَرُب منها، لكنه عجزَ رغم كلّ ما بذلهُ أن يسْتمِيلَ نحوهُ العجوز رقية التي ظلّتْ مُقْعَّدةَ بحجرتِها الصغيرة، عاجزة عن الكلام والحركة، إلا بحدودِ المكان الذي هي فيه... كانت جوري تخْرجُها من وقتٍ لآخر إلى الفِناء عندما يتَحسَن الطقس وتضَعَها بجانبِ النخلَة أو تُعَرِضُها لأشعةِ الشمس عندما تكون أشعتُها طفيفة وخامِلَة... وفيمّا عدا ذلك ظلّ إدريس خلال الفترة القصيرة التي اقتَحَم فيها منزل صالح الزري، يُحاول كلّ ما في وسعِهِ لإرضاءِ واستمالة جوري التي رَضخَتْ له واسْتسلَمتْ لمصيرها معه منذ صادَفَتهُ صبيحة ذلك اليوم وهو هاجعٌ تحتَ فَيْء النخلَة ومن حينها، صار مكانهُ المنزل الذي كان لصديقهِ صالح، وأضْحَتْ زوجة رفيقهُ جوري هي زوجتهُ كما تخَيَّلَها وتمناها ونالَها أخيرًا...

حوَّلَت الحربُ حياة الناس إلى معاناةٍ شائِكَة، فاقَمتْ عذابَ وشقاء غالبية الناس الذين لم يتمكنوا من امتلاكِ المال، كانت الموادُ الغذائية رغم الأزمَة مُتوفِرة في الأسواق ولكن بأسعارٍ تفوقُ قُدرة السكان، وكان أغلبُ الأهالي لا يملكون المال، ولا يجدون أشْغالاً، حتى تلك الأعمالُ الهامِشية والثانوية كالخدمَةِ في المنازلِ وتوصيل الأغراض، تمَّ الإسْتغناءُ عنها في معظمِ البيوت، صارَ من يملك المال هو من اسْتطاعَ الإفْلات من ضائِقةِ الحرب والفقر والكساد... كان إدريس قد تمكن من ضَمان عيشة مُسْتتبَّة نسبيًا له ولجوري واستطاعَ تأمين حياة مُستقِرَة لهما، من خلال المحافظة على تَدْبُرِ أمره بعد بيعه لؤلؤة الدانة التي جَلبَتْ له آلاف الروبيات في وقتٍ

لا يملكُ فيه معظم السكان فلسًا واحدًا... كانت هذه هي الخطوَة الخاطِفَة التي انْتشَلتْ إدريس من ضائقةِ الفقر إلى منعطفٍ آخر حققَ له الرخاء والاِستقرار والفوْز بزوجةٍ حَلِمَ بها في خيالِهِ وتمكّن من عبورِ نفق الخيال واجْتيازْ قاع المدينة إلى سَفْحِها، ثم سعيهُ لقطعِ الطريق إلى قمتِها، لقد شَكَّلتْ الدانة خطوة جسورة وماحِقة إلى بتْرِ حياته الماضية والمُضْنيَة، وجعلتهُ يُفكر ويُخطط ويَحْذَر الاِنزلاق للفقرِ ثانيةٍ، َفأَمْسَكَ يده عن التبذير، ولم يُفصح أمام جوري عن ماهيةِ هذا التغيير في حياتهِ، كمّا احتاطَ أمام البحارة ورجال الحي ورواد المقاهي من التباهي أمامهُم، واقتصَرتْ نفقاتهُ على احتياجاتهِ اليومية وفي حدودٍ ضيقة، كان هاجِسهُ عدّ النقود التي معه بسريةٍ تامة كلّ يوم، كان يُخبئُها في صندوقٍ معدني متوسط الحجم وفيه بعض أغراضهُ وعليه قُفلينْ من طرفيهِ. ظلَّ يحتفظُ به تحت ناظِريه ويخبئُه تحت فراش الزوجية، ولم يُفصح لجوري عن محتواه ولم تُكلفْ هي نفسها السؤال، كانت مُكْتفية بالتَكيُّفْ مع حياتها الطارئة التي انبْلَجتْ ساعة رؤيتها له غافيًا عند النخلَة في الصباحِ الباكر... كانت تلك الساعَة مُنْعَطف التّحوُّل في حياتِهما هما الاثنين...

لم يمْضِ وقتُ طويلُ على علاقتِهُما، ولم يتبلوَر التكيُّفْ بعد بالرغبَة التي يَضْمُرها إدريس، كان ثمةُ حاجز، جعله يقضي وقتهُ رغم تَجنبه الاِخْتلاط بالناس، بين السوق والمقهى، والتجوُّل في أرجاءِ المدينة، فبدأ يَلجُ الأحياء الميسُورة التي يَدْلفُ إليها من تقاطعِ عمَارات الخشب الواقِعة عند مدْخل

سوق الذَّهبّ، ويَعْبرُ نحو مُرتفَع عمارَةٍ لمعداتِ البحر والسُفن، ثم يتَوَغَّل في أحياءٍ مُلاصِقَة لمنطقةِ بيت شيوخ البحرين شمالي المدينة، ويتوَسطُ الرقعَة تلك بيتُ الحاكم، بعدها يتَعمَّق في الطوَافِ داخل أحياء لا يعرفُ أسماءها ولكنها مُجاوِرة لمنازلِ بيوتِ العائلة الحاكِمَة. كان يقطعُ تلك الأحياء ويَتطَلَّعُ للمنازلِ ويتَفحَص بناءها ويتَخيَّل لو أمكنهُ انشاء منزلٍ صغيرٍ ومتواضع ولكن بنفسِ المُواصفات التي عليها تلك المنازل الكبيرة المبْنيَة من طوبٍ وحجارة، تتوَّزع أطرافُها نوافذٌ مُزخْرفَةٌ بحَوافٍ خشبيةٍ وشرفاتٍ مبنيَة من الخشب المطواع والمحْفور بحَرَفيةٍ ومَطْلي بألوانٍ بُنيَة ورمادية. كانت متْعَةً لا تُضاهِيها مُتعَة سوى العودَّة إلى الدارِ والإسْتلقاء على الفراشِ، يغْمضُ عينيه ويتَخيَّل نفسه في واحدٍ من تلك البيوت، ومعه جوري، لا شكَ أن تحقيق مثل تلك الأُمنيَة سيَجعَل قلب جوري يَميلُ إليه بعاطِفةٍ جياشَة لا يحلم بها... توَّقعَ في الأيامِ الأولى بعد اقترانهِ بها أن يَلينَ قلبها ويمحو عن وجهها مُسحَة الحزن، كانت تضحكْ معه وتشاركهُ الأحاديث التي يفتحُها معها حوْل مشاهداته اليومية، ويثيرُ معها قصصًا وحكايات، أغلبُها يختَرعُها ويضْفِي عليها من خيالهِ وذلك ليرسم على وجهِها سماتٌ مختلفة عن تلك التي طَبعتْ ملامحها منذ رؤيتها لهُ باليوم الأول... كان يشعرُ أنها تشاطِرهُ الكلام وتتَكيَّف معه، ولكن في أعماقهِ كان يرى أنها لم تتأقْلمْ بعد معه... رغم تظاهرها بذلك، كانت تلك عقدتهُ التي ما اِنفَكَّت تشْغلُ باله طوال الوقت.

- هل تنوِي الرحيل إلى الغوص هذا الموسم؟

سألتهُ ذات مساءٌ بينمّا كانا يقعدان عند عتبة الدار بالفِناء من الداخل وكان الرذاذُ يُبلِّلُ الأرض ثم فجأة انفجرتْ السماء عن سَيّلٍ جارف من المطر، فابتعدا للوراءِ وقد قطعَ ذلك سؤالها الذي فاجأهُ ولم يكن يخطر ببالهِ منذ عودتهِ الأخيرة من البحر.

- ماذا تُفضلين جوري؟

ابتسمتْ... وتوقفتْ لحظة، راحتْ خلالها تتأمَّل هدير الماء من السماء، ثم حَرَفتْ الحديث بقولها...

- لندخل للدار لعلَّ المطر قد تسَربَ إلى حجرةِ رقية...

ظلَّ سؤالها عالقًا برأسهِ، لم يفَكر به من قبل ولم يخطر ببالهِ، أن ثمة أحدًا سوف يسألهُ هذا السؤال بذروةِ فصل الشتاء...

- هل تريدين لي السفر للغوص؟

سَألها وهمّا بطريقهُما لداخلِ الدار...

- من أين نعيش إذا لم تَرحلْ للغوص؟

سألتهُ حينها بفتورٍ وقد بدتْ مُكْترِثة بمصْدَر عيشهما، كانت هيْئتُها مُختلِفَة عن الآنِفَة، هادِئة، رزينة، باردة من الداخل، رغم ابتسامتُها التي لا تُفارقُها مع كلّ حديث يدور بينها وبينه، كانت تُبْدي اهتمامُها به، وتظهرْ له انتباهها لدى حديثهُ معها، لكن ظلّ ثمة بريقٌ غامض يكْتنفُ سماتُها وينبثقُ من عينيها اللتين تُوحيان باكتئابٍ، لم يكن يلُوحُ عليها بهذه السِمَة من قبل رغم ما كانت تُكابِدهُ من فاقةٍ وجوع. لم يمضِ شهر بعد على اقترانها بإدريس

رغم رؤيتها له ثلاث أو أربع مرات سرًا خلال فترة ما سُمي بالعدَّة التي تولِجُها الأرْمَلة، كان يغافلُ الحي بعد منتصف الليل ويتَسلَّل للمنزل يحملُ لها الطعام والشراب ويُوْعِدُها بالتعويض عن وفاةِ زوجها، كان بمنتهى الرِقة والعطفْ معها طوال شهور العِزلَة التي لم تكن بالنسبة لها عزلَة، إذ لم تَكترثْ بذلك التقليد الديني، فلم تكن ممن يَتعمَّقن بالدين، حتى أنها لم تعرف الصلاة إلا عندما كانت طفلةٌ، أجْبِرتْ عليها بالدارِ التي ترَبتْ فيها، أو كانت تتظاهرْ بممارستِها بالمنازلِ التي خدمَتْ فيها لتَجْنبْ مضايقتها أو التشكيك بتَمسكها بالدين، لم يكن ابتعادها عن هذه العبادة عن وعيٍ أو تعمُد أو عدم إيمان منها، بقدرِ ما كان سلوكًا عفويًا وفِطْرَةً، نبَتتْ معها ونَمتْ خلال حياتها العاصِفة بالشقاء.

❋❋❋

عندما انتَهَى إدريس من الاقْترانِ بها، بليلةٍ شتويةٍ مُبرِحَة، فاجأها بليلةِ عرسَها تلك، حين اخْتلى لهُما المكان، كانت رقية بحِجْرها الصغير مُنزويةٌ، منطويةٌ على نفسِها، وكان طقسُ الشتاء قد حَبسَ الناس في منازِلهم، واحتموا بالصمتْ حول مدافئ الفحم، ظنَّ في تلك الساعة من الهدوءِ والسكينة، أن لحظة الحلم التي تخيّلَها لشهورٍ عدّة قد حانتْ. تأمَّلها بدقةٍ تفصيلية، تفتيشًا عن تلك التَضاريس الجسدية التي تصورها في رأسهِ، وحشَرَها صاحبهُ صالح في عقلهِ وهو يروي له حذافير علاقته بها، كان ينتظرُ اللحظة منذ أن وطأت أقدامهُ اليابِسة، وصُدِم بمدّة العدّة، التي قضَتها في

الدار، واكتفى بإرسالِ المُؤن والمال والسلام، مع نرجس وامرأة أخرى لا يعرفُها، كانت تخرجُ له عندما يقرع الباب، ظَنَّ أن الوقت سيمضي ولكن طالَ... لم يُصدق أنه عَقدَ عليها بليلةِ اربعاء من الأسبوع، وعندما انْتهتْ طقوس الزواج ورآها تجلس على طرف الفراش بعد أن خَلعتْ العباءة... تنفسَ الصعداء ودنَا منها وجلسَ إلى جانبها على الطرفِ ذاته، ارْتعَشتْ أعضاؤه وانْفلتَ خيالهُ وراء ملابسها متخيلًا جسدها كمّا تصورهُ، كانت عيناها واسعتان تقطران كحلاً، وبِشرتُها متوَرِّدةٌ وقد انعكسَ عليها ضوءُ السراج، أثارهُ فستانها الذي ارْتدتهُ وكشفَ عن كتفيها الأملسين، سادهُ هدوءٌ في البدءِ سرعان ما انقلبَ إلى ثورةٍ عصفتْ بعروقهِ وهو يتأمَّل الغرفة بسكونها ولون غطاء الفراش الزهري، ثم نظراتُها وهي تَسْترقها منه، دنَا منها أكثر وقبضَ على كلتا يديها فانْتفَضَ جسدهُ وتذكَّرَ أحلامهُ كلها بها وهو في عرضِ البحر، وفي ليالي الصيف والظمأ الذي اجتاحهُ وهو يَنْصتُ لصديقه حول غرامهُ بها، شدَّها نحوه وطوَّقَها بين ذراعيه، فزادَهُ لهيب عطرها الذي فاحَ بخَلطةِ دهنِ العُود والورد عنفوانًا... فقد ساعتها وعيهُ حينَ لمحَ نظرةَ عينيها الواسعتين وقد علقتَا بنظرتهِ نحوها، ظَنَّ أنها دعتهُ لخلعِ ثوبه ودَفعَها برفقٍ على الفراش، ثم راحَ يشدُّ فستانَها إلى الأعلى حتى ظهرَ فخذيها وتعرى بطنُها، برَزَتْ ندْبتُها البُنية اللون، فزادهُ ذلك لهيبًا، وبدتْ له في تلك اللحظة مثل رُمانةٍ تمَّ تقْشِيرُها فراحَتْ تسيلُ حُمْرَة وتوَهجّ... عندما خلعَ سروالهُ وفتحَ فُخذَيه مد يدهُ لإزاحةِ سروالها وهو يعْمد للتَسلُّلِ إلى حوْضِها الذي وجدهُ

ساخنًا، حتى أمْسكَتْ يده وسحبَتها مما أصابهُ بصدمةٍ توَقفَ عندها عن الحركة وحَدقَ فيها متسائلاً بصمتٍ من خلال نظرةٍ ذات مغزى.

- دعْنا نترَيث إدريس...

لم يفْطنُ لمعني كلامها وظلَّ يتفحص نظراتُها التي كانت بين الحَرج والضيقْ والتردد، طالَ الصمتُ بينهما وما زالا على الوضعية ذاتها، إلى أن بادَرتْ وتحركتْ من مكانِها، رفَعتْ سرواها وأعادتهُ لمكانهِ ثم ستَرتْ جسدها بالفستان، فأشْعَرهُ ذلك بالحَرجْ...

- لستُ مسْتعدة الليلة... سامحني.

قالتها بنبرةٍ باردة وهي تخفضُ عينيها للأسفل، كان لا يزال بدون سروال وقد تَجمَدَ في مكانهِ من البرد والحرج، ما زاد من حَرجَها نحوهُ، فتَحرَكتْ عن الفراش وجلستْ بعيدًا على كنَبة قطنية مُسطحَة بالأرض، رأتهُ وقد بدأ يرْتجِفُ من البرد حتى لا يقوى على لبْسِ سروالهُ الذي تَعثَّرَ به وهو يُحاول ارتدائهُ، أخفضتْ بصرها عنه وظلّتْ تنظر للأرض، وقالتْ بنبرةٍ ودية، وبصوتٍ مُتهَدج:

- هل تُريد أن أشْعلُ لك الفحم لتَدْفَأ؟

صمتٌ

- لماذا نَترَيث جوري؟

سَألها وتخيَّل صالح لو كان مكانهُ، كيف كان سيتَصرَف؟ عادتْ به ذاكِرتهُ لتلك الليالي الحارة من الليل حين كان رفيقه يروِي له الأسرار،

استعادَ بعض القصص التي كان يرويها له، وراحَ يبحثُ فيها عن مغزى المرأة التي أمامهُ الآن... لقد كان يحلمُ بها وتَخيَّلَها مئات المرات في النومِ واليقظة، في الليلِ والنهار، وها هي الآن بين يديه، وكانت على الفراشِ معه... هل كان هذا المكان نفْسهُ الذي كان صالح معها عليه؟ طفَقتْ الأسئلة تَلفُّ برأسهِ حتى اسْتقرَ مرتديًا ثوبه والجلوس على الطرفِ المقابل من الحجرة.

- ظَنَّنْتُ أنكِ اشْتقْتِ للنِّكاحِ طول هذا الوقت من الصيام... أَلَم تَشْتاقِي للمُضاجَعة؟ أي امرأة بعد جوع شهور من الصيام، تُفَوّتُ فرصة النِّكاح!

- ابتسمتْ وقالت بنبرةٍ مُراوغة.

- أنت لا تعرفُ شيئًا عن المرأة.

- لقد أخْبرَني صالح عن شَبَقكِ وشَهوَتُكِ الدائِمَة للمُجامَعَة... هل كان يَخْتلِقُ ذلك؟

قَهقَهتْ ولوَّتْ وجْهُها ناحية الجدّار، كان الضوءُ في زاويةٍ من المكان يُنير الحجرة وفي جهةٍ أخرى، انْعكسَ ظلَّها على الحائط، بعد وَهلَة من الصمتِ قالتْ بنغمةٍ أكثر جرأة وبصوتٍ جسور: ماذا أخْبرَكَ غير ذلك؟

سَألته وراحتْ تسْحبْ فستانَها وتُغطي به ساقيها، فيمّا تَحركَ هو وسحبَ سترتَهُ وارتداها بعد أن لسَعهُ البرد... شعر بنَدمٍ لتدفق أفكارهُ بأخْبار صديقهُ وما كان يروِي له، أحسَّ بأنهُ توَرَّطَ بالعِبارة، فلاذَ بالصمتْ ولكنها لم تتْركهُ فعادَتْ تُكرِّرُ السؤال بصيغةٍ مخْتلِفَة.

- ماذا قال لكَ عني؟ ليس في الأمر حرجٌ، أنتمّا الاثنان صديقان منذ الطفولة، أخبرني بصراحةٍ ماذا كان يروِي عني، لنكُن منذ البداية صادقين حتى نَتَناغَمُ مع الحياة التي سنعيشُها منذ الآن.

- فهَمتُ منهُ أنكَ تُحبينَ النِّكاح...

غَرقَتْ في نوبةٍ هستيرية بالضحكِ، ثم فجأة أمْسكَتْ وقالتْ بلهْجةٍ لا تخْلو من المرحِ.

- وأنتَ الآن وجَدتَني على النقيضِ، أليس كذلك؟

- هذا ما يبدو...

صَمتْ، راحت تنظرُ نحوهُ بتحْديقٍ مُبْهم، شعرَ بحرجٍ ولكنها بادَرتهُ قائلة بنبرةٍ موارِبة، فيمّا ظلَّ هو يتجاهل نظراتها نحوهُ.

- هل صُدْمتَ فيّ؟ هل توَقَّعتَ أن أخلَعَ ملابسي وأُضاجِعُك؟ ماذا كنت تَتوَقَّع؟ ألْتَمسُكَ أن تُخبِرُني حتى نكون على بيِّنةٍ من أمرِنا؟

نَهضَتْ وأخذتْ السراج من مكانهِ ووَضَعتهُ في الزاويةِ المقابِلة وقالت دون أن تُزيل عينيها عنهُ:

- كلمني في العِتمَةِ إذا كنت تتَحَرَّج من رؤيةِ وجْهي وأنت تُفْصح لي عن تطلعاتك لي معك... لا تنظر، قلْ ما يدُورُ في رأسكَ يا رجل... أفْصحْ عن شكُّوككَ.

- هل كنتِ ترْتادينَ دار دلال من قَبلِ زواجُكِ من صالح...؟!

صَرخَتْ ولكن بصوْتٍ مُنخَفضْ.

- ماذا؟

ثم أرْدفَتْ بصوتٍ أقوى، ونبرةٍ مُتيَقِّنَة.

- تعْجُبني صراحتُكَ وجرأتُك...

صَمتَّتْ وظلّتْ لفترةٍ تُحدقُ في سقفِ الحجرة، فيمّا نهضَ وهو يتثاءبْ وأخرجَ سيجارة لفّها وأشْعلَها وراحْ ينفُثُ دخانها...

- كنت تَعرفُ عني ذلك وتزوجتُني... أليس في ذلك مُجازَفة؟

ازْدادَتْ برودة المكان، ورأته ينْتفِضُ، سحَبتْ بطانيةٍ كانت بجوارِ الفراش وألْقَتها عليهِ ثم طَوَتْ شعرها ولَفَّتهُ وراء رأسُها، دثَرتْ جسدها بعباءةٍ كانت مركُونةٌ فوق الكنبَة بقربها وقالت وهي تتَهيأ للخروج من الحجرة.

- سَأشْعل فحْمًا وأعود...

تركَتهُ مع أفكارهُ وخيالاته وذكرياته، لأولِ وهلَة انتبهَ للحجرةِ التي هو فيها، فَلَم يلمح طوال فترة وجودهُ فيها طبيعةُ المكان الذي ضمَهُ معها، فقد كان تركيزهُ الكُلي عليها، وعلى جسدها ومظهرها وبحثهُ عمّا كان يتَصوَرهُ عن هيئتِها، لفَّتَ انتباههُ أن الحجرة من الداخلِ قد تمَّ طلائُها للتَو من خلال تحَدُّر رذاذ الطلاء على الزوايا، لاشك أن ذلك تمَّ من خلال المبلغ الذي أعطاها إياها أثناء فترة انتظار نهايةُ العِدَّة، لم يُخفِ الطلاء التَصدُع في بعض أجزاء من الحيطان، لمحَ شمعتين كبيرتين بيضاويتين غير متَقِدتين على صندوقٍ كبيرٍ بمُحاذاةِ دولاب الملابس، تُرى هل فيهِ أغراضُ صالح؟ تساءلَ في داخلهِ وهو يُفَكرُ بفَتحهِ ومعرفةِ أسراره ولكن ليس الليلة، لاحقًا. كانت

السُجادَة التي يجلسُ عليها قد تمّ غَسلُها مؤخرًا واتضحَ لهُ ذلك من رائحةِ الصابون عليها، فيمّا ضَمَّتْ الحجرة كنبَة خشبية صُفَت عليها دلتا شاي، ومُنفَضٌ مُخَصَّصٌ لماءِ الورد الذي يُرشْح به على الوجه والملابس، ملْحفَان، أحدهُما بني اللون والآخر أخضر، وهنا خطر ببالهِ، أنهُ سينَام الليلة معها على ذاتِ الفراش، وسيُتاح له الاِحتكاكَ بها، وشَمَّ رائحةُ جسدها وربمّا يتمكَن من إزالةِ تَحفظُها من خلالِ الحديث الدافئ وهما في الفراش.

- لماذا اسْتعْجلتُ على النِّكاح إدريس؟ لماذا لم أنْتظر فرصة استلقائنا على الفراش وانتظارْ اللحظة المناسبة؟ يا لكَ من عاشقٍ عجُولٍ وغَشِيم.

خاطبَ نفسه وعادَ يستأنفُ التفكير فيها ونسَى استعراض الغرفة التي كان قبل قليل يتفرسُ في زواياها ومُحتوياتُها.

- سأهدأ الآن وألمْلِم شَتاتِي حتى أنالَ ثقتُها، لقد أفْسَدتُ الأمر بتَهوُري في الكلام ولكن سَأسْتدركُ وأُصْلح الأمر حالمّا تعود، لكن كيف لي تذوُقُها؟ لقد رأيتُ بعضًا من أجزاءِ جسدها وكانت مُثيرةٌ للغاية، خاصة تلك النُدبَة التي تبدو حرقًا غير متعمدٍ أو كيًا بالنار، نتيجة عقابٍ لها وهي طفلة أو صبية شقية؟ لا يبدو عليها البراءةُ، فلِسانُها طويل رغم رِقَةُ عِباراتُها معي، كيف كان صالح يُعاملُها؟ لم يَذكر ليَّ شيئًا عن أسلوبه في دعوتهِ لها إلى الفراش، هل كانت هي من تُبادر؟ أم هو؟ هذا الأمر أضْحى الآن مهمًا لي، ولكن عليَّ الانتظار، وتحمل رؤيتُها معي حتى تهدأ نفسها.

ظلَّ يتحدثُ بصوتٍ ويُفكر بصوتٍ آخر، وحين سمعَ صوت خطواتُها مقْترِبة اِعتَدلَ في جلستهِ واكتفى بالنظر نحو الباب الذي فُتحَ ودلَفتْ منه وهي تحملُ منقلَةَ النار وعليها جمْر ملتهبٌ... اقتَحمَ بالتزامن مع دخولها تسلُّل تيارٍ شديد البرودة من الخارج ما دفعهُ ليبادرها بالقول...

- تغيَّر الطقس مرَّة واحدة وفجأة، هذا يستدعي شراب الزنجبيل؟

وضَعتْ مَنقلَةَ النار، أمامها وجلستْ القُرفصاء وقد بدا وجهها متَوردًا من شدّةِ البرد، جلستْ بعيدة نسبيًا عنهُ وقالت بلهجةٍ متسائلة...

- هل تُريد أن أُسْخن لك شاي بالزنجبيل الآن؟

- إذا كان ذلك سيُسخِنَنا في الفراشِ بعد ذلك...؟!

أجابَ إدريس بنبرةٍ عَمدَ منها الإيحاء بأن الليلة باردة وتقْتَضي التدفِئة، بدأ يُتقنُ اختيار عِباراته إثر ندَمهِ على إفراطهِ بكلامٍ كذْكرِ دار دلال بأولِ ليلةٍ له معها تحت سقفٍ واحد، كانت تلك العِبارة وحدها تكفي لنَصبِ جدارٍ منيع في العلاقة بينهما في وقتٍ كان يسعى فيه لترسيخِ عاطفة من جانبِها، تذكَّرَ كلامهُ مع صالح من عدمِ معرفته بالنساء، ورغم ذلك كان يختار كلماتٌ يَندَم عليها بعد أن يَفْلتُها لسانه، فهَمتْ جوري نزعتهُ الجُزافية، فبدأت تتَكيَّف معهُ، وحاولتْ مسايَرتهُ، لأن مزاجها وسَجيتُها غائرةٌ للهاوية منذ أمد بعيد وليست بواردِ تعميق الهاوية بافتعالِ مواقف تصادمية هي في غِنى عنها، كان تفكيرُها في جهةٍ وتفكِيرهُ بجهةٍ نقيضة.

- هل يضايقُكَ دخان الفحم، يحتاجُ وقتًا للاِحتراق بالكامل، لم أقوَ على الانتظار في الخارج لشدةِ البرد والرياح. كمّا مرَّرتُ على رقية للاِطمئنان عليها.

- يبدو أنكِ عانيتِ معها الكثير.

قال محاولاً تلطيف نبرته وإبراز عطفه نحوها.

دنَتْ منهُ بحركةٍ مُباغِتة لم يتوقعُها، جلَستْ بجانبهِ واسْندتْ ظهرها على الحائط تَنهَدتْ وقالت وهي ترسم ابتسامة صغيرة، أزاحتْ عن وجهها الاحتقان.

- أتمنى إدريس، ألا نَبْني علاقتُنا منذ الليلة على فهمٍ خاطئ، صارحني وقل ما في نفسك، تكلم معي بصوتُك العالي ولا تحتفظ بشكُّوكٍ في رأسك... قل كلّ ما يخطر ببالك، حتى لا نضْرب في بعضِنا من تحت، أخبرني عن نواياكَ. هل تزوجتني وأنت تعرف عني شيئًا، أم ثمة شكُّوكٍ في رأسك عني؟

توقَّعَ منها حين اقتربتْ منه، أن تضُمه إليها، أو تُمسك يده وتعتذر عن صدِها له قبل قليل، بينما كان يتُوقُ لها بشوقٍ وشهوة، تخيَّلَ أنها كانت تنتظرهُ.

- هل تزَوجتِ مني جوري رغمًا عنكِ؟

سأل بصوتٍ استفساري.

- أنت طيب القلب إدريس، وما بدر مني منذ قليل ونحن على الفراش، فاجأني وأنا الآن، جسديًا غير مُستَعدَّة، هناك تعقيداتٌ تحدث في جسدِ المرأة منا لا تجعلُها مستعِدَّة في وقت ما، وهذا أمر مؤقت يمنعُها من مسايرة رجلها، لأن الأمر مُحرجٌ لها، أسرار في الجسد تقع من وقتٍ لآخر، تُعكرُ مزاجنا وتعصِفُ بسَجيتِنا، لا تجعلنا نُسعَد الرجل... هل فهَمتَ ما أعنيه؟ المشكلة فيّ أنا وليست بكَ، واعذرني إذا خذلتُك الليلة، لكن أعِدُك أن أُبهجُك بأقربِ وقت.

انفرَجَت أساريره، برَزَ عليه الارتياح ما دفعها لتستأنف الكلام معه بانفراجٍ:

- ماذا تُريد أن أطبخ لك غدًا؟

ضحكَ وأمسكَ يدها بعفويةٍ واسْتَسلَمتْ له، وقال:

- ماذا كان صالح يحب أن يأكل؟

صدمَها سؤاله، ولو أنها أخَفتْ ردَّة فعلها، مُدرِكة أن عقله عالقٌ بالمرحوم زوجها، عزَتْ السبَّب في تخمينها إلى قوة العلاقة بينهما، وارتباطهُما كلّ هذه السنين، ولكنها توَجَّستْ من دون أن تُفصح ملامحها عن توَقُعها لعقدةٍ قد تنمو وتُشكل حاجزًا بينهما بسبَّب هذه العلاقة بين الإثنين، وحتى لا تتركْ منذ البداية مثل هذا الشعور، ينمو ويشكل سدًا في وجهِ زواجهما، انبَرتْ بجرأةٍ لتَكسر حاجزُ العقْدَة بسؤالها له وهي تسحبْ يدها من يدهِ بتؤدةٍ وسلاسَة.

- أخبرني عن مدى علاقتُك بصالح؟ قل لي على الأقل ما كانت عليه علاقتُكُما بفترةِ الغوص الأخيرة؟ كيف كان؟ وبماذا يُفكر؟ وما هي بؤرَة أحاديثكما؟

صمَتتْ وهلَة واسْتدركتْ.

- كيف كان بأيامهِ الأخيرة؟

- هل ما زلتِ تًفكرينَ فيه؟

ضَحكتْ باقْتِضابْ مُندهِشة من سؤالهِ وقالت وهي تُقهقه...

- أليس من الطبيعي أن أُفكر فيه؟ لقد كان زوجي ولم أرَ منهُ غير العَطفْ، دون شك أذكُّره.

- هل أحببتيه.

انتَصبتْ وابتَعدتْ خطوات ثم التفَتتْ نحوه ورمتهُ بنظرةٍ باردة وقالت:

- هل تُغِير منه؟

سَألته بمُكرٍ

- أنا؟ أبدًا... إنه رفيق دربي، وأكِنُّ له الحبَّ والوفاء!

أجابَ دون أن ينظر في عينيها. وتجاهَلتْ هي النظر إليه، فراحتْ توضِّب فراشها. انتهت، وجلستْ بطرفِ الفراش، وقد بدأ ضوءُ السراج يخبو تدريجيًا. أضحت الغرفة الضيقة دافئة، وزالتْ رائحة الفحم منها.

- تطَرَقتُ منذ قليل لبيتِ دلال، وعلاقتي به، أطْلعني دون مواربة هل حَدثكَ صالح عن ذلك؟ وماذا أخبركَ عني أكثر؟!!

شعرَ بحَرجٍ وبأنهُ وضَع نفسهُ في زاويةٍ ضيقةٍ معها منذ أولِ ليلةٍ من رباطهما، فمّا كان منه إلا أن غيَّر دفَةَّ الحديث بقولهِ مقترحًا...

- لنَخْلدُ إلى الفراش وننام، أنتِ تَعِبَة وأنا مُرهقٌ، فمنذ الصباح الباكر ونحن في دوامَةِ العرس!

نَهضَتْ وأخْمدتْ الفَحم بوَضعِ صفيحة معدنية عليه، توْجَهتْ نحو الفراش ورَفعتْ الغطاء وقالتْ وهي تَستَعدُ للنوم.

- تصبح على خير وعافيه.

- هل سَتنامين بفُسْتانكِ؟

لم تُجبهُ، اسْتلقَتْ بثوبِها واسْدلَتْ عليها الْلِحافْ.

ظلَّ يُحدقُ بها حائرًا فيمّا يفعل، راحَ يتأمّل نفسهُ من الأسفلِ للأعلى ثم سَرحَ يُحدقُ سارحًا في أرجاءِ الحجرة.

- تعال نامْ وأنسَ ما جرى الليلة...

قالتْ ذلك... وغَفَتْ... عادتْ رائحةُ الفحم تُؤرجْ!

❋❋❋

# 35

المكان-دار صالح-الوقت-نهار-الحالة-عناقيد المطر

في صباحٍ فريدٍ مُمْطر، هدَرَتْ فيه السماء سيلًا جارفًا من الأمطار، أرْعدتْ وأبْرَقتْ، وأسْرفتْ إراقتُها، حتى لم يبقَ مكانٌ لم ينفذ إليه الماء، كان يومًا عنيدًا لا هوادَة فيه اكْتظَّت فيه السماء بغيومٍ سوداء حالِكة، وسادتْ موجةٌ عاتيةٌ من البردِ، حتى لم تعد الفحم والنار تدْفء الأبدان لشدّةِ الزمهرير. لَزِمَ إدريس المنزل ولم يخْرج كعادتهِ إلى المقهى أو السوق والتَجوُّل بأحياءِ مدينة المحرق وعبُور دهاليزها وزواياها، وشراء احتياجاته اليومية، من السّمك المالح، والخُضار وبعض المُؤن التي يشتهيها. ظلَّ قابعًا بالدار منذ يومين سابقين، هطلَ خلالهما المطر، بين تدخين النارجيلة، ومساعدة جوري في سَدِّ ثغراتِ المطر التي تخلَّلتْ كلّ زاويةٍ من الدار، حتى بلَغتْ حجرة رقية التي لم يَجرؤ على ولُوجها مع جوري التي راحتْ تُجفّفُ المياه منها وتنقلُ عجوزها لركنٍ آمن، كانت العجوز صامتة، مُكتَفيةٌ بالتَمْتَمة بلَكنةٍ غير مفهومة أشبهُ بهَذي طفل رضيع. كان هو يَتجَنبُ منذ وطأ الدار، مجرد المرور أمام جحر العجوز، لشعورٍ غامض بداخلهِ منذ أن سمعَ صراخها يوم عوْدتهِ من البحر، حين راحتْ تبكي ابنها وتُهيل التراب فوق رأسها وسط كومَة الناس

من حوْلَها، تجنبَ حتى التفكير فيها أو العبور بأفكارهِ حول ما تشعر به المرأة تجاه ابنها المفقود صالح، تجاهلَ رؤيتها طوال الفترة رغم إلْحاح زوجته أن يلقي عليها نظرة ليرى معاناتها معها.

- لا أستطيع التفكير بشيءٍ ولا الإحساس بحياةٍ ولا أكل أو شرب، أو نوم، وهي على هذا الحال، لدي كومَة لحم بحجمِ طفلة في زاويةٍ من حجرةٍ ضيقة، خروجها وتقيؤها، وهي في مكانِها، لقد اسْتهْلكتُ كلّ قطعة قماش لدي وأنا أبُدّلُ ملابسها، وهذا المطر الذي لا يتوَقف، لا يتركُ لي خيارًا لغسلِ ملابسها وتجفيفها، الموت خير لها ولي من هذا الحال المُزرى... أقول لكَ ذلك لا لكي أغُمكَ، بل لتعرف معاناتي حتى تعذر مزاجي. هي ميتة ولكن تتنفس، ليتكَ تلقي نظرةً عليها وتتَبيَّن حال الإنسان إذا بلغَ أرْذل العمر، أدعو الله إلا يبلغني هذا العمر مع هذا الحال...

حين يسمعُ مثل هذا الكلام يلوذُ بنفسهِ في ركنٍ من الحجرة، ويعْتكفُ، يحاول تجْنيبَ عقلهُ التفكير بصالح والبحر وحتى رغبته في المرأة التي حلم بها وانقضى اليوم وأكثر من شهرٍ على زواجهِ دون أن يَمسُّها، فقد حالَ المطر والحديث عن رقية الكوْمة المركُونة بالجحر، وشعورهُ بأن زوجته تتَحجَّج بالعجوز وبوضعِ الطقس ومعاناتها من حالةٍ جسدية ترْفضُ البوْح بها، بحجَّة أنها من أسرارِ النساء، كلّ ذلك حالَ دونَ الاقتراب منها. قضَى الوقت بين الإنزواءِ بالغُرفة وقت الأمطار، والإنْطواء على نفسهِ رغم محاولة المرأة اشغاله بالوَجَبات التي تطبخها له. كان شديد التَوْجُس من وجودِ سرٍ وراء

تهرب جوري من مُضاجعتهِ، ومع رؤيته لها وهي تُحاول التخفيفَ من وطأةِ ذلك الإحساس لديه، والتفريط في خدمتهِ وتدبير شئونه الأخرى، إلا أنه ظلَّ رغم ما يلْمَسهُ من فجوةٍ في العلاقةِ بسبَّب العجوز والمطر وما يحدثهُ من فوضى في الدار تُكرسْ خلاله زوجته وقتها لنزْفِ الماء من أرجاء المنزل، وتنظيف الأثاث وتجفيف الملابس بوَضعها تحت منقلَة الفحم من خلال حَبلٍ قصير مدَّتهُ فوقها، إلا أن تفكيرهُ كان يقودهُ لتكهناتٍ حول وجود سبَّبٍ لإطالةِ أمدّ انفصام العلاقة الجسدية بينهما.

غضَّ الطرف بالأيام الأولى عن هوسهِ بها، ثم مع مرور النهاريات والليالي، ولدى مشاهدته لأجزاءٍ ناتئة، من تضاريسِ جسدها، بينمّا هي تطبخ أو تغسل أو ترتب الغرفة، وأثناء خروجها من الحمام، أو وهي تُغيّر ملابسها رغم عدم تَعمُدُها الكشف عن عوَرتُها أمامه، كلّ ذلك كان يثير فيه غرائز الرجل الذي لم يُضاجع امرأةٌ من قبل في حياته، بالإضافة إلى ارتباط هذا الشعور بقصصِ صالح الذي كان يسْردُ تفاصيل حياته معها... كان لشدّةِ هوسه بها الذي بلغَ حدَّ الخِبال وهو يتطلعْ لاكتشافِ ما تحت الثياب، قد عمدَ إلى التلْصص عليها بينمّا تقوم ببعض الأعمال وهي مُستغْرقةٌ لا تنتبه إليه، كانت عيناهُ تغوصان مثل الإبرة في كلِّ ما يبرز من جزء فيها، مهمّا كان صغيرًا في جسدها ويسْرحُ فيه، كساقيها أو إبطيها، أو جزءٍ من فتحة صدرها، حتى بلغَ به الحال ذات ليلة، للوقوف مع ذاته والتساؤل، عمّا إذا كان حالُها هذا هو نفسه مع صالح، وهل كان الآخر، يُبالغ ويخْتلقُ القصص

ويُلفِّق التفاصيل عن علاقتهِ الجسدية معها؟ دفعهُ تكهنه هذا لسؤالها وقد قررَ حسم الموقف المعقد بينهما، حينمّا فاجأها وهي بفراشِ النوم إلى جانبهِ والقول بجرأةٍ مُتناهيه، وقد بلغَ به اليأس ذروتهِ ودفعهُ للتفكير باغتصابها رغمًا عنها!

- جوري...؟

- نعم إدريس.

- هل كان وضْعُكِ في الفراشِ مع صالح نفس وضْعي معكِ الآن؟ لا أعني الإساءة والتطفُل، ولكن من حقي أن أسَال، لأنه لا يُوجد زوجٌ قضى أكثر من شهرٍ على زواجهِ دون أن يَمس امرأته، أظنُّ أنكِ تعذرينني لو طَرَحتُ عليكِ السؤال بعد كلّ هذا الصبر الطويل الذي نَفذ منذ أولِ ليلة لي معكِ فيها بهذا الفراش...

نَزعتْ عنها بشدّةٍ غطاء السرير، وجلَستْ القُرفصاء، لحقَ بها واعْتَدلَ في جلستهِ، دون أن يُحدّقُ بها، ظلَّتْ لبرهةٍ لم ترْفَعْ بصرها عنه وهي تتأمَّلهُ وقد خيَّمَ عليه الصمتُ وهو بانتظارْ ما يُسْفر عنه كلامه التوْبيخي لها والذي أعَدّهُ وصاغَهُ في رأسه وراحَ يوْزِنه منذ فترة قبل أن يبُوح به.

كان ضوءُ الشمعة الضَئِيل بزاويةِ السرير، ينْفثُّ خيطًا من الدخان، ويتْركُ رائحةً أشبه برائحةِ سمك الشتاء المجفف، صوْتُ رياحُ شمالية في الخارج يُقَعْقع للغرفة، فيمّا أبْرزَ السكون الذي يُخيمُّ على الغرفةِ صوتُ سُوسَة الخشب ولا يُوحي بالجهة التي يَصدرُ منها.

- لو أخبَرتَني بإسهاب ما كان يروِي لكَ صالح عني، أَعِدكَ بكَشفِ كلّ ما كان يجري بيننا، بعد أن انْزَلقَ لسانك وأقَريَّت بذلك، فلا مناصَ من مصارحتي، لن يضيرَني ما ستقول، حتى أضعك في الحقيقة التي ربمّا تكون خافية عليك، أنتِ سألتني عن دار دلال وهذا لم يتطرق له صالح بتاتًا معي، من أين اسْتَقيتْ هذا السؤال؟

تسَبَّبَ استمرار هطول المطر منذ بداية النهار، وعدم تمَكُن إدريس من مغادرةِ الدار كعَهدِه كلَّ يوم حينما يصْفُو الطقس، بخَلقِ جوٍ من الوحدة بينهما، سَهلَ تبادل الأحاديث بكلّ ما كان يطُوف في خلدهما، وَجدَ الزوج نفسهُ محاصرًا بفراغٍ ودون عمل يشْغلَهُ عن التفكير في كيفية الوصول إلى مآله منها. كانت العزلَة سببًا في توَتُّره، كلمّا رآها أمامهُ تكنسُ وتشفطُ مياه الأمطار، وتُرتب المنزل، وتُجَففْ الملابس، وكلمّا رَمقَ جزءًا من جسدها بَرزَ له بعفويةٍ ودون قصدٍ منها، كلما أشْتعلَ لهيب جسده، حتى بلغ بهِ التفكير في الاِسْتمْناء عليها لو توْفرَت له السرية. لم يكن هناك مُتسَعٌ في المنزل لكي يخرج ويتحركْ ويتنفس بحريةٍ، كما هو الحال معها، فلا توجد سوى حجرةٌ وحيدة تضمهما وحمام بقربها يطلُّ بابه على الفِناء، بالإضافةِ لحجيرةٍ صغيرة أشبه بالمغارَة ترْقِدُ فيها رقية العمياء، وحوْضٌ أكبر بقليلٍ من حجم طَشتْ، هو حمامٌ ومغسل، تضْطر جوري لتنظِيفه وإزالَة النفايات منه، ونقلَها في وعاءٍ معدني إلى حمامِهُما وتفْريغهُ هناك، ممّا يخلف ذلك العمل رائحةً نتِنَةً تَضطَر بعدها لإشعالِ الفحم، وتبخيرُ الدار.

هذا الحَيِّزُ الضَيقُ مع توالي هطول المطر، وغياب أشعة الشمس لأيامٍ عدَّة، حَوَّل العلاقة بين جوري وإدريس إلى مواجهةٍ صامِتة حينًا وذاتَ إيحاءٍ كلامي حينًا آخر، لقد وحَّدَتهُما العُزلَة التي فرَضَها الطقس، كانت جوري تخرجُ في الأيام المُعتدِلة إلى الفِناء وتعتني بالأشجارِ وتسقيها كشجرِ الورد المحمدي والقَرنْفُل وبعض الحشائش العشوائية، وكان هو يمضي نصفُ النهار في السوق، يعود ويتناول غدائه، ويأخذُ قيلُولَة، ثم يُغادر عند المساء للمقهى القريب من ساحلِ حي بو ماهر، يُدَخن النارجيلة ويتناول الشاي بعدَ صلاة العشاء... تواصَلَ المطر، وقلَبَ عادّة كلّ منهما، وَوضَعهُما في وجهِ بعضهُما، فزادَ الِاحتقان خاصة من جهتهِ، عندما ألْفى نفسهُ بمواجهةِ زوجةٍ لم يستطع بعد شهرٍ من الزواج أن ينالَها، فكان ذلك دافعهُ للتحرشِ بها ومُشاكَستِها بالأسئلةِ والعِبارات ذات المغزى... حدود الغرفة ورائحة المخلفات، واحتقان الاثنين، كلّ منهما بوجهِ الآخر، ودهشَتهُ من تعَلّلها عن مطارحته بحجَّةِ عدم استعدادها لوجود عِلّة بجسدِها، أيقَظَ فيه تكهنات حول كلام صديقهُ الراحل الذي كان يسْتفيضُ في تصوير شبَقَها نحوه وما تتمتع به من إثارة. بهذا الشعور، وجدَ نفسه بعد فترة ديْمومَة هطول الأمطار، وجهًا لوجه معها خاصة حينما ينفردان بالغرفة ولا يجدان ما يفعلاه سوى تبادل النظرات الزائغة بينهما.

- يكفيني جوري منكِ اليوم بالذات وأنا أكادُ أخْتنق من هذه العتمَة والوحدة، لو تُريني جسدُكِ عاريًا، فقط، أُقْسِم بأني لن أقْربهُ ولن ألْمِسَهُ،

دعيني فقط أتأمَّلهُ، فمن شدّة وَلَّهِي لكِ، وتخيَّلي عليكِ، أكاد أفقد عقلِي كلمّا لمَحتُ عضوًا منه، لو تتَخيَّلين رجلاً كان يأمَّلُ منذ ليلة دُخْلتهُ على المرأة التي عشِقَها لعَذرْتي جنُوحي تجاهكِ.

قال ذلك بينمّا كانت تجلس بجانبِ دولاب الملابس وهي تقوم بترتيبِ الألبسة التي تخُصها وتفرزها عن ملابسه. كانت ترتدي ثوبًا قطنيًا سميكًا، قصيرًا، كشفَ عن ساقيها المُمددتين، بينمّا كان هو يجلسُ بجهةٍ مقابِلَة منها ويسْتندُ على كنبَة وأمامَهُ دلَّة الشاي يحتَسي منها، ويُدخن سيجارة لف. كان الوقتُ ضُحى ولكنه بدا كهزيعِ الليل، فصوْتُ المطر في الخارجِ، مع ظلْمَةٍ في الداخل، إلا من ضوءٍ طفيف مصدرهُ النافذة المشرُوخَة التي عكَستْ ضوءًا شحيحًا من الخارج كلمّا تسلَّلتْ بعض من أشعةِ الشمس بين الغيوم من حينٍ لآخر.

أُلقتْ الثوب الذي كانت تَصْفدهُ من يدها، وسَرحتْ لوَهلَةٍ، كما لو تَفرسَتْ بكلامهِ الذي ساقهُ وعَبَّرَ فيه عن ولَّههُ لها... أدْركَتْ كم هو يُعاني وفي ذاتِ الوقت حارَتْ في تعقيدِ محاولتهِ اليائِسة بالتَكيُّف معها... رأتْ في عينيهِ دمعَةً تتَرقْرقْ باحتقانٍ ويصْعبْ انْهمارها، لم تتَصوَّر أن تتَسبَّب هي في هذا الألم المُحْتقنْ عندهُ، غير مُدرِكةٍ بأنه كان يُعاني من شعورٍ عادَ به إلى أيامِ الغوص، وذكريات أحاديثه مع صديقه صالح.. طالَ الصمتُ بينهما، بدا كلّ منهما ينتَظرُ من الآخر بادِرَة تسْعفهُ على كسرِ عائقِ الصمت الرتيب، حتى النظرات بينهما تعَبتْ ولم تجد ما تجُول فيه بعد أن أُتْخِمتْ التحديق في

الجدّران والسقف ومحتويات الغرفة، وحينمّا تصْطدمُ نظرةُ كلّ منهما بالآخر سرعان ما تَهربْ وكأنها تلُوذُ بالمجهول دون أن توحي بإيماءةٍ سوى التِيه والفراغُ الشاسع الذي يفصلُ بينهما، ولكن في الوقتِ ذاته، تَكشفُ عن خزائن مليئة بالأفكار وبراميل من المشاعر المكْظومَة المحبوسَة بدون إرادة.

عندما يطول الصمتُ، وتغدو الأنفاسُ وحدها تتَسَلَّق الصمت، يبحثُ أحدهما عن إيماءة، أو حركة يخطُو بها في المكان، كأن يُغيْر صحن الطعام من أمامهِ، أو يجلس في زاويةٍ أخرى، أو يَفتحُ صندوقًا، أو يطلُّ من النافذة على الفِناء، حتى مجرد التفكير بالخروج للفناء، لم يعد ممكنًا بسبَّب المطر الغزير، الشيء الكبير الذي يشغلهما هو المُبادَرة بشفطِ المياه من بعض الأماكن، أو قيام الزوجة بتَحضيرِ وجبة داخل الغرفة على منقلِ النار التي تضعها بالقربِ من الباب ليَفلتُ الدخان خارجًا، فلم يعد بإمكانها الطبخ وإشعال النار بالخارج، موْقدُ الزيت كان ينضب وقوده، ويسْتحيل الطبخ داخل الحجرة بالحطب... وجدتْ جوري تلك المشكلة مُدعاة لكسرِ الصمت والقول:

- سنجوع إذا طالَ الوقت على المطر وقد أوْشكَ الزيت على النفاد.

فهَم إدريس منذ فترة ليست بالقصيرة، أنها تتَجنَبُ الحديث عن العاطفة بينهما، وتخْتلقُ حوارات جانبية وهامشية مُتعلِقة بالمنزل والأكل والطقس، حتى لا تُجَرّ للحديث في العلاقة بينهما، وحتى يضْطرُ لمسايَرتِها، ولكنهُ

سرعان ما يَنفَضْ عنهُ اسْتسْلامه لها ويخَتلِقُ حجَّة للعودّة للعلاقةِ المُجمَّدة، المؤجلَة.

- كان صالح يُحدثُني دائمًا عن جنونهِ بالثلجِ وكم كان يتُوق وهو في البحر إلى طعمِ الثلج...

قال ذلك ونَدِم على الفورِ، لم يكن ينْوِي إثارَة سِيرة الزوج المُتوفي، لَعنَ لسانهُ الذي انْزلقَ بالعِبارةِ فأسْرعَ لإزالَةِ العِبارة بالقول:

- هل كنتِ تحبين الثلج؟

- كنتُ أطلبُ من صالح أن يأتيني بعناقيدٍ من الثلجِ وكان يفعلُ ذلك، لكن سرعان ما تذوب... الثلج يذوبُ على الفور...

هل هذا ما يَطْمحُ إليه من حديثٍ؟ سَأل نفسه وهو نادمٌ أن اخْتارَ الثلج موضوعًا لكسرِ الصمت بينهما.

- ماذا نفعل لو استمر هذا المطر أيامًا أخرى أطول؟

سَأل إدريس محاولاً تغْيير دفَّة الحديث.

كانت تُخيط سروالاً بيدها، رفَعتْ رأسها وتوَقفتْ عن الخِياطة، قالتْ وهي يائِسة، مع ابتسامة مُقتَضَبة ارْتسْمتْ على وجهِها...

- سنُدْفَن هنا احياء.

- قبل أن أذُوق طَعم الزواج...؟

أدْركتْ مقْصَدهُ وفهمتْ أنه لا مُحْوَر في كلِّ ما يدور وسَيأتي من كلامٍ سيخرجُ عن دوامَة هذا الموضوع... ألْقتْ السروال من يدها وتنهَدتْ ثم

نهضَتْ وسارتْ نحو النافذة وألقتْ نظرة على الخارج وعادتْ إلى طرفِ الفراش. رَمَقتهُ بنظرةٍ، ابتَسَمَ لها وشعرَ بأنهُ اسْتفَزها ثانية، فأردفَ بنبرةٍ مُوحية بالقنُوط.

- أنا زوجكُ على شَرعِ الله!

كان الظلام يسُودُ الحجرة رغم بداية النهار، الغيوم السوداء في السماء جعلَتْ النهار يبدو كالليلِ، وأوْحتْ بكآبةٍ أشدُّ من كآبةِ الليل... توَجهْتْ نحو الشمْعتَين بركنِ الحجرة وأشعلتهُما بعودِ الثقاب وألْقتْ به على السُجادةِ دون مُبالاة...

- قُلتَ منذ قليل شيئًا مجنونًا ودي أشاطِرُكَ فيه، شرط ألا تلْمَسُني...

خفَقَ قلبه وتوَرَّدَ وجهه وانتبَهَ فجأة، وراحَ يَرْمقُهُا بنظرةِ تساؤل وقال بنبرةٍ دهِشَة.

- ماذا جوري؟ أي جنونٌ غير الذي نعيشهُ أنا وأنت وهذا المطر المُغِمّ.

توَجَهتْ نحو خارج الغرفة، غابَتْ لفترةٍ وجيزة، ظلّ خلالها يتكَهن مع أفكارهِ، ما الذي دعاها للخروج في المطر؟ توَجّه نحو النافذة فتحَ طرف منها وأطَلَّ على الفِناء، لم يرَها، عادَ وأغلقَها وسارعَ بالجلوس مكانه وراحَ يُفَكر فيمّا تفعلهُ هذه المرأة التي هي دائمَة المفاجآت غير المُتوَقَّعة، منذ اقترن بها.

عادتْ وبدا أنها كانت في الحمام، نزَعتْ في البدءِ كنزَتها الصوفية، وألْقتها على الأرض، وسط دهْشته، ثم بدأت تَفكُّ فستانَها من الخلفِ،

وبدأت تُزيحه عنها، بدتْ بسروالٍ طويلٍ وقميص داخلي أبيض اللون، خلَعتْ السروال وتوَجهَت نحو الفراش جَلستْ على طرفهِ... اعْتدلَ هو بجلْستهِ في مكانِهِ مُصابًا بذهولٍ وقد زاغتْ عيناه، وغصَّتْ ملامحهُ بالدهشة... كان جامدًا يُحدقُ فيها حين بدأت بخَلعِ القميص، واكْتفتْ بسروالٍ قصير يسْترُ عوْرتُها... اسْتلقتْ على الفراشِ ودَعتهُ بنبرةٍ باردة، مشُوبةٌ بغَضاضَة:

- تعالَ وانْظرْ طالمّا يحْلُو لكَ... هل هذه التي وصَفَها لكَ صالح؟

❁❁❁

# 36

المكان-مدينة المحرق-الوقت-ليلاً-الحالة-عناقيد الرغبات

ليلُ مدينة المحرق، بيوتُها وأزقتُها، سواحلُها وطرقاتُها، روائحها، أنفاسُ سكانها، بهائِمُها الضالّة، تَغصُّ وقت المطر، تخْتبئُ الخَطيئة بين كلّ هذه الدهاليز المُكتظَّة بالأسرارِ، مثل مدينةٍ خُرافية في مجَرّةٍ أسطورية بالكونِ الشاسع، رغم صغرها وضيقها، ومع سِياجها الذي يُكبِلُها عن بقية البلاد، تظلُّ مُزدَحمَةً بالبشرِ والبهائم والحوادث والخطايا التي تتَخَفى داخل البيوت التي تبدو للوَهلَةِ الأولى كأنها نائِمة، ولكنها مُتيقِّظَة بالأسرارِ، بيوتٌ صغيرةٌ، مُعْدِمة، مُتناثِرة بين أطرافِ المدينة الغامِضة وهي تحْتَضِن أطياف البشر الذين يخْتَبئون، يَتصرفُون بوحيٍ من انفعالاتٍ وعواطفٍ تُحرِكُها دوْرَة الحياة المشْوبَة بالمعاناة والألم والحزن، لا شيء يُنْبئُ عن نهايةٍ لخطواتِ هؤلاء البشر وإلى أين تقودهم خطواتهم ولكنهم رغم عَدَم معرِفتهم بالطريق إلا أنهم مسْتمرين في السيرِ؟ لا غرابةَ في أن ترى الفَقْرُ مع الاِبتسامة، والألم مع الضَحْكَة، يتشبَثُون بالحياةِ وكأنها ستَختَفي بعد ساعة زمن، يقْتنِصون الْلُقمَة من أفواهِ بعضهم البعض لشدّةِ العَوزُ، يسْتغربون من بعضِهم كيف يحْيُّون

وهم لا يأكلون بالأيام...؟ ومع كلّ هذه الضائِقة يجدونَ الوقت ويتَضاجَعون، ومن لم يجد امرأةً يبحثُ عن مثِيل لهُ، ومن لم تجد رجلاً تُفتِشُ عن مَثيلَة لها، وفي النهايةِ يُفْرِغون شهواتهم حتى لا يختَنقون، حتى الفَقرُ يحْتمِلونهُ والجوع يَصْبِرون عليه، ولكنهم يجِنُّون لو لم يُفْرغوا شَبَقهُم في أيِ جحْرٍ يُصادِفونهُ، هذا هو ليلُ المحرق، يضِجُ بالآهاتِ والتنهدات وزفرات الشهوات التي تَسْمَعَها مُنْبعِثة من شقوقِ المنازل المُتصَدِعة ومن فتحاتِ النوافذ، لا يَخفُون تلك الآهات لأنها تَفْلتُ منهم دون إرادَة، ويعرفون عن بعضهم بعضًا تلك الأسرار ويتجاهلُونها. تلك هي مدينةُ المحرق الجاهليّة الغامِضَة.

كان تفكير جوري وإدريس، وكلّ منهما بعيدٌ عن عقلِ الآخر، في تلك الهُمُوم التي يتقاسَمُها الجميع تحت سقوف البيوت الآيل بعضُها للسقوطِ، والمُتصَدِعة، والمُكتظَّة بالبشرِ رغم صغر حجمها، لا تخْتلفُ حياة الاثنين عن حياةِ الآلاف من سكانِ المدينة، فالغالبيةُ العُظمى وهي تعيشُ داخل بيوتِ العريش وأكواخ التَنَك ومنازل الطين، تتَوَحَّد همومها مع الطعام الذي اِنْعدَم، والمطارَحات الجسدية المُتبايِنَة الرغَبات والشهوات، يُوَحِّدَهم المطر عندما يحْتجِزهُم بين الجدّران، وتَجمَعهُم المقاهي والسواحل والأزِقَّة حتى بأيامِ البرد، لا تُوجد مدينةٌ بالدنيا يفْترِشُ سُكانها السواحل ومراسي البحر، كمدينةِ المحرق، فهناك ارْتباطٌ عضوي لا ينفصم بينهم وبين البحر، سواء من ركبَ الموج، وأبْحرَ للغوصِ أو بصيدِ السّمك، أو بمن عشِقَ منظر البحر واسْتأنَس الجلوسِ أو الوقوف عنده وتأمّلهُ، حتى أن بعضهم كانوا يخاطبونهُ بالسرِّ في

أعماقهم كما لو يفْضفِضون لكائنٍ حيٍ يسْمعهُم... بحرُ المحرق سَكنَ في داخلهم فأضْحوا مثل الأسماك تغوص فيه، لا يتَخيَّل أحدهُم أنه سَيسْكن بعيدًا عن البحر، وإن لم يتَوَفَّر له مكان هناك، دأبَ على الخروجِ يوميًا للصلاةِ والركوع عند سواحله ومرافئه المُتعَدِّدة على أطرافِ المدينة، فالمحرق يَحفُها البحر من كافةِ نواحيها، وهي أشبهُ بغيْمةٍ في كبدِ كوْمَة من السحابِ تسبحُ فيه... جاء المطر ولم يتَوَقفْ فأغرقَ المدينة بالماءِ وكأنها لم تكْتفِ بمياهِ البحر، المطر أضافَ إليها، وابلاً من الماء، فحُوصِرَ الناس في منازِلهم ولم يخرجوا إلا حين غَرقتْ بيوتهُم في الماء، فتَوجهوا للسُكنى في بيوتِ أقاربهم أو مع جيرانهم الذين اسْتَضافوهُم رغمًا عنهم حينًا وبإرادتهم حينًا آخر... لم تجد جوري وإدريس مناصًا من البقاءِ في المنزلِ ونزْفِ المياه منه، فالمرأة التي تزوجتْ في البدايةِ من صالح لم تجد معهُ أسْرَة تحْضُنها وكذلك حينمّا اقترَنتْ بالآخر، إدريس لم تلق معه الأهل ليُطوِقُها، وهي ذاتُها لم تحْفظْ لها جيرانًا تلجأ إليهم وقت الشدّة، فقد سَبقَتْها سُمعتُها السيئة في الحيِ كلهُ لتجعل منها امرأةً منْبوذَةً.

❁❁❁

بعد أن انْتَهيا عند منتصف الليل من تجْفيفِ أرجاء الدار، وبعد أن أرْغَمتْ جوري زوجها بمساعدتِها في نقلِ رقية من مكانها إلى غرفتهُما لتنظيفِ المكان من مخلفاتِها وشطفْ مياه الأمطار، وإعادّة الوضع إلى مكانهِ، لم تكن مُمانَعته من دخول الجُحر الصغير بسبَّب الامتناع عن

مساعدتها، بل لشعورٍ مُبهَم بداخلهِ لا يقدر على البوحِ به، يتَعلقُ بصالح ونكبة الأم فيه، وإحساسه الدفين تجاهَهُ مع ما اختزنهُ عقله من ذكرى كئيبة يوم عودته من الغوص ورؤيتها وسماع صوتها وهي تصرخُ وتُهيل التراب فوق رأسها، ظلَّتْ تلك الصورة عالقةً برأسهِ ولا تُفارقهُ وهي سبَّب تَمَنعهُ من دخول حجرتها ورؤيتها، وبالنهاية لم يجد مَفرًّا من مساعدةِ زوجته بتلك المهمة الصعبة التي توَلَّتها طوال الوقت.

"هذه الكوْمَة الهزيلةُ من اللحمِ المُتَجَعد، لا يمكن أن يكون فيها حياة، هذا ما شَعرتُ به للوهلَة الأولى عندما وَقعَت عينيّ عليها، ترى كيف تَحمَلتْ جوري طوال الوقت العناية بكائنٍ ليس فيه سوى القلب ينبض بالحياة؟ أي امرأة هذه التي تَعتَني طول الليل والنهار، بهذه الكُتلَة المُهشّمَة الغارقةُ في خروجِها وقيئِها، كانت رائحةُ جُحرها الشبيه بجُحر الفئران تماثلُ نتانَة تلك الأسماك المُتعَفِنة على سواحلِ المدينة التي خلّفها تَسَمُّم البحر بسْقوط طائرة، كما يُشاع أو خزان وقود، سمَّمَ الأسماك وجعلها تنْفقُ وترتمي على السواحل وتتَعفَّن".

كان يناجي ذاته وهو يتأمَّلُ حال المكان وزوجته، والعجوز وحالة الدار، ونقصُ الطعام وزيت السراج. خَيَّم الظلام وكلّ شيء كان يتصور أنه لن يحدث قد وقعَ تلك الليلة التي توَقفَ أو خَفَّ فيها هطول الأمطار لفترةٍ وجيزة... حديثهُ مع ذاته، أنْساهُ حتى تلك الوْمضَة المُشِعة العابِرَة التي اقتحمتْ رأسهُ وسيطرتْ على مشاعرهِ بعد رؤيته لجسدِ جوري وهالَهُ ما كان عليه من رسمٍ

شبَهُه بصورةِ إلهة للجمال، سمَعَ عنها في قصصِ القدماء، احْتفظَ بالصورةِ في ذهنهِ ليعود إليها لاحقًا حتى ينتهي من تلك المُهمة العسيرة التي لم يُخيَّل إليه ذات يومٍ أنهُ سوف يعيشُها أو يشاركُ فيها.

"ترى لو كان صالح مكاني اليوم بهذا الوضع، هل كان سيَتحمَل مثل هذه المشَقَّة التي تفوقُ قدرة البشر؟ ماذا كان يُخبئ لي القدر حينما رحلَ صالح! أن يترك لي هذه المهمة أحْملُها على عاتقي بدلًا عنهُ؟ لست واثقًا من أن الله قد خطَّطَ ورسَمَ هذا القدر لي، ولعلّهُ، كان يُدرك أن صالحًا ليس مقدرًا له أن يحملَ تلك المُهمة، فتَركَها لي... أنني أرى حياتي أمامي ترْسُمُها الأقدار، منذ أن غابَ صالح في قاعِ البحر حتى هذه الليلة التي حمَلتُ فيها كوْمَة اللحم البشرية التي تنتمي إليه".

- علينا أن ننْقلُها الآن إلى مكانِها إدريس.

قالت جوري عبارتها وهي ترْتَجفُ من البردِ وتفوحُ منها رائحةُ العفَّن، لم تَسْتحم لأن مياه البراميل في الحمام نَضَبتْ، ومياه الطشْتْ الذي وفرهُ المطر قد اسْتُخدِم في تنظيفِ العجوز، ولم تعد هناك قطرة من ماءٍ حتى للشُربِ، والمطر قد خفَّ ولابد من تصّرُف وهذا ما دفعَ جوري لمُطالبةِ زوجها بالتَصرُف حتى لو اسْتدعى الأمر الخروج في هذه الساعةِ وجَلب برميلِ مياه لِتغتَسل، لأنها لم تعد تَحْتملُ رائحتُها...

- لن أنامَ الليلة بهذه الرائحة، كيف تحْتمِلني إدريس؟ ثم علينا أن نشرب ونطبخ، كم ستَتحَمل الحال بدون ماء؟

- انتظري قد يعود المطر للهطول، فنحْشدُ شيئًا منه...

قال مجيبًا على رجائِها...

- حتى لو هطلَ المطر، هل سنَسْتحمُ فيه؟ وماذا عن رقية، التي لا أعرفُ إلى متي سأتَكبدُ هذه الكُتلَة العفِّنة التي أهانَتنِي وحقَرتنِي طوال فترة وجودي معها؟

قالت ذلك وفي عينيها دمعة.

- ربكِ المُسامح...

أجابها

- وهل سَيُسامحُني؟

ردتْ وهي تَشمُّ طرف ذيل ثوْبُها الرطب والمُلطخ بالأوساخ.

- على ماذا يُسامحكِ جوري...؟

تدَفَقتْ العِبارات بينهما بعفويةٍ، فبعدَ أن كان الصمتُ جدارًا سميكًا حولهُما، وظلا لفترةِ شهر وأكثر يدوران حول بعضهما تائِهينِ كقاربينِ بلا شراعين، أضْحى الكلام والإنفعال والاندِماج وليس الإِنسِجامُ، يوحدُهُما بسبَّب المطر ورقية وخلْو المنزل من الماء والطعام، وحالَةُ الدار التي غرِقتْ في مستنقعٍ من الأوساخِ، لم يعد الصمت حاجزًا، فقد تجاوَزاهُ بسبَّب هذه الفوضى التي عَمّتْ المكان...

- اخْرجْ حتى لو هَطلَ المطر ودَبِّر لنا شيئًا نأكلهُ حتى لو انهار العالم، قبل ذلك لِنَنْقل رقية لمكانِها حتى نستطيع أن نسْتلقي وننام، ولكن أخْرج ودبِر

شيئًا فأنتَ الرجل... المطر قد لا يتوَقف والجوع والبرد لا يُحْتملانْ، ولا أعرفُ كيف يتصَرف غيْرنا من الناسِ في الخارج؟ ترى هل هم بنَفسِ الحال؟

قالت ذلك وجلَستْ على برْميلٍ خشبي قديم عند مقدِمة باب حجرتهُما من الخارج وراحتْ تعْصرُ ذيْل ثوبها عند الأسفل بينمّا وقفَ هو يُشعلُ سيجارة اللفْ بعُسْرٍ بسبَّب مشاغبة الريح له.

- بل حالهُم اسوأ من حالِنا، ربمّا بعضهم قد يموت من الاثنينِ، البردُ والجوع، نحن محظُوظان جوري، كان معنا حتى الساعة ما كان يسْدُّ رَمَّقنا.

أجابَها وصمتَ وراحَ ينفثُ الدخان ثم اسْتأنفَ قائلاً.

- المدينةُ حتى قبل أسبوع عندما خرجتُ كانت تنْزفُ، سَمعتُ بأذنيّ بُكاء الأطفال من الجوعِ وتضَرع الأمهات من وراءِ النوافذ والأبواب وهن يَتوَسَّلنَ كِسْرة الخبز...

- تعرف إدريس، ربمّا هذا الحال من الفُقرِ والمُعاناة ما يدْفعُ بعض النساء لارتكابِ الخطيئة، التي لا أُسَميها كذلك إذا كانت من أجلِ لقْمَة طفل جائع أو عجوز كرقية...

- الخطيئة خطيئة جوري وقد ورَدَت في القرآن ولا مَفَرٌ من الإقرارِ بها...

ردَ إدريس

- لن نختلفْ في هذا الوقت، ألا تخْرجُ وتُدبِر شيئًا؟

- في هذا الوقت؟ أي دكان أو مخرن أو مكان يتوَفَّر فيه شيءُ الآن؟

قال ذلك وهو يُطفئ عقب سيجارته...

- حتى لو قطرة ماء للشربِ لهذه العجوز على الأقل من بيتِ جار أو صديق، الحال كما ترى، سيء وسَيسوءُ لو بقيتَ في الدار دون ماء أو طعام.

- حالنا جوري أفضل من غيرنا.

أجاب، ومع ذلك خَرجَ وهو لا يعرفُ أين يذهب ولا ماذا يصنع، رفعَ طرف ذيل ثوبه وربطهُ عند خَصْره وكَوَّرَ غتْرته فوق رأسه، ارْتدى نعْليهِ وقبل أن يخْرج قال بعبارةٍ سريعة...

- احْكمي الباب من الداخل حتى أعود...

باتَتْ وحدها في الدار، وانْضَوتْ بالعملِ في أرجاءِ المكان بين تنظيف الأواني في المطبخ التي لوَّثَها المطر، وبين تنشيفْ المياه عن السجاد، ومَسْح العوالق عن الأبواب والنوافذ التي خلَفتها الرياحُ الشديدة.

كانت الأيام المعدُّودة المنْصرِمة، وعلى إثرِ تعَريها له بتلك الأمُسية، قد ترَكتْ أثرها على نفسهِ، وجعلتهُ يُدرك ما كانت تتَمتَع به من رشاقةٍ وقوامٍ وإثارة، لولا صُرُوف الدهر على وجهها الذي قاوَم تلك الظروف المُذِلَّة واحتَفظَ بجمالِه، وجدَها ربما تفوقُ ما وصفَها بهِ صالح من حيثِ المظهر، ولكن ظلّتْ معهُ عصِيةً وغير قابِلةً للتطوِيع، كان يُراوغُ ويُجامل ويتقَربْ وينفذُ طلباتها، بل ويخضعُ لأوامِرها من أجل الفوْز بقلبِها وبلوغ غايتهِ التي لم يَنَل منها حتى الآن ما يهْفو له... خرجَ من بابِ تلك الرغبَة بتطويعِ مشاعرها وتليّين عنادها أو تمنُّعها الذي لم يعد له مُبرِّر أو حجّة لديها لعَدمِ تسْليمَها

جسدها له والرضوخ لحقهِ الشرعي كزوج كما يراه هو حقٌ بديهي، كان بوْسعهِ أن ينالَهُ بجَبروتِ الزوج ولكنه آثرَ أن يكسبَ قبل ذلك قلبها لتكون متْعتهُ مضاعَفَة... عندما خرجَ هذه الليلة كان ذلك جنُوحًا منهُ لتلْبِية طلبها ولكن بقناعةٍ منه بأن الدار خاويةٌ من أي شيء ينُزلُ في المعدة، وبذات الوقت كان قد عَلَق برأسهِ صورة جسدها عندما تَعرَّتْ له ورأى بأمِ عينيه ما لم يرَ أو يتَخيّلهُ في العقلِ الذي ظلّ يتكهن ويتنبأ بما تختزِنهُ تحت الثياب، وما كان يروِيه له صالح عن نُدْرةِ وجود مثل ذلك الجسد الذي صنعهُ الإله وأثبتَ به إبداعه.

بينما كانت تشْغل نفْسها بالبيتِ، وكان الوقت قد قاربَ أو بلغَ منتصف الليل... كان هو يطرقُ بابَ أحد مساعدي الرُبان الذي كان يحفظ له الوِدّ منذ أيام الغوص، يقع منزلهُ بالقربِ من منزلِ الرُبان سليمان الهمام، وهي منطقةٌ تبْعدُ كثيرًا عن حي بو ماهر، أضْطرَ أن يقطعُها مشيًا وسط رذاذ المطر، وشدّة البرد والخوْضُ في الوَحلِ الذي غصّتْ به الطرق، كان هَمَّهُ ألا يعود إلا ويَثبتُ لها بأنه رجلٌ ويمكِنُها الاِتكال عليه، فهو مصدر حمايتُها ورعايتها، كما خطرَ ببالهِ، صديقه صالح الذي أوْصاهُ على المرأة قبل رحيله! وخامَرهُ إحساسٌ قويٌ ودافعٌ غامضٌ يمتزجُ بشعورهِ بالذنبِ تجاه صالح، وإن هذه التضحيات التي يبْذلُها الآن وسيواصل عليها قد تعْتقهُ من ذلك الشعور الطاغي عليه... منذ أن عادَ من رحلةِ الغوص والتقى جوري وتحَقّقَ حلمهُ في حيازتها حتى لو لم يحْن الوقت لامتلاكها، ظلَّ هناك في أعماقِ روحهُ من

الداخلِ نقطةٌ عميقة غائرة تمْنعهُ من الشعور بالمتعةِ، كان هذه الإحساسُ يُعيق تمتعه بالحياةِ التي رسمها في عقلهِ من قبل، لذلك راحَ يبذلُ كلّ ما في وسعه، ويُخضِع مشاعرهُ للتحكمِ فيها وبذلَ كلّ ما يُزيل من أعماقهِ الشعور بالذنب، كان يرى ويُبرّر في حوارهُ مع عقلهِ الباطن، أن بالإمكان تعويض المرأةُ العجوز والزوجة الأرْملَة بتكريسِ نفسه لرعايتهُما، حتى أنه بذلَ الكثير من الأفكارِ الدينية التي لم يكن يتداولها في رأسه من قبل، دأبَ على مجاراتها كالعودّة للصلاةِ والدعاء في سرهِ بالمغفرةِ والسماح لنفسهِ بالرضوخِ لكلِّ ما يتوَجَّب أن يقومَ به لإزالةِ ما لحقَ به من ذنبٍ... لم يتطرقْ مع عقلهِ ولا مرّة فيما حدثَ في قاعِ البحر خلال غوص صالح، وكأن ذلك الأمر مُنفصِلٌ عن الكون، وكأنه لم يحدث على الإطلاق، تجاهلَ الواقعة، وكأنها لم تقع بالمُطلق وأطلقَ العنان لحياتهِ أن تمضى بعشْوائيةٍ، ولكن ظلَّ الشعور بالذنب هو النقطة الوحيدة التي يبذلُ ما بوسعه لإزالتها، وكان خروجَهُ الليلةُ بهذا الطقس وفي هذه الساعة شَطرًا من تلك الأمنية التي يسعي لتحقيقها حتى ينالَ الراحَة الداخلية في قلبهِ وعقله.

"الله يدرك أنني الُوْذ به الساعة لأعْتقُ نفسي من زلّةِ الشيطان التي انْزلَقتُ إليها، الله وحده يدرك ضعفي، وأنا مجرد إنسان خُلق واهنًا، وقد أغراني صديقي صالح بتلك الجنة التي تنتظُرني مع امرأة في الحياة تُنير لي درب الّلذّة والسعادة، لم أذقْها بحياتي حتى هذه الساعة، لعلَّ ذلك عقابي ولعلّي أستحقَ هذه اللحظة التي أطْرِقُ فيها أبواب الناس لأتَسوَّلُ الماء

والخبز، بمنتصفِ ليلةٍ كهذهِ لأنني أنا قدْتُ نفسي الطريق الذي عليّ أن أُكْمِلهُ بيني وبين الآخرين وبيني وبين الله... هل تراني يا الله...؟"

ابتَسم في سرهِ وتساءلَ بصمتٍ مع عقلِه، إن كان ذلك علامةٌ على الجنون... يقود نفسهُ بالليلِ ويُخاطبُ عقلهُ، هل تَخيَّل عندما حلِمَ بالاسْتحواذِ على جوري أن يقعَ له كلّ ذلك؟"

"لا... لو عرفتُ أن حبَّ الجسد، وعشقُ المرأة سيقودنِي لهذا المُنعطف من الحياةِ، ربمّا لفكَّرتُ وتأمَّلتُ وراجعتُ نفسي".

عادّ وتخيَّل أنه يقودُ نفسهُ للجنون بهذا التفكير في هذه الساعة... ابتسمَ وطَردَ الفكرة وقال بصوتهِ الآخر السري.

- انْزعْ الفكرة المجنونة من رأسك، إدريس، وعدْ لزوجتِكَ وضاجعها بأقربِ فرصة، فقد كانت هذه غايَتُك في كلِّ ما قمتَ به.

قطعَ طريق العودّة مع بدءِ رجوع زَخاتُ المطر، كان قد تبَلَّلَ كلية، وشعر بألمٍ في الحنجرة، وحُرْقة بالمَعِدة، كان يحملُ على ظهرهِ قُلَّة الماء وفي يدهِ صُرّة الطعام وأمنيةٌ أن ينالَ الليلة فقط قِسطًا من نوم ٍهادئ...

❁❁❁

# 37

المكان-منزل جوري-الوقت-نهارًا باكر-الحالة-عناقيد الموتى

ما كادَ يصلُ باب الدار، وقد انْحنَى ظهرهُ وتَقطَعتْ أنفاسهُ وغرقَ في بحرِ الوحل، حتى فوجئ به مفتوح، وهو يَعمَد لطرقِ الباب كما أوْصَى زوجته بغلقهِ وقد نَستْ اغلاقه، دفعهُ برجلهِ اليمنى ودَلفَ ثم التَفتَ وراءهُ ودفعهُ ثانيه بقدمهِ وما أن أوْشكَ على السير نحو الباب الداخلي، إذا بجوري جاثِمَة على دكَّةِ الباب والدموع في عينيها، أسرعَ وألقى بحملهِ جانبًا وقفزَ نحوها جلسَ وأمسكَ بيدها وقد ساوَرتهُ الوَساوسُ بشأن أمر يتعلق باقتحامِ المنزل، وكان تكَهنهُ هذا لوجود باب الدار الخارجي غير مُغلق... كانت قابعة ومُتكَوِمة، بثيابِها المُبلَّلة، وسترتُها التي انْزلَقتْ من فوق أحد كتفيها وتلطخَ وجهها بدموعِ صبغةٍ صفراء اللون لم تتضح ماهيتها...

- من آذاك؟ من...

وقبل أن تنْطقُ أو تتَحرك، حضَنَها بكتْفيهِ وبدا منفعلاً، وأعادَ تَفحّص وجهها وجسدها وقد تلطخَ الإثنان بالماء، وسَاهمَ هو بدورهِ في تلطيخِ أسفل ثوبُها بالوحل الذي حمله معهُ

- رقية توَفَّتْ... لقد رحلتْ للتو...

هدأ بالهُ لوهلةٍ واطمأن، كان قد تكَهَّنَ لحظة لمَحها للوهلَة الأولى، أنها قد تعرَضتْ للأذى، وحين أدركَ أن الأمر يتعلق برقية، اِعْتدلَ في جلستهِ، وأمسكَ يدها الأخرى بعد أن تركَ يدها الأولى، وراحَ يمْسحُ دمعها وقال بنبرةٍ مُتعاطِفة وصوتٌ شاحب:

- لقد ارْتاحتْ وأراحتنا، هذه إرادة الله. ربمّا رَحمَها بأخذها عنده. لقد عانَتْ بما فيه الكفاية، وحانَ لها أن تستريح وتَطمئن إلى أنها لن تُفكر بشيءٍ بعد الآن...

- أشعر منذ الآن بفَقدِها، لم أتَخيَّل أن أُفكِر بها بهذه الصورة، لقد اعْتدتُ على مناكفَتُها، ولكني لم أتمنَ لها الموت رغم كلّ ما قلتهُ من قبل بهذا الصدّدْ، كانت على الأقل تشعرني بالأمان طوال السنوات الماضية، بوجودها معي، حتى أني لم أخشَ كلّ ما قيل وما أشيع عن الجِنّ، لأنني اعتَقدتُ أنها واحدةٌ منهم وكان وجودها بالدار، حمايةً لنا، مع صالح من قبل ومعكَ الآن حتى وهي بحالتِها المَرَضية التي كانت فيها شبه ميتة... لا أعرف إن كان وجُودها معنا هبة من الله أم عقابًا منهُ

- الله وحده يعلم...

صمَتا لومضةٍ، كانا يرتعشانِ من البرد، لا حظَ للتوِ سُعالها وتصلب شرايين يديها اللتين تجَعدتَا من البردِ والغسيل طوال اليوم، وكان الاثنان بحالةٍ يُرثى لها، من التعبِ والاِرهاق والكآبة...

- تعالي ندخل ونغتَسل ونُفكر، ونريح نفسينا، نَكادُ نذْبَل وننتهي...

قال ذلك وأعانها على الوقوف.

- هي الآن مُسْتقِرة بحجرتِها، وقد أغشيتها ببطانية نظيفة بعد أن مَسحْتُ عنها القذارة بقدر ما اسْتطَعتْ، وترَكتُها مسْجيَهُ، هناك، لا أستطيع أن اُلقى عليها نظرة أخرى، إنها مجرد كوْمَة لحم وعظم.

حَملَ جَرَّة المياه التي جَلبَها، ووضَعها عند باب الغرفة ثم عادَ وأخذَ صَرّة الطعام ودَلفَ معها، جلستْ بهدوءٍ على الأرض وأسْندتْ ظهرها على الحائطِ وأخذتْ تَشمُّ ثوبها وقالت...

- لا أُطيقُ حالي.

- ولا أنا.

ردَ عليها.

تبادلا النظرات بصمتٍ، اِبتسم وقال:

- مع ذلك حالنا أفضل بكثيرٍ من الآخرين، هناك من مات ومن في طريقهِ للموت، لو تخْرُجين وترين حالَ الناس في الخارج جوري، ستقولين إنها أما القيامةُ، أو غضبُ السماء حلَّ على البشر، منازلٌ مُنهارةٌ، وسكان بلا مأوى، أطفالٌ يصرخون، من الجوع والبرد والفقْر والمرض، والمياه غمرتْ البيوت وبعثّرتْ الأغراض، نحن جوري في مَنأى عن كلِّ ذلك...

كانت تَستمعُ إليه دون أن تُعلق، ظلَّ ذهنُها معلقٌ في مكانٌ آخر، حين رآها على ذلك الحال ظنَّ أنها لم تَسمعُ كلمة ممّا قال:

- لا تبتأسِي جوري سأعْتني بكِ، لم آتِ إلى هنا إلا ومعي غاية واحدة هي رعايتُكِ وتعويضكِ عمّا لحقَ بكِ طوال السنين.

صمتٌ

- انهضِي واغتسلي وغيري ملابسكِ واستلقى على الفراش، حاولي أن تنامي وغدًا سنفَكرُ بكلِّ شيء...

- لم يعد ثمة ما نُفكر فيه...

ردتْ عليه بقنوطٍ وهي تعْبثُ بطرفِ ثوبُها وبدا ذهنها مُشَتَّتًا.

- علينا أن نُفكر جوري بدفنِ رقية، كيف سنَخْرُجُ في هذا الطقس إلى المقبرة؟ ومن سيأتي للمُشارَكة في تشْييعها؟ الجميع لاهٍ في سبيلهِ، ولو رأيتِ وضع الناس، لن تجدي فردًا واحدًا يأتي غدًا لتشْيِيعَها معنا... أنا أفْكرُ منذ الآن أين سِنغْسلُها ونصلي عليها؟ وكيف سنَحمِلُها للمقبرةِ بهذا الطقس السيء؟ وبالطبع لن نقدر على ترْكها هنا بالدار تتعفنْ... هذا ما يشغلني جوري.

صَمتٌ مُطبقٌ

- هل سَمعتِ ما أقول جوري؟

نظرتْ إليه وحَدقَتْ في عينيه وكأنها تُفرِغُ كلّ مشاعرها، من غضبٍ وحزنٍ وحيرة، ويأس في تلك النظرة الثاقِبة التي حمَلَت كلّ ما يفُور من شجُونٍ في أعماقها. بدا وجهها مكْتظًّا بالألم، وبرَزتْ ملامحها تنبئ عن غضبٍ دفين، واسْوَدَّتْ حافَةُ عينيها، وظهر شعرها منفُوشًا على جانبي وجهها

الشاحبْ. كانت باردةُ السِماتْ، حادةُ القَسَمات المُتورِمَة، وسَادها ذهولٌ عميق.

تقدم منها وأمسكَ بيدها وقال بنبرةٍ ودية آمرة:

- قومي واستْحمِي وغيري ملابسكِ.

قال ذلك وهو يأخذها من يدِها إلى خارجِ الغرفة باتجاهِ الحمام، ليتفاجأ بأن المطر عادَ وازْدادَ هطولًا.

- سنَدفنُها في الفِناء!

وقَفَتْ بمنتصفْ الطريق وقالت عبارتُها، لتنطلق دهشَة وذهول على وجههِ وهو يتلقى تلك الفِكْرة التي رآها مُروّعة، فلم يسبق في تقاليدِ وقِيّم المجتمع البحريني، وضمن عُرفْ مدينة المحرق المُتمَسِكة بمَوْروثِها القديم، أن شَهدتْ مثل تلك البادرة المُتعارِضَة مع الأعْرافْ... وقفَ ينظرُ لها وينْتظرُ تفسيرًا ولكنها سَارتْ نحو الحمام وهناك وقَفتْ ثانية وقالت:

- قبل أن نسْتحم وننام علينا غَسلَ الجثمان والصلاةُ عليه ودَفنهِ، فالمطر لن يتوَقف، والمقبرة بعيدةُ المنال، وأنا أعرفُ أهل الحي جميعهم، نَبذوا هذه الدار منذ زمن طويل، فهل تتَوَّقَع منهم وفي هذه الظروف العصيبة أن يُبادروا بهذا الوقت لإسْعافِنا؟ إن لم نفعل ذلك بأنْفسِنا فسَتبقى جثة العجوز في جحرِها حتى تتَعفن.

نظرَ للسماءِ وهي تُزمْجرُ، بوابلِ المطر، وبرَزَ البرقُ بين فينةٍ وأخرى، يُضيءُ فِناء الدار التي تحَوَّلتْ لبحيرةٍ... أشعلَ سيجارة، وراحَ يُحدقُ بالفِناءِ

والسماء، ثم اِلتفَتَ إليها وقال وقد تلاشَتْ الدهشَة عنه، وبدتْ ملامحهُ هادئة.

- ما تقولينهُ جوري مُقنِّعٌ، لن نبقى ننتظرُ تَغيّر الطقس، هذا ما يحدثُ كلّ سنة، وسوف يطول الوقت قبل أن نرى الشمس ثانية، ولكن لننتظر توَقف المطر، أو على الأقل أن يَخِفَ لنفعل ذلك.

فاجَأتهُ لأولِ مرّة منذ وَلجَ دارها، وهي تَسْتَلُّ السيجارة من يدهِ وتنفثُ دخانها ثم تُعيدها إليه...

- أنا أتَوَقّع أن يسُوءَ الطقس أكثر، أنظر للسماء وغيومها الحالِكة، ثم علينا أن نُقلّل استهلاكنا للماء، فمّا دامَ المطر قد خَفَّ الآن قليلاً، علينا بدفنِها الليلة والاِغْتسال ثم ننام...

قالت ذلك بنبرةِ حَسْم وعادتْ للداخل، ظلَّ منتَصبًا يُحدقُ في الفِناءِ، ويَسْرحُ بفكرهِ، يبحثُ فيمّا اقترحتهُ عليه الآن، وإن كان يتَماشَى مع العقل... راحَ يتساءل في داخلهِ عن جوهر هذه المرأة، كيف كان صالح يتَعاطَى معها؟ هل كانت بهذه الروح المُتوَحِشة التي تبدو عليها؟ هل هذه هي حقيقتُها أم ظروف العزلَة والطقس وموتُ العجوز، ورحيل صالح، وطفولتها وما مرَّتْ به؟ تَجمَّعَ كلّ ذلك بهذه الليلة في هذه الساعةِ التي اختَصرَتها في رغْبتِها بدَفنِ عجوزها في صَحنِ الدار، وهي بذلك تَنهِي حياةً طويلةً وشاقة من المعاناة. وبينمّا كان يتأمَّلُ تلك الحالة ويبحثُ عن حجةٍ لها لبرُوزِ هذه الوحْشية في ذاتها، إذ بصوتِ صياح الدِيَكَة، فأيْقنَ أن الفجر مضى وأوْشكَ

النهار على البزوغِ دون رؤية الشمس، حتى الآذان الذي كان يُنبئُ بالفجرِ عادَةً لم يُسْمَع، أو لم يَتمَكن المُؤذِنُون من اللحاقِ بمَساجدِهُم في خَضمِ هذه المَعْمعَة التي تُخوضها البلاد... حتى الحرب التي اجْتاحتْ المنطقة، انقطعتْ أخبارها ولم تترك سوى الكَساد وخُلُوّ المخازن من المؤن، وحدهم من يملكون المال بهذهِ الظروف من تمَكنوا من العيشِ والاستمرار رغم معاناتهُم أيضًا.

ظلَّ يُفكرُ ويتقصى في عقلهِ عن بوابةٍ يعْبرُ من خلالها هذه الحياة التي فاجَأتهُ، بينمّا كان قبل بضعة أشهر يحلمُ بحياةٍ مختلفةٍ عن هذه، لو كان يعلمُ بما خَبئَت له هذه الحياة من حوادثٍ! كان قد تمَنَى أن يأخذَ مكان صالح؟ كان عقلهُ يطوفُ في هذه الدوامَةِ حتى توقفَ عند دفنِ رقية الراقِدة في الحجرةِ المقابلَة.

- لقد طلعَ النهار، سَمعتُ صياح الدِيكَة في الخارج، أظنُّ علينا أن ننتظر ساعات لنرى ماذا نفعل بشأنِ الجثمان؟

قال ذلك للمرأةِ التي اسْتلقَتْ بثيابِها المُبلَّلَة الرَثة على طرفِ الفراش، وعَلِقَتْ عيناها بسقفِ الحجرة التي سَادها الظلام.

- طالمّا هي في الحجيرةِ هناك راقدة للأبد، لن تَغفو عيناي، لن نسْتريح ونلْتقطُ أنفاسنا بوجودِها على الأرضِ وهي ميتَة.

قالت بصوتٍ مُتهدِّج.

- أنتِ تشغلين بالكِ بها وهي حية وميْتَة...

أجابَها بنبرةٍ مُعاتِبَه على إصرارِها بدفنِ العجوز.

- هذا قدري معها ولن يَنتَهي حتى أدْفنُها، هل تظنّ أنني أفعلُ ذلك لكِرهٍ لها، أو رغبَة في الخلاصِ منها بسرعة... أُريد لها أن ترقدُ بسلامٍ تحت الأرض فطالمّا هي هنا معنا ستُعانِي ونعاني نحنُ معها، أريدُ لها حسْنُ الخِتام بدلَّ هذه المَذَلَّة التي هي عليها، حتى الله يريدنا أن ندفنَها. سَنُعاني مع الميتْ طالمّا لم يُدْفنْ، وعندما يوارَى التراب تنتهي المعاناة، صدقني هذه هي غريزة الإنسان.

"تُرى هل تقول الحقيقة؟ أشعرُ الآن بأنها اكْتسَبتْ حكمة من حياتِها الطويلة ومن مكابدتها وبؤسِها، هذه المرأة أصْبحَتْ تُسيطر عَليَّ بطريقةِ تفكيرُها غير المألُوفَة، من أين اِسْتَمَدَّت كلّ هذه الرجاحَة؟ لم يكن صالح في تفكيرهِ يبلغُ هذا الحدَّ في الحِنكَة، لقد تَعلَمتْ من حياتِها ما يتَخطَى ما يعرفهُ الرجال".

جرى هذا الكلام في داخلهِ وهو يرْمُقها بارِدة الأعصاب، هادِئةً كأنَها ريشَةٌ اسْتقَرتْ فوق مكان أخير بعد أن ظلّتْ تُحلقُ في الهواء.

- هل تريدين دَفنَها اليوم؟

سَألها وقد اقتَنعَ بفكرتِها حوْلَ الموت والانتِهاءُ منه، كان يُفكرُ بصالح وموتهِ، واسْتقرَ تفكيرهُ على أن نسيان الميتْ لا يتْم إلا بدَفنهِ تحت الأرض، وقارَنَ بين موت صالح وموت رقية، ورأى في ظَنّهِ أن الاختفاء من الذاكِرةِ يحتاجُ لدَفنٍ تحت التراب، فخَطَرتْ له فكرة مجنونة، لم يُصدق أن عقله

الخُرافي قد اسْتنْبطَها بومضةٍ من وحيٍ تفكير المرأة المُسْتلقيَةُ الآن أمامهُ فوق فِراشها محدقةً بسَقفِ الحجرة وهي هادِئةٌ تمامًا.

- جوري؟

- نعم؟

- هل هناك في الدارِ شيء من آثار صالح؟

سَألها وقد خَفقَ قلبهُ دون أن يعلمْ السبّب.

- لماذا تسْأل هذا السؤال الغريب في هذا الوقت؟

زَفرَ بحدّةٍ ودنَا منها وراحَ ينظر إليها منتظرًا أن يرى رَدّة فعلها تجاه ما يدور في رأسهِ من خيالٍ، كان متردِّدًا في فكرتهِ ولكنهُ اِسْتنْجدَ بشَجاعةٍ اسْتَمدَّها من برودتِها وهدوئها وقال بنبرةٍ متوَجِسة بدتْ في تلَعثُمهِ.

- إن كانت هناك بعضٌ من آثارٍ له، أي شيء كثيابٍ أو أدواتٍ، أو بقايا من ماضٍ، ندْفنُها مع رقية في حفْرةٍ واحدة، لتَرقِدُ روحه معها، مثلمّا عاشَ حياته كلها في...

توَقفَ لحظة وراحَ يسْعلُ، اعتَدلتْ في الفراشِ، وتنهدتْ وانتظرتْ بقية كلامهِ من خلال نظرتُها المُحفِزَة له على الاِسْتئناف... توَقفَ عن الكلام وكأنهُ حُشِرَ في زاويةٍ، وفقد قدرتهُ على التفكير، فبادَرتهُ بقولِها...

- إلى ماذا تسعى من هذه الخُرافة؟

ابتسم باقتضابٍ وأخذ دوْرَة له في المكان وأرْدفَ قائلاً:

- ننسَى الموتى ونحيا مع الأحياء، نبدأ دوْرَة جديدة، نلقي ما وراءنا ونمضي نعيشُ دون ماضٍ مع من رحَل.

"تُرى ماذا يخفي وراءهُ هذا الرجل؟ منذ أن جاءَ وهو يُعاني من عقدةٍ مع الموتى، هناك خلفَ هذه الفكرة يكْمن شعور ما، هو يريد أن ينسى صالح، طَيِّبْ هذا حقهُ كزوج يُغير من زوجٍ سابق، وهي عقْدَة رجالية مُسْتحكمَة فيهم، هل هذا هو الدافع؟ لم أُبْدِ له منذ أن جاء ما يُوحي بتَعلقي بزوجي الراحل، بل لم أثْر معه ما يُدلّ على تعلقي به، لقد تجاهَلتُ تمامًا علاقتي بصالح من قريبٍ وبعيد، وهذا من شأنهِ أن يُطَمئِن عقلهُ تجاه علاقتنا، لا أفهم الرجال، علاقتُكِ جوري بالذكور، منذ طفولتُكِ وصِلَتكِ بهم في كلِّ المواسم، معْرِفتُكِ بهم، لم تسْبُرِ غَوْرهُم... سايرِيه وأفْهمي منهُ مرادَهُ لعلّهُ مُحقٌ فيمّا رمِي إليه، نحن نعيشُ مع الأموات وكأنَهم أحياء بينمّا يُفْترضْ أن ننْساهُم حتى لا نشْقى بسبَّبهم... لكن ماذا لو كان يُخفي شيئًا غامضًا؟ لا ترْتابي جوري... ولماذا لا أشكّ؟ لقد عانَيْتُ من الرجالِ، حتى صالح لم أفلَح في الحياةِ معه رغم طيبة قلبه، وعفويته، لكنه أفْقَرني وجوَّعني معه... وما أنا فيه الآن إلا بسبَّبهِ... ثقي في إدريس لقد جاء ومعه الخير، لو وقعَ لكِ ما حدثَ الآن مع صالح من محنةٍ مع المطر وما تلاهُ، هل كان سيقوم بما قامَ به إدريس؟ وما أدراكِ جوري؟"!!

جرى هذا الحوار بصوتِها الداخلي، ومع عقلها الباطن، كانت تنتظرُ، منه أن يُبادر، ويُفسر لها فكرته ولكنه اكْتفَى بالصمتِ وكأنه كان يسمعُ ما دار في عقلِها.

- إذا قمنا الآن بدفْنِ الإثنين هل سَيطْمئِنُ بالكَ؟

قالت ذلك ونهَضتْ من فوقِ السرير وراحتْ تَشمَّ ثوبُها، فأبْدتْ اشمئزازُها من الرائحةِ وقالت، مشجعة...

- تعال نرى الطقس في الخارج، إن كان يَسمحُ القيام بمهمتِنا؟ دعنا نَخلَص من الموتى وننام الليلة حتى لا نصحو إلا وقد تغيَّرَ الكون أو انتَهتْ الحياة.

قهقه وردَ عليها.

- لم يعد الوقت ليلاً، بتنا في النهار.

ثم ضحكَ واسْتدركَ...

- بتْنا نُخَرفْ بسبَّب هذا الحال الغريب الذي نحن عليه.

خرجا إلى فِناءِ الدار، فوجئا بتَوْقفِ المطر الغزير، رذاذ خفيف يكاد لا يُذكر. وقفا متواجِهين يُحدِقان ببعضِهُما، بدا التوتر على ملامحِ إدريس وكأنه يواجهُ الموت هو ذاته، وجه مُمتَقع وعينان جاحِظتان، أنفاس مُتصاعِدة، دقاتُ قلب... ذهولٌ ونظرة للأفق البعيد، كانت السماءُ مُلبَدَةً بالغيومِ، الفِناءُ غارقٌ في الوحلِ... صوت نباحُ الكلاب في الخارج... لم تظْهر أشعةٌ للشمس بين دَفّة السُحب الكثيفة، فقط لونٌ برتقالي غامق يتخَلّل فجوة السماء، وكأنهُ

طلاء، تدفَقَ بين فكي الغيوم... انْتصَبا يَرمقان المكان، تنَهدتْ وهي تبتَسم لرؤيتِها الخوفُ على وجههِ، فيمّا كان يتساءلُ في داخلهِ عن سرّ هذا البرود الذي يُهيمنُ عليها، وتَحكُمها بمشاعرِها التي لم تَكشف عن تأثُرها بما يجري، هل عانتْ ما يفوقُ حَمْل الجِبال حتى تكون بهذا الثَباتْ؟ تساءلَ مراتٍ وهو يتأمَّلُها تنتظرُ منه أن يُهَدِئ من روعهِ حتى اضْطَرتْ لتمْسِكَ بيده وتقول:

- أنتَ مهْزُوز إدريس كما لو كُنا سَندفِنُكَ أنت، تذَكّر نحن سَندْفنُ رقية وما تبقى من آثارِ صالح ما دمتَ مُصرًا على هذه الفكرة، ولو أني لا أظنَّ أنهُ تركَ ما يَسْتحق أن يُدفَنْ، سوى ثوبٌ أو ثوبين وربمّا موس حلاقة، ومَسْبحَةٌ قديمة، وبعض الخُردَة التي لا أعلمُ إن كانت بأي فجْوَة في الدارِ خَلَّفَها...

أحسَّ بسَكينةٍ في أعماقهِ لدي ملامَسَة يدَها ليدهِ، خَفّتْ دقاتُ قلبه وأخيرًا نطقَ لسانه.

- هل نبدأ الدَفن الآن؟

سَألها وقد أشاحَ بوجههِ عنها، وكأنهُ يهْربُ من رؤيتِها لنظرتهِ.

- إن كنتَ تتَحَمل رؤية الموتى!!

❁❁❁

# 38

المكان-منزل جوري-الوقت-نهارًا-الحالة-عناقيد النسيان

تنَفَّسَ رذاذُ المطر ثانية وهو ينْسلُ من الأعلى للأسفل، أشبه بخيطٍ يمْتدُ من اللهِ إلى الحُفرةِ التي راحَ إدريس يَحفِرُها بمِعْولٍ قديم، انْكسَرتْ نصف قائِمتهِ العُلوية، فأُجبِرَ للانحِناءةِ كلمَا أرادَ حفر التراب من الأرض، وقفَتْ جوري بجانبهِ الآخر تُزيل المياه من حولِ الحُفرة، كانا يرتديان ملابسهُما ذاتها التي كانت عليهُما منذ الأمس، يكتفيان بتجْفيفها ليعودا لاِرْتدائِها، لتوْفيرِ مياه الغسيل للشرب... ظلاّ منْهمِكين بصمتٍ دون أي حديث بينهما حتى لو مجرد إيماءة، فقد بدا أنهما مُتْعبان، يوْدّانِ الإسراع بحَفرِ القبرِ وتوْرية العجوز فيه... كانت تنظرُ إليه من حينٍ لآخر فيما ظلَّ هو يتَجاهلُ نظراتها، منْغمسٌ في الحَفرِ، حين أحسَّ بوَهنٍ، سَألها دون أن يلتفت بوجهه إليها.

- هل تُريدين أن نتوَقَف قليلاً ونسَتريح؟ ما رأيكِ بفنجانِ شايٍ ساخن؟

سَألها وكان واضحًا عليه التعب. فطوال الليلة المُنصرِمَة، وقبلَها ثم مع هذا النهار، لم يسْتلقِ أو يغْفُ لحظة.

- لنُكمل حتى ننتهي بسرعةٍ، قد يعودُ المطر في أيِ لحظة.

أجابتْ وقد وضَعتْ يديّها خلفَ ظهرها وراحتْ تدْفعهُ للواء وتُثْنيه، لشعورِها بالألم فيه، حينها نَكصَتْ وقالت وهي تنْسحبْ إلى عتبةِ الدار الداخلية.

- تعال اسْترحْ...

ثم أردفتْ بيأسٍ

- لا يوجد شاي بالدار.

- أحْضَرتهُ معي البارِحة، موجودٌ في الصَرَّة فوق دولاب المطبخ أتَوَسَّل ألا يكون المطر قد أعْطَبه، فلا يُوجد مكان لم يُطَلّهُ الماء.

جلسَ على صندوقٍ قديمٍ مُهترئ بجانبِ الباب، فيمّا دلَفتْ هي إلى الداخل، راحَ يعْصرُ طرف ثوبه، وينظفُ يديه ويُزيل عنهما التراب بخرقةٍ قديمة. كان رأسهُ حاسرًا، وقد بلّلهُ رذاذ الماء، مسَحهُ وتنفسَ ومضَى ينظرُ للسماءِ حينًا وللفناء حينًا آخر.

- غرابةُ الحياة أنها تمْنحكَ بيومٍ حلمًا وباليوم التالي كابوسًا، تُرى كم سيَستَمرَّ هذا الكابوس الذي يحيطُ به الموت؟

قال ذلك بصوتٍ هامس كأنه يُخاطب أحدًا بجانبهِ.

سرحَ عقله في لحظةٍ عميقة اجْتاحتهُ فجأة حين كان صالح في البحر، يغوص وهو يُفكر بشيءٍ غامض لأولِ مرّة اقتحمَ عقله من دون وضوح، ثم سرعان ما راحَ عقله ينْسجُ الأفكار التي تتَشكَّل منها الأحلام. لعلّهُ أدركَ اللحظة، أن تشَكُّل الأحلام يبدأ بالأفكارِ ثم تلِيهِ الأحلام، لتتَحوَّل بعدها إلى

حوادثٍ وهي هذه التي تقَع الآن نتيجة تلك الخواطر التي زُرِعَتْ بغفلةٍ من الوقتِ، وفي العقلِ بساعةِ نحسٍ. لم يتوقفْ عَقلهُ دقيقة واحدة منذ عادَ من الغوص حتى الآن من التفكيرِ بصالح، حتى وهو يظنّ أنه هربَ من هذا الأمر، يظلُّ عقلهُ الباطن يخْتزنُ الهواجس ثم يوزعُها على بقيةِ ساعات الوقت التي يتاح خلالها عودّة ذكريات البحر الأليمة إليهِ.

أيقظتهُ مما هو فيه زوجتهُ، التي اقتَحَمتْ الغرفة وهي تحملُ فنجانيّ الشاي وقد بدَّلتْ للتوِ فستانها بآخر، لا يقلُ عنه اهتراءً ولكنه جافْ، مدّتْ له الفنجان الساخن وبدأتْ هي باحتِساءِ فنجانَها دون أن يتحدَثا.

كانت هناك بعض طيور الحمام تُراوحُ مكانها المُعتاد بين أطرف النخلَة وحوافِ سقف الدار، لا تكاد تسْتقرُ، وظهرتْ بعض العصافير الصغيرة تناوشُ بعضها على نفايات الأرض وهي تلْتقطُ ما تُصادفهُ ثم تُحْلق، انطَلقتْ تلك الطيور بعد أن توَقفَ الرذاذ لوهلَةٍ، وبدتْ السماء ما زالتْ مُلَبَّدةً بالغيومِ السوداء الكثيفة، ما جعل إدريس يقطعُ الصمت بينهما ويتساءل بيأسٍ وكأنه ملّ وفُطِرَ قلبهُ من هذه الحالَة.

- إلى متى تسْتمر هذه الحالة؟ لم أشْهد سنة من قبل مرَّت على المدينة كهذه...

ضَحكتْ دون أن تُوحي لهُ بالسُخرية منه، وردَتْ وهي تمْسكُ فنجان الشاي بيد وتُشيح باليد الأخرى طرفًا من شعرِها وراءها.

- لأنهُ لم يكن لديكَ عجوزٌ متوفاة في الدار، ولم تكن مسئولًا عن حياة غيرك، ولأنكَ لم تكن متزوجًا وتتحَملْ عبءَ غيرك. كلّ سنة نعْبر هذه الحالَة، وأسوأ منها، يبدو أنكَ نسَيّت... متى كانت مدينةُ المحرق غير هذه التي تراها الآن بفصلِ الشتاء؟ هل أُذكِركَ قبل عامين عندما نفَقَتْ الأسماك من برودة البحر؟ وتُوُفّى كبارُ السِنّ وسادَ وباءٌ حَصدَ الكثير من الناس. ألا تَذْكُّر تلك السنة؟ لقد عشْتُها أنا قبل زواجي من صالح بحالٍ أسوأ من اليوم... كان صالح يرْوِي أحداث تلك السنة وكيف عاشَ هو الآخر مع رقية العمياء بتلك الأجواء، حتى كادَ يفقدُها لولا صُدْفَة الحظّ.

صمَتتْ لحظة واحتَستْ آخر قطرة من فنجانِها وقالت...

- هل تريد أن أروِي لكَ ما جرى قبل عامين؟ أم تُفضل أن ننْتَهي من حَفرِ القبر ودفنْ المرأة؟

ثم أرْدفتْ فجأة وكأنها نستْ...

- وبقايا آثار صالح كمّا تُريد أنتَ.

كانت عِبارة كمّا تُريد فَسرَها إدريس على أنها أُمنيَتهُ هو الشديدة، وأنها كما ظهر لهُ من نبرتِها لا تُشاطِرهُ الرغبة تلك وإنمّا سايَرَتهُ. فكَّرَ، ماذا لو كانت تلك الفكرة مؤذية لمشاعرِها؟

- هل يُضايقُكِ دفنْ آثاره؟

سَألها ليَطْمئِن قلبه، لا يوّد أن يوحي لها بغايتهِ من تلك الرغبة وبالوقتِ ذاته، لديه اعتقادٌ بأنهُ لو فعل ودفنَ مع العجوز كلّ آثار صديقه فسوفَ يبدأ

حياة مُختلِفة مع جوري، خالية من الشكّوك والغيْرة، تخَيَّل ذلك وشكلّ لديهِ هذا الشعور قناعةً، جعلتهُ يرد عليها قائلاً:

- لكي ننسى الأموات، لماذا نتْركهُم يُلهُونَنا عن العيش مُسْتقلين عنهم فهل كُتب علينا أن نحْتَملهُم حتى بعد رحيلهم؟

- ألم يكنْ صالح رفيق عمرك؟ كيف تبتغي أن تنساه؟

فاجأهُ سؤالها من حيث لا يتَوقَّع... فأيْقظَ ذلك وحْش أفكاره، وأسرع لحرفِ دفَّة الحديث بقولهِ وقد أنهى فنجانهُ ونهض قائلاً:

- لنَنهي مهمتنا قبل أن يعاودُ المطر انْهِمارهُ. لنضعَ حدًا لهذا الوضع غير المُحتَمَل، لم تعد مدينة المحرق صالحةً للعيش لأمثالنا، كيف بلَغتْ هذا الدرك من الفَقرِ والجوع والألم، أنتَ تعرف كثيرٌ من الناسِ، هل هناك من لا يعاني مِثلنا؟ أظنُّ أن الذين نعمل عندهم ونخْدمهُم لا يكابدون كحالنا، أم أنا مُخطئة...؟

- أمثال الرُبان سليمان الهمام، ومُلاك البيوت الكبيرة الواسعة المَبنيَة من الحجارة والطوب، والذين يملكون مخازن وعمارات الأخشاب والمؤن الغذائية، ويحتَكِرون المياه والثلج، أظنّ أنهم لا يعانون.

- لماذا لم تَصْبحَ أنتَ أو صالح بحياتهِ مثل هؤلاء؟

وقفَ يتأمَّل سُؤالها وبدا حائرًا بالردِ، سَرتْ بغتة موجة هواء باردة أنْعشَت المكان، لفَتَ ذلك انتباهه فغيَّر دفَّة الحديث بالقول:

- هل تغيَّرَ الطقس؟ يبدو أن الرياح الشمالية سَتُزيل الغيوم أخيرًا.

تركتهُ وسارتْ نحو الفِناء، وصَدَمتْ بطريقها فنجان الشاي الذي انقذفَ بعيدًا.

- لا أعرف إن كان ذلك فَأل سيء أم بشِير خير...؟

علقتْ وهي تتَجهُ للعملِ في الحُفرةِ، لَحقَ بها وعلقَ بدورهِ قائلاً:

- ما لم يتَغيَّر لونُ السماء وترينَ شُعاع الشمس ولو على هيئةِ خيوطٍ رقيقة، لن يتَغيَّر الطقس.

- أنْتم البحارة أدْرى بدَلالاتْ الطقس.

انْهمَكا ثانية وبحماسٍ أقوى ليُنْهيا مُهمتُهما، كان المطر قد توَقفَ وأنْهَيا احْتِسائهما الشاي الساخن، هبَّتْ رياحُ شمالية خفيفة، حركَتْ سَّعفَ النخلَة، عَزَّزتْ من توتر العصافير والحمام، ما زادَ في صَقلِ طاقتَهُما في الحفرِ الذي أوشكَ على الإِنتهاء...

- سأذهبْ لأغْسل بعض ما يُمكِنُني غسْلهُ لجثمانِها، وتبْخيرَها بقَدرِ المُسْتطاع، سأُغيّر ثوبها، وسْأناديكَ لحملِها...

صَعقَ لدي سَماعَهُ العِبارة الأخيرة...

- هل سَأحملُها وأرى وجهها؟

سَألها بقنوطٍ وقد توَرَّدت بشْرتهُ، كمّا كأنهُ نسَي هذا الجزءُ من المُهِمَة، كان يتَجنَب منذ البداية الإِقتراب منها والتطلّع فيها، ظلَّ شعورهُ معلقٌ بصالح وربَطَهُ بأن موتُ الابن وراء مصير العجوز التي لم تَحتْمل رحيله... لمَحتْ الزوجة التغيير على وجههِ فقالتْ بينمّا هي مُتجِهة للداخل...

- لا تُحْبطْ، لن ترى وجهها ولا شيء منها سأقوم بتَكفينَها، ما عليكَ إلا حملَها والمجيئ بها للحُفرةِ وتنتهي ليلتُنا... آه لقد نسَيْت سَأنْبشُ في المنزل عن آثار صالح التي ترْغَب بدفنِها معها...

- لا داعي إذا أردتِ ذلك.

- سأُحققْ رغبتُكَ ولو أني لا أفْهمُ مغزاها.

تركتهُ ودلَفتْ للداخل، وقفَ بجانبِ الحُفرَة وسَرحَ فيها، كما لو كان يرى من خلالها شيئًا ما يسْتدعي تلك النظرةُ الجامِدَة العميقة عليها.

"كلنا سنُدفَن ذات يومٍ في مثلِ هذه الحُفرَة. وسَتُدفَن ذنوبنا وخطايانا وكلّ ما نملك فيها، حتى أولئك الذين لن يحْمِلوا معهم آثارهم ستُدفَن معهم، أخشى فقط أن نسْتيقظْ ذات يوم من تلك الحُفرة ونرى أنفُسنا وجهًا لوجهٍ مع غيْرنا من الناس الذين اخْتفوا من حياتِنا".

عادَ صوتهُ الذي لا يحْتمِلهُ يقْتحمْ عليه عقله دون إرادته، ويفرضُ عليه الاستماع له كما الآن.

"يبدو أنني كَبَرتُ خلال الشهرين الأخيرين سنواتٍ أخرى لم تكن بالبال، هل جَلَبتَ لنفْسِكَ إدريس محنةً أنت في غِنى عنها؟ أم هو قَدرٌ مكتوب لم يكن منهُ مَفَرٌّ؟ ليتيني أتحَدَث مع الله ويدلني لمعرِفةِ الجواب... الجواب لديك إدريس... أين؟ فتشْ عنهُ في هذه الحُفرة".

عندما عادتْ جوري من الداخل بدا عليها الأعياء، لمحَ دموع تَرقْرقَتْ وعَصِيتْ على الهطول، زالَ ذلك البريق القوي الذي أوْحى له من قبل

بالشَكيمَة التي كانت عليها المرأة، ورأى ملامح مُختلفَة تتراوحْ بين حزنٍ ووَهنٍ اكتَّسَيا سحْنتها، فأدركَ أنها رأتْ دَلالَة ما على وجهِ العجوز.

- لقد انْتَهَيتْ.

قالت عبارتها وتقَدمتْ منهُ وبيدها صرَّة.

- جئتُكَ بكلِّ ما تركهُ في ثنايا الدار، هل تُريد رؤية ما فيها؟ أم تُفضل نسْيانَهُ إلى الأبد؟

- لا...

ردَ بسرعةٍ خاطفة وكأنهُ ارتكبَ خطيئة بطلبهِ ذلك، وضَعتْ الصُرَّة على الأرض الرطبة، وأشارَتْ له أن يأتي بالجثمان، عندما انْصرفَ فتَحتْ الصَرَّة وبسرعةٍ مماثلة، أخْرجتْ منها سَبحَّة صفراء طويلة، وضعتها في جيبِها، الْقتْ نظرة أخيرة على الصَرَّة، كانت تحتوي سترة سوداء بدونِ أكمام، وبضعة سراويلَ قديمة وقميصُ واحد، خاتمٌ فضي ومسْواك تنظيف الأسنان وسُجادّة صلاة وبعض الخِرقْ المحْشُورة في الصرَّة، لفَتْها ثانية بعجلةٍ والْقَتها في الحُفرة.

فجأة عادَ الرذاذ ينْزلُ دون أن يتْرك أثرًا يُذكَر، كان خفيفًا ويكادُ لا يحُسْ به، عندما وصلَ وهو يحْملُ على ظهرهِ جُثْمانها، انْتصَبتْ وأشارتْ له أن يضَعها على طرفِ الحُفرة، بغتة انْتبهَتْ وفتَحتْ عينيها على سعتَهُما وقالت مُستَسلِمة لإمرٍ كما لو وقعَ خارج إرادتها.

- نسينا أهم شيء قبل الدَفن، لم نُصلِ عليها...

- صلاة الميت لا تحتاج لتعقيدٍ، لنقرأ الفاتحة عليها الآن ونَركعُ ركعتين فقط، هكذا كنا نُصلي على البحارةِ في الغوص.

ردَ عليها لتَصْدِمهُ بقولِها.

- هل صليْتُم على صالح؟

لومضةٍ خاطفة، تتَالتْ صورٌ في رأسهِ عن فترة الغوص واحْتدام الأفكار والمشاعر خلالها، تذكَّرَ إنهم صلوا عليه صلاة الغائب بدلاً من صلاة الجِنازة عند الفجر، وفي صبيحة اليوم ذاته وعند النهار، صلى بعض البحارة صلاةً خاصة أفْرغوا مشاعرهُم خلالها لتَرقدَ روحهُ بسلامٍ في قاعِ البحر، تذكَّرَ اللحظة التي اجْتاحتْهُ فيها نوبة هستيرية، وفقدَ الوعي للحظة وقد أرْخَى الحَبْل حتى نهايته وغَفلَ، تذكَّرَ الرعَشة التي انتابتهُ وكادتْ توْقف نبض قلبه حين رأى الحَبل يَنْسلُ في المياه وحدهُ دون توقفْ... تذكَّرَ لحظة وقفَ صبيٌ غامضُ الطَّلعَة على رأسهِ وحدّقَ به... منذ تلك الساعات المريرة والليالي الساهِدَة، منذ اخْتفى صالح وغابَ في السديم وهو يتَذَكّر من حينٍ لآخر سلالاتٍ من الأفكار، تتوالى بشَتى الألوان وكأنها قوسُ قزح إلهي له مَغزى يجتاحهُ ويعَبرُ، ثم سرعان ما يعود وهكذا دواليك. تذكَّرَ ذلك وقد نسَى الآن هو وجوري الصلاة على جثمان رقية.

- هل يجوزُ للمرأة أن تُصلي صلاة الغائب على الميت...؟ لأني أتُوق في هذا اليوم بالذات ومع هذه الطقوس الربانية، الصلاة كذلك على صالح الغائب...

سألتْ جوري وابتسامة مُقْتضَبة على شفتيها... وقفا أمام الجثة التي لُفَتْ في بطانية قديمة، وبدتْ أصغر من جسمٍ طفل في الثالثة أو الرابعة من عمرهِ، وغُطِيّ وجهها بغترة بيضاء رقيقة لم تُخفِ بعض ملامح الوجْه الذي توارى خلفَ تجاعيد وكُومَةٍ من عظامٍ، عينان غائرتان وشعرٌ طفيف عند حافةِ الجبهة، بدا الرأس أكبرُ من الجثة ذاتها.

- لنقرأ الفاتحة عليها...

وقفا كمّا كانا في ذروةِ التوتر، لم يَبدُ على جوري أي تأثُر وحاولتْ بجهدٍ أن تخفى وراء صمتُها وتحريك شفتيها مشاعرها الحقيقية التي لا يعرفُها ولا يشعر بها إدريس، كانت تقف دون تعبير يُذكّر على وجهِها، عيناها باتجاهِ النخلَة السامِقة أمامها في الفِناء، كانت ترْمقُ اهتزازْ سّعف النخلَة في الهواء، وعقلها يسبحُ في مكانٍ آخر، أفكارها لا يمكن التَكهُن بها في تلك اللحظة التي انْشغلَ فيها إدريس بقراءةِ سورة الفاتحة... عندما التَفتَ نحو زوجتهِ ورآها سارِحَة في البعيد وكأنها غادرتْ المكان، حَدقَ بالجثمان المَسجى بقربِ الحُفرَة، وعادَ مرّة أخرى يَرْمقُ جوري الجامدَة ولا يدري أين هي موْجودةٌ الآن في هذه اللحظة؟... أدركَ أن هذه المرأة لم ولن يَفهَمَها إلا إذا حدَثتْ معجزة وأدركَ من خلالها كيف تُفكر وتَشْعُر وكيف يعمل عقلُها الذي يبدو في ساعةٍ له طريقة وفي ساعةٍ أخرى له طريقة أخرى. عندما انْتهَى من الصلاة القصيرة، اشْتَدَّ رذاذ المطر، فسارعَ بإنزالِ الجثمان في الحُفرة وانتصبَ ثانية ونظرَ إلى جوري التي بدتْ هذه المرّة بغايةِ التأثر نقيض

ما كانت عليه قبل لحظة مضَتْ، وكأن وضعْ الجثة في الحُفرة قد غيَّر تفكيرها وأحدثَ فجوةً في مشاعرها التي كانت قبل لحظات مُتبلِّدة.

- هل نرْمي التراب عليها؟ ساعديني.

رأى فجأة عينيها تترَقْرق، لم يُصدق باديءِ الأمر، حتى رَأى الدموع تنْهَمرُ منهما، أمسكَ بيدها وضغطَ عليها وقال بنبرةٍ عاطفية.

- اذْهبي إلى الداخل وسَأُنْهي الدَفن وأتْبعكِ.

قال ذلك وقد رفعَ رأسهُ للأعلى ليرى رذاذ المطر يزْدادُ، فسارعَ بتناولِ المَغْرفَة وراح يُهيل التراب في الحفرةِ فيمّا لا زالتْ جوري واقفة تُحدقُ فيه وفي القبرِ الذي احْتضَنَ أخيرًا رقية العمياء.

۞۞۞

# 39

المكان-دار جوري-الوقت-ليلاً-الحالة-عناقيد الشَهْد

"أنْظري جوري إلى الفتِيلة المُشْتعِلة، إنها تُشْبهكِ، بعد مدّة ستَذبَل وتتلاشَى، كلّ يوم هذا حالكِ، مثل شَمعَة، تَشتَعلُ وتفيئ بالأرجاء، ثم تخْفتْ وتَخْمد، وتبدأ شمعة أخرى، أنتِ كلّ يوم شمعة ولكلِّ شمعة ذبول وتلاشٍ، حتى يأتي الزَّوَال، حالكِ حالَ رقية التي كانت تفيئ إلى أن تلاشَتْ نهائيًا"...

خاطَبتْ ذاتها وهي تَسْتحمُ في الحمامِ، وعلى ناحيةٍ منها شمعةٌ وهّاجة فوق علبةٍ معدنية، باتت الشمعة بمنْتصفِ عمرها، كانت جوري تقْبعُ عارية في طشتٍ معدني، امتلأ بالتصدعات بكافة أطرافه، وساد ضوء برتقاليٌ سطع على زاويةٍ منها عكس ظلَّها، كان بقْربِها موقدُ نار زيتي، وضعتْ فوقه إناء ملأتهُ بالماءِ وجعلتهُ يغلِي ثم راحتْ تخْلطهُ في مياهِ الطَشتْ وتَغْرفُ منهُ لتَفْرك جسدها بقطعةٍ مُكَوَّرة من الحِبال بداخلِها قطعة صابون، كانت تَرمقُ الشمعة وتنَصتُ لصوتِ تساقط المطر، ينْقرُ سقفَ الحمام، ويتَغَلغَل خيطهُ الرفيع من المياهِ إلى زاويةٍ من المكان... تيارُ هواءٍ بارد يتَخلّل هو الآخر من ثقوبٍ وفجواتٍ صغيرة، ويلْسَعها فتَهرعُ لصبِ الماء الدافئ على بدنها وتعود تتأمَّل الشمعة وهي تتَراقصُ بفَتيلتِها المُشتعِلَة، ويرْقصُ معها ظلّها.

"اغْسلي جسدكِ ونظفيهِ وعطريهِ، وسلميه الليلة لرجُلكِ القادم من وراء البحر، أخذ البحر رجلاً ومنحكِ آخر، لم تخْسرِ شيئًا ولم تربحِ شيء جوري... سلمي هذا الجسد المُعطَّر، كما فَعلتِ طوال السنين الماضية... هل اشْتَهيتِ؟ هل اسْتمْتعتِ؟ المهم أن طرفكِ الآخر شعرَ بالاِنتصار وأنتابهُ الفرح... أنتِ تزرعينَ المُتعَة في أجسادِ الرجال وتأخذين مقابل ذلك، الألم والمرارَة... لو كانوا يعْتقُونكِ من رغبتهم في رؤيتكِ تفعلين ما تشائين فإن الأمر يعود كلهُ إلى نرجس! إنها متْعتَكِ وفرحكِ وانتصار جسدُكِ... كلّ الرجال يريدون مُتعتَهُم وحدهم، ولو سعوا وتأملوا وفتشوا لأغْرمُوا بشريكَة لهم ولكن الأنانية الذكورية فيهم تحْجِبُ رؤيتهم لجذوَةِ المتعة... يا لهم من أغبياء وحمقى... همهُم النصر الذكوري ولو خسِروا الجنة!".

نظرتْ للشمعةِ المُنزَوية تحْترق وشمَّتْ رائحة جسدها بينمّا هي تَدْعكَهُ بتؤدةٍ، ابتسمتْ بمَكْرٍ وقالت مخاطِبة نفسها بنَغمةٍ تُراوغُ فيها أفكارها وكأنها تحاول خِداع ذاتها لإقناعِها بما ليس في رأسِها...

- كل ما يحْتاجَهُ الرجل صوتٌ مُفْتَعل وزَفرة حادة، وصرخة مَكتومَة، ويُحقّق انتصاره، وتنتهي معاناتُكِ.

يسألُني صوتي الآخر...

- ماذا يُزعِجكِ في المُضاجَعة؟

"منذ وُلدتُ وأنا في الجسدِ الخطأ، من لَم يشعرُ بجسدهِ يقاوم الرغبة لا يُدرك أين تكمن الشهوة؟ أنا مُغْرمَةٌ بنرجس، هي عذابي، هي مرْساي الذي

أسْتَّتبُ عنده وأُزيل آلامي، خُلْقتُ وفيَّ نقص بالشَهوةِ للرجل، ليس ذنبي أن الله وضعَ فيَّ جسد لا يرْتعشُ من لمْستِ الرجل، ويضْطرم بمجرد أن تقع عيناي على نرجس... لكني لا أستطيع العيش في هذا العالم من دونِ رجل... لابد أن أرْضَخ للعرفِ الذي فُرِضَ عليَّ من دون إرادة مني... لكنكِ جوري عَبرْتِ مع الرجال مرافئ كثيرة، واسْتسلَمتِ لهم ومنحتيهم جسدكِ المُحْتَجز بشهوةٍ نقيضة... ماذا أفعل لكي أعيش؟ لا حياة بلا رجل... لا أكل ولا شرب ولا رِداءَ ولا تنفّس بدون الرجل... كيف تعيشين؟ طريقُكِ مسدودٌ إذن... دعني أيها الصوتُ اللعين أنتهي من حمامي وأذهبُ إلى رجُلي الذي ينتظر منذ أكثر من شهرٍ حقه! فيما اشتراه مني... لقد ظلَمتهُ وأبعدتهُ ولم يكن ذنبهُ بل أنا من اسْتسْلمتُ له لأنني لم أجد خيارًا آخر سوى الرجوع لدار دلال... وهناك سَأسْتنْزفُ الجسد حتى يَضْمُر وينتهي به المطاف كشبحٍ مثل رقية... دعني أعيش وأُجَرب تطويع جسدي مع رجلٍ أخر يبدو أنه طيبَ القلب وحنون وعاطفي وليس له تجربة، يمكنني أن أُطوِّعهُ وأَتَكيَّف معه مثلمّا فعَلتُ مع سلَفهِ صالح".

عجّلتْ بتَجفيفِ جسمها، وتنشيف شعرها، ارْتدتْ فستانٌ أزرق، ثم لبِسَتْ سروالاً قصيرًا أسود اللون، وسَكبتْ مياه الطَشتْ في فجوة الحمام التي فاضَتْ وظلّت فقاقيع الصابون تطفو، بدا عليها التوتر، وراحتْ تحاول جاهدة شطفْ بقايا الماء والصابون من فوق السطح، كان ثمة شَعيرات من شعرِها

علَقتْ في فراغاتٍ صغيرة، بفستانِها، فراحَتْ تنْزعُها وعادتْ تُنظف الحمام ليأتي بعدها إدريس ويسْتحمْ.

- هذا أفضلُ ما عندي الليلة لأُقَدمَهُ له.

قالتْ ذلك وهي تخرجُ من الحمام وترْتَعدُ من البرد، دلَفتْ الغرفة وطلبتْ من زوجها أن يذهب لتنتهي هي من ارتداء ملابسها، فيمّا كان يُحدقُ بها ونسَى ما قالت للتو...

- تركتُ لكَ موْقدُ النار وفيه نصف كمية الماء يَغلِي اخْلطهُ بالماء البارد ولا تسْتهلكهُ كله!

عندما غادرَ الغرفة، أسْرعتْ بتغييرِ غطاء الفراش، ثم اِتّجهتْ لدُولابِها الصغير الكائن أسفل دولاب الملابس الكبير وأخْرجتْ صندوقًا صغيرًا، فتَحتهُ واسْتلَتْ بعض أدوات التزيين، وقَفتْ أمام المرآة المشْروخَة ومضَتْ تزيّن وتَطْري وجْهَها بالبُودَرة وشفَتيها بالْحمْرةِ، كانت تتأمَّل تضاريس الوجه وتُحدقُ ببعضِ الزوايا فيه وكأنَها تبْحثُ عن تغييراتٍ طَرَأتْ عليه، رغم كلّ ما مرَّتْ به وما تُعانيه ويأسها من كلِّ شيءٍ وفوقه كوْمة الإحباط، إلا أنها لم تكن قلقةُ طوال الوقت بشأنِ بشْرَتها، كانت تنظر لجمالِها، باعتبارهِ ثروتُها الوحيدة التي خرجتْ بها من الدنيا، وأشدُّ ما يَقلقُها هو أن يُساوِرُها الشكّ لوجودِ تغييراتٍ عليها تُؤثرُ في نضارتِها.

- سأمنحهُ الليلة حقه فيَّ، لن يُصدق ما سيَرى من جوري وما ادخِر له من مفاجآتٍ، كم أنتِ غريبةٌ جوري قررتِ تسْليمهُ جسدكِ يوم دَفْنكِ لعجوزكِ

رقية... اخْترتِ هذا الطقس السيء وهذا الوقت الكئيب وهذه الساعة الغامضة، المطر ما زال يهْطلُ ولم تمضِ ساعات على دفْنِ الميت، ماذا يدور في رأسُكِ؟!

مضتْ تضع الحُمْرة، وأسْرعتْ بالخروجِ والعودّة ثانية وهي تحملُ بيديها منقلة الفحم، وضعتها في زاوية، ثم خَرجتْ وعادتْ ومعها صينية فوقها العشاء المكوَّن من الرُزِّ الأبيض وطبق من مَرقْ السّمك المُّملَح، فاحتْ منه رائحة الكمون والمعمول بقشورِ الرمان المُجفَّف ليُضْفِي على طعمِ السّمك المالح حمُوضَة، وقد تعَلمتْ تلك الخلْطة من مراقبتها لإحدى سيدات الحي اللواتي خَدمتْ لديهن وكانت تراقبها في الطبخ، ثم تتَذوَّق تلك الوجبة عندما يأتيها طبقها وقت الغذاء. حفظتْ كثيرًا من أسرار الطبخ ولكنها فقَدَتها لأنها لم تُداوم على ذلك، أما لنقصِ التموين وعدم توَفُّر ما تطبخه، وأما لغيابِ زوجها الراحل في الغوص.

عندما دلفَ إدريس الحجرة بعد أن اسْتحمَ وغيَّرَ ملابسه، ارتدى ثوبًا بني اللون من الصوف السميك، لفَّ رأسهُ بإزار مزركش بالألوان الفاقِعَة الذي عادة كان يرتديه حول خصره، وحالمّا لمحَ منقلةُ الفحم، أسرعَ وألْقَى بنفسهِ حوْلَها ووضعَ يدهُ فوق الفحم المُشْتعل وهو يرْتجِفُ من البرد، اسْتلتْ جوري بطانية من أسفل الفراش، وغطّتْ بها نصفه الأسفل، واتجهتْ نحو الباب وأحكمتْ اغلاقه بوضعِ خِرقة قديمة أسفلهُ لمنعِ تيار الهواء البارد من التسلُّلِ عبْرَ فتحته السفلى.

- أين أوْقدتِ الفحم؟ فالمطر في الخارج مِدْرار.

ثم أستدركَ وأضافَ بعد أن لمحَ صينية الرُزّ مع طبق المَرقْ واشْتمَّ الرائحة المُنبعِثة منه.

- أين ومتى طبختِ كلّ هذا الطعام وأشْعلتْ التدفئة؟

كان مندهشًا لتمكُنِها من تحضير ذلك في خِضم استمرار هطول المطر بغزارة والذي بلغتْ مياههُ حافة عتبة الغرفة وكادتْ تتسَلَّل للداخل، وقد أغرَقتْ المطبخ المُتصدع منذ أن أنشَطرَ طرفٌ من جِدارهِ.

- حتى تعرف سحرَ جوري التي لا يُجاريها ساحر.

لو كَلفَّ نفسه وفتحَ باب حجيرة رقية التي دُفِنتْ قبل ساعات، لوجدها قد تحوَّلتْ إلى مطبخٍ مؤقت... هكذا يعمل عقل المرأة، لم تُبين له السرّ، عادة ما كانت تتركُ الأمور على حالِها، بَنَتْ حياتها على اللامبالاة، واسْتهْجنَت كلّ ردود الأفعال من حوْلِها.

اجتاحتهُ بهجةٌ فضَحتها ملامحهُ التي انْفرجَت وهو يرى الليلة جوري لأولِ مرّة منذ اقترنَ بها مُنْشرِحة، تتحدثْ معه بنغمةٍ بهيجة وصوت مُسترخٍ لم يعهدهُ فيها، منذ جاء الدار، لقد دَفَنتْ اليوم عجوزها وسط بركةٍ من المطر والوْحل، وكان يُفترض أن تكون الآن مغْمومَة وربمّا نائمة من شدّةِ التعب والارهاق نتيجة شَفط مياه المطر طوال الوقت وغسْل رقية وتطييب جثمانها قبل الدفن، حين انتبهَ فجأة لأفكارهِ وهي تسيرُ في هذا الإتجاه، لعنَ عقله الذي لا يعرفُ ولا يتَفهم لحظات البهجة، طردَ التفكير في تلك الصور

الكئيبة ونزعَ عن وجههِ أثرها وقرّر استغلال هذه الساعة التي تبدو فيها المرأة مُتألِقة بفستانِها وزينتها فلعلّها تكون الليلة الموعودة.

"حانتْ فرصتُك الذهبية إدريس لتفوز الليلة بالجوهرة المخْفية طوال السنين، اِنْزعْ من رأسكِ اللحظة كلّ الأفكار والذكريات عن مدينة المحرق وظُلمها وبُخلها عليك بالبهجةِ واسْتغلْ هذه الابتسامة التي تُطالعُك بها حُلمكَ جوري وهي تُغازِلُكَ كما لم تحلم من قبل. ابتعد عن التفكير، أزْحْ عن رأسك الأوهام والشكوك... تذكَّر صالح، إدريس أنت الآن مكانهُ وسترى ما كان يَسْردهُ لك عن الجمال... أعوذ بالله منكَ، صوتٌ لئيم... هذه الحقيقة، لا تَهْرب منها... هذا صوتُ الغراب بداخلي، أهْربْ منه إدريس... لا مَهرَب... أنظر أمامُكَ، الحلم الذي تنتظر، اِنزعْ عن وجهكَ الضباب وانْغمس في لذةِ العمر الآتية... ها هي جوري، أنظر لها، ودعْ صالح يرْقدُ في قاع البحر... انظر لها إدريس وأنسَ الغُراب"

- ماذا بكَ إدريس؟

انْتبَهتْ له وقد فَزِعَ في مكانهِ وانْتفَضَ لومضةٍ، رآها تنظرُ إليه فأدركَ أنَّها لمَحتهُ وقد صحا من كابوسِ صوتهِ الداخلي الذي أبَى إلا أن يُلاحقهُ بالأفكارِ والشكوك، وطبقة الضباب التي تَبثُها مشاعرهُ الداكنة فتُخفي ولَهَهُ بالمرأةِ التي أمامه.

- البردُ جوري يكادُ يُجمِّدُني...

قال ذلك للهَربِ بعجلةٍ من شكوكهِ التي تَجَلَّت فاضِحة بحركةِ جسده وهو يَرْتجِفُ من الأفكار المُشَوِّشَة التي اجْتاحتهُ...

- ما رأيك نتعشَى الآن حتى تدْفأَ؟

- لا أشعر بالجوع الآن، ربما لاحقًا، لقد اسْتنْفَذنا طاقتُنا في اليوم كله بالتعبِ وحان الوقت لأن نسْترخي وندْفأَ وننسَى ما مرَّرنا به، أشعرُ برغبةٍ شديدة بتدخينِ سيجارة، يبدو في هذه الليلة أن المطر لن يتوْقف من صوتِ الرعد بالخارج...

قال ذلك إثرَ موجةٌ مُفاجِئة لصوتِ الرعد. ابتسمتْ له وقالت بنبرةٍ مشجعة، وهي ترْمقهُ بنظرةٍ ذات مغزى.

- كيف تشعر الآن وأنتَ بعيدٌ عن البحر والمقهى وساحل المدينة والسوق، والمرسى كلّ هذه الأيام الطويلة المُمِلَة، وأنت قابعٌ بالمنزلِ، وجْهُكَ في وجهي طول الوقت؟

أوْقدَ سيجارتهِ، وضعها بداية في فمِهِ، انحَنَى كليةً على الجمرِ المُشْتعل وشَفطَها ثم نفثَ دُخانها وقال، وسِماتِ الاغتباط تلمعُ في عينيه.

- ما دمْتُ معكِ جوري، لا أشعرُ بغربةٍ من شيءٍ، لم أشعر بالاِنتماءِ لهذه المدينة المُتجَهِمَة يومًا إلا حين الْتقيتُك، ولولاكِ لبقيتُ في غربةٍ عن كلِّ شيءٍ، أمضيتُ حياتي كلها بالمدينةِ من ساحلٍ إلى آخر، ومن مقهى إلى مقهى، ومن مرسى وسوق ومسلخ ومن بحرٍ إلى يابِسة، لم أشعرُ بالانْتِماءِ

إلى هذه الأمكنة، هنا في هذه الدار الصغيرة التي تكادُ تتَصَدع علينا شَعرتُ بانتماءٍ للمحرق لأنكِ منها وتعيشين فيها!

رمقتهُ بنظرةٍ حقيقية من الإعجابِ، أحسَّت لأولِ مرّة من نبرتهِ، باختلافٍ واضحٍ بينهُ وبين صديقه صالح، رأتْ في عينيهِ بريق لا يكْذب يشْتهِيها، واسْتنبَطتْ من نغمةِ صوته المُتهَدج، رغبةً دفينةً في أعماقهِ، تكشفُ عن ولهٍ لا يستطيع اخفاءه، لمَستْ من نبرةِ صوتهِ وكلماتهِ الرقيقة لغة يُجريها معها لم تَسْمعَها من صالح، كّذَّبتْ أفكارها التي كانت تُوقد في رأسِها أن كلّ الرجال لا يملكون إحساسًا بالجسد، لكنها رأتْ في لمعانِ عينيه ونغمة صوته شهوةً ممزوجةً بعاطفةٍ وخيال كتَمهُ مدّةً طويلة. حينما دنتْ منه، وزادَ تأمُّلها لهُ خُيِّلَ إليها أنها شاهدتْ هذا الوجه منذ بضعِ سنواتٍ بسوقِ المحرق للسمك، لم تتيَقّن من ذاكِّرتها ولكنها تكَهنتْ بأن ملامح هذا الوجه سبقَ ورأتهُ قبل زواجها من صالح ورؤيتَها له حينذاك بالمنزلِ عندما كان صالح يستقبلهُ بفِناء الدار. وردَ في ذهنِها اللحظة، نظرتهُ لها التي اسْترقَها خفية وهو يُحدقُ بساقيها عندما كانت تجلسُ بمغْسلَةِ الفِناء وتُسَفِطُ السّمك، ظنَّها وقتُها أنها لم تكن تقْتنِصُ النظر له وتراقبهُ وهو يسارق بنظراتهِ سرًا وعَمَدتْ للتَجاهل وأدْركَتْ من يومِها أنه مُغرمٌ بِها.

- هل أفاجأهُ الآن وأُفاتحهُ بتلك النظرة يومها وأرى كيف يتصرف؟

تساءلتْ بينها وبين نفسها وهي قريبةٌ منه، كانت في البدءِ قد قررتْ الليلة الاستسلام له أخيرًا من دونِ رغبة لمجرد امْتصاص لَحاجَته وبالوقتِ

ذاتهِ منحهُ حقهُ الشرعي الذي يسْتحقهُ، ولكنها قبل لحظات فقط شَعرتْ بمَيّلٍ له وشعور عاطفي غريب ينْحى إلى تَقَبُلها له، حين دقَّقتْ في ملامحهِ ورأتْ في وجههِ وَلَهٌ يكنهُ لها عن صدقٍ وبفطرةِ الرجل البَتُول وهو ما أرادتْ به اختبارهُ الليلة.

- أحْكَ لي قصْتُك مع مدينة المحرق، لماذا تمْقتُها أنت وصالح؟

بادرتهُ بالسؤال الذي كان يجولُ في بالِها منذ وقت بعيد ولكن لم يكن يلحُ في رؤيتها أنها تربطُ بينه وبين صالح بكلِّ موضوع تطرحه، ظنَّ في البدءِ بأنه وحدهُ من كان صالح لا يغادر عقله، وها هي الأخرى لا يكاد يغيبُ اسمهُ عن بالها... ترى هل ما زالت تحبهُ ولا تريد الخروج من دائرته؟ مثلمّا هو في رأسهِ، لا يريد الخروج... ودَّ لو يسألها عن شعورها تجاه زوجها الراحل وهي معه ولكن صرفَ النظر حتى لا يفْسدُ الليلة التي لاحَ فيها ضوءٌ لمطارحتِها الغرام، فأعادَ صياغة السؤال في رأسهِ ثم طرحهُ عليها وهو يفتعلُ ابتسامة متوارية.

- مثلمّا تكرهينها أنت جوري وربما لنفسِ الأسباب، فقد سَمعْتُكِ وأنت تهمسين من وقتٍ لآخر بشتى النعوت عليها... من لا يَمقتُ مدينة رأى فيها الذُل والهوان؟ لا أذْكر يومًا، بل ساعة عشتُها في طرقها وبين أزِقَّتها وعلى سواحلها وفي زواياها وأركانها وكلّ فجوة وشقّ فيها، لم أشعر إلا بالكآبةِ والحزن، رغم ما تثيرهُ فيَّ من ولهٍ وشوق والتصاق ببحرِها النقي والغادر وسمائُها الرمادية، حرها وبردها وغُبارها ورطوبتها ونباح كلابها، وشِجار

قططها ونواح حمامها، كلّ ذلك جعلني أمْقُتها وأنا فيها وأعْشقُها وأنا بعيدٌ عنها، أنتِ جوري لم تغِيبي عنها مثلما نحن نبتعدُ عنها شهورًا في الغوص، حينها نشعرُ بها وكأنها لم تُغادرُنا، حين تنهشنا الغُربة نتطلع إليها ونحن بعيدون عنها، وعن كلِّ سماجَتُها التي ذكَّرتُها لك الآن... هذه علاقتي بالمحرق... إنها تُذكِّرُني بكِ، فكلمّا أتطلع إلى وجهُكِ أشعرُ بأنني ما زلتُ أعيشُ فيها رغم بعدها عني... أقول لكِ شيء من وجعٍ في قلبي؟

- قل إدريس.

- كلمّا قَرَّبتُ من هذه المدينة بعدتْ عني... أنتِ تشبهِينَها جوري، كلمّا دَنوْتُ منكِ بعدتِ... ما الفرق بينكِ وبينها؟!!

قهْقهَتْ وهي تنظر إليه، دنتْ منه أكثر واستلتْ بقية السيجارة من يدهِ وراحتْ تنفثُ دخانها وألْقتْ بعقبِها في الجمرِ المشْتعل بالمنقلَة.

- أُسامحُكَ على هذه المقارنة صالح...

توقفت فجأة مُحَرّجة.

- عفوًا إدريس، لا تُؤاخِذُني لقد خَلَطتُ في ذهني بسبَّب انفعالي بحديثك الشيقْ عن المدينة.

- لا أَلُومكِ فأنتِ عشتِ معه فترةٌ طويلة وعاشرتيه ولا يمكنك محْوَهُ من حياتِكِ لمجردِ أنكِ تزوجتِ بي، مثلمّا كان زوجكِ كان ايضًا رفيق عمري!

اقترَبتْ منهُ وفاجأتهُ وهي تأخذ بيدهِ وتحْضنُها وتنظر في عينيه، ظلَّت تبتسم له بودٍ لم يعهدهُ ثم الْتصقتْ به أكثر ومدَّتْ يدها وتسلَّلتْ بها نحو حوْضهِ وهمْستْ بصوتٍ ناعسٍ ونغمة مُرهفَة:

- اِعْتَرف لي إدريس، كم امرأة عَرَفتَ من قبل؟

- لم أعْرف امرأة بحياتي قط... أنتِ أول امرأة أنفردُ بها...

- حقًا إدريس؟ صمتٌ

- إذن لا خِبرة لكَ مع النساء؟

سألتهُ وقد راحتْ يدها بتؤدةٍ ورشاقة تقبضُ على عضْوهُ وتداعبهُ، فيما خفَقَ قلبه وشعر بحرارةٍ تسْفَع جسدهُ كلهُ، وزادها حرارةُ الجَمِر المُشتعل بقربهما...

- سأُريكَ الليلة إدريس ما يُنسيكَ مدينة المحرق... هل ترغب بيَّ؟ لم تُعلق ليلة تعَريَّتُ لكَ واكْتفيتْ بالتحديقِ والصمت، لماذا لم تدنُ مني وقتَها؟

- لقد هدَّدتيني هل نسَيتِ؟

- حقًا؟

أمسَكتْ بيدهِ وسحبتها لينهض معها وجَرّتهُ نحو الفراش، انتصَبتْ أمامه، وتأمَّلتهُ وابتسامة صغيرة مُتَخفية تعلُو شفتيها اللزجتين، تسلَّلتْ رائِحتها إلى أنفه، وزال الخيال الجامح لجسدِها وما سيفعله بها، مع كلّ ما راوَدهُ طوال الشهور الماضية وحلَّ مكانه التوتر وضربات القلب المتسارِعة وتشْنج العضلات...

- لماذا أنت متوتر... دعني أتولي كلّ شيء الليلة، سأُدَلِلكَ وأسعدك وأعوّضُك، سايرني فقط وأترك أفكارك ومشاعركَ وراءك وأبقَ معي...

توَّلتْ في البدءِ نزعَ فستانها وبقيّتْ بقميصِ نومها الداخلي بلونهِ الأبيض الشفاف، برَزَ نهداها النافران بوضوحٍ وظهر لون السروال الأسود من خلال القميص الرقيق...

دنتْ منه وداسْتْ على قدميه عمدًا ثم انْحتْ وأمسكتْ بطرفِ ثوبهِ من الأسفل ورفعتهُ إلى الأعلى وهي تتأمّلُ جسمه من فوقِ السروال والفانيلة القطنية... ظلّت لومضةٍ تُحدق به مبتسمة ثم نَزعتْ عنه الثوب والتَصقتْ به.

- هل تحسّ بيّ؟

لم يردْ، فقد خَرسَ لسانه وبدا تائهًا لا يعرفُ كيف يمسك بها ولا كيف يبادر؟ إلى أن جرتهُ للفراشِ وألْقتْهُ...

- هنا مكانُك حتى الصباح.

قالت ذلك ونَزَعتْ عنها قميصها الداخلي واضْطَجعتْ إلى جانبهِ، مما زادَ من خفقانِ قلبه، وتلاشتْ نظراتهُ التي غاصَّتْ في عتْمةِ الفراش، كان ضوءُ الشمعتين في الركنِ المعارض من الفراشِ قد عكسَ ظلّهُما على الحائطِ وهُما يتأرجَحان.

- تزايد هطول المطر... قال ذلك بصوتٍ مُرْتعش...

- هذا أفضل... ستّتذوْقْ الليلة شَهدي. ردَتْ بصوتٍ ناعسٍ.

❁❁❁

# 40

المكان-منزل جوري الفصل-شتاء-الوقت-ليلاً-الحالة-عناقيد الخوف

ينابيعُ الجسد تلْتَهبُ بالرغبةِ... رياحُ الشهوة تهبُ من كلِّ عضوٍ في تضاريسِ الجسم الصَريع كسَهْلٍ مُتعرِّج في بيداءٍ يكْتنِفُها السرابُ البرتقالي، بضوءِ شمسٍ صيفية حارقة... مُنحدراتٌ ومرتفعاتٌ، مسافات، أبعاد... أنواء... فُكَّ اللغز وانْبَرتْ شهوة العمر المكبُوتة منذ عصور القحط تسيح... تراءتْ له فيافي شاسعةً لا يعرفُ أين يخطو فيها، كان يخشَى أن يعْبرَ هذا المسافات فيضيع في متاهاتٍ لم يَعبرها من قبل ولم يُصادفُها بحياتهِ...

"من أين تبدأ؟ لا سياجٌ تُعْرقلُكَ ولا حدودًا تعُوقكَ... الطرق مُمهَّدةٌ والليل والمطر والعزلة، والصحراء كلها مُلككَ تعْبرُها، ماذا تنتظر؟ انظر، هناك تَلَيْن منْتَصِبين يتَحدَّيانكَ... وهناك معْبرٌ يقودكَ لحافةِ النبع... هنا واحةٌ تظلّلُها الأشجار، وحوْلَّها ينابيعٌ فرعية... هناك اسْتراحاتٌ وبعدها أنهارٌ ثم تقفُ وتَطُلَّ على بوابةِ الجنة... ماذا تنتظر إدريس؟ أنت تقفُ عند بداية طرف الصحراء، لم تتجرأ حتى على خطوةٍ واحدة تَدْنيكَ من رتَاج الحلم.

- أنت الآن بين يدي، ماذا ترْغبْ أن أفعل بكَ؟ هه؟ أخبرني!

وضعَ يدهُ فوق شعرها وراحَ يعبثُ بأصابعٍ مُرتعِشة، كانت ترْمقهُ بابتسامةٍ ولا شيء يسْتُرُها سوى جزءٍ من عتْمةٍ بطرفِ ساقيها، كان صدرُها مُحتكًا بكتفيه وأنفاسُها يشعر بها تَلْثُم وجهه، كانت مُستلْقية بينهُ وبين ضوء شاحب خلَقَتهُ الشمعة القريبة من زاويةِ الفراش اليسرى. وفيما تسَلَّلتْ يدها نحو فخذهِ وراحتْ تصعد نحو حوْضِه، تجرأ ومدَّ يده نحو بطنها وأحتفظ بها.

- اختر بين الماء والنار؟

- ماذا؟

سَألها بنبرةٍ هامِسَة ودهشة من سؤالِها الذي لم يفهم مغزاهُ...

أخذتْ يده اليمنى ووضعتها على أحدِ التَلَينْ وقالت وما فتَأَتْ الابتسامة المشرقة بالبهجةِ تُظَّلل وجهها.

- هنا الماء...

ثم سحبتْ ذات اليد بتؤدةٍ ورقة وأوْصَلَتها تدريجيًا إلى حوْضِها ووضَعتهُ على الفَوْهَة وقالت بنغمةٍ مُرْهفَة وزفْرَة ساخِنة.

- هنا النار...

أخذتْ تُقَبل صدرهُ وتهْبطُ إلى بطنهِ وتهْمسُ له بكلماتٍ لم يفهمها، ظنَّ أنها تَهْذي حتى سمعها تقول...

- أبحر الآن.

فتحَ ذراعيه وبينمّا هَمَّ بالانقلابِ على جنْبهِ والصعود عليها خَدشَ طرف كتْفَها بظِفْرهِ ما جعلها تُطلقُ زَفرَة، ثم ربتت على ظهرهِ قائلة عندما شَعرتْ بحَرجِه.

- لا تهْتَم، تعال...

طوَقتهُ بيديها فوق ظهره، فتَحتْ فخذَيْها واعتَدلتْ في وضعِها وهي مُستَلقية أسفلهِ، مَدتْ يدها وراحتْ تحِكُّ عضوه السُفلي وتحركه في راحَة يدها، لم يكن منْتصِبًا، ظلَّتْ تداعِبهُ حتى بدأ يشْتدّ...

- هل أنت مُشْتاقٌ إلي؟

- نعم.

أجابَ بصوتٍ متَعثِّر

- أنا أيضًا إدريس، أشْعر بدفئِكَ... هل صدقتني أنني كنت أنتظر وقتي يحين حتى أقعَ في هواكَ؟ شِدنِي بقوّة.

كانت تتَعَمدُ الهَمس بصوتٍ ناعس وتتَنفَس في وجههِ بسخونةٍ، بدأ يتَحرش بها، واسْتَهلَّ حياؤهُ يتلاشى ويزُول تحَرُّجه وراحَ يشْتدُّ في الضغطِ عليها والاحْتكاكِ بها، شعرَ بسائلٍ لَج بدأ يتسَلَّل من عضْوهِ مما شَجعهُ على إيلاجْه فيها.

- آه...

زادتْ حمْيَّتهُ لدى سماع تنَهُدُها، شعرَ للمرّةِ الأولى في حياتهِ بغرابةٍ من نفسهِ، كان يبحثُ في عقلهِ طوال الوقت عن لغزِ الجسد، ومشاعر الحبَّ وأثَّر

ذلك في النفسِ والعقل... أدركَ وهو يغُوصُ في داخلِها وسماع زفيرها وتمازج مشاعره مع انفعالاته من الداخل، وكأنه بدأ يكْتشفُ أسرار الجسد ويُدرك جَوْهر اللّذّة التي طالما تخَيَلها في عقلهِ...

- هل أنت سعيد إدريس...

فجأة وفيمّا عقلهُ يطُوفُ به في نسيجِ الأفكار التي أخَذته وراء شعوره باللّذّة، صادَفتهُ بغتة ومضة اعْترضَتْ إحساسه بالسعادة التي أوْشكَ أن يبْلَغها حتى قفزَ فجأة وجهُ صبيٍ صغيرٍ، كالح الطَّلْعَة، تَذَّكرهُ عندما وقفَ على رأسهِ بينما كان صالح في قاعِ البحر... حاول طرْدهُ من أمامهِ والتركيز على طعم البهجة المُتقدة بشرايينِ ودماء جسده، حتى اتسَعتْ دائرة الرؤية فبدأ يُبصر الوجه الذي اعتادَ أن يقفز في وجههِ للصبي يبتسم له...

- ما بكَ إدريس؟

سألتهُ حين أدرَكتْ معاناتهُ وهو يحاول الاحْتفاظ بعضْوِه داخِلَها وقد بدأ يخُور، صارعَ جهده وتمكن من محوِ صورة الصبي، لكنه فَقدَ في النهاية جذْوة بَهجتهِ التي تَلاشْت ولم تَدم سوى ومضات ثم تبدَّدتْ.

بدأ يَعرقْ رغم شدّة البرد، شعرَ بجسدهِ يتهاوى من الداخلِ كبناءٍ أصَابهُ زلزالٌ فراحَ يتداعى... أخفَى وجههُ عنها فيمّا لا زال مُمدّدًا فوقها، كانت هادئة وقد ترَكتْ يدها ترْبتُ على ظهرهِ... انْزاحَ بعد لحظة واسْتلقى بجَنبِها ووجههُ في الفراش... أنفاسه مكْتُومَة... صَمْت... تلاهُ تنَهد ثم جاءهُ صوتها ناعسًا:

- لا تغْتَمّ... يحدثُ ذلك عادة بالمرّة الأولى... لقد أبْلَيْت وأنا سعيدة.

صمتٌ... إلا من أنفاسٍ تلْهثُ، كان صوتُ المطر قد خفَّ بالخارجِ، وبدأ يسري فيهما البرد بعد فترةٍ وهمّا عاريَّين في الفراش، نَهضتْ وهي تَلف جسدها في ملاءةٍ مُطرّزة، ألْقتْ عليه بطانية الفراش وقالت وهي ترتدي فستانها: سَأغتَسلُ بسرعةٍ ومن أسْفلٍ فقط..!

أضَافتْ وهي تخرجُ من الباب.

- كان يُفتَرضْ أن أضَعَ طَشتْ الماء هنا.

❁❁❁

انْتصَف الليل وهدأ المطر في الخارج، كانا مُمدَّدين في الفراش، وقد تغطيا ببطانيةٍ واحدة، وقد خَمدتْ النار في المنقلة، وظلَّ صوت سُوسَة الخشب ينْقُر كلمّا خيَّم الصمت، كانت تُحدثهُ عن رغبتِها في الخروجِ معه من الدار، إذا توَقفَ المطر والتجَوْل معه في السوق أو عند الساحل، لتُفَرج عن كرْبَتها بعد هذه العزلة الطويلة التي قضتها خلال الأيام التي ظلَّ فيها المطر يهْطلُ دون توقف... كان ذهنهُ مشتتًا في البحث عن سبَّب اخفاقه في مطارحتِها بعد كلّ ما خَزّنَهُ في جسدهِ من رغبةٍ مسعورة نحوها، لم يتذكَّر صالح، ولكن وجه ذلك الصبي وشعوره المُباغت بغموضِ ما يحدث داخل جسده من بهجةٍ أفْرزَتها اللّذّة الخاطِفة التي اجتاحتهُ كما لو كانت نجمةٌ انزَلقَت في السماء، وانتهتْ. لم ينظر لها ولو لمرَّة واحدة منذ أن هبَطَ من فوقِها، تركتهُ بهدوءٍ يستسلم لأفكارهِ التي أيْقنَتْ من أنها الآن تشْتعِل برأسهِ

وفي شتى الانحاء، تُدرك سر الرجال، ولطالمّا مرَّتْ بها مواقف كهذه مع صالح ومن قبلِه مع أولئك المسعورين الذين يهرعون بشَبقهِم في البدء وكأنهم وحوش ضارية، يريدون انهاء مهمتَّهُم بأسرعِ وقتٍ يملكونه ثم فجأة تَخْمدُ ريحَهُم وينكفئون على أنفسهم، رأتْ كثيرًا من الوجوهِ بعد أن تظلّ تُحدق بها وهي مُشْتعِلة بالشَهوَة، سرعان ما تتلاشَى وتغُوص في أيِ مكانٍ غير التحديق فيها... لا تَعرف بالضبط سرَّ ذلك الانطواء المُباغتْ، حتى أنها شكّتْ في نفسها رغم ما تبْذله من مشَقَّة في الاِنفعالِ والإثارة، وكادتْ تُرجَع الأمر إلى مشكلتِها مع خلَّلَها الجسدي الفطري الذي لا يَميلُ للرجالِ، لكنها، تعود وتتَذكَّر ما يحدثُ معهم في غالبية الأوقات... لم تتَكَهنْ بما جرى للتوِ مع إدريس وأرْجعتْ الانتِكاسَة معه إلى أنها المرّة الأولى له التي ينام فيها مع امرأة بحياتهِ كلّها.

- دع لي الأمر، سوف ترى فرقًا في وقتٍ آخر، لا تجعل من الليلةِ شيئًا يُذكّر، أخبرني فقط كي أُساعِدُكَ، بماذا كنت تُفكر بينمّا كنت تُطارِحني؟ قل لي الحقيقة حتى أعرف كيف نتلافَى ذلك بالمرّة التالية...

لم يرد في نفسِ الوقت، صَمتَ وظلَّ سارحًا فيمّا كانت تُمسكْ بأصابعهِ وتعبثُ بها.

- ألم أعْجبك؟ هل صُدِمت فيَّ ورأيت مني ما لم تتَوَقّع؟

التفتَ نحوها للمرّة الأولى بعد أن الْتقطَ أنفاسهِ واستعادَ السيطرة على عاطفتهِ المُضطرِمَة، وقال وبنبرةٍ مُتيَقّنة وبصوتٍ ملأهُ الشَجن.

- بل أذهلتيني...

- إذن دعكَ من التفكير وقُم بنا نتعشَى الوقت تجاوَز منتصف الليل وأنا حقًا أكادُ أموت من الجوع...

قنَصَتهُ وهو يَسْترقُ النظر لفخذِها العاري الذي ظهر من تحتِ الفستان وهي تجلسُ القُرفُصاء على الفراش سارَعتْ بصَرفِ نظرها عنه حتى لا تُوحي إليه بأنها اصْطادَتهُ وهو يخْتلِسُ النظر لها، ولم تُغيّر من وضعِها حتى لا تلْفتُ انْتِباهَهُ، واخْتارتْ لحظة كان خلالها ينظر لها بوَلهٍ فقالت بودٍ ونبرةٍ مُشَجِعة:

- بودِكَ أن تُجربَ ثانية؟ لن يضُركَ الأمر، لعلَّكَ كنت متَوَترًا بالمرَّةِ السابقة.

لم يرد عليها، بل تأمَّلَها بنظرةٍ ساخِنة، كانت لا تزال تُغْرِيهِ، بل تشْعِلهُ رغم اخفاقه، شعر بأنه أضاعَ فرصتهِ وخانَ رغبته المُستَعِرة وأخفَى ندَمهُ وألَمهُ ممّا حدث معه وراء ابتسامة شَعتْ من وجههِ إثر سؤالها له.

بادَرتهُ قبل أن يرد عليها، بالاقترابِ منه، والإمساك بيده ووَضْع فخْذَها بمحاذاةِ فخذهُ وهمسَتْ له...

- هل تُريد أن أُشْعلُ شمعة لتتَمكَن من رؤيتي في الضوء؟

- أنا أراكِ الآن بوضوح.

التَصَقتْ به أكثر وتسلَّلتْ يدها إلى عضوِه، وقرّبت وجهها بوجههِ وعَمَدتْ بالهَمسِ حتى تَصلْهُ أنفاسَها.

- أرى شوقًا ملتَهبًا في عينيكَ... منذ متى وأنتَ تشتاقُ إلي؟ صارحني إدريس أنت الآن زوجي وعلينا كَسرَ جدار التحفظ بيننا، كلمّا دنَوْنَا من بعضِنا تمكنَا من مُمارسَة حياتنا الجسدية بمتعةٍ ودون توَجُس، منذ فترة وأنا أعرفُ سرًا لن أبوحَ به وأترك لك أنت أن تُفْشيه.

ظلَّتْ تُداعب بخفةٍ ورِقَّة عضوهُ وتَهمسُ بكلماتٍ وعينيها لا تُفارق عينيه...

- ما هو السرّ؟

- أنتَ أخبرني... تعرف ماذا أعني، هل تَذكرُ زياراتُكَ لنا؟ لقد كنت أَلْمحُ في عينيكَ بريقًا غامضًا يبعثُ لي رسائل، لا معنى الآن لإخفاء مشاعِرُكَ... صارحني، منذ متى وأنت تشْتهيني؟

غادرَ فجأة ودون إرادة منهُ اللحظة التي تَجمَعهُ الآن معها وطارَ به عقلهُ بغتة إلى تلك الليالي الطويلة الساخِنة بالحديثِ مع صالح عنها، سرحَ دون أن ينْتبه لها، لتلك الليلة الشنيعة المليئة بالحرارةِ والرطوبة عندما غفا جميع البحارة على السفينة بمنتصف الليل وظلَّ ساهرًا حتى الفجر وهو ينْصتُ لصديقهِ الذي استْفاضَ ليلتها بالإسهابِ الساخن في تصوير مشاعر الوَله والشوق لجسدِها، كانت ليلةً لا تُنسى عندما كانت السماءُ صافيةً، مكْتظَّةً بالنجومِ، والبحر هادئ والموجُ يكادُ يتَجَمَّد مكانهُ لشدّةِ السكون، كانا ينْزفان من العرق، ولكنه هو بالذات قد أُدمَى بالحرِّ والعرق لقَسوةِ ما وصَفَ صالح له من تفاصيلِ عشقهِ للمرأة التي نسَى الآن أنها أمامَه. تذكَّرَ وصفهُ...

"يتَضوَّر جسدي مثلمّا يتَلَّوَى عقلي وينْزفُ قلبي لها... تركتُها هناك منذ شهر فقط ولا أتَخيَّل بعد كيف سأقضَي الشهور التالية من دونِها، لو تِعلَم إدريس ما حلَّ بيّ من سَقمٍ لفراقِها لعذرتني... رائحتُها، مشيتُها، تعريها وهي ترتدي أو تُبدِل ملابسها، نظرتُها لي وهي تستلقي على الفراشِ وتنظرُ للسقفِ وكأنها تبحثُ عن شيءٍ لا تملكُه، حينها أعرفُ أنها تُفكِّر بيّ وتودُ لو أتْحرَّش بها ولكنها لا تبوح بذلك، تنتظرُ مني أن أبادِرها... ما أن أقتربُ منها وأشتَمّ فيها رائحةً غامضةً، هي مزيجٌ من عرقٍ عندما لا تسْتحمّ بعد يوم شاق من العمل في المنزل، ورائحةُ عطر خليطٌ من الوردِ ودخان الشموع، حتى زيت القنديل عندما يَضْمحلُ وتصْدرُ عنهُ رائحة نتِنة نتِنة من فتيلَتهُ وهي بنهايتُها، يؤجِّج فيَّ ذلك الشَهوة التي أنتظِرُها منذ بداية اليوم حتى تتاح لي الفرصة لأنفرد بها... هذا ما يُصْلينِي الآن إدريس، مهما روَيْتُ لك من تفاصيلِ سعير الاشتياق لها لن أُوْفيّ الوَصفْ... لا تنظر لي هكذا ببرود... أنتَ لا تشعرُ بما أحسْه، لو كانت لك امرأةٌ مثلها وفارقتها وغِبتَ عنها هذه المدّة لقَطعتُ البحر كلهُ سِباحَة للعودّة إليها... لا أُغالي، ولا تنظر إليّ هكذا... مجرد شمّ رائحتُها وتَذكُّر عرق إبْطيها واضْطجاعها على طرفِ السَجادة أو وهي نائمةٌ وتتَنفس بحرارةٍ، لفَهَمتَ ما أعْنيهِ... أُريدُ العودّة اليوم لها، فكَيَفَ بيّ وأنا سأمْضي الشهور التالية بعيدًا عنها؟ أكادُ إدريس أذُوب وأنا..."

- إدريس أين غِبتَ عني...؟ يبدو أنكَ ما زلتَ في الغوص".

تَركتْ عضْوهُ الذي بدا ميتًا من دون إيماءة تُذْكر. وحَدقتْ بوجههِ المُضطَرم بالتورّد، بدا مُمتَقع اللون وقد جَفتْ شفتاه، وتَعقَدَ حاجِباه، وظهر مشدودًا لشيءٍ ما، تكَهَّنتْ بأنه يتعلق بأمرٍ له علاقة بالبحرِ والغوص ولم تشُكّ بشيءٍ آخر يتعلق بها، لأنها لمحتهُ وهو يبتعد عن المكان كلية.

- كأن شيئًا ما في الذاكِرة يُعذِبكَ إدريس، هل أنا مُحقة؟

نَهضتْ وتوَجهتْ نحو دولابها وأخْرجتْ منهُ شمعة جديدة، أشْعلَتها وحملتها معها وضوؤها يتأرجَحُ في يدِها، وضعتها بقربِ الفراش على صندوقٍ خشبي حوَى فوقه أيضًا شمعة مُنتَهية وجَرَّة ماء، احتَسَتْ منها جرْعَة وعادتْ للفراش الذي غيَّر إدريس مكانهُ فوقه وأتَخذَ من خلفيتِه مكانه الآخر وأسْندَ ظهرهُ على الجدّار... جلَستْ على طرفهِ وقالت بنبرةٍ مُشجِعة.

- حدثني عن علاقتُكَ بصالح؟ أم تُفضْل أن نتعشَى ثم أتَحرَّش بك ثانية؟ قد يكون لخلوِ بطنُكَ من الطعام وجوعك أثره في... تَعرف!؟ ربمّا بسبَّب الجوع لم تتمكن... أنت تحملُ البحر معك وما زلتَ فيه حتى أني أشعرُ بأنك لم تَهْبط من السفينة، كلّ ما فعلتهُ هذا الشهر هو أنك تذهب للمقهى والسوق والساحل وتتجوَّل بالأزقةِ لم يُغادرُكَ البحر... هل تستطيع أن تضع قدميك معي على اليابِسة ولتبدأ من الليلة...

تنَهَّدتْ وأمسَكتْ ثانية بيده واردفت:

- يدُكَ باردة كالثلج الذي يأتينا في الصيف، هل توَّد أن أشْعل الفحم من جديد؟

- الآن في هذا الطقس تَخرجين... لا

- لقد توَقفَ المطر...

التَفتَ نحوها وأمسكَ بيدها بدوهِ وقال.

- أنا خائفٌ جوري؟

دهَشتْ من عبارتهِ، اعْتدَلتْ في جلستِها وحَدقتْ فيه ولكنه أكْملَ وصوْتهُ يَمِيلُ إلى التَوَجّس:

- لا أفهم خوْفي وأشعرُ بتهديدٍ من الحياة، من كلِّ شيءٍ، أخشَى أن تتَركيني، أهابُ أن ينْضُبَ المال الذي معي ولا أملكُ عملاً أقوم به، أخاف العودَّة للغوصِ ثانية، أخاف من وجودِ ميتٍ دُفنَ هنا بصَحنِ الدار، حتى أننا لم نُعْلِم سكان الحي، ولا أحدٌ يعرفُ بأنَها رحَلتْ... أخاف...

- كفى إدريس.

انْزلَقتْ من فوق السرير ووقفتْ أمامه، كان الليلُ ساكنًا والهدوءُ يسود، والعِتمة تخفي كلّ شيء في الغرفة إلا من ضوءٍ ضئيلٍ من بقايا شمعةٍ تكادُ تذْبَل، تنهَّدتْ وحدَقتْ به وهي تحمل صينية الطعام وتضَعها على الفراش وتجلس على طرفه... حَدجَتهُ بسهمٍ بنظرةٍ حادة وقالت بنبرةٍ صارِمة.

- انْظر لهذه الصينية من الأكلِ الذي ظلَّ طوال الوقت بالأرض، هل تراهُ؟ لقد أمْضيْتُ حياتي كلَّها منذ وُلدتُ وحتى الساعة لا أخافُ من شيءٍ سوى أن افْتقدَ هذا الطعام... كلّ ما أخافنِي طوال عمري هو الجوع، لم أخْشَ حتى الله وفَعلتُ كلّ ما يُغضِبهُ ولكني خشَيتُ يومًا يأتي من دونِ طعام... وحدثَ

ذلك كثيرًا، قضيتُ أيامًا بلا كسرةِ خبز، كنت ألتهم بقايا ما كان يُرمى بزبالةِ بعض الجيران دون علمهُم، ولم أجدَّ من أتوَسَّله لكي ينقذني من الجوع، لا تَسأل ماذا فعلتْ؟ أسْألَنِي كم كان الخوفُ يأكُلَني حتى كِدتُ أتوَّفى من الخوفِ قبل أن أفْطسَ من الجوعِ... إدريس طالمّا أمامُكَ هذه الصينية من الأكل لا تخشَ من شيءٍ.

لْملَمتْ شعرها وعقَصَتهُ ووضَعتهُ خلفَ رأسها واسْتدركتْ:

- عندما كنا نجوع منذ طفولتنا والخوفُ يتَعقَبنا، التَصقَ بنا الخوفُ مع الجوع، حين تُحدثُني عن مدينة المحرق، سأقْرِنُ مدينة المحرق بالجوعِ، كان يُفترضُ أن تُسمى بمدينةِ الجياع، اما الذين يجِدون ما يأكلونهُ فيها فهم محظوظون، وأما أمثالُنا فقد خُلِقوا ليخافوا من الموتِ جوعًا... كانت تمُرُّ أيامٌ طويلةٌ بالشتاءِ، تغرقُ فيها المدينة بالمطر ونُحْبَسُ بالأسابيعِ، لا نخرجُ إلا إذا غَرقَت بيوتنا بالمياه، لا نجدُ الطعام ونكْتفي بالصومِ، وتخَيَّل يَهِلُّ علينا شهرُ رمضان ويُطالِبُنا الله بالصومِ شهرًا... ههههه... كنا قبْلَها صيامًا ولا حاجة بنا لأمرٍ إلهي لكي نصوم... هذه المدينة تكادُ تصوم طوال السنة، صيفٌ وشتاءٌ وخريف، لا نجدُ ما يسدُّ رمقُنا سوى بقايا تكفينا لكي نتجاوْز الموت... هل ما زِلتَ إدريس حتى الآن خائفٌ؟ لا تخفْ إلا من الجوع.

هبَطَ من فوق الفراش، جلسَ على السجادةِ وأسْندَ ظهرهُ على الحائط، شعرَ ببرودةِ الجدّار، فأبعد ظهره، حَملتْ الصينية ووضَعتها أمامهُ وجاءتْ

بالشمعةِ المُشْتعلِة التي أوْقدَتها للتوِ وحطتها بقربهِ وجلَستْ إلى جانبهِ وقالت:

- تعشَ وسيزول خوْفُك.

بعد أن تناولا الطعام، أخرَجتْ صينية وطبق العشاء ووضعتهُما خارج الحجرة وعادتْ تحملُ إناءً معدنيًا به الماء وخرْقة قماش وضعتها أمامهُ ليغتَسل ويُجفِّفَ يديه، ثم خرَجتْ ثانية وغابَتْ لفترةٍ وعادتْ ومعها رَزمَة فحم وضعتها في المَنقلَة وسَكبتْ فوقه الكيروسين ثم أشْعلتْ النار، فوق ما تبقّى من جمرٍ لم يتَحوَّل لرمادٍ بعد ليشْتَعل الفحم من جديد، وتخْتنقُ الغرفة برائحةِ الدخان الذي تصاعد وأحدث سَحابة لوهلَةٍ وجيزة ثم تلاشَى وظلَّت رائحةُ الفحم المُحترق تطْبع المكان.

- سنَدفَأ لننام حتى اليوم التالي، فقد بذَلنا منذ الأمس طاقتنا كلَّها بالدَفنِ والتنظيف، كان يومً طويلاً للغايةِ.

عندما صعدا الفِراش، وإثر محاولة ثانية مسْتمِيتَة بذَلَتْها معهُ جوري لتُعيدهُ لوَهجِ الشَبقْ الذي كان عليه، أخْفقَ مرّة أخرى وتَغطى بالبطانية، ليُخْفي وجههُ عنها، ترَكَها سارِحةً ترْنُو لسَقفِ الحجرة بذهُولٍ كمّا لو كانت تُحدقُ بسماءٍ تكْسُوها آلاف النجوم.

۞۞۞

# 41

المكان-منزل جوري-الوقت-نهار مبكر-الحالة-عناقيد الهذيان

هدوءُ الليل في هَزيعه الأخير، كَسرَهُ صوتُ هذيَان إدريس الذي منذ أن غَطَّ في نومٍ عميقٍ بعد وجبة العشاء المُتأخِرة وإثر اخْفاقه في مسْعاهِ الثاني بمُطارِحةِ زوجتهِ الجسد، ظلَّ يُهلْوس من حينٍ لآخر، راحَ يتَقلَب في الفراش، يقْفزُ فيه ثم يغوص ثانية، يتنفس ويَطلقُ أصواتًا غريبة، تتَراوح بين البحرِ والغوص، وتَخَلَّلَها طوال الوقت صوتُ صالح. لم تَعْر له جوري انْتباهًا في البدءِ، كانت مُستلقِية لفترةٍ، ثم جلَستْ على طَرفِ الفراش وعينيها جاحظتَين من حدّةِ التعب والسُهاد، طلَعتْ لفترةٍ من الغرفة، ووَقفَتْ عند الباب تتأمَّل الفِناء وتَرقَب رذاذ المطر الذي عاوَدَ النزول بضآلةٍ، لم تُدرك الوقت إن كان فجرًا أم بداية نهار باكر، فقد سَادَ الظلام وتخلّلتهُ العتمة بالأفق.

وقفتْ وقد تدَثَّرتْ ببطانية ونظرتْ نحو البعيد وكأنها تبحثُ في أفقِ السماء عن إجاباتٍ لأسئلةٍ تحُومُ في رأسِها، لم تستطع النوم ولا الجلوس، لا يُمكِنها الوقوف طوال الوقت ولا الاستمرار في التفكير، بدتْ مُحاصَرَةً من كلِّ الجهاتِ حوْلها، زوجُ رحل، وآخر نائمٌ يهذي، حماةٌ ميتة دُفِنتْ في صحنِ

الدار، سنين طويلة خَلّفَتها وراءها دونِ أن تصل إلى مرفأ تلْتقطُ فيه أنفاسها، خَدمَتْ في المنازلِ منذ طفولتِها، اْنضَوَتْ سنوات في بيتٍ للدعارة، عادتْ وبحثتْ عن حياةٍ أخرى مُسْتَقرَة نظيفة، وجَدتْ الفَقْر والجوع يُطوِّقانها... قَبِلَتْ بكلِّ شيءٍ وتَحَملّتْ كلّ شيء وانتهى بها الأمر واقفةً بنهايةِ الليل تتأمَّلُ الفضاء الواسع، مُخَلِفةً وراءها زوجٌ حاول مُعاشرتها بأولِ ليلة له وأخَفقَ، لا تعرفْ السبَّب، إن كانت هي الباعث أم عِلَّة فيه... ماذا يمكن أن يحدث أكثر من ذلك؟

- سَأُتابع العيش ولا مَفرٌ من ذلك، سأرى ما يجري، وإلى أين تيسر بيّ الحياة، لقد جئتُها بلا إرادة مني وعَلىّ تَقبل ما تَمِنُ به.

قالت ذلك ووجهُها تصْفقهُ نسماتٌ باردة يحملُها تيار بارد يتسلَّل من بين رذاذ المطر، وصوت بعض عصافير بدأتْ تصْحُو وتُزقْزق، دون أن تُسْمَع أصواتُ الدَّيَكة التي عادّة ما تُؤذنُ بانْبلاجْ الفجر. أيْقَنتْ أن الوقت ما زال ليلًا وأن هذه الطيور الصغيرة التي تُزقزق، ليست سوى عصافير نهاية الليل عندما تحتمي من المطر بالتَسلَّل لفتحاتٍ وثقوبِ المنازل وداخل كِتَل سَّعفُ النخيل، ربمّا تعاني مثْلُها من حيرةٍ بهذا الوقت الضائع، بين ليلٍ أو نهار!

- إذا كانت العصافير تُهلْوسُ بهذا الوقت، فما بالك بالذي خَلَفْتُه ورائي بالغرفةِ يهذي، ترى ماذا يدورُ في رأسهِ ويحْشرهُ بكلِّ هذا الهذيان؟!

قالت ذلك مُتسائِلة، وظلَّتْ هكذا لفترةٍ وجيزة، وفيمّا هي تهمُ بالاِنْكفاءِ إلى الداخل، لمَحتْ حيةً مُرَقَّطة باللونِ الرمادي، تتَسلَّل خارجةٌ من حجيرةِ

رقية المُتوَفاة والتي دُفِنتْ بالأمسِ، تلفَتَّت حوْلها بفزعٍ في البدءِ لدى تفاجئُها بها، ثم راحتْ تبحثُ حوْلها عن أداةٍ لضربِها ولم تلفحْ إلا بقطعةِ حجر قرب عتبة الباب، لاحقَتها محاوِلَة أصابتُها بيدها ولكنها تمَكنتْ من الإفلاتِ والتسلَّل لنفسِ المكان الذي تسَرَّبتْ منه. أخذتْ وقتًا تتنفس وتُفَكر لوَهلَةٍ، بدتْ قلِقة من وجودِ حيةٍ بالمنزل، سبقَ وقبل سنتين أو ثلاث أن صادَفتْ واحدةً مشابِهة ويوْمها تمكنتْ من صرعِها بحربةِ صيد السرطانات المرْكونَة بالفِناء.

- لن تمر هذه الليلة على خير، هذا فأل سيء وعلامةُ نحْس...

انْكفأتْ إلى الداخل وتغاضَتْ عن الحية على مضَضٍ، أحْكَمتْ إغلاق مزلاج باب الحجرة، وتمَدَّدتْ على الفراشِ، كان إدريس هذه المرّة في ذُرْوةِ حلم كما بدا، ثم تلاهُ ثرْثرة أشبهُ بلغْوٍ مع أشخاص آخرين...

"أنا... لا لستُ نادمًا، لقد رَزَقني الله... صالح... صالح... لا تزْعل مني؟ أنا لم أنتَهك الصداقة بيننا... صالح صالح... الله أرادَ... أنت وعدتني بامرأةٍ وتَحقَّق وعدُكَ... أنا حفظت العهد وتزوَجتُها... صالح أنا... الحَبل... الحَبل... الله أراد... الحَبل هو السبَّب، أنا لم أغدر بكَ... الله أراد صالح... أنت السبَّب... أنت أعطيتني الدانة وجعلها الله من نصيبي... الجوْهرة... الجوْهرة بجيبي... صارتْ ملكي... صالح أنا لم أغدر بك... أنت غدَرتَ بنفْسك... لماذا أعطيتني الدانة لأحفظها... سامحني... لم أستطع أن أضُاجعَ زوجتُك... لقد حرَمَني المطر منها...

حفرنَا القبر لرقيةِ... رقيةَ في ذِمَةَ الله صالح، سامحني... أنا مدان... الله سيغفر لي وأنت سامحني... أنت السبَّب... لماذا سلَمْتَني الجوْهرة... البحر... القاع... الموت... صالح... صالح... صالح... "!!

تَجمَّدَ الدمِ في عروقِها وخفقَ قلبها، نهَضتْ من فوقِ الفراش وراحتْ تقطعُ الغرفة بخطواتِها، وتلفَّ حوْل نفسها وهي بغايةِ الفزع... كان الخوفُ ولون الموت يطْبعُ بشرتها في وهْجِ ضوء الشمعة... ظلَّت تُلاحق ظلَّها الذي أضحى يلاحقُها طوال الوقت فيمّا الزوج، يخْرسُ حينًا ويعاودُ الهذيان حينًا آخر.

- هل ما سَمَعتهُ للتوِ حقيقة؟

تساءلتْ بصوتٍ عال، وراحتْ تقطعُ أرْكانُ الحجرة وأنفاسُها تتصاعَد، حائرة لا تدرك كيف تسْتقر أو تتَصرَّف.

- يا الله... ماذا جرى في رحلَةِ الغوص المُرَوِّعَة هذه؟ بماذا يتَلفَّظ هذا الرجل الذي اقْتحَم عليّ الدار وانْتزَعني من زوجي... بل خطفني من الحياة...؟ كيف أنظرُ إلى وجههِ عندما يصحو؟ يا الله، ماذا أفعل دَبرّنِي؟ السُحبُ حزينةٌ من يومِها... الحجارة تبكي أراها بأحلامي ولم أفهم مغزاها... البحرُ... البحارُ كلَّها غاضبةٌ... أنا زانية... أنا أسْتحقُ الموت... لماذا وُلدتُ؟ الله أنت من اخْترْتَ لي هذه الحياة فخلصني منها... يا...

وقفَتْ جامِّدة كقطعةِ حجارة لا تتَّحَرك أبعد من أنْمِلَة، ضاقَتْ بها الحجرة، واخْتنَقتْ بعَبَراتٍ مكتُومَة، شَدَّتْ شعرها فجأة بحدَّةٍ ثم ارْخَتهُ وحَدقتْ بالنائمِ الذي ظلَّت أنفاسهُ تلْهثُ كأنه يجري في بحرِ صحراءَ لا متناهية.

هل أخْنقَه وهو نائم؟ لقد قَتلَ زوجي...!

خَرجَتْ الشمسُ، أو تحرَّرتْ بعضُ من أشعتِها المحْبوسَة، اصْطبغَت الجدّران بلونٍ برتقالي يَميلُ للحُمْرة، وسرعان ما عادتْ العِتمَة أشدُّ، أفاقتْ طيور الحمام النادِبة، وحَلّقَت فوق الأسقف وحواف النوافذ واخْتلطَت بعصافيرِ النهار المخْتفِية منذ فترة فرارًا من المطر، استيقظتْ وراحتْ تُزقْزقُ بضوْضاءِ غير معهودَة لكثرتِها وغبطتِها بانفراج الطقس رغم معاودَة العِتمَة التي تُخيّم على الأفق.

- يا نهاري المعجُون بالمرارَة والألم، لم يكفِكَ الفقر والجوع التشرد، والضياع، فتشرقُ عَليّ بهذا اليوم الفجائي... أي نهارٌ لم يكن إلا كغيْرهِ منذ أشْرَفْتُ على الحياة، اذْكُر اليوم بل الساعةِ والدقيقة التي أُغْتُصِبتُ فيها لأولِ مرّة وأنا بعمرِ الحادية عشرة، ولم أبحْ من يومِها لكائنٍ غير ذاتي بزلزالِ هذه الساعة المُروِعة التي حَبَستُ تفاصيلها في نفسي، منذ ذلك اليوم، حين خَرجتُ من بين قبضةِ ذاك الوحش البشري الذي اِدعَى في بدءِ التحاقي بالعمل في خدمة زوجته بالعَطفْ، وهو يُوْحي لي بأنهُ يُعاملني مثل أبي،

يُنقِطُني خفية ببعض المال، ويَسرقُ لي بعض الطعام، ويُوهِمُني بأنه يسرقه من مطبخ الدار أو مخزن المؤن حتى يُثبتُ لي عطفه وحنانه، وحين اسْتَتب له الأمر ووَثقتُ به وسايرته في بعض خفاياه السرية، اسْتفْردَ بيّ في ليلةِ صيف شديدة الوَطأة لم نشهد مثلها منذ حينها، أغلقَ عَليّ باب كوخ الدجاج بينمّا كانت زوجته تَلد ابنهُما السابع، وحشرني في تلك الأمسية المسْعُورة الحرارة، وتركني بعدها وسط الطين والعرق، ثم عادَ بعدها ووضعَ في يدي مبلغًا زهيدًا وطالبني بالرحيل فورًا، لا أعرفُ ماذا قال لزوجتهِ عني بعد أن انتهت من ولادتها، وأي تُهمة لفّقَها لي لطردي، لكني عدتُ لبيتِ جدي أنزفُ ولا أعرف ماذا أُفسر له سوى أنني اِدَعيتُ بأن الدورة الشهرية قد باغتتني، من يومِها لم أصَرح لأحدٍ بهذه الواقعة سوى الآن، لقد تذكَّرتُها بعد كل ما سمعته من الرجل الغافي هناك بهدوءٍ وراحة بال ووَخزَ الضمير... هذه حياتكِ جوري... فَقرٌ وذلٌّ وأموات، وقبلها لا أب ولا أم ولا أسْرة، كنتِ تحلمين بتكوينِ أسرة وهذه هي الثَمرَة من مدينةِ المحرق العاقّة...

كانت تُحدثُ نفسها ف حيرةٍ وغصَّه، هائِمة بمتاهةٍ كما لو كانت عاشقةً للشقاءِ، تائهةً في مدينةٍ واسعة بحجمِ الكون كله لا ترى منها سوى أزِقّةٍ ضيقةٍ، لا تبارحها وخرائبٍ، أكواخٍ من صفائِحِ المعدن، وعرائش خشبية، أُنْشِئتْ من بقايا أخشاب السفن المُهترِئة التي أُلقيتْ خارج البحر، لتستقر بالسواحلِ المُكتظَّة بالحطامِ، لتكون موْردًا لأهالي الأحياءِ الفقيرة العشوائية

التي تُبنَى دون سَندٍ أو ملكية وتظلّ تحت رحمة الاِجتثاث بأي لحظة تُقرّرُ فيها البلدية مسح الرقعة من فوق الأرض.

خَرجَتْ من الحجرةِ وترَكتْهُ يغُطُّ في هَجعةٍ مُميتة من شدّة التعب والأحلام والهَلوَسات التي هيْمنتْ عليه، لم تًحتَمل البقاء وتأمّلهُ دون أن تستطيع تفْريج كرْبتُها التي طَغتْ عليها... راحتْ تجُول في الفِناء وهي ترتدي ثوْبها الليلي الذي لم تُبَدِّلهُ، وأرْدفَت فوقه لحاف الفراش، الذي تَدثَّرتْ به. سارتْ بأرجاءِ المكان ساهِمةً، مُتشَكِّكةً، غير قادرة على التصَرف للمرّةِ الأولى بحياتِها تواجه مثل هذه الحَيْرة، كان وجهُها شاحبًا وعيناها زائغتان وآثار السُهاد طبعتْ أخاديد بنواحي وجهها الذي توَرَّم، وطَلَى اللون الأسود أسفل جفنيها، بدت شديدة النحافة، أقرب للضُمُور، وتَعثَّرتْ خطواتها وهي تقطع المكان بالدورانِ حوله، توَقفتْ عند شجرة القَرَنفُل التي تآكّلتْ أوراقُها لشدّةِ البرد، وراحتْ تعبثُ بقدمِها اليسرى في ترابِ المنزل، تلَطخَتْ نَعلُها بوحلِ المطر، فراحتْ تَنفُضها لتُزيل عنها الوْحل.

- لم يبقَ في الدارِ سواي أنا وهو... رَحلَ صالح وتَبعَتُه رقية، والبيتُ بلا راعٍ، لم يعد له صاحب فقد تَركَتهُ العجوز وليست لي رغبةٌ فيه، كلّ ما أسْعى إليه هو الفِكاكُ من هذا الشعور الطاغي بالذنبِ والفزع والرغبة في تركِ الأمور كما هي... ما الذي أستطيع أن أفعلهُ؟ أنْتَقم لمن ومِنْ مَن؟ أنا نفسي أُريد الاِنتقام منها، والله يُريد الانتقام مني والكَوْن قد اكْتفَى بالانتقام مني، إلى ماذا أسعى؟

تَسلَّلتْ الشمسُ من بين الغيوم، ثم انْكَفأتْ وعادتْ لتخْتفي وأظْلَم الأفق، تَطلَّعتْ حوْلها، وتوَجَهتْ نحو جُحْر العجوز رقية، فتَحتْ الباب ودَلفَتْ دون حذر، راحتْ تتَطلَّع للحجيرة التي فاحتْ منها رائِحة الطِيب الذي طَيَّبتْ به جُثمان الراحِلَة، كانت المحتويات تتراوح بين الخِرق القديمة وصندوقين خشبيين، جِزَم قديمة بعضها رجالية، تعود لصالح يبدو أن العجوز جمعتها... أطباقٌ معدنية، حِبال... سكاكين قديمة ومفاتيح... بعض أدوات الغوص، لم تفهم مغزى وجودها في المكان... وبقايا أشياء مُتراكِمة لا يربط بينها رابط. كان الظلامُ يَسُود جزءًا من المكان فيمّا تَرَكَ ضوءُ الخارج المُتسلّل من البابِ الذي تَركَتهُ مشرعًا يُضيء الجزء الأمامي من الحُجيرة. جَلستْ على ركبتيها، وتمْكنتْ بعد جهدٍ من فتحِ الصندوقين وراحتْ تنْبشُ فيهما، كانت هناك بعض الملابس التي لم يسْبق أن رأتها على الراحِلَة، وما أثار دهشتها أنها احْتفَظتْ بعددٍ من ملابس صالح التي لم تفهم لماذا اسْتبَقَتها معها كلّ هذه المدّة وقبل أن تغلق أحد الصندوقين لَفَتَ انتباهها صندوق معدني صغير بجوْفِ الصندوق الكبير، كان مطليًا بالألوان الزاهية وعلى غطائهِ صورة راقصة هندية قديمة، دفَعها فضولها لنزعِ الغطاء بصعوبة لتَصدعه من شدّة الصدأ بحوافّهِ المُتشَقِّقة، حين سقط غطاؤه برَزتْ لها رِزَمٌ مشدّودةٌ ببعضِها من أوراقٍ مالية، صُفَّتْ ورُصَّتْ بعنايةٍ فائقة، كانت أكثر من سبعِ أو تسعِ باقاتٍ من الروبيات، من فئة الخمس والعشر والعشرين...

- كلّ هذا المال كان معكِ رقية وكنا نموت من الجوع؟!

لم تفقْ من الصَدمَةِ إلا حين سَمِعتْ صوت حركة بطَرفٍ مُعْتم من المكانِ، تَكهَّنتْ أن يكونَ صوت الحيَّة التي شاهدتها من قبل تعود وتتَسلَّل إلى ذات المكان بعد أن طاردتها في الفِناء... ظلَّتْ جامِدَة مكانها وبيدها رِزَم الأوراق النقدية وهي في ذُرْوة الحيرة ممّا تَفعَلُ بها... الْقَتها في الصندوق الصغير مكانها ووضَعَتها بالصندوقِ الخشبي الكبير، ثم أغَلقَتهُ ودفَعتهُ مكانه بقربِ الخِرق القديمة في العتْمَة، خَرجتْ وأغْلقتْ الباب.

- يبدو أني الوحيدةُ في هذا العالم الذي خُدِعْتُ فيه وحدي منذ موْلدي حتى الساعة. خَرجتْ للفِناء، تأمَّلتْ المنزل من كلِّ جوانبهِ، وحَدقتْ بكلِّ تفاصيله، كان الوقت ما زالَ مبكرًا ومع تصاعد صوت العصافير، وصوت هديل ورَفرَفتْ الحمام، وصياح أحد الدِّيَكة، انْبعثَ صوتُ نباح أحد الكلاب الضالّة في الخارجِ... دلَفَت غرفتها التي كان ينامُ فيها إدريس، ألْقتْ عليه نظرةٌ خاطِفَة وقد عاودَ ثانية الهلْوَسة. تناولتْ عباءتَها السوداء، خرجتْ للفِناء، ارْتدَتها وتوَجهتْ للبابِ الخارجي، وفجأة، نزَعتْ المزلاج، خَرجتْ، وترَكتْ باب المنزل مُشرَعاً على مصراعيهِ.

# 42

المكان-مدينة المحرق-منزل مهجور-الوقت نهارًا-الحالة-عناقيد الهرب

صالح وجوري، وسماءُ مدينة المحرق الرمادية، بَرَقتْ تلك العلاقة في دهاليزِ وأزِقَّة وطرقات المدينة بناحيةِ الساحلِ الجنوبي، المُمتَدّ من سوقِ المحرق بتَشعباتهِ المُتداخِلة بعضها بعضًا، من سوقِ السّمك الذي يبدأ بمحاذاةِ البحر، وتُدْركُه قبل أن تصلَ إليه من روائِحهِ الشَرِسَة التي تُخلِّفُها مُختلَف أنواع الأسماك، التي اشْتُهِر بعضها برائحتهِ النتِنة حتى وهي طَريَة خارجة من البحرِ للتوِ، وتطلُّ واجهته على الساحلِ وقربَ مرسَى السُفن المُتَهاوي والمَبني من حجارةٍ بحريةٍ تُسيِّجُ محيطهُ، وبعض الأخشاب الجانبية التي تلْتصقُ بأطرافِها سُفن الصيد عندما يصبح البحر في حالةِ مَدٍ، أما سُفن الغوص فهي بالجِهة الشمالية من الساحل وبمرسَى آخر. ثم يليه سوق اللحم الذي تُعلّقْ به الذبائح بشتى أحجامها، ومقابِلهُ مباشَرةً المسلخ الذي تفُوحُ منهُ روائح الدماء ونفايات البهائم التي تُجْمع في زاويةٍ مُكَّرسَة لها بين المسلخ والسوق لتُباع وحدها بأسعارٍ مُخفَّضَة... يلي ذلك سوقُ الخُضار والفواكه الذي لا يخلُو من حركةِ البيع منذ الصباح وحتى المساء، نقيض سوقا السّمك واللحم اللذان يخضعان لمعدلِ استهلاك السكان، ولحالَةِ الطقس لصيدِ السّمك.

ما علاقة جوري وصالح، بسوقِ السّمك، بالذات؟ وأي صِلَة بين الإثنين وبين هذه المنطقة المحْصُورة من طرفِ المدينة الفقيرة، بالطرفِ الذي تقع فيه السواحل والأسواق ومراسي السُفن وأكواخ البحارة؟ ومن جهةِ الشمال يقعُ مبني البلدية والشرطة، ثم فوق المُنحَدر هناك أسواق الملابس والحلوى والأواني، والعطارين، تليها محلاتٌ صغيرة لبيعِ الخُردوات والتُرهات التي لا معنى لها كمُخلفات الأدوات المُنتَهية الصلاحية، وتَمتَدُّ هذه المحلات بمُختلفِ محتوياتها، من مُهِمَّة وتافِهَة حتى موقع مبنى صحي صغير لفَحصِ المرضى والمُصابيين بالأوْبئة.

منذ وُلِدا، جوري وصالح، بمكانينِ مختلفينِ من أحياءِ حالَة بو ماهر بالجنوبِ من المدينة، وصِلتهُما بالأسواقِ والطرقاتِ والمنْعطفاتِ، مثل الصِلَة العضوية بينهما وبين هذه الأماكن، كان صالح متَسكعًا بالفِطرَة، وغرِيزَتُهُ التي فُطِرَ عليها هي التجَول منذ الطفولة وحتى شَبَّ وهو يتنفَسُ هواء هذه الأمْكِنَة التي ربطَتهُ معها بوحدةٍ قَرَنَّتهُ بها لأنَها أوْحتْ له بشعورٍ من الانتماءِ وبذاتِ الوقتِ إحساسٌ بالغُبنْ، فقد كان يرى حولها كلّ ما تَزْخَر بها هذه الأسواقُ والمقاهي والمحلات، وتَسْرق بريقهُ منه وهو يتأمَّلَها ويُحدقُ بها ويتمناها، ولكنه يكتفي بمتعَةِ مشاهدتها وتسلية نفسه بتَخيُّلِ أن تستَجيبَ له الحياة يومًا وتُسْعِفهُ على تحقيقِ تطلُّعهِ لهذه الأمكنة وما تحويه وتقدمه. لم يبلغ حدّة الحُنق عليها إلا حين وعى وبلغَ السابعة عشرة ورأى الحاجزَ

السميك بينه وبين هذه الأشياء، فأخذ يجُول ويتسَكع ويُبَحلقُ في كلِّ ما يُصادفَه ويَكْتّمُ غيظه ويَعتَبر المدينة التي أحبَّها في طفولتهِ قد خانتهُ.

أما جوري فحكايتُها لا تخْتلفُ عن قصتهِ مع المدينة الرمادية، من حيث الحِرمان والفاقَة، والضياع وانعدام شجرة لعائلةٍ تنتمي إليها، كما هو حالَه وحال إدريس أيضاً الذي تَركَتهُ نائمًا في الدار، وفَرَّتْ من المكان لا تلْوِي على شيءٍ سوى وقف الأصوات في رأسِها أو على الأقل إسْكاتِ الهواجِس التي راحتْ تنْهَشُ عقلِها الذي لم تستطع السيطرة عليه، فَفَلتَ من عقالَه وراحَ يقودها لمتاهاتٍ لا تَعرفُ حتى الساعة إلى أين تقودها؟ كان كلُّ منهما إذا ما ضاقَ صدرهُ واخْتنَقَ بالعِبرات ولا مَفَرٍّ من التنفيس، يجْلُو إلى أجواءِ المدينة، ومن طرفِها الجنوبي المُدقِع فقط، فلَم يعرِفا طرقًا ومساراتٍ في بقية أجزاء المحرق، إلا نادرًا ما كانا يعودان منها وقد اجتاحَهُما الشَجَن لرؤيةِ الفرق بين الشمالِ الجنوب رغم صغر حجم المدينة وضِيقِ مساحتها وتداخل أحيائها إلا أنها ظلّتْ في قسمِها الجنوبي بؤرَة للفقر والذلّ. كيف كانت هذه المدينة بظلْمِها كما كنا يرانها، تُبْهِجهُما وتُشْقيهُما؟ أي مغزى توحي به مع هذه التناقضات التي لا تتَلاءَم مع غريزة البشر؟

عندما كانت جوري بالأيامِ المُضْنية تبحثُ عن لقمةِ العيش، قبل أيام من معرفتها بصالح، كانت تتَسَكعُ في سوقِ السّمك بالذات، وتَمرُّ بعشراتِ الباعةِ السماكين، تُفتِشُ عن أرخصِ أنواعُ السّمك المتَوَفِّر والذي يُمكِنُها شراؤهُ، وحين رأت عيون الرجال، المُتحَرشين، المُتصيدين لأمثالِها، بدأتْ

تَستَغل ذلك وتَعمَد إلى الوقوفِ بجَنبِهم وهي تُساوِم على سعرِ السّمك إلى أن يتَبَّرع أحدهم ويأمر بدفعِ المبلغ متوخيًا أن ينالَ منها شيء، وكانت في غالبِ الأوقات تَكتَفي بابتسامةٍ وإيماءة غَنجْ، تقنعُ الواحد منهم بأنه على عتبَة أن ينالَها بمناسبَة أخرى، وعندما اعْتادَتْ تلك العادَة واسْتغَلتها لم يَدرْ بخلدِها أن هناك من يتَربصُون بها ولا يَفوتهُم أنها أوْحتْ لهم بشيءٍ أو على الأقل دفعوا قيمَة ما اشْتَرَتهُ، فيتعقبونها إلى أحدِ الازِقَّة الضيقَة يُحيطُونها بأيديهِم، وبعضهم يحاولُ جَرَّها عِنوَة لخرابةٍ أو بيتٍ مهجور لاغتصابِها، وهناك من حاوَل وتجرأ احدى المرات على اقتِحام المنزل الذي كانت تَخْدِم فيه لمجردِ أنه اشترى لها قطعة ثياب حين رآها تتأمَّلَها وتُحدقُ بها عند أحد المحلات، ثم تَبعَها، وحين تصدى لهُ ابن صاحب الدار وهو شابٌ مفتول العضلات بعمرِ التاسعة عشر، أقل أو أكثر، عاوَدَ بدورهِ هو الآخر بعد يومين من الواقِعة إلى محاولةِ الإعتداءِ عليها بنَفسهِ عندما اخْتلتْ بنفْسِها في حمامِ الدار الخارجي المُخْصَّص لأمثالِها من الخدَم.

حتى صالح ذاته، بعد تجاوب علاقتَها به، ظلّ يتْبعَها ويتَصيَّدها ولكن دون أن يتَعرضْ لها بأذى وهذا ما جعلها تسْتكين إليه، إلا بإحدى المراتْ حين رآها جالِسَة في الطريق تلْتقِطُ من الأرضِ حباتِ البرتقال التي انْفرطتْ من كيسٍ بيدها وهي بطريقِها لمنزلِ مخدومها، قَعدَ معها يَلتقطُ حبات البرتقال ويُبحْلقُ بشَغفْ في ساقيها اللذان تعريا حتى اصْطادَتهُ وهو يسْترقُ

النظر، وكانت أولُ مرّة يجْرؤ فيها ويَمسِكَ بيدهِ ساقها اليُسرى ويقول بنغمَةٍ واثقة ومُراوغَة.

- يومًا ما سيكون هذا من نصيبي...

ابتَسمتْ له حينها وترَكتهُ مع حبَة برتقالة له.

كانت تَظنُّ عندما ارتاحَتْ له وظلاّ يلتقيانِ سرًا ويمنَحُها من وقتٍ لآخر شيئًا يُذْكَر، ويتسِكعانِ في الليلِ بالأماكنِ المُعْتمَة ويضعَ في يدِها بضعِ روبيات، ظنَّت وقتَها بأنه ميْسور الحال مَثَّلَ لها بارِقَة ضوء في عتْمةِ ليلها الطويل الحالك، لم تكن من أولئك الذين يهتمون بالتفاصيل، فلَم تسأل عنهُ ولم تُفَتشُ في خلفيتهِ، لم تتَعقَّب حياته ومعيشته وحتى لم تسْألَه عن عملهِ ودخله، بمجردِ أن عَرضَ عليها الزواج، أدْركَت أن محنةَ السنين وضَنكْ العمر كلهُ قد مُحِيّ من حياتها، حتى حانتْ ساعة الحقيقة لتقَعَ في فخِ رقية العمياء والدته وفقرهِ وبؤسه، وأمام حبّهُ لها وعشقه الجنوني مع عطفه ووَلَهه، لم تجد مفرًا من الرضوخِ لقدرِها معه على أن أمل الآتي من الأيام سيُغيّر الحال، سيَّما حينمّا راحَ يَمطرُها بالوعودِ والأحلام والارْتحال إلى الغوصِ ونيتهِ صَيد دانات من اللؤلؤ الذي سيُعلِقهُ على صدرِها... مضَى ذلك الحلم وتركها الآن تسير بطرقاتٍ وأزِقَّةِ المدينة لا تلْوِي على شيءٍ سوى الهروب من جاثومِ إدريس، الذي خلفَتهُ بدوْرهِ وراءها بعد أن افْصحَ عمّا فعلهُ بزوجِها صالح من أجلِ أن ينالَها منه...

- يا لها من دنيا الله... أين أذهب الآن والوقتُ ما فتئ صُبحًا؟ والسماء توْشَك أن تعاودُ هطول المطر، والطُرق خالية، كأن الناس قد هجروا المدينة، لقد سُدَّتْ الأبواب بوجهي، لا أُصدقُ بعد الآن أن ثمة فَرَجًا ولو مرَة بالحياة، أين هو؟

قرَّرتْ التوجه لمنزلِ جدَ نرجس لعلَّها هناك وهذا نادرًا ما يحدث، فالأخرى بدورها تُكابدُ من الأبوابِ المسْدُّودة، وبيت دلال لم يعد ملاذًا فلا يُمكِنُها أن تأكل وتنام دون أن تستقبلَ الرجال، ضاقتْ ذرعًا بجسدِها وتقلَصتْ مساحة تنفسها، هناك خطأ ما في الحياة لم تنتبه له، كيف فاتَها حدوث كلّ هذه النوائِب والخطوب من دونِ أن تتعلم أو تسْتوْعبَ منها ما يَشدُّها ولو لبابٍ تتَسرَّب منهُ وتنْعَطِف بحياتِها من عالمِ الأموات والفقر، لقد كانت على قدرٍ كبير من الجمالِ والإثارة وقد اجْتذَبتْ العديد منهم، من بينهم تقي المُرجاني الذي ينَتمي لطبقةِ تجار البلد، لقد وقَعَ في هواها وسَحرَتهُ ولكن مُصيبَتُها أنها عرَفتهُ من بيت دلال القوادة، هَجرَها وسافر للدراسةِ في الخارج، وكان من أوائلِ الفتية الذين التحقوا بالدراسةِ بعيدًا عن الديار، ومن هنا لا يمكن للرجال أن يَلْتمُوا على المرأة، إلا أمثال صالح وإدريس الذيّن لا يعرفان شيئًا عن عالمها السري المُغلق... عقلها الآن توَقفَ عن التفكير بعد أن أدرَكتْ ما جرى لصالح على يدِ رفيقه إدريس، وفي رأسِها أسئلة غامضة وليست مُبهَمة! تظْهَر في هلوِسَته عن الجواهر والدانات واللؤلؤ ولكنها لم

تسْمَع منهُ شيئًا عن تلك اللآلئ التي حدثَها عنها صالح، ووَعدَها بألا يعود من الغوص إلا ومعه دانةٌ من داناتِ البحرين.

عندما بلَغتْ طريق أم حمار، وهي بدربِها لمنزلِ نرجس، بدأ رذاذ المطر، فابتَسمَت في داخلِها وفهَمتْ أن الشتاءَ هذا لن يتوَقفَ أبدًا. كان الطريقُ موْحلاً طوال الوقت ولم تغيّرهُ الشمس منذ أيام عدّة، شَعرتْ بأقدامِها تغوصُ في التراب، وصادفَها أحد الكلاب الذي توَقفَ فجأة بمُنتصفِ طريقها وكَشّرَ عن أنيابِهِ في وجهِها وراحَ يُزَمجرُ، لم تعبأ به وكأنها تَحَدثْهُ أن يُظْهر ما يَضْمره، فلم يعد يَفْرِق معها في هذا النهار، الكلاب عن البشر.

- كُلَهم بهائم، أليفة ومتوحشة.

قالت بصوْتِها الداخلي وواصلتْ طريقها لتُصادِفَ أحد البحارة وهو يَحملُ في يده سلَّة تقْطِرُ بالمياه، بدا لها أنه عائِدٌ من البحرِ ويحملُ حصادهُ من السّمك، ولم تتساءل إن كان في مثلِ هذا الطقس العويص هناك من يُبحرُ لصيدِ السّمك، لكنها أدْركتْ فجأة أن بعض البحارة يخرجون للمناطقِ القريبة والتي لا تَستَدعي مغامرة الإبحار، لجلبِ الأسماك الصغيرة من بطونِ مصائد الأسماك المُسماة بالحَضْرَّة وهي الطوْقُ المبني من الجَريد والقَصَب وتُقام بالمناطقِ الساحلية القريبة... تأمَّلتهُ وهو يَعَبر بسرعةٍ خاطِفة دون أن يَلتَفتُ نحوها.

- إنه يُشبهُ إدريس الملا...

قالت ذلك وهي تَحثُّ الخُطى تجاه مُنعطف طريق ضيقٌ مُختَصَر نحو منزلِ نرجس، يَمرُّ ببيوتِ السَّعفْ والتَنَك التي تَذكَّرتْ أنها سَكنَتْ في بعضِها عندما كانت بعهدَةِ من ادَعتْ أنَها والدتُها والتي تركَتها فيمّا بعد لجَدِها الذي تسبَّبَ لها بكلِّ ما جرى معها حين أرسلَها لتَخدِم في بعض المنازل وهي طفلة. تفاجأتْ لوهلَةٍ وقد تَفتحَ عقلها الباطن عن ذكْرياتٍ كانت قد دُفِنتْ منذ سنين. اسْترْجَعتْ في هذه الومضة الخاطِفة وقائع دَهشتْ من تواردِها الآن.

- هل أنا في طريقي للنهاية؟ هل هو دربي الأخير المسْدُّود؟ أين الفَرجْ يا الله؟ وإلى متى سأهْربُ من الدنيا ومن نفسي؟!!

"لم تستفيدي من جسدِكِ جوري، ولم تَفلَحي باستغلالِ فتْنَتُكِ... يا لكِ من غبيةٍ. كيف أمضَيتِ هذا الوقت الطويل دون أن تُدركي بعقلكِ أن الله منَحكِ نعمة وأعطاك ثروة، وهما جمالُكِ وفتْنتُك ومرَغْتيهُما بالوْحلِ في بيتِ دلال ومع أمثال صالح وإدريس؟ لماذا لم تُخْلَقي واحدة من تلك السيدات اللواتي خدمتي عنْدهُن؟ كلّ الرجال الذين صادفوكِ تمَنوك ولكنكِ أسَلمتِ نفْسكِ لهم بثمنٍ بخس... كانت فرصتُك عندما قَدمّكِ جدُكِ إلى أحد الربابنة واشْترطَ شيئًا لم تَفهَميه، ثم ترَككِ ورحل مقابل بضع روبيات، وعندما هاجمَكِ وكنتِ بعمرِ الرابعة عشر وانتزَعتِ السكينة وهدَّدتهِ لو اقترَبَ منكِ، وعدك لحظتها بالزواجِ منك، لماذا أسلمتِ نفسكِ له طوعًا ولم تقاومي وتساومي؟ لكنت الآن سيدة من سيدات مدينة المحرق، كتلك اللواتي خدمتي عنْدهُن".

حين بدأ الرذاذ يتحوَل لمطرٍ ساخط، التَجَأتْ إلى إحدى المباني المهجورة وانْزوَتْ في ركنٍ منها وجَلستْ على قطعة خشب من بقايا إحدى السفن الخَرِبة، جُلِبتْ للمكان. تنفستْ الصعداء والتَفَتتْ يسارها لتُفاجأ بكلْبةٍ بنية بَرزَت حَلَمات حليبها الناتئة، مُختَبِئة أسفل أنقاض كوْمةٍ من حجارةٍ وأخشاب وتحتها حفنة من جِرائِها، بدتْ الكلَبة هادِئة مُسْتسلِمة ولم تُكْشر بأنيابِها خشية من تهديد صغارها.

- هذه الكلبة تُشْبِهكُ جوري ولكنكِ بدون صغار.

زادَ المطر وبدأ الرعد يُزلزلُ ويَرجُ السماء والأرض...

- هذا المكان أفضلُ من البيت... ما الفرق بينكِ وبين هذه الكلْبَة جوري...؟ ما أدراكِ لعلَّها أفضلُ منكِ، فهي على الأقل لديها صِغارها ولن يُحاسبُها الله على خطاياها مثلمّا يُنْتظَر منكِ.

فجأة شَعرتْ بنعاسٍ وخِيِمْ، وإحساس بفراغٍ يمْلئُها من الداخلِ رغم بحر الأفكار الهائجُ بعقلِها، لم يعد لجمالِها مكانة ولا لجَسدِها قيمة، لم يعد هناك شيءٌ تبقى فيها، أدْركتْ للتوِ أن حياتها لا تتعدى حياة هذه الكلْبة الساكنة بجوارِها، لا تختلفُ عنها في المكانِ والزمان. ظلَّت مُحدِقةً في الكلْبَة وجِرائها، ونَسَت أنَها كانت بطريقها لمنزلِ نرجس، وغَفتْ بتؤدةٍ على صوتِ المطر والرعد...

❁❁❁

# 43

المكان-مدينة المحرق-الوقت-ليلاً-الحالة-عناقيد الشموع

عندما صحا إدريس مُثْخنًا بالوَهنِ عند الضُحى، كان لا النعاس لا زال يَغلقُ عينيه، ويَحدُّ من رؤيةِ ما حوله، بدا المكان على حالهِ منذ الليل، الطَبق والصينية وبقايا الأكل، تلفَّتَ حوله بغرابة ثم نهضَ ينْفضُ عنه الوَهنُ ويتَطلَّع للغرفةِ التي غَصَّت بالْمَعْمَعة، ظلَّ يتَلفَّت حوله، وكأن المرأة التي كان يتوَقَّعها موْجودةٌ أمامهُ، مختفية بزاويةٍ أو ركن من المكان... انْتصبَ وتوجه نحو الباب، فتحه ليتفاجأ بحيَّةٍ مُرقّطة تُولِى مُدْبِرة بسرعةٍ خاطِفة، شَهِقَ وتراجعَ نحو الخلفْ وصاحَ بصوتٍ باهتْ على جوري، كان المطر يهْطلُ خفيفًا متزامنًا بمفارقةٍ مع تسلّل ضوءٍ شحِيح لأشِعة الشمسِ من بين الغيوم.

- هل ذهَبتْ في هذا الطقسُ السيء إلى السوقِ لتفاجئُني بوجبةٍ دسِمة هذا اليوم؟ لقد كانت معي البارِحَة كريمة بكلِّ شيء، لقد فكَّتْ العُقدة وعَليّ أنا الباقي... بدأت تَمِيلُ إليّ، لماذا لم تُخبرني؟

- لأنكَ نائم إدريس...

سَأل وأجابَ مخاطبًا نفسه وهو ما زال ينظرُ للفِناءِ والمطر والسماء التي تَخفَت فيها الشمس بين الغيوم وظلَّ بعض الضوء يقاوم.

- سيَصحُو الطقس قريبًا، هكذا يبدو، عَليّ أنا بدوري أن أخرج وأُسعدُها بمؤنٍ تُعوّض فقدانَ كلّ شيء بالدار.

خرج بعد الظهر حين كان الجو مُعتدلاً وعادَ مساءً متأخرًا، قبل صلاة المغرب وقد واجههُ بطريق العودة طقسٌ آخر مختلفٌ، كان يحملُ معهُ رزْمَة صغيرة من سمكِ الصافي من بحرِ قرية سماهيج، مخْرُوطٌ بسلكٍ من سَّعفِ النخِيل، حملهُ معه وتَدلَى بيدهِ، كان يُوْزَّن ويُعْقَد بهذه الطريقة، اشتراهُ من ساحلِ سوق المحرق، وحين دَلفَ الدار، فوجئ بغيابِها عن المنزل حتى الساعة! كانت هذه المرّة الأولى التي تَغيبُ فيها دون أن تخْبِرهُ... خرجَ للفِناء وحَطَّ السّمك فوق حافَة العتَبة، انتصبَ متفكِّرًا عند الواجهة وراحَ يهْجِس ويُخمن...

- أين ذهبتْ يا إدريس؟ ترى كيف فعلتَها دون إذنٍ مني؟ هل كانت تفْعلُ ذلك مع صالح؟

انكَفأَ إلى داخل الدار، وعادَ بعد بُرهة، أشْعلَ قنديل الزيت ووَضَعهُ على صحنِ فخار قديم بقربِ حِزْمَة حِبال بجهةٍ من الفِناء، أخرج لفَّة سيجارة وأشْعلَها بعودِ الثقاب الذي نساه بيده وهو يتأمَّل حتى احترقتْ أصابعه فقذفَ به وهَجسَ في داخلهِ...

"كيف كان يتَصرفْ صالح معها بمثلِ هذه الحالات؟ لعلَّ بينهُ وبينَها تفاهمات وظلّتْ عالقة برأسِها ومضَتْ تتَصرفْ في ضوءِ هذه العادَّة... كيف تتَصرفْ معها يا إدريس؟ أنتَ الآن ببدايةِ تأليفَ علاقةٍ ودية، وتسَعى لكسبِ قلبها، وبالوقتِ ذاتهِ لا تُريد أن تتركْ لها منذ البداية الحَبل على الغارب... فَوّتْ لها الأمر ولكن على الأقل وجّه لها إشارة مُهذبَة تدُلْ على رغبتُكَ في أن تشاوركْ قبل أن تخرج أو تستقبل إحدى جاراتُها! حتى لا تتَمادى في الخروجِ عن طاعتُك... هذا على حدِ علمي بدأبِ النساء المصونات اللواتي يضْمِنَّ مشاعر أزواجهن... هل كنتَ، صالح، تتقبل منها ذلك؟ أم توبخها؟ لقد أطلعتني على كلِّ التفاصيل العميقة والدقيقة بينكَ وبينها، ونسيَّتَ مثل هذه الأمور الهامشية الصغيرة، هل هذه أمورٌ جانبية؟ أم أنها بدايةٌ لتَمرُّدٌ على سُلطَتُك إدريس؟"

ظلّ يحُدق بالنار المُستعِرة بالسراج في الفِناء، فيمّا تضاعفتْ برودة الطقس، وبدتْ نسمات الهواء تتَغلْغَل بفتحات القنديل وتتَحرَش بضوئهِ، راحَ يَحُكّ ذقْنَه ويَتقايَض الأفكار بين أصواته الداخلية التي اعْتادَت على الإِحْتِدامِ برأسِهِ والرواج فيه، وإحداث الضجيج به، حَدثَ له كلّ يوم بل كلّ ساعة يرى فيها إيمَاء أو حرَكة أو دلالة من جوري، فيَفْلتْ زمام تلك الأصوات وتغُورُ في عقلهِ ولا تسْجُو حتى يلمح وجه جوري وقد أسْتَتبَّ واسترخى. لم يعد يفهم نفسه أكثر مما يفْطُنُ لامرأتهِ، جرى بعقلهِ تحَوُّلٌ معقد، دفَعهُ لينسج فيه دوامَة من الأفكار، تارة يُفكر بأنها حزينة على صالح ولم يستطع أن يمْتصُّ

شجَنها رغم ما يبْذلهُ من عنايةٍ بها، ومرّة يُفَكرُ بأنها بدأتْ تَميلُ نحوهُ ثم سرعان ما يرى أن الوقت لم يَحنْ لذلك، ظلّ ينْبِشُ في رأسهِ عن أجوبةٍ أكثر ممّا يُفَتش في تصَرفِها معه... لم يرَّ منها سوى الاحترام والتَوْقير والاكْتِراثْ به، وهو في مُنتهى الهَناء من هذا السلوك، لكنهُ يعود ويُنقّبُ في تصرفاتِها عن جوْهر الحبَّ الذي يبحثُ عنه، يقنَع عقلهُ ساعة بأن الوقت ما زالَ بعيدًا عن هذا الشعور، ثم يرى الوقت طالَ على بدءِ إحساسهُ بعاطفةٍ منها نحوه... كانت دوامَة الأفكار، تضِيقُ وتتَسع كلّ يوم وكلّ ساعة بحسبِ ما يراهُ من مزاجٍ تنامْ وتَصْحوُ عليه.

عندما ارْتفعَ صوتُ أذان العشاء وانتبَه إلى أن الوقت تأخَر والدنيا قد أظْلَمَتْ وبدأ الليل يرفرف! لم يتَمالكْ نفسه، ارتدى سِترةً واقيةً من البردِ وخرجَ دونَ أن يَلْوِي على شيءٍ.

- حانَ وقتُ السؤال عن جوري!

❁❁❁

ليلُ مدينة المحرق يعود هادئًا، ناعسًا، بهذا الوقت من فصلِ الشتاء، غالبية السكان قابعين في دورِهم تحت وابل جَمْر الفحم يسْتدفئون وبطونهُم خاوية، سكان حي بو ماهر جنوب المدينة، ليلهُ مختلفٌ عن بقية الأحياء، فَقرهُ مُدقِع، وحزنهُ قاتم، وسكانه محبطون، مستسلمون لمصيرهِم كما دأبوا منذ مئات السنين، يُولدُ فيهم كلّ يوم الكثير من الأطفالِ، يُنثَرونَ بالعشراتِ في الأرجاءِ، لأنهم لا يجدون ما يعملونه طوال اليوم سوى أن يتضاجعوا

وينجبوا، لا تَفْرقْ بينهم الفصول، صيف أم شتاء أم خريف، في كلِّ المواسم تهْبطُ كائناتٌ صغيرة تُغْرسُ في الحي مع بقية الأحياء، حي بو ماهر يظلّ هو المُتوَحِّد في العزلةِ والكآبة، فالبحرُ الذي يفيضُ بموسمِ الشتاء، يقتحمُ بيوت العريش والتَنَك، ويعبر الحجيرات، يجْرفُ معه ما صادفَ من أثاثٍ متواضع يشبه العَدَم، سجادٌ متَهَرئ، أسْمالٌ بالية، أدواتٍ وخردوات وأطعمة فاسِدة، لا تصيبهم بأمراضٍ لأنها ألّفتْ بطونهم التي تظلُّ خاوية ثم تمتلئ بكلِّ شيء تلْتقطهُ إلا الطعام الذي يأكله سكان المدينة بقسمِها الشمالي...

- نأكلُ الخشب والقماش والسّمك المجفف وطحالب البحر، نتجرع مياه البحر، حين ينفد ماء الشرب...

هذا ما قالهُ بعضهم لسكانِ الطرف الآخر من المدينة حين سَألوهُم عن حياتِهم كيف تسير؟

الأنوارُ الوحيدة التي تُضيء منازلَ الحي هي أضواءُ الشموع، ونادرًا ما تلمحُ ضوءًا لقنديلٍ أو سراج، فالزيت الذي يَضْرم هذه القناديل لو توافر لهم لاحْتسُوه بدلًا من ضخِّهِ في المصابيح... وحدها جوري ربما التي ضَحتْ بطعام بطنها لتوفير زيت القنديل الوحيد الذي تُشْعلهُ بلياليِ الوحدة وتَسبحَ في ضوئهِ لتُسافر مع خيالها الجامحْ... كانت تعشقُ ضوء القنديل وتتأمَّل نورهُ عندما يشعُّ ويترك ظلالها على الحائط وهي تتحركْ فتشعر بالنشْوةِ التي لا تشعر بها على الإطلاق إلا مع نرجس التي عاشَرَتها وظلَّت مثل منارةِ البحر تُضيء لها محيطَ الحياة المحْصورَة في متعَةٍ جسدية مُحرَّمة.

غادرَ إدريس المنزل محتدًا ليبحث عنها، أين؟ لا يعلم، ولكنه خرج وفي أعماقهِ غضبٌ وميلٌ لصفعِها على وجهِها حتى لو فَقدَ وُدَّها، فقد أذلَّتهُ بتجاوزِها حدود حريتها، فكر وهو يقطعُ طرق وأزِقَّة الحي مصادِفًا بعض الأهالي يتطلعون في وجههِ بفضولٍ لمجردِ أنه زوج جوري، ما جعله يتساءل للمرّة الأولى، إن كان مُحقًا بحدَسهِ الذي غرَسَتهُ في رأسِهِ شكوك العجوز رقية وهي ترْفِدُ صالح بظنونِها المُريبة تجاه عفَّتها...

- تُرى هل كانت طوال حياتها عاهِرة ولم تتَوَقفْ عن تعاطي الدعارة حتى وهي تُمثِل دوْر العِفَّة، وتُوحي لي ليلة البارِحَة بالحبَّ والشهْوَة، وتُغريني بجسدِها المُحَرَّم؟

تساءلَ وقد بلغَ مسافةً عن منزل دلال القوادة وأول ما خَطَر ببالِهِ أن يذهب ويقترب من المكان ويرى إن كان بإمكانهِ أن يَلجَ ويُمثل دور الزبون الذي جاء يبحثُ عن المُتعة ليرى إن كانت زوجته هناك؟

لم يعبأ لبلَّلِ ثيابه، ولا لنظراتِ من يُصادِفه بالطريق، أدركْ وهو يلْهَث منذ استيقظ وذهبَ للسوق ثم عادَ أن وراء هذه المرأة عذابٌ وما رواه صالح عن رقتِها وعاطِفتها، ليس إلا غش، منذ أن اقترن بها لم يذق طعم العسل الذي حلم به، لم يحصد من ورائها سوى الانتظار والصبر والتَحمُل وقد رقَّ لها ولاطفَها وهاوَدَها في كلِّ ما تفعلهُ معزيًا نفسه الفوز بجائزةِ الجسد والفِتنَة، حتى حَلَّت عليه لعنة، أَفقَدَتهُ رجولته أمامها.

- لا شك أنها دَبَرَت وحاكتْ لي عملاً إبليسيًا أفقدني جَمرتي المُلتهِبة، وإلا ما الذي يُعلِّل ما وقَعَ لي فجأة وأنا بِداخلِها وكنتُ بأفضلِ حالٍ؟!!

اقتربْ من الباب واحْتارَ فيمّا إن كان سيقرَعهُ أو يقتحِمه، كان بابًا خشبيًا كبيرًا، تعلو طبقته العليا نقوشٌ خشبية تتَخلّلها مسامير ذات رؤوسٌ مُفلْطَحة، ذو ضفتينِ واسعتين وفي وسطَ أحدهما مدخلٌ صغير يتسعُ للعبورِ منه، عندما دفعَ منفذه الصغير وجدهُ مُحكمًا كذلك البوابة الكبيرة، رفعَ رأسهُ نحو طابقه الأعلى وتطلَّعَ للنوافذِ، وجدَ بعضها مُنارَة، وأدركِ بأن ثمة من يعيش بالداخلِ وتَعمَّدَ إحكام إغلاق الباب بوجهِ من يأتي دون ترتيب مسبق، أو لسبَّب حالة الطقس، حالَّتْ دون وجود حركة، وقبل أن ينكفأ عائدًا فُتِحَ الباب وخَرجتْ منهُ فتاةٌ صغيرة السِنّ بدت له وكأنها لم تتجاوز الثانية عشرة، أسْرَعتْ بالمشْي دون أن تنظر إليه، كانت ترتدي عباءةٌ سوداء ولم يَفلَح في رؤيةِ تفاصيل وجهها ولكنه لمحَ بشرتُها، السمراء الداكنة، كانت نحيفةُ البنية، طويلةُ القامة.

وقبل أن يقتَحم وراءها فاجأهُ فتى أسمرُ اللون، قصيرُ القامة حالَ دون اقتحامه المكان.

- من أنت؟

سألهُ الفتى الذي كان حاسِر الرأس وقد وبرزَ شعرهُ الطويل الناعم الذي كاد أن يُغطي جبهته ويَحجِب طرفًا من إحدى عينيه.

- جئتُ من أجل المتعة.

قهقه الفتى وصدَّ الباب في وجههِ وأحكم إغلاقه... وقفَ إدريس حائرًا لم يفهم إن جاء للمنزلِ الخطأ أم ثمة طريقة غير طريقته في الوصولِ إلى المكان، عادَ وتطلَّعَ للأعلى ورأى إحدى النوافذ وقد انطفأ ضوؤها، تنَهدَ ولبُرهَةٍ ظلَّ جامدًا بمكانهِ وحين بدأ المطر يشَتدُّ، عادَ مهروِلًا أدرجهُ وهو يُردّد:

- من يعلم لعلَّها عادتْ الآن إلى الدار.

غفى لساعاتٍ طويلة مُمتدَّة، بعد عوْدتهِ مُنهكُ، مُحبطٌ، من عدمِ وجودها بالدار، بدا المنزل خاوِيًا، وحدهُ فيه، مُبلَّل الثياب، ملطخٌ بالوحلِ، شعورهُ بخسارةِ كلّ شيء، شكوك وهواجس، وساوس بكلِّ زاويةٍ من رأسهِ، تأمَّل حال الفِناء والحجرة والسقف والفراش الذي كان ساحَةُ حلمهِ بالليلةِ المُنصَرِمة، مُبعثر وتعمهُ البطانيات والملابس على الأرض... شعرَ بدوارٍ سَبَّبهُ البرد الذي تغَلغلَ في عِظامه، أفكارهُ مُشوَّشةٌ فقد بوْصَلَة الفهم، لقد كانت جوري الليلةُ الماضية على أجملِ وألْطفِ ما تكون معه، منحتهُ جنة المُتعة لولا اخْفاقَهُ المفاجئ الذي لا مُبرّر له، وقفَ حائرًا يبحثُ عن إجابةٍ لكوْمةِ الأسئلةِ برأسهِ الذي أصابهُ الغثيان والدُّوار، لم تكن به رغبةٌ لفعلِ شيءٍ أو التفكير بشيءٍ، اسْتلقَى بيأسٍ على الأرضِ فوق السجادة الرطبة، وأغمضَ عينيهِ وغطَّ في حلمٍ طويلٍ مُتشَعب بالحوادثِ تخَلَّلتهُ صورة رفيق دربِهِ صالح الزري...

۞۞۞

# 44

المكان-جسر مدينة المحرق-الوقت-ليلاً-الحالة-عناقيد الثلج...

انطلقتْ بَغْتةٌ صافِرةُ إقفال الجسر أمام السُفن، وإعلان فتحه لعبورِ السيارات، انْتفضَتْ متفاجِئة، إذ لا تُوجد حركة للسياراتٍ بهذا الوقت من المساءِ. اِزداد البرد مع هبوب رياحٍ شمالية، وتَدفق الموج أكثر حدّة أسفل الجسر، فراحَ يرتَطم بالسِياج... تنَهَدتْ جوري وأمْسكتْ بيدها طرف عباءتَها التي حركها الهواء، وظلَّت جامِدَة في مكانِها... بدأ قلبها يخْفقُ وهي تتأمَّل سطحَ البحر الهائج... تداعَتْ الصور والذكريات بوَمضةٍ أخيرة وهي سارِحةٌ بمكانِها في وُجومٍ وذهُول يسريان بكلِّ عضوٍ في جسدِها.

لا تعرف سبَّبًا يُفَسر لها رؤية طائرة مُحلقة في الجو لأولِ مرَّة بحياتِها، جعلَها مُترَدِدة في روايةِ تلك الصورة لأحدٍ يمكنهُ أن يُصدقها، لا تستطيع وصفْ هذا الكائن الأسطوري الذي مَرقَ بوْمضةٍ خاطِفة في السماءِ مُخلفًا وراءهُ خيطًا من الدخان الرمادي، أشبهُ بحَبلٍ طويل امتدَّ على مدى النظر... عندما رَوَتْ المنظر لصالح بعد زواجها منه سَخرَ منها وقال عنها مُختَلقة، ولكنه عادَ بعد أيام من المقهى، وكان قد اسْتمعَ لرواياتِ الحرب التي نشَبتْ

في العالم وجَرَّتْ ذيولها إلى البلاد، فهم أنها رأتْ طائرةٌ من طائراتِ الجيش البريطاني... ما الذي أيْقظَ الآن هذه الصورة في ذهنِها؟ أنه رَمقُ الحياة! هذا الرَمقُ الأخير في عقلِ الإنسان المُحبَط اليائس من الحياة حين تتراءى له كلُّ الصور والتداعيات، طُرقٌ وأزِقَّة وأحياء وبشر، وجوهٌ وسُفن وبِحار ودكاكين... حتى أنها اللحظة تتَذكَّر أسماء الأحياء وتضاريسها، والأزِقَّة بقذارتِها ووَحْلها، كلّ عائلة وكلّ فرد منها وكلّ خادمة مثْلها رافقتها بالعملِ معها، كلّ سيدة دار أهانَتْها أو أشْفقَتْ عليها، وكلّ ربَّ أسُرة التهمها بنظراتِهِ الملتهِبة، أو تفَقَّدَها أو كالَ لها الأسئلة أو تجاهلَها ولم يلْحظْ حتى وجودها... وكلّ أحفاد رعَتْهم وحَمَّمتهُم وسخروا منها أو كلّ ذئب بشري ترصّد لها... سَرحَتْ في أمسِها كأنه يومها...

❁❁❁

فستانُها الرقيق الشفاف ذو اللون الأصفر الفاتح، عرَى كتفيها الأبيضينِ الناصعين، والْتصقَ بأطرافِ جسدها عند الخصر وأعلى الصدر، أبْرزَ نهديها الصغيرينِ الناتئين، وارْتفعَ عند ساقيها إلى ما فوقِ الركبة، وانسدل شعرُها البُني اللامع وراء ظهرها وعلى جانبٍ من كتفِها الأيسر، كان الفستان فيمّا مضى من الزمانِ، مِلكًا لأبنةِ ربَة الدار المدعوة فاطمة، منحتها إياهُ بعد أن اسْتغْنتْ عنهُ فأضْحى لائقًا بها أكثر من صاحبتهِ الأولى، فقد أبْرزَ مفاتنُ الصبية ذات الاثنتَي عشرة عامًا، وأظْهرَها كفتاةٍ يافِعة، تتَدفَّق أنوثة قبل أوانَها، وهي تتَمايل بفِناءِ دار الرُبان سليمان الهمام الذي تخْدمُ فيه وقد أتَّتْ

من وراءِ رقعةُ كومَة منازل التَنَك الفقيرة بحي بو ماهر الخلفي الذي تقْبعُ فيه هناك الأَسَر المُفكَّكة وغير المسْتقرَة، غالبيتُها لا تنتمي لشجرةٍ عائلية، تعيش في بؤرَةٍ مُعدَمَة، تخلى بعض أفرادها عن أبنائَهم بسبَّب الفقْر أو الفضيحة، جَلبَها من كانت تظنّ أنه جدَّها بعد وفاة من ربتها بحكمَ أمها البديلة.

صِباها اليافعُ ونمو جسدها السريع، ونتوءَ تضاريس جسدها، من الوجهِ ذي البشرة الطرية المُهيَّجَة، والقوامُ الرشيق والبِشرة الصَهْباءُ، ذات اللونُ البرتقالي عندما تتَهادى في ضوءِ الشمس، كان ذلك نقمة عليها، فقد كانت تقضي النهار بطولِهِ في فِناء الدار تغسلُ وتكنس وتسْقي الدجاج وتنشرُ ثياب الغسيل على الحَبل، تُسَفطُ السّمك وتُسْقي أشجار الحديقة وتنثرُ الحبوب للدجاج، ثم تعود وتلتقطُ الملابس الجافَة من فوقِ الحَبل وتظلّ تحت أشعة الشمس في الصيف وتحت وابلِ المطر في الشتاء، وكثيرًا ما كانت عُرْضَة لرجالِ البيت الذين لا يكفُون عن اسْتراقِ النظر إلى ساقيها وفخذيها بينمّا هي غارِقةٌ في العمل دون أن تنبهَ لتلك النظرات، وكثيرًا ما حدث أن زَجرتْها ربةُ الدار ونبهتها لسترِ عوْرتِها بينمّا هي تَخدم، ولكنها عادّة ما تسْهو عن ذلك في غمْرةِ انشغالها الدؤوب بالعمل، لم يحصل ان عَمدَتْ لذلك ولم تفتعل تلك الأوضاع لكنها تنْخرِط فيها دون وعيٍ منها وهي غارِقة منذ الصباح الباكر حتى المساء في العمل. لقد اكتَسبتْ ذلك العنفوان في الشُغلِ منذ نعومة أظافرها عندما اعْتنتْ بكلٍّ من حوْلِها دون أن تجد رعايةً من أحد، فقد

اعْتمَدتْ على نفسِها في غسلِ ملابسها وملابس غيرها وتحضير الطعام وسقْي الزرع واطعام الدجاج وتدبير حالتها مع الدوْرَة الشهرية، ورغم كلّ هذا الضَنك والكَدّ، لم تفقد الأمَل في رؤيةِ يوم سعيد يمرّ عليها ويمْنحُها شعورًا بأن الحياة تَخَبئ لها وراء الشمس مكافأةً تأتيها بيومٍ ما.

عندما كَبرتْ وأينْعتْ وتَخطَّتْ مخاوف التحرش والاغتصاب، ظنَّتْ أن نموَها وتفشِي جمالها بصورةٍ صارِخة ونضوج جسدها سوف يفتحُ لها باب الهَناءة ويَجلبَ لها الخلاص من خدمةِ المنازل ويَسدّ فجْوة الضياع، صُدِمتْ وتلقتْ لطْمَة قاتلة بحياتها، إن هذه النعمة الربانية في الخْلقِ أفْضَتْ لمحنةٍ قاسية لم تتوَقَّعَها عندما جَلبَ لها جمالها نِقمَة ضارية تمَثَّلتْ في مطارَدَة الرجال لها وتَعقُبها وهي ما زالت طفلة، لم تكن على وعيٍ بكيفيةِ تجنب تلك المحاولات وهي بهذا السِنّ المُبكّر، ولم تكن بدراية في التَخلص منهم وهي بسِنِّ النُضج، وأمام الفقر والجوع، أخَفقَت في استغلالِ هذه المِنحَة الإلهية بالزواجِ من ميسوري الحال أو حتى باستغلالهم، فَرَّطتْ في جسدِها من أجل حفنة روبيات أو جِراب رُزّ مع قبضة سّمك، واعْتقَدتْ أنها بملأ معدتها بالطعام اسْتطاعتْ أن تستثمر هذا الجسد... ظلّتْ على وعيِها المحدود هذا واسْتنْفذتْ كلّ ما في وسعها للبقاءِ بعيدةً عن المجاعة وأفلَحتْ في ذلك ولكن فَقدتْ بعدها فرصتها في تغييرِ حياتها التي انْتهتْ مؤخرًا عند قدمي إدريس.

عندما انْتزعَها جدُها من بيتِ التَنَك بحي بو ماهر، بجنوبي المدينة محاذاة الساحل، غرَسَها في عدّةِ منازل ظلَّت تتَنقَّل خلالها، لأسبابٍ عديدة، احيانًا لغِيّرةِ سيدة الدار منها وخشْيتُها على زوجِها أو أولادها، وقد اِتُّهِمتْ بالسَرِقَة، وهي بينها وبين نفْسُها تُدْرك أن تلك تُهْمَة لا تعرف من دَبرَها لها ومن المُحْتمَل بعض مثيلاتُها من الخدم ممن غِرْنَّ منها، وقد تركتْ العمل من تلقاءِ نفسها لدى تعَرضها المُتلاحقْ للتحرشِ ومحاولات الاغتصاب إلى أن وَقَعتْ في فخِّ القسْر وتمَّ اغْتِصابُها وظلَّت من يومِها مُتَكتِّمة على الأمر. كانت تلك السِّلْسِلة من البيوت التي عَبَرتْها، بمثابةِ رحلةٌ طويلة شاقة بدأت من منزلِ رُبانٍ سفينة إلى منزلِ طواش يتاجر في بيعِ اللؤلؤ، حتى منازلَ بعض الأَسُر الفقيرة اِضْطَرَّت للعملِ فيها مقابل قوت يومها، كانت تسمع خلال انْصاتِها لبعضِ الأحاديث بين أفراد هذه الأَسُر عن المدارسِ والدراسة التي راحتْ بعض الفتيات يلتَحقْنَ بها ورأتْ بأمِ عينيها بعضَهُنَّ وهن يذهبنَ ويجئن من هذه المدراس، يَحملنَ حقائب متنَوِعة لا تعرف ما تحتويه سوى أَنَهنَّ يتعلمنَ القراءة والكتابة. سألتْ ذات يوم إحدى الفتيات، ماذا يتطلب الأمر كي تلتحق هي بمدرسةٍ من تلك المدراس فرَدَّتْ عليها بأن الأمر يتطلب عائلةً فقط. عندها التَفتتْ نحو نفسها ونظرتْ أسفلُ قدميها وقالت في سرِها: أحتاجُ بداية لنعالٍ أحْتَذيها ثم أُفَتشُ عن عائلةٍ تأويني.

تَذْكُّرُ ذات يوم وهي بدارِ الرُبان سليمان الهمام، وكانت في بدايةِ صباها وقد ارْتدتْ ذلك اليوم المشئوم فستانًا أصفر اللون، خرجتْ خلالهُ كعادتِها كلّ

يوم إلى الفِناء منذ الصباح الباكر، كانت الرياحُ الشماليةُ الخريفية ترَفَرف بثوبِها وتلصقهُ على جسدِها وتبْرز ذلك دون إدراك منها كل فتنتها، ما لفتَ نظر الرُبان الذي كان خارجًا للفِناء وبيدهِ عباءةٌ بنية اللون وضعها على كتفهِ وحين شاهدها جَحظتْ عيناه، ودنَا منها وتلَفتَ حوله ثم رمقها بعينين حمراوين، وسَألها عن اسمها وعمرها ومنذ متى تعمل في الدار...؟ لم تكن تلك المرّة الوحيدة التي رآها فيها، فقد صادفَها مراتٍ عدّة ولم تلفتْ انتباهه ولم يتعرض لها، بل ولم يلْمحها ولكنه ذلك اليوم وهي بفستانِ ابنتهِ التي منحَتها إياهُ وارتدتهُ بأولِ نهار وخَرجتْ فيه مُبتَهِجة بتلك الصبيحة الخريفية، ورَفرَفَ فيه الهواء، جعلَها تبدو له مُخْتلِفَة... لم ينْبرِ لها كغيرهِ من الرجال ولم يصْدر منهُ أي أذى أو ما يُلمحْ إلى شيءٍ غير مألوف غير أسئلته الاستقصائية التي طرحها عليها ثم تركها ومضَى في طريقهِ، وما لم يخطر ببالِها ولا ببالِهِ تلك اللحظة أن سيدتَها ربة الدار زوجة الرُبان كانت ترْصدُها من نافذةِ الصالة الأرضية المفتوحة على الفِناء وكانت تُحدقُ نحوها وهي أمام زوجها تُجيبُ على أسئلتهِ، وحالمّا غادر المكان صَرختْ عليها واسْتدْعتها إلى الصالةِ وأمام ندتها الخادمة الأخرى راحتْ تصرخُ وتُزْعق عليها بكلماتٍ لم تفهم منها شيئًا سوى أنها ارْتكبتْ خطيئة، وحين سَمعَ بعضُ أفراد الأسُرة ومنهم ابنَها البالغُ من العمرِ التاسعة عشر وربمّا العشرون، وكذلك ابنتها الكبرى غير التي منحَتها الفستان ومعهما شقيقة ربة الدار نفسها، احتشدوا في المكان بينمّا كانت سيدتها تقوم بتمزيقِ الفستان الأصفر

من عليها وترَكَتها شبه عارية إلا من قميص داخلي أبيض اللون تمَزقَت أغلب أطرافه، ورَمتْ بالثوبِ بعيدًا وطلَبتْ منها جمع حاجياتها ومغادرة الدار حالاً.

لم ينْتَهِ بقية اليوم المشئوم عند هذا الحد من التعاسَة، فمّا أن توَجَهتْ لحجيرتِها الضيقة الكئيبة لجمعِ أغراضَها دون معرفةٍ منها إلى أين تذهب؟ فوجِئتْ بعد مدّة وهي تَعِدُّ الحقيبة بالابنِ المدعو محمد يقْتحمُ بتؤدةٍ وسرية المكان ويَغلقُ الباب من الداخل وسط دهشتها وفزَعَها من رؤيتهِ لها وهي بملابسِها الداخلية. لمَحتْ الشهوَة ونظرة الإفْتِراس فيه، وقد تَوَهَّجتْ بشرتهِ وبدت مُتوَرِّدَة وهو يقتربُ منها ويقول بنبرةٍ تلازَمتْ مع قبضة يده وبها بضعُ روبيات ورقية، حاول أن يجْعلَها نغمة ودية:

- خذي هذا المال مني نظير ما فلعتهُ أمي بكِ

ظنَّتْ لوهلةٍ أن الفتَى انكسرَ قلبهُ عليها إثر ما رأى من والدتهِ وما فعلتهُ فيها، وكانت لحظتها تقبضُ بيديها على صدرِها لسَترهِ، ولَمْلَمتْ ساقيها على بعضهما لتغطيتُهما، كانت مُرتبِكَة وحَرِجَة ومُذِلَة ولكنها تمالَكتْ نفسها ومدَّتْ يدها لتأخذَ المال من يدهِ فقبضَ عليها وجرَّها نحوه ورغم مقاومتها الشديدة ومحاولتها المُسْتميتَة للإفلاتِ من قبضتهِ المفْتولَة، إلا أنها خارَتْ ولم تستطع أن تصرخ أو تُوْلول حتى لا تزيد الطين بلَة بعدما جرى لها منذ قليل... خافَتْ إن أطْلقتْ صوْتُها ستكبْر الفضيحة، ولم تَرضَخ إلا حين شعرتْ به دون إرادة وهو يَغْرسُ عضْوهُ المشْدود فيها بِعنْوَة، ممزقًا ما تبقى من قميصِها الداخلي، وبعد أن أفاقَتْ وغادرها، أدْركتْ أن ما فعَلتهُ والدتهُ

بها حين مزقت فستانها أمامهُ وعرَتها وكَشفَت جسدها، ما أغْراهُ بوقتٍ سريع ودون انتظار منهُ، أن اقْتحمَ كوخها وفعلَ ما فعل... كان الفتى مفتولُ العضلات، قوي البنية، لم تستطع مقاومته، مع ما شعورها خوفها من الفضيحة...

كان ذلك هو الاغتصابُ الثاني الذي تعَرضَتْ له في حياتِها بعد رضوخها القسري لهُ وقد خرَجتْ بعدها من دار الرُبان حتى أنها نَسَتْ أو تعَمَّدتْ ترك حِفنَة الروبيات مكانَها على الأرض... غادرتْ بذِلِها ودموعها التي لم تهْطلْ بل ظلَّت مُحتَبسَة في مُقلتيها، ولاذتْ من المكان مُذْعِنة لقدرِها، ومن يومِها وحتى الساعة تتَذكَّر دار الرُبان سليمان الهمام الذي سمَعتْ به مرارًا، فيمّا بعد على لسانِ زوجها صالح الذي رَكبِ معه للغوص، ولم تجْرُؤ طوال حياتها معه على فتحِ تلك السيرة له رغم ترديدهُ أسم الرُبان أمامها باستمرار.

توالتْ تلك الصور أمامها وهي تقفُ الآن بقربِ جسر مدينة المحرق الذي يرْبطُ بينها وبين مدينة المنامة، وقد خيَّمَ الظلامُ وعمَّ الهدوء، باستثناءِ أضواءُ مصابيح الجسر وضوء منارَةٍ بحرية وبعضُ النجوم في السماءِ تبدو وكأنها توَزعُ خيوطًا من الضوءِ لمسافةٍ قصيرة... علاقتُها بالبحرِ والنجوم والليل، بدأتْ منذ سنين حين لجَأتْ لأولِ مرّةٍ إلى مرسَى قديمٍ مهجور بقربِ قلعةِ بو ماهر المُتصدِعة نصفُها، والمُطِلَّة على البحر، حيث تَرْكنُ هناك وكأنها تسْتندُ على الموجِ الأزرق الصافْي والنقي، وهو يَلطُمُ سياج الساحل الصخري، تظلُّ لساعاتٍ تَرْمقُ السُفن العابِرة وتتّفكَّر وهي تُحدقُ في أشرِعتِها تنفخُ فيها

الرياح وتجعلها تتَخبطُ يمينًا يسارًا، وحينًا آخر تتراقصُ عندما يدْرأ فيها الهواء، كانت متعةً وتَأمُّلاً وتنْفِيسًا وشكْوى تنْحُو بها للبحرِ، فهو الكائنُ الكوني الوحيد الذي تأتَمنُ إليه ويَنصتُ لها ويتلقى شكواها وتذمُرها وحتى سخطها، ترميه عليه، دون أن يَنكُفُ منها، وقد حثَّها ذلك على الاِرْتماءِ في احضانهِ دون أن تَكلْ أو تَملّ... كانت تخشَى أن يَملَّ البحر منها، فتنصرف لمراقبةِ السّمكات الصغيرة تلك التي تحُوم في أسرابٍ وطوابير منظمة أسفل حافَة البحر مع الصخر. كانت تنتقي ركْنًا من الساحل بعيدًا ولا يرتادهُ الفضوليين ولا تكون فيه عُرضَة للتحرش، حتى عندما اقْترنتْ بصالح، دأبتْ على اقتيادهِ لتلك الرقعة المخبأة خلف بقايا باحَة السفن المهجورة التي تصدَعتْ وخَرُبتْ وتفكَّكتْ أخشابُها فتحوَّلتْ لركامٍ تختبئ فيه الكلاب والقطط لتَدسُ فيها جِراءها.

حين تشعرْ بأنها منْبُوذَة ومُطارَدَة من كافةِ سكان الحي، تتسع دائرة مشاعرها، فيُخيَّل إليها أنها منبوذة من مدينةِ المحرق كلها، بل ومن الكون... ومن الله الذي تخلى عنها، فتلجأ إلى البحر، وإلى السُفن الغادِية والمُدبِرَة، ترْقب حركتُها وهي تتماهى مع الموج.

"إشعاعُ الليل يُداهِمُكِ جوري وذكْرياتُ مدينةُ المحرق المليئةُ بالحزنِ تتَدفقُ مثل رذاذ المطر، أزِقَّةٌ وطرقٌ متعرِجَة وسواحلٌ ملوثة، وبيوتٌ مهجورة، مراسي وسُفن خرِبَه مركونة، كلّ شيء يتداعى ويتلاشى، لا شيء يُنبِئُ عن تغييرٍ بالكونِ، ولا دلالة على وجود لله من حولي، فقد غابَ عن عالمي،

متى كان فيه...؟صالح وإدريس والربان سليمان، رقية ودلال وتقي... تقي هو المُنعَطف الذي افْرَطتُ فيه حياتي، وتَعرَّجَ مساري، لو كنتُ من أولئك النساء الأفاعي، لاسْتطعت استغلال عاطفتهُ وأغرقتهُ معي واسْتوْليتُ على ما يملك ولكن الله عندما خلقني لم يَزرعْ فيّ بذرةٍ شيطانية كما غَرسَها فيمن حولي، لقد خلقني على شاكِلةِ جوري الفطرية التي تتقبل ما يصنعهُ بها الآخرون حتى بلغتُ اللحظة حافَة هذا الجسر، أقفُ حائرةً بين نداءِ الموج الذي يُغريني بالتماهي معه أو الاستمرارِ بحياةٍ طُرقُها جميعها مسدودَة".

الليلُ يبسطُ سكونهُ في هذه اللحظة، ثمة بعض البحارة على مسافةٍ منها يقبعونَ على سطحِ سفينة من سُفنِ الصيد يشعلون نارًا في قارورةٍ معدنية كبيرة ويشْوُّونَ بعض الأسماك الصغيرة التي يصطادونها من نفسِ المكان، ورائحة تبغ مُحترق ينتشر ويحلقُ في الأرجاءِ، كانوا يتسامرونَ وكانت تنْصتُ لضحكاتِهم التي تخرجُ من أعماقِ أرواحهم الهائِمة بالشواءِ والتدخين وهم يتسامرون على سطحِ ذلك المركب القابع على مسافةٍ من الجسر، لم ينتبهوا إلى أن ثمَة امرأةً هنا على بعدِ خطواتٍ منهم منتصِبةٌ منذ فترةٍ طويلة بوجهِ الريح تناجِي الموج، وبعقلِها تحُومُ الأفكار الغامضة، عن الحياةِ والموت، تجثو على مُفترَقِ الطُرق ليس أمامَها سوى خطوةٌ واحدة عن البحر. البحر الذي هو أسُرتَها وجذورها وسَلْوَتها، لطالمّا اعْتبَرتهُ نعمة حين وُلدتْ وترَعْرعَتْ حوْلهُ، وتنَسَّمتْ رائحته وتذَوّقتْ ملحهُ واِسْتهْجنَتْ وَصمَهُ

بالغدرِ، كانت ترى الناس هم من خانوا البحر، عندما لم يتعلموا منهُ الإنْصاتَ لأمثالِها من اليائسين،

"صالح ذهبَ، ضحية وإدريس هو الآخر ضحية، وأنا ضحية الاثنين، وجميعنا ضحية المدينةُ التي لفظتنا ولم تفتح ذراعيها لنا كما فعلتْ مع غيرنا... لقد اختارنا الله نحن وسكانُ المدينة من أمثالِنا لنكون مثل طيور البحر التي لا تَلتقطُ أنفاسها إلا عندما لا تجد لها مكانًا على اليابِسَة، أنا واحدةٌ من هذه الطيورِ البحرية الهائِمة، الفرق بيني بينها أنني لا أملكُ جناحينِ للطيران وإلا لكنتُ الآن في مكانٍ آخر غير هذه الحافَة التي تدفعني لتركِ الحياة ونبذ المدينة التي نبذتني... إدريس قتلَ صالح من أجلي... يا لها من تضحيةٍ... هل أستَحقُ أنا أن يَقْتل رفيقٌ رفيقهُ لأجلِ امرأةٍ منبوذة من المدينة كلها؟ تضحيةٌ لا تستحقها من تقف الآن وترفضُ العيش في المدينة ذاتها التي رفضَتنا كلنا... لا تستهينين بنفسكِ جوري، لديكِ متَسعٌ في الحياةِ لتغييرِ مسارُكِ، ثمة فرصة لتبدئيِ من مكانٍ آخر مغاير، عودي أدراجكِ وغيري الدفَّة... أنا لستُ الله لأغير ما فرضهُ هو نفسه، من أنا حتى أُغيّرَ ما قدَّرهُ؟ أنتِ أخطأتِ الحكم على نفسكِ... جرفتكِ المدينة بقسمِها الجنوبي ما رأيك بالعيشِ في الشمال؟ هناك مساحةٌ لأمثالُكِ ممن يتمتعون بالجمال... لعنةٌ على الجمال، فقد جَلبَ الموتُ لأكثرِ الناس براءةً وفقرًا، لقد تسَبَّبتِ في موتِ البعض... بل البعضُ هم تسببوا في وقوفِكِ الآن هنا على حافَة الهاوية وتنظرين لموجِ البحر وتفكرين بالتخلي عن الحياة...

الحياةُ ملهمةٌ جوري ولو اخْترتِ المسارَ الصحيح لما بلَغتِ هذا المكان بهذه الساعة من الليل... عودي أدراجكِ وغيّري الطريق... إدريس؟ ماذا أفعل بعد أن قَتلَ صالح؟ كيف أعيشُ معهُ تحت سقفٍ واحد وأعرف أنه جاء على خلفية جريمة شنيعة لا أحتَملُ مجرد تخيّلها وأنا معه... هل أضاجعُ رجلاً قاتلاً؟ أنا من تسبَّبَ بقتلِ زوجي، وأنا من تسبَّبَ بقتلِ والدتهِ حماتي؟ وأنا من تسبَّبَ بهذه الفوضى... أنا من تسْتحقُ الموت قبل الجميع".

دنَت للأمام، والتَفتَّتْ ووقَفتْ على آخرِ طرفِ الحافَة ونظَرتْ لموجِ البحر، بقلْبٍ لا يخَفقْ هذه المرّة، ثم تأمَّلتْ نفسُها أمام البحر، كان الموجُ هائجًا بفعلِ الرياح الشمالية، بومضةٍ خاطفة اشْتَهتْ تذَوُّق طعم الثلج بهذا الطقس المُتَجَمِّد... خَطتْ... طَفقَت فقاقيعُ تصعدُ من أسفلِ الماءِ إلى الأعلى، ظلَّتْ تزدادُ وتغطي السطح ثم بدأتْ تتلاشى... رأتْ صورتُها منْعكِسةً في مرآةِ البحر... بقي ضوءُ طفيفُ يسْنُو بأعلى المَنارَة البحرية...

في هذه الأثناء انْطلَقتْ صافِرةُ الجسر لثاني مرّة في غضُونِ أقل من ساعة... كان من الغريبِ أن تنْطلقَ مرتينِ بوقتٍ مُتقارب، إلا إذا كان ثمَة شخصيةٌ كبيرةٌ وهامَة ستعْبرُ الجسر عن طريقِ البحر... تُرى من تكون بهذا الوقت؟!

❁❁❁

# للمؤلف

-(الخراف الضالة) رواية – دار الفارابي 2013 – القائمة الطويلة لجائزة الشيخ زايد الدورة العاشرة

-(يسرا البريطانية) رواية - دار الفارابي - 2015 القائمة الطويلة لجائزة الشيخ زايد الدورة الحادية عشرة.

- شهرزاد الحلم والواقع مسرحية مجلة الأقلام العراقية

- الصعود الى المنحدر الرمادي مسرحية مجلة الأقلام العراقية

- ابونواس يرقص الديسكو مسرحية... دار الفارابي- 1982

- فنجان قهوة للرئيس مسرحية دار الفارابي

- سينما التحولات دراسة نقدية لسينما يوسف شاهين- دار الربيعان للنشر والتوزيع - الكويت 1986

-كرة الرماد دراسة - وزارة الإعلام - البحرين

-الديمقراطية الالكترونية دراسة مؤسسة الأيام للنشر التوزيع البحرين - 1997

-الديمقراطية الانقلابية دراسة في مشروع الإصلاح البحريني- مؤسسة الأيام للنشر والتوزيع البحرين 2005

- بيضة القمر رواية - المؤسسة العربية للدراسات والنشر 2001

-قمر باريسي رواية المؤسسة العربية للدراسات والنشر– 2009

- الخراف الضالة رواية دار الفارابي - 2013

-يسرا البريطانية -دار الفارابي - 2015

-رقصة أخيرة على قمر أزرق رواية المؤسسة العربية للطباعة والنشر- 2016

- خريف الكرز – رواية دار الفارابي - حزيران 2017

-حرب البنفسج -رواية – دار الفارابي كانون الثاني 2018

-لص القمر - رواية دار الفارابي شباط 2019

- القرنفل التبريزي- أبو العلاء المعري وخليله دار الفارابي- رواية 2020

- ليلة الفلفل في لوغانو- رواية – دار اسكرايب القاهرة- 2021

- شاي مع ماريو فيتالي- رواية- دار اسكرايب- القاهرة 2022

- شارع النحس- رواية- دار اسكرايب القاهرة- 2022

- خريف العرش-رواية – دار اسكرايب للنشر والتوزيع 2023